الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر –باتنة-

كلية الأدب العربي والفنون

الخبر في الأدب المغربي القديم

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب المغربي القديم

إعداد الطالبـــــــة:

غقالي نجاة

إشراف الأستاذ الدكتور:

إسماعيل زردومي

السادة أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	الاســـــم واللقـــب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفـــــــة
01	عبـــد القـــادر دامخي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنـــــــة	رئيســـــــا
02	إسماعيل زردومي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنـــــــة	مشرفا ومقررا
03	مليكـــــة النـــــــوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنـــــــة	عضوا مناقشا
04	فاتـــــــح حمبلـــــي	أستاذالتعليم العالي	جامعة أم البواقي	عضوا مناقشا
05	سليـــم بتقـــــــــة	أستاذ محاضـــــر	جامعة بسكـــــرة	عضوا مناقشا
06	حوريـــــــــة رواق	أستاذ محاضـــــر	جامعة خنشلـــــة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية:1438-1939هـ /2017-2018م

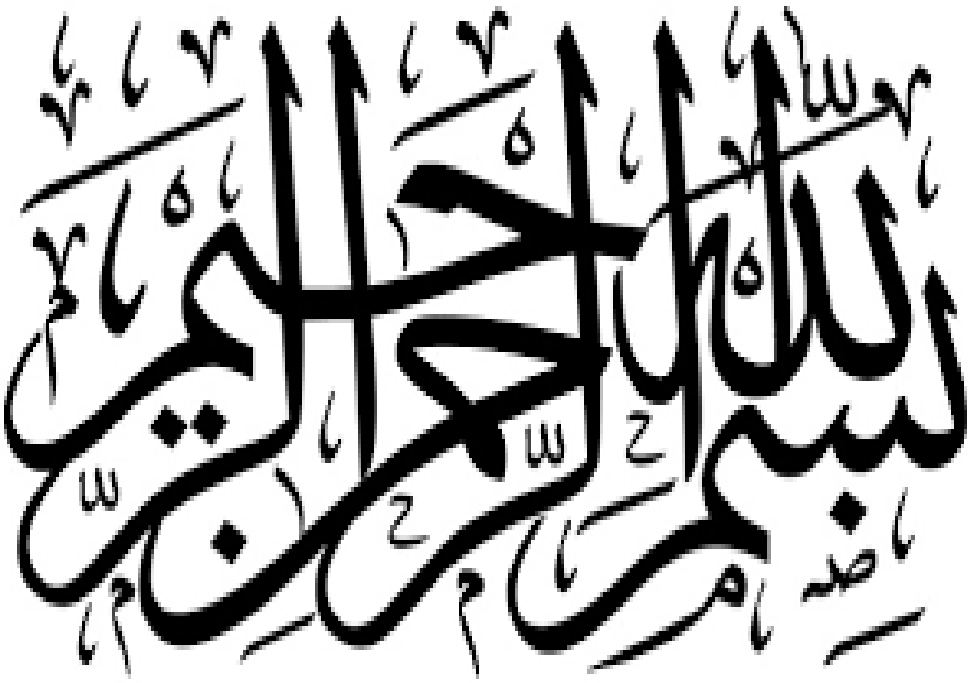
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يشكل الخبر المجال القصصي الواسع، الذي يمثل نموذجا حيا، من نماذج التراث النثري المغربي، إذ يمثل مصدرا تاريخيا لهويتنا، كما يعتبر حاجة فكرية، وثقافية استوعبها عقل الإنسان المغربي، وصيرها أداة لفهم الواقع، واستخلاص خباياه، ولذلك استطاعت الأخبار أن تحاكي الواقع العربي في المشرق والمغرب بجل مظاهره وأشكاله، عبر خطاباتها المتنوعة التي تمكنت أن تمثل الطباع وتصور العادات، وترسم خلجات النفوس، بهدف تهذيب السلوك، وترقيق القلوب، لتدفع الناس إلى المثل العليا من الدين والأخلاق والسياسة، وهو الأمر الذي جعلها تحظى بعناية خاصة من طرف المؤلفين المغاربة، حيث اهتموا بتأليفها وتضمينها مصنفاتها، المتشعبة المواضيع، في مختلف مجالات الكتابة النثرية: الأدبية، والدينية، والتاريخية، إذ تزخر مؤلفاتهم بأخبار أدبية كثيرة، غنية ومتنوعة، تتسم بالجودة، وتفيض بالمتعة والإفادة والأصالة، لا تختلف في مادتها وقيمتها عن غيرها من الأخبار، التي احتوت عليها مصنفات الأخبار للعرب المشارقة، بل تفوقها أحيانا.

وقد كان لمصنفاتهم تلك أثر كبير في حفظ معالم الأحداث، الحاملة لتجارب وخبرات، اختلط فيها اليومي بالمتخيل، بتلوينات وإشارات دالة الشيء الذي جعلنا نقف عند الخبر باعتباره فعلا قصصيا يجمع بين الإفادة العلمية، المتعلقة بالأحداث التاريخية، المحيطة بحياة شخصياته، والمتعة الفنية، التي تنبني على سحر الحكي وجاذبيته القائمة على الإثارة والتشويق.

وإذا كانت مصنفات المشارقة في مجال الأخبار، قد حظيت بعناية الدارسين في المغرب والمشرق بنصيب كبير من الدرس، فإن ما قدمه المغاربة القدامى من مصادر في هذا المجال يظل مغمورا، والخوض في ساحته على قدر كبير من العسر، حيث أهمله الدارسون وتحاشوا البحث فيه، لاعتبارات معينة منها الغموض الذي أحاط بمراحل نشأة النثر الأدبي، وقلة مصادر الأخبار الأدبية التي اهتمت بأخبار المجتمع المغربي وصعوبة الوصول إليها، فمعظم ما توصلنا إليه من مدونات اتجهت عناية الأدباء فيها نحو جمع أخبار تتعلق بالبيئة المشرقية، ولذلك فلم يبقمن نصوص الأخبار المغربية، سوى ذلك الجزء المعتبر الذي احتوت عليه كتب الطبقات والتراجم، حيث لايزال صامدا يقاوم عوامل النسيان، ويشهد على قدرة هذه النصوص على تصوير بيئة تلك العصور، برسم

معالم أحداثها، وفق علاقتها بشخصياتها المغربية، بالرغم من أن الكثير من المصادر المغربية لايزال مخطوطا دفينا لم ير النور، ومنه فإن كل هذه العوامل شكلت لدى الباحثين الجزائريين قناعة بأن البحث في الأدب المغربي القديم (الشعر والنثر) هو من قبيل المغامرة و التحدي، ولذلك فإن الخبر الأدبي على وجه الخصوص مازال بحاجة ماسة إلى الجمع و التحليل مما يمكن الباحثين في مجال النثر الأدبي من استخلاص صورة إجماليةواضحة عن هذا النوع النثري المغربي القديم.

في ضوء هذه الأفكار تشكلت عندي جملة من الأسباب دفعتني للإقدام على دراسة الخبر في الأدب المغربي بداية من القرن الخامس الهجري إلى غاية القرن الحادي عشر، توخيت من خلالها الاقتراب من بحث خصوصيات هذا النوع الأدبي وهي:

1-مساءلة مختلف نصوص الخبر الأدبي التي اهتمت بنقل تجارب الشخصيات المشرقية والمغربية، التي غطت مختلف مراحل الفترة الزمنية للبحث بهدف حصر إطاره النظري الملائم لصياغة الفرضية المناسبة لتجنيسه وتحديد أنواعه.

2- الاعتماد على هذا التحديد لتكوين مدونة علمية خبرية تقوم على وصف مصادر الأخبار المغربية من أجل تعريفها، ونفض غبار الزمن المتراكم عنها، بتحديد خصائصها المميزة، عن طريق استخراج أخبارها، وتصنيف أنواعها، بهدف تقديمها للباحثين لتكون لهم وسيلة تساعدهم للاطلاع على مختلف أنواع الخبر الأدبي، لتوظيفها في دراستهم التي قد تتعلق بها، كمساهمة بسيطة لإثراء المكتبة الجامعية الجزائرية التي تفتقر إلى هذا النوع من الدراسات.

3-توسيع مجال الاهتمام بالنص النثري المغربي والمساهمة في تحديد تصوراته بقراءة نوع أدبي محدد.

4-جعل الخبر الأدبي موضوعا لدراسة نصية تهتم بمكونات الخطاب السردي، وقوانين تشكله و بنائه.

وفي هذا السياق رأيت أن أبحث عن الخبر في الأدب المغربي اعتمادا على مبدأ منهجي يرى أن معرفة الجنس الذي ينتمي إليه في التراث المغربي ينطلق من النظر في مختلف النصوص التي احتوتها مصادر الأخبار، وهنا تواجه المرء قضايا عويصة لعل أهمها توزع الأخبار في آثار كبيرة متنوعة الأغراض، متشعبة المواضيع، منها ما يمت

بصلة إلى الأدب، أو النقد، ومنها ما هو أدخل في التاريخ، ومنها ماله بطبقات للعلماء والصلحاء نسب صريح، ولذلك قررتأن يكون مدار الدراسة على ما يتصل منها بالأدب القصصي بمعناه الواسع، جاعلة سمة القصصية التي تنبني عليها المعيار الدقيق، الذي سأعتمد عليه في استقرائها للتعريف بها، وتحديد أشكالها بهدف الكشف عن المرتكزين التجنيسين (المكونات والسمات) اللذين سيتيحان لي صياغة أداء إجرائي للتجنيس النقدي للخبر المغربي لأنه الكفيل- كما أعتقد- بمنح هذه النصوص صفة الهوية السردية، من أجل إعادة تصنيف أنواعها السردية، التي تندرج ضمن جنس الخبر الأدبي، على أن ما يتعين علينا إدراكه، حول المدونة التي قدمتها الدراسة أنني حين انتقلت لبحث أدبية النص الخبري، اتجه تركيزي نحو اختيار نماذج تتعلق بشخصيات مغربية، حاولت من خلالها إبراز الخصائص الجمالية المستمدة من خصوصية الجنس السردي للخبر في ضوء الأنساق الثقافية والفكرية المغربية العامة، التي انبنى عليها خطابه القصصي، ولذلك فإن هدفي لا يتعلق بدراسة الأنواع الخبرية، داخل كل كتاب دراسة شاملة، وإنما الأولوية ستكون لتلك الوحدات السردية، التي أطلقت عليها اسم الأخبار الأدبية المغربية، التي أتناولها بالتحليل والدراسة. وقد واجهتني في سبيل تحقيق هذه الغايةإشكالات متعددة كإشكال علاقة الخبر المغربي بالخبر المشرقي، وإشكال ما مدى تأثير البيئة في تحديد مغربية الأخبار، وإشكال كيف تأثرت الأخبار بالصراع الإيديولوجي السياسي في المغرب الذي أدى إلى انحرافها عن الموضوعية، وإشكال تصنيف الأجناس والأنواع السردية القديمة، وإشكال قراءتها وتأويلها، وإشكال علاقة الخبر المغربي بالنظريات السردية وما تثيره من تعارف سائد اليوم بين النص القديم و إشكال المنهج.

إن تقاطع هذه الإشكالات وتداخلها قد تنوء بحملها هذه الدراسة، غير أنها ضرورة أملتها علي طبيعة الموضوع، والغاية منه، فأنا أقارب جنسا أدبيا قديما، وأروم الكشف عن أدبيته وتصنيف نصوصه وتجنيسها، بهدف فهمه والإجابة عن إشكالاته، وإعادة التواصل معه بوعي جديد، حيث حاولت من خلال تحليل الأخبار رد الاعتبار للخبر الأدبي الذي عرف التهميش في تراثنا السردي، حيث ظل و لفترة قريبة، غير معترف به كجنس سردي، يستحق الدراسة، بل اعتبر مجرد نص يعبر عن ظاهرة أدبية قصصية قصيرة،

تحمل أبعادا جمالية ليس إلا وهو ما دفعني للبحث في الأخبار من خلال مؤلفات المغاربة بغية لفت الانتباه لشأنها الرفيع كما وكيفا، في الأدب العربي القديم.

أما بخصوص الدراسات السابقة، التي تناولت نفس موضوع البحث، فإنه بحسب علمي لم تظهر أية دراسة تتناول الخبر في الأدب المغربي القديم وكذلك لم نتوصل لوجود دراسة اهتمت بالخبر من خلال التعرف لأي مصدر من مصادر المدونة حتى تلك المؤلفات التي تعلقت بالأخبار المشرقية لم تحظ بعناية خاصة من طرف الدارسين في المغرب، والمشرق الذين قدموا قراءة سردية للخبر من خلال تسليط الضوء على بعض مؤلفات المشارقة في هذا المجال. ومن أهم الدراسات الأكاديمية التي قدمت في هذا المجال دراسة محمد القاضي الخبر في الأدب العربي بتحليل أخبار كتاب الأغاني من الجانب الإنشائي فتوصل إلى استخلاص أهم الجوانب السردية التي احتوت عليها بنيتها، ومن هذه الدراسات أيضا الكلام والخبر لسعيد يقطين التي حاول فيها تجنيس الخبر فتوصل إلى استخلاص الأنماط الأساسية الثلاثة التي تحدد علاقة الخبر بالتجربة والتي تنحصر في الأليف والعجيب والغريب. وكذلك دراسة سعيد جبار الخبر في السرد العربي التي اقتصر فيها على تحليل نصوص أخبار مؤلفات ابن الجوزي وذلك من خلال الكشف عن بنياته الحكائية، الموضوعاتية والسردية

وقد تألفت الدراسة من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

تركب الفصل الأول الذي اختص بالخبر و المدونة من عنصرين: الأول تناولت فيه مفاهيم الخبر اللغوية و الاصطلاحية، من خلال تتبع معنى لفظة الخبر في اللغة، و داخل مدونات الأخبار المغربية، ثم قدمت بعض التعاريف الحديثة للخبر، من خلال بعض الدراسات التي اهتمت بالتراث العربي. ثم انتقلت للكشف عن أهم سمات أشكال الخبر التي قدمتها مصنفات الأخبار المغربية لينتهي الفصل بتقديم اقتراح حاولنا من خلاله تجنيس الخبر الأدبي بمنحه صفة السردية لنصل إلى تحديد أهم الأنواع السردية للخبر المغربي (النادرة والمنقبة والكرامة) أما العنصر الثاني فقد حاولنا من خلاله تقديم وصف دقيق للكتب التي تشكلت منها أقسام المدونة وهي مصادر الأخبار المبثوثة، ومصادر الأخبار المستقلة، تم ذلك من خلال التعريف بها واستخراج أخبارها وترتيبها في جداول تشمل أنواع كل كتاب داخل المدونة.

واهتم الفصل الثاني: بالكشف عن البنية الحكائية للخبر المغربي حيث توصلت إلى وضع تصور إجرائي لوصف أهم البؤر الحكائية التي قامت عليها بنية الحكي داخل أنواع النصوص الخبرية، ثم انتقلت لتتبع اشتغال هذه البؤر من خلال تحليل نماذج دالة من كل نوع (النادرة والمنقبة والكرامة) لاستخلاص سمات هذه البنية الحكائية.

وخصص الفصل الثالث: لدراسة البنية السردية من خلال الكشف عن أهم العناصر التي تتشكل منها وهي:

1- بنية الزمان: اهتمت بدراسة الترتيب السردي للزمن من خلال تقنيتي الاسترجاع والاستباق .

2-بنية المكان: مفهوم المكان وأقسامه: المكان العام المفتوح، والمكان الخاص المغلق.

3- بنية الشخصية: مفهوم الشخصية، ثم التطرق لأهم أنواعها داخل نصوص الأخبار من شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية.

أما الفصل الرابع: فقد اهتم بدراسة البنية اللغوية انطلاقا من علاقة السارد بالحكي معتمدا على ضمير الغائب وتبيين دوره في صياغة الأساليب المباشرة وغير المباشرة بتوظيف التقنيات الزمنية لبناء الإيقاع السردي.

وانتهت الدراسة بخاتمة عرضت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، تلتها قائمة بأسماء المصادر و المراجع المعتمدة.

يمكن القول إجمالا إن تحليل الخطاب الخبري مكننا من اعتماد مجموعة من المناهج وهي:

- المنهج التاريخي: الذي استعنت به في محاولة لتتبع مراحل نشأة الكتابة الخبرية في الأدب العربي عامة و المغرب خاصة.

- المنهج الوصفي الإحصائي: وحاولت من خلاله وصف الكتب التي تشكلت منها المدونة واستخراج أخبارها مع تحديد المجموع العددي لكل نوع بدقة.

- المنهج البنيوي: وقد اعتمدت على جملة من المفاهيم النظرية السردية الغربية الحديثة التي جاءت في بعض الكتب المترجمة لأعلام من الغرب، أو احتوت عليها بعض الدراسات العربية للسرد العربي القديم والحديث واعتماد ما رأيناه مناسبا للوصول إلى

محاولة لتجنيس الخبر المغربي بوصفه نوعا من أنواع السرد العربي القديم، وكذلك استخدامها للكشف عن البنية الحكائية و السردية للخبر.

ومن أبرز المصادر الرئيسية التي اعتمدت عليها لإنجاز هذه الأطروحة، كتاب زهر الآداب للحصري، وكتاب اختيار الممتع للنهشلي، وكتاب رياض النفوس للمالكي، وكتاب معالم الإيمان للدباغ وابن ناجي، وكتاب بغية الرواد ليحي بن خلدون، وكتاب عنوان الدراية للغبريني، وكتاب البستان لابن مريم، وكتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان، وكتاب السيرة وأخبار الأئمة لأبي زكرياء يحي كما استعنت ببعض المراجع من بينها كتاب بنية الشكل الروائي لحسن بحراوي، وكتاب خطاب الحكاية لجيرار جينيت، وكتاب بناء الرواية لسيزا قاسم، وكتاب البنية و الدلالة لمرشد أحمد.

ولاشك أن الخوض في إنجاز بحث في مجال النثر المغربي المغمور يعد مغامرة لا تخلو من صعوبات وأهمها:

- ضياع مختلف مصادر مجمعات الأخبار الأدبية، التي اهتمت بنقل تجارب الشخصيات المغربية في ارتباطها بالبيئة التي نشأت فيها، مما جعل أمر التحدث عن مراحل تطور الكتابة التي مر بها هذا النوع النثري خلال الفترة الزمنية للبحث مبنية على التخمين والاستنتاج.
- كثرة نصوص الأخبار، وتوزعها في مصنفات تنتمي لحقول متباينة (الدين، التاريخ،الأدب) ولهذا لا أزعم الإحاطة الشاملة بكل جوانب الخبر الأدبي المغربي، بل اكتفيت باختيار نماذج منها على سبيل التمثيل محاولة الإلمام بالفترة الزمنية للبحث التي اتسمت بالامتداد.
- صعوبة تصنيف وتجنيس الخبر في التراث العربي نظرا لغياب نظرية عربية متكاملة حول الأجناس الأدبية.
- غياب منهج نقدي عربي يعينني على تقديم دراسة تطبيقية سردية للخبر المغربي، مما اضطرني لاستخدام مفاهيم ونظريات غربية اهتمت بتحليل نماذج من النصوص السردية الغربية.

وقد حفزني كل ذلكعلىبذل أقصى ما أملك من جهد من أجل إتمام هذه الدراسة، ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بجزيل الشكر إلى أستاذي المشرف الدكتور إسماعيل

زردومي، لما قدمه لي من مساعدة وعون كبيرين حيث كان حقا بتوجيهاته وملاحظاته خير سند لي في إصابة الهدف، إذ لم يكن يتوانى في قراءة ما أكتب، أو يتأخر في تقديم هذا المصدر أو ذاك، إلى جانب ملاحظاته القيمة لي، وتعليقاته التي أسهمت بشكل كبير في تقويم البحث فله مني أسمى عبارات التقدير والاحترام.

الفصل الأول: الخبر والتعريف بالمدونة

أولا: مفهوم الخبر

1- الخبر لغة:

ورد في المعاجم أثناء الكلام على مادة – خ ب ر – التي تناولتها بشيء من التوسع والتفصيل معنيين لكلمة " الخبر" هما " النبأ "و "الإعلام"، ومنه فالإخبار هو توصيل الحديث في القاموس المحيط «الخَبَرُ : النبأ ج أخبارٌ جج : أخابيرٌ ، وأخبَرَهُ خُبُورَهُ: أنبأه ما عنده ، والخَبْرُ والخِبْرَةُ : العلم بالشيء»[1]، وقيل في لسان العرب «خبر : الخَبيرُ: من أسماء الله عزّوجلّ العالم بما كان وما يكون.وخَبُرْتُ بالأمر ، أي علمته وخَبَرْتُ الأمر أَخْبُرُهُ إذا عرفته على حقيقته.وقوله تعالى : «فاسأل به خبيرًا»؛أي اسأل عنه خبيرًا يخْبر والخَبَرُ : بالتحريك: واحد الأخبار، والخَبَرُ : ما أتاك من نبأ عمن تَسْتَخْبِرُ إبن سيده : الخَبَرُ: النبأ والجمع أخبَارٌ وأَخَابِيرٌ جمع الجمع. وخَبَّرَهُ بكذا وأَخْبَرَهُ : نبأه واسْتَخْبَرَهُ: سأله عن الخبر وطلب أن يخبره ؛ ويقال :تَخبرتُ الخبر واستخبرته ، وتَخَبَّرْتُ الجواب واستخبرته؛ والإسْتِخْبَارُ والتَّخَبُرْ: السؤال عن الخبر.و في حديث الحديبية : أنه بعث عينا من خزاعة يتخبر له خبر قريش أي يتعرف يقال: تَخَبَّرَ الخبر واستخبر إذا سأل عن الأخبار ليعرفها ، وأَخْبَرَهُ خُبُورَهُ : أنبأه ما عنده ، والخَبرُ والخُبرُ، والخِبْرَةُ والخُبْرَةُ والمَخْبَرَةُ والمَخْبُرَةَ كله: العلم بالشيء؛ تقول لي به خِبرٌ»[2].

وليس في المعاجم التي بين أيدينا مدلول واحد للفظة [خبَرَ] أو لأحد مشتقاتها ، يخرج عن نطاق هذا المعنى الرئيس الذي يتصدرها ، لكنه مر بمراحل لتشكله فتفيدنا معاني مشتقات المفردة أنها مرت من المعنى الأول: الخَبَارُ: الأرض المنبسطة المنخفضة إلى المعنى الثاني وهو مجتمع المياه من الخُبُر: منقع الماء إلى المعنى الثالث فالخَبِيرُ: النبات

[1]- الفيروز آبادي ، القاموس المحيط، دار العلم للجميع بيروت لبنان، د ط ، د ت، ج2، ص 17.

[2]- ابن منظور، لسان العرب ، دار صبح بيروت لبنان وإديسوفت الدار البيضاء المغرب ، ط1، 2006م، ج4، ص10.

إلى المعنى الرابع الخفاء: فالخَبْرُ والخِبْرُ: الطرف الذي يحمل به الماء كالقربة إلى المعنى الخامس وهو الخابر المختبرُ: العلم بالشيء، وأخبره خبره أي أنبأه ما عنده إلى المعنى السادس فمادة خبر تفيد خلاصة العلم ودليله فهذه المعاني قد أنشأت علاقة دلاليه أثناء تشكلها معجميا، فمعنى يولد معنى أو يكون ذا صلة بالذي يليه ، أو يؤكد الاجتماع والسبب والنتيجة أو حتى التركيب الذي يوصل إلى المعنى الرئيس وهو الإعلام أو الإنباء..[1].«ومن اجتماع المكان المنخفض والماء والكلأ نشأ معنى رابع : الخفاء ولما كان المكنون مجهولا فقد غدا محتاجا إلى شيء من المعرفة والتجربة ليحاط به فنشأت من ذلك المرحلة الخامسة في مسيرة هذه المادة. وهي " العلم بالشيء " ومن هنا تولد المعنى السادس: خلاصة العلم ودليله أي الإعلام أو النبأ وهو من الخامس بسبب متين »[2].

وفي كتب البلاغة تناول البلاغيون المتقدمون مفردة [خبر] من حيث وظيفة الخبر في السياق البلاغي وهي الإخبار بغض النظر عن صدقه أو كذبه؛ أي اعتماد المعنى الرئيس للكلمة وهو : النبأ كوسيلة للإعلام أو الإخبار عن مضمون الكلام . أي أن الخبر في البلاغة مفهوم شامل يفيد أن «الخبر ما جاز عن قائله التصديق والتكذيب»[3].

فالعلاقة بين الخبر والواقع تقوم على التحقيق وإلى ذلك أشار هذا الخبر الذي وجدناه في إحدى مؤلفات الحصري يقول: « ولى المأمون القضاة [وولى يحي بن أكثم] قضاءهم، وقال: أكتم ما وليتك حتى آمرك بإظهاره ووضع عليه أصحاب أخبار فأتوا يقولون: إنه قد بلغنا عن يحي أنه يلي قضاء البصرة ، فقال له المأمون : كيف ذاع هذا الأمر؟ قال : أنا أذعته يا أمير المؤمنين، قال ولم ؟ قال : لأنه لا يستقيم كتمان سر إلا بإذاعة غيره وإلا

[1]- محمد القاضي ، الخبر في الأدب العربي ، دراسة في السردية العربية ، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان ، كلية الآداب منوبة تونس، ط1 ، 1998م، ص 46، ص47، ص48.

[2]- ن م، ص 48 .

[3]- أحمد بن فارس الصاحبي في فقه اللغة تحق: مصطفى السويمي، بيروت،1964 م، ص 197.

وقعت ظنون الناس عليه ، فانتشر مطويه قال: صـــدقت»[1]، فأصـــحاب أخبـــار : هـــم الأشخاص الذين كلفهم المأمون بنقل أخبار يحي بن أكثم،و التسمية مأخوذة من«الأَخْبَاري: بفتح الألف وسكون الخاء المعجمة وفتح الباء في أخرها الراء، هذه النسبة إلى الأخبـــار ويقال لمن يروي الحكايات والقصص والنوادر(الأَخْباري)..»[2].وتم التحقق من صحة ما نقله الأَخْباريون باستخبار قائل الخبر أي سؤال المأمون لقائله فاتضح أن الخبر كـــاذب ، والمراد من ذلك التمويه والتضليل ، يقول الجاحظ » طبع الإنسان على حـــب الإخبـــار والاستخبار ... ولذلك حبب إليه أن يخبر، ويستخبر، وأمر أن يخبر بـــالحق النـــافع، وأن يستخبر عنه»[3]

ويفهم من الكلام السابق أن القدامى قد فطنوا إلى صعوبة التخبـــر والاســـتخبار أي التحقق من صحة الخبر في بعض الأخبار التي تناقلتها الروايـــة ، وإلـــى ذلـــك أشـــار الحصري معلقا على أحد الأخبار « وأنا أبرأ إليك من عهدة هذه الحكايـــة ، وإن نقلتهـــا الرواية»[4] التي لا تخلو من إضافات واختلافات ، يقـــول الحصـــري أيضـــا: « وهـــذه الحكايات عن ابن الجصاص تنسب إلى غيـــره، والمحـــدثون مختلفـــون فـــي حكايـــاتهم ومضطربون في روايتهم»[5]. فالكثير من الأخبار حتى وإن تعلقت بشخصـــيات تاريخيـــة فهي تخضع أثناء روايتها (شفاهة، أو كتابة) لخيال الأَخْباري« يحملهـــا الـــولي والعـــدو والصالح والطالح وهي مستفيضة في الناس لا كلفة على سامعها من العلم بتصديقها »[6]،

[1]- إبراهيم الحصري، المصون في سر الهوى المكنون، تحق: النبوي عبد الواحد شعلان دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د ط ، 1990 م، مج2، ص 111.

[2]- عبد الكريم السمعاني، الأنساب، تقديم وتعليق عبد الله البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية، دار الجنان، ط1، 1998م،مج1، ص 94.

[3]- الحصري، المصون، ج2، ص112.

[4]- ن م،116.

[5]- إبراهيم الحصري ، جمع الجواهر في الملح والنوادر، تحق: رحاب عكاوي ، دار المناهل بيروت لبنان، ط1،1993م،ص 292.

[6]- ن م، ص 14.

فالقضية مرتبطة عموما بقضايا الصدق والكذب وعواملها في السرد العربي بصورة عامة والأخبار بصفة خاصة حيث مس الكثير منها الوضع والانتحال وذلك لأسباب ذاتيه أو موضوعية. سياسية أم دينية أم تربوية.، وفي هذا السياق نسوق مثالا من مقدمة كتاب " جمع الجواهر " يبدو فيه الوضع واضحا[1]، يقول«وقد تجنبت أن أهدي إليك ، ما يخرج به قائله في الدين عن اتباع سبيل المؤمنين .... حكى الجاحظ عن الشرقي بن القطامي : أن ابن أبي عتيق لقي عائشة رضي الله عنها على بغلة فقال : إلى أين يا أماه فقالت له أصلح بين حيين تقاتلا ، فقال : عزمت عليك إلا ما رجعت، فما غسلنا أيدينا من يوم الجمل حتى نرجع إلى يوم البغلة »[2]، ثم يعلق عن الخبر محذرا من سوء الرواية، وعدم إعطائها حقها من التثبت خاصة لما تتعلق الأخبار بأعراض الناس يقول «و هذه حكاية أوردها الشرقي لغله ودغله على وجه النادرة؛ لتحفظ ويضحك منها ، ويتعلق بها من ضعف عمله ، وقل عزمه ؛ فيكون ذلك أنجع وأنفع لما أراد من التعرض لعرض أم المؤمنين رضي الله عنها ، ومثل هذا كثير مما لو ذكرته لدخلت فيما أنكرته فقد قيل : الرواية أحد الشاتمين ، كما قيل : السامع أحد القائلين»[3]، فالخيال في الخبر ، بحسب اعتقادنا هو سر الخلاف بين العلماء في تحديد العلاقة بين الخبر والواقع (الصدق / الكذب) من الناحية البلاغية ، وقد بين القزويني ذلك قائلا« اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب فذهب

[1]- أنظر مسألة الصدق والكذب في السرد العربي القديم بالتفصيل في سعيد يقطين، الكلام والخبر، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان، ط1، 1997م ، ص 53 إلى 59، وفي الأخبار خاصة إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم الأنواع والوظائف والبنيات، منشورات الاختلاف الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت لبنان، ط1، 2008م، ص 57، ص 56.

[2]- إبراهيم الحصري، جمع الجواهر، ص 14 .

[3]- ن م، ص 15.

الجمهور أنه منحصر فيهما ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم صدقه مطابق حكمه للواقع وكذبه عدم مطابقة حكمه [1]».

وقد ينطوي الخبر على عناصر منطقية تجعلنا حتى وإن استخبرنا صاحب الخبر نقف عاجزين عن تحديد العلاقة بين الخبر والواقع، ومرد ذلك إلى اتساع موضوعات الخبر اتساعا يعسر الإلمام بها ، ولذلك يقدم " الحصري " في كتابه " المصون " الذي اهتم في الكثير من أبوابه بجمع أخبار أهل الهوى تعريفا يضيف إلى الحد الشامل عند أهل البلاغة عبارة توضح أن العلاقة بين الخبر والواقع ، في هذه النوعية من الأخبار تقوم على الكتمان الذي هو شرط من شروط الهوى ، فقد تخبرنا نصوصها بأسرار وحقائق لا يصدقها العقل يقول«حد الخبر ما جاز عليه الكذب ، ولم يعلم باطله من الحق فإذا نشر اللسان لطيَّ الكتمان ما ضمن لسر الحب دون إيضاح الضمائر ، ونطق السرائر ، غير مقبول عند العقول»[2]، أي أن سامعها غير ملزم بتصديقها ، بل إن موقفه منها متروك لتقديره ولظروفه وهذا وجه يستوي فيه العالم والجاهل.

أما في القرآن الكريم فقد وردت الكلمة بصيغة الإفراد والجمع بمعنى " العلم بالأمر" الذي يفيد " الإعلام أو النبأ " ومن أمثلة المعنى الأول قوله تعالى : «يومئذ تحدث أخبارها »[3]، فمعنى كلمة [(أخبارها)- جـ خبر] هنا يفيد " الإعلام" ، الذي تقوم به الأرض«أي التحدث بما عمل الخلق على ظهرها»[4]، أما المعنى الثاني، فيظهر في قوله تعالى: «إذ قال موسى لأهله إني ءانست نارا سآتيكم منها بخبر»[5]، معنى كلمة خبر هنا قريب جدا من معنى "النبأ " الذي يتوسل به الكلام ويستشف من المعاني التي وجدناها في

[1]- الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان) تحق : إبراهيم شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 2003م، ص25.

[2]- الحصري المصون ، ج1، ص 89.

[3]- سورة الزلزلة الآية 4.

[4]- إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن الكريم، دار الفكر، مصر، د ط، د ت، ج4، ص 539.

[5]- النمل الآية 7.

اللغة والقرآن أن: الأخبار هي أحداث الأشخاص الماضية وموضوعها أحوالهم وأفعالهم وما طرأ على حياتهم وأوضاعهم حسبما يتناقله الرواة مع اختلاف في الرواية ، ويتحدث به اللاحقون عن السابقين ممن شاهدوا ذلك الخبر أو سمعوه[1].

ورغم أن الدلالة اللغوية للمفهوم أسعفتنا بعض الشيء في استيضاح المراد الاصطلاحي بيد أنها تظل عاجزة وقاصرة وحدها في جعلنا ندرك تماما حقيقة الخبر ودلالته في علاقته بالخطابين الأدبي والنقدي ، حيث وجدنا الخبر فيهما يفيد معاني إضافية أصبحت لصيقة باللفظة كل اللصوق ، وقد يكون أول ما يجب القيام به في هذه الدراسة هو ضبط مدلول الاصطلاح ضبطا يعين لنا المبادئ الأساسية التي سنعتمد عليها في جمع الأخبار التي ستشكل مدونة الدراسة، وهي ما سيعيننا لاحقا في تحديد عناصر البنية السردية للأخبار في الأدب المغربي الوسيط بدقة ، فالضبط هنا ضرورة لا بد منها مما يقتضي إعادة قراءة للمفهوم في ضوء المصنفات المغربية للأخبار – باعتبارها المتن الذي سنشتغل عليه في هذه الدراسة – وكل ذلك سيتم بربط الألفاظ والمعاني التي تضمنتها للدلالة عليه بما جاء في الأبحاث والدراسات الحديثة.

[1]- محمد مخلوف ، شجرة النورالزكية في أخبار المالكية ، تعليق : عبد المجيد خيالي ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 2003م ، ص 43 وإبراهيم صحراوي السرد العربي القديم ، مج1، ص 52.

2- الخبر في مدونات الأخبار المغربية

" الخبر" «شكل أساسي من أشكال القص العربي القديم »[1]، واحتل على اختلاف موضوعاته مكانة بارزة في التراث المغربي منذ بداية الفتح الإسلامي للمغرب ؛ حيث أجمعت أقدم مصادر كتب الطبقات أثناء ترجمتها للفقيه " أبو عبد الملك الملشوني"[2] وابنه إسحاق[3] - أول من ألف في الأخبار زمن الدولة الأغلبية (18هـ / 296هـ)يقول المالكي « كان أبو عبد الملك الملشوني صاحب أخبار ومغاز وله كتاب كبير في أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم وفي البديء[4]»[5]. وقد تولى الابن وظيفة روايتها« قال أبو العرب : وكان أمراء بني الأغلب يرسلون إلى إسحاق فيكون عندهم في شهر رمضان ، فيحدثهم بتلك العجائب حتى يقطع بهم طول النهار.وكان ربما جالس سحنون بن سعيد »[6]، وبعدها مباشرة يذكر المالكي خبرا يدل سياقه على أن اهتمام أحد أمراء بني الأغلب بسماع " ابن الملشوني " جاء استجابة لنصيحة سحنون بن سعيد (تـ 240هـ) «حدث الشيخ أبو القاسم بن شلبون الفقيه ... فيما بلغه أن سحنون بن سعيد دخل على محمد بن

---

[1]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 432.

[2]- فقيه ومؤرخ مالكي ينسب إلى ملشون: وهي قرية للعجم فيما بين بسكرة وتهودة بالجنوب الجزائري قال أبو العرب:« حدث عن مقاتل بن سليمان وغيره، وحديثه يدل على ضعفه، ما يحتاج إلى معرفة حاله بأكثر من روايته » له مؤلفات في التاريخ والمغازي والأخبار العجيبة لكنها ضاعت كلها ولم تصلنا. أنظرأبو العرب محمد بن تميم ، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحق : علي الشابي ونعيم حسن اليافي ، الدار التونسية للنشر تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط2 ، 1985 م، ص 180، ص181. وعبد الله المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ، ط2 ، 1994 م،ج1، ص 401 .

[3]- من فقهاء المالكية له معرفة برواية الأخبار التي حفظها من كتب والده جالس الإمام سحنون وأخذ كل منهما عن صاحبه، ثم كان نديما لأمراء بني الأغلب خاصة سادسهم محمد ابن الأغلب (تـ242 هـ) ونص الخبر أعلاه يوضح ذلك، أنظر أبو العرب، نفسه، ص 181، والمالكي ، ن م، ن ص .

[4]- (بدأ): أمر بديء : عجيب أنظر ابن منظور لسان العرب، ج 6، ص333 ، والمالكي، رياض النفوس، ج1، هامش رقم 3، ص 401.

[5]- ن م، ن ص.

[6]- ن م، ن ص.

الأغلب الأمير أول يوم من شهر رمضان ، فألفى الأمير خاليا فقال له: أراك أيها الأمير خاليا فقال: نعم ، انفردنا في هذا الشهر المعظم وخلونا فيه وتركنا ما كان لغير الله عزوجل، فقال سحنون : فأين أنت أيها الأمير من إسحاق بن الملشوني يحدثك بأخبار الأمم السالفة والأعوام الماضية؟ فأمر بإحضاره وكان ... يحضر في كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان. فلما رأى هلال شوال خرج الحاجب إليه فقال:انصرف[آجرك الله] »[1].

وعلى هذا النحو من الشواهد الخبرية التي تضمنتها التراجم تحدد لنا كتب الطبقات أن القرن الثاني الهجري ، هو الزمن الأول للتأليف الخبري الذي أفرز كتاب أخبار في عجائب الأمم السابقة ، وإن كان الكتاب قد ضاع ضمن الكتب المغربية الضائعة ، إلا أن مضمون الخبر استطاع أن يصور لنا أن الجزائريين القدامى اهتموا بالتأليف في الأخبار وحاولوا من خلال النزوح إلى مراكز الخلافة والتقرب من العلماء والأمراء بحفظها ونشرها بينهم في مجالسهم الخاصة وقد روى "الحصري " في كتابه " زهر الآداب " قال: « قال الحسن بن سهل : الآداب عشرة ؛ فثلاثة شهرجانية وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن؛ فأما الشهرجانية فضرب العود، ولعب الشطرنج، ولعب الصوالج. وأما الأنوشروانية فالطب، والهندسة ، والفروسية. وأما العربية فالشعر والنسب، وأيام الناس، وأما الواحدة التي أربت عليهن : فمقطعات الحديث والسمر، وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس »[2]، أي الأخبار التي تتمثل في نتف الأحاديث التي تتداول بين الناس من خلال المجالسة بغرض التسلية لقطع طول النهار في رمضان، أو الليل في

[1]- المالكي، رياض النفوس، ص 402.

[2]- إبراهيم الحصري ، زهر الآداب وثمر الألباب، تحق: صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية بيروت لبنان ، ط1، 2001م، مج1، ص 193.

سائر الأيام وهو ما جعل " السمر " أي « الليل وحديثه [1]» يتفوق على سائر الآداب العربية من حيث الانتشار والشيوع بين مختلف فئات المجتمع العربي.

وهو ما قد أدى إلى تفرد حضور " الخبر" في المدونات العربية والمغربية ، بجانب الشعر واضحا. مقابل غياب أجناس وأنواع أدبية أخرى «وبهذا نجد أنفسنا أمام نتيجة لا بد لنا من الإقرار بها هي أن المشافهة وإن كانت ألصق بنمط العيش الجاهلي البدوي لم تضمحل باشتداد عود التدوين واتصاله بانتشار نمط العيش الحضري الذي بدأ مع الدولة الأموية وتعزز مع الدولة العباسية. إن تغير نمط الحياة الاجتماعية للعرب لم يصحبه انقلاب في النمط الاجتماعي للمعرفة ولم تواكبه قطيعة تامة بين النمطين، بل كان التعايش بينهما غالبا»[2].

ومن ثم أصبح الخبر هو الجنس السردي الذي أمكن تعاطيه تبعا للموجهات التي فرضها التعايش بين المشافهة والتدوين. ويجوز لنا أن نثبت من خلال ما جاء في قول كل من أبي العرب والحصري الذي أكده مضمون خبر المالكي كما مر سابقا ؛ أن هناك توافقا بين المشافهةوالتدوين : فالأخبار التي نقلتها الرواية الشفوية وتم تدوينها تتحول أسمارا تتواصل في الروايات الشفوية بحيث يكون المرور من مجال إلى آخر عملا طبيعيا . فلا يمكن لأي شكل آخر من السرد أن يلقى رواجا دون خضوع للرواية الشفوية، فلأمة الإسلامية كانت تعيش مرحلة الانتقال من مرحلة حضارية (الشفاهية) إلى مرحلة أخرى (الكتابة) التي أسس لها الإسلام بفرعيه وحث على ممارستها في الحضارة العربية. وهذا ما يفسر ظهور الخبر الواحد في أكثر من كتاب.

إن التحول من نمط المشافهة إلى التدوين الذي أصاب المجتمع الإسلامي بظهور التدوين الذي تطور وازدهر خلال القرون الهجرية الثلاثة أدت إلى شيوع الخبر وانتشاره

[1]- ابن منظور ، لسان العرب، ج6، ص 336.

[2]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 160.

وهو ما ينم على أن التدوين لم يستطع أن يسد مسد الشفهية مما يدل على أن الأمة مازالت تعيش مرحلة البداوة الشفهية فأصبح « الخبر أحد مصادر المعرفة »[1]؛ لذا جعل "ابن خلدون" تلازم حضور الخبر بجانب الشعر في الكتب الأدبية أمرا ضروريا يقول:«فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة ، من شعر عالي الطبقة والسجع ، ومسائل اللغة والنحو ... وبعض أيام العرب ... والمهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة والمقصود بذلك كله أنه لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليب ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه»[2]، فالأخبار إحدى مكونات الأدب الأساسية إذ يقول بعد ذلك بقليل إن العرب إذا أرادوا حد هذا العلم قالوا :«الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها »[3]فللأخبار في المدونات العربية مكانة مهمة ، بوصفها وسيطا معرفيا بين الماضي والحاضر، مختزلا لموروث العرب الثقافي وتجاربهم « فالأخبار هي المادة الرئيسية والركيزة الأساسية للرواية العربية ، وفيما بعد للكتب والموسوعات العربية الكبرى منذ فجر التدوين والتأليف»[4]؛ فكثرت كتب الأخبار وأصبحت من المصنفات الأدبية الجديرة بالاهتمام ولاسيما أنها كانت من الأساليب البلاغية التي اعتمدها القدماء في ترويج مدوناتهم ونشرها يقول الحصري مفتتحا الحديث عن كتابه " زهر الآداب" « فهذا كتاب اخترت فيه قطعة كاملة من البلاغات ؛ في الشعر والخبر ، والفصول والفقر ، مما

[1]- محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط3، 1993 م، ص 35.

[2]- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، تحق: علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة مصر، 2006م، مج3، ص 1139.

[3]- ن م، ن ص.

[4]- إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنيات، منشورات الاختلاف الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت لبنان، ط1، 2008م، ص 53.

حسن لفظه ومعناه»[1] وهو ما جعل الخبر يتطور ليصبح الحامل المركزي للثقافة العربية التي شكلت الوعي الأدبي لما بعد مرحلة التدوين.

وقد كثر التأليف في الأخبار عند المغاربة قديما ، فلا مجال للشك أن تكون هناك مدونات سردية مختلفة ضمت في محتواها أخبارا أدبية متنوعة تؤكد وجود القص في تراثنا المغربي ، ولكن المتصفح لهذه المدونات لا يظفر بتحديد واضح لمفهوم كلمة– خبر- حيث إن الحديث عن الخبر عادة ما كان يتم في إطار التعبير عن التنوع والغنى الذي ميز التراث النثري العربي يقول الحصري في نهاية كتابه المصون متحدثا عن زهر الآداب«كتاب جامع للأبواب مشتمل على فنون التأليف ...و أنواع التصاريف في مختار أخبار المتأخرين منهم والمتقدمين وأحوال المشهورين والمغمورين ، مفصل ببديع الشعر، ورفيع النثر ، وإحكام الرصف وإتمام الوصف »[2] ، فالخبر هنا يرد باعتباره فنا جامعا لمجموعة من الأنواع الأدبية دون العناية بتوضيح ملامحه وخصوصياته ، وإذا انتقلنا إلى تتبع مفهوم الخبر داخل متون الأخبار نجد أن هذه المؤلفات لم تحتف بتوخي الدقة في توظيف لفظة خبر داخلها ، للفصل بينه وباقي مفاهيم الأجناس السردية الأخرى التي تختلف عنه في الشكل وتقاربه في الوظيفة إذ لاحظنا ورود كلمة خبر داخل متون الأخبار إلى جوار كلمات أخرى من قبيل (الحديث ، والحكاية ، والنادرة ، والطرفة) وهي مصطلحات تستعمل أحيانا بعضها مكان بعض .

وجاء توظيف كلمة [خبر] داخل متون أخبار كتب الطبقات والتراجم ، وبعض كتب التاريخ مرتبطا في الكثير منها بالحديث الذي يعني كما هو معروف « كل ما نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير »[3] ويرجع إلى أن الخبر نشأ

[1]- الحصري ، زهر الآداب، مج1، ص 21.

[2]- الحصري ، المصون،ج2، ص 200

[3]- إبراهيم أنيس وآخرون ، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط2، دت،ج1، ص 160.

نشأة دينية فكان الدافع إلى ظهوره هو الخوف على كلام الرسول صلى الله عليه وسلم من الوضع والتغير[1] وقد تركت هذه النشأة تأثيرا واضحا في الشكل الفني للخبر داخل هذه المؤلفات فالأخبار دائما تحدث عن شخصيات وتحوي أحاديث تناولها بعضهم في مناسبة ما ، ثم وعتها الذاكرة وعبرت عنها عبر وسيط هو المحدث (الإخباري) الذي يشترط فيه الدقة في النقل والتدوين ، وهي ميزة مشتركة بين الخبر والحديث النبوي ، غير أن الوظيفة المنوطة بالسند تختلف فيهما ، لأن وظيفة السند في الحديث النبوي هي التحقيق ؛ أي البرهنة على مصداقيته من أنه صدر عن الرسول (صلع) فعلا ، أما في الخبر فتوظيف السند في هذه المؤلفات هو وسيلة للمشاكلة أي إيهام المتلقي (القارئ أو السامع) أن الأحداث والأحاديث التي كان مدار الخبر عليها ممكنة الوقوع في الحياة الواقعية[2]. أو ربما سمي بذلك تعبيرا عن صفته الشفوية لأن الكلام اليومي العام والخاص المتداول بين الناس شفاهة يسمى الحديث.

كما ورد " الخبر" في بعض هذه المصنفات – أيضا – مرتبطا با " الحكاية "حيث لاحظنا أن هذه اللفظة كانت حاضرة بقوة في المؤلفات التي ألفها أدباء العصر المشهورين بشكل خاص وسنحاول هنا أن نقدم صورة عامة حولها : ففي كتاب " أزهار الرياض في أخبار عياض " يحدد المقري في المقدمة محتوى الكتاب قائلا : « وقد ذكرت في هذا الكتاب حكايات مختلفة وفنونا مفيدة يزداد بها الناظر معرفة حسبما جرت عادة كثير من الأئمة في مصنفاتهم ومجالس درسهم »[3].فالمتن يتعلق كله بعياض ويحيل عليه في العنوان بلفظ أخبار أولا ، ثم ينتقل ليسمي ذلك حكايات وفنونا مفيدة . أما زهر الآداب

[1]- عبد الله إبراهيم ، السردية العربية ، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان الأردن، ط2، 2000م، ص 40.

[2]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي ، ص348، ص 333.

[3]- أحمد المقري ، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحق: مصطفى الستار وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، طبع صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات المتحدة، د ط، 1980م، ج1، ص 21.

الذي أخبرتنا بداية مقدمته كما مر بأنه كتاب فيه قطعة مختارة من البلاغات في الخبر والشعر. نجد في نهايتها أن المؤلف ينتقل ليعلمنا أن أهم ما جاء في اختياره من الأدب هو من الشعر والحكايات يقول« وقد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظات ويمر البيت في خلال الأبيات ، وتعرض الحكاية في عرض الحكايات يتم بها المعنى المراد »[1]. فهل ما سيتم بسطه في الكتاب من اختيارات نثرية هي من البلاغات في الخبر أو الحكاية ؟.

إن هذا الالتباس في استخدام مفهوم الخبر بداية من المقدمات ، يدفعنا للانتقال لتتبع توظيف الخبر والحكاية داخل هذه الكتب ، حيث وجدنا أن دائرة الالتباس ستضيق عند بعضهم لتوظيف ما هو مترادف فيظهر لفظ القصة بجانب الحكاية للإحالة على مفهوم "الخبر "، ومن أمثلة ذلك قول ابن رشيق« ومن عجيب ما روي في البديهية حكاية أبي تمام »[2]وكذلك قول المقري« ومن ذلك قصة الجوهري التاجر »[3] ، وهو ما دفعنا لنضيف إلى عملية التتبع مصطلحا جديدا هو " القصة ". علنا نصل إلى بعض الإيضاحات التي ستعيننا لوضع حدود نسبية بين هذه المصطلحات، لرفع الالتباس عن مفهوم الخبر.

ولذلك سنركز على تتبع كل من " الخبر ، الحكاية ، القصة " داخل هذه المؤلفات من خلال رصد تواتراها فيها بدقة مختصرين ذلك في الجدول الآتي :

الكتاب	الألفاظ المستعملة	عدد تواتر كل لفظة
اختيار الممتع للنهشلي	الخبر،الحكاية، القصة	8 ، 1، 1
المصون في سر الهوى للحصري	الخبر،الحكاية، القصة	10 ، 5 ، 1

[1]- الحصري، زهر الآداب، مج1، ص 25.

[2]- حسن بن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحق: عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية بيروت لبنان ، ط1 ، 2001 م، ج2، ص 173.

[3]- أحمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحق : عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، نشر اللجنة المشتركة للتراث الإسلامي المملكة المغربية الإمارات العربية المتحدة، ط1 ، 1980م، ج5، ص 123.

زهر الآداب //		الخبر،الحكاية	22، 5
النورين //		الخبر	3
جمع الجواهر //		الخبر،الحكاية، القصة	10 ، 12 ،1
العمدة لابن رشيق		الخبر،الحكاية، قص	6 ، 16 ، 1
أزهار الرياض للمقري		الخبر،الحكاية، القصة	6 ،18 ، 3
المجموع	7	-	65 57 7

نلاحظ من مجموع تواتر الألفاظ المستعملة أن لفظ "الخبر" هو الأكثر تداولا في هذه المؤلفات، وحضر فيها بصيغة المفرد والجمع أو من خلال مشتقات الأفعال الدالة عليه.ويليه مباشرة لفظ الحكاية بصيغة المفرد والجمع وفعله حكى وأخيرا لفظ القصة وفعله "قص" فكان الأقل استعمالا حيث لم يتعد في أكثر الأحيان العدد – 3-.

-نستخلص من خلال هذا وبالنظر إلى اختلاف عدد تواتر الألفاظ الثلاثة من كتاب إلى آخر، أن مؤلفي المصنفات الأدبية قد استخدموا لفظ " الحكاية " للدلالة على الخبر بشكل واسع ، بالرغم من أن بعضهم حاول تضييق دائرة هذا المفهوم لتوظيف لفظ يرادفها ويقاربها في الدلالة هو " القصة " «فالخبر هو اللفظ الجامع الذي يمكن أن يستوعب ولو نسبيا معاني من القصة والحكاية في نفس الآن ، إذ أن الخبر هو النواة المركزية التي يقوم عليها كل عمل حكائي أو قصصي »[1]، فتعرف الحكاية على أنها « تراكم لمجموعة من الأخبار المتصلة »[2]،وما القصة إلا « رواية خبر أو سرد حكاية أو تصوير حدث

[1]- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي الثوابت والمتغيرات، نشر المدارس الدار البيضاء المغرب، ط1، 2004م، ص32.

[2]- سعيد يقطين، الكلام والخبر ، مقدمة للسرد العربي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ، بيروت لبنان، ط1 ، 1997م، ص 195.

واحد أو أكثر في ظرف ومكان معينين»[1].وعليه فالخبر بوصفه مدونة مروية يخضع لعمليات متعددة تسهم في تشكيله ونقله أو توصيله.

- وبذلك يشترك الخبر مع مصطلح الحديث والقصة والحكاية في أنها مصطلحات دالة على السرد. وهي تترادف كلها لتفيد «في الدلالة على نقل الأحاديث والقصص والأخبار، ولا تتفاوت فيما بينها إلا من حيث اختصاص كل منها بجانب معين في النقل ، ولكنها تختلف في شكله ودرجته»[2]، فالسرد يعني «الحديث أو الإخبار(كمنتجوعملية وهدف وفعل وبنية وعملية بنائية) لواحد أو أكثر من واقعة حقيقية أو خيالية من قبل واحد أو اثنين أو أكثر من الساردين وذلك لواحد أو اثنين أو أكثر من المسرود لهم»[3]، فالتعريف يفيد أن الخبر ليس وقوع الحدث فحسب بل هو عملية إرسال(إخبار) تجعل الأخرين شركاء فيه أي العمل التواصلي الذي به وفيه ينقل المرسل (سارد)رسالة ذات مضمون قصصي لمرسل إليه (مسرود له) بالشكل الآتي :

سارد ← مسرود ← مسرود له

(الحدث) مرسل الخبر ← الخبر ← متلقي الخبر

ومن ثم فإننا سنحاول أن نبين الفوارق بين هذه المفردات التي تتقاطع في المعنى

[1]- كاظم سعد الدين، القصة في أدب الطفل، مجلة الأقلام ،2001م، ع1، ص 44.

[2]- إبراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم ، ص 233.

[3]- جيرالد برانس، قاموس السرديات ، تر : السيد إمام ، ميريت للنشر القاهرة مصر، ط1، 2003م، ص 122. وأيضا جيرالد برانس، المصطلح السردي، تر: عابد خزندار المجلس الأعلى الثقافي ، القاهرة مصر ، ط1 ، 2003 م، ص 145.

3-الخبر في الدراسات الحديثة

لقد حفز تداخل المفهوم، وعدم وضوح معالم جنس الخبر في تمثل المؤلفين القدامى. الكثير من الباحثين المعاصرين إلى الاهتمام بالخبر إذ تناولوه بالدرس والتحليل ، لكنهم كان عليهم أن يحددوا ، المصطلحات الخاصة بالسرد العربي ضمن معالم خريطة الأجناس في الأدب العربي القديم « فالأجناس هي تحديدا هذه الخيوط التي بها يكون الأثر على علاقة مع كون الأدب»[1]، فهي محاولات منهجية توخت تقديم تعريف للخبر ضمن وضعه في دائرة الأجناس الأدبية القديمة .

ويمكن أن نصنف الدراسات التي تولدت عن هذه المحاولات والتي اهتمت بالخبر (الأدبي) صنفين : صنف استقرائي جاء ضمن كتابة تاريخ للنظرية الأجناسية العربية(القديمة أو الحديثة)بتتبع مراحلها وإعادة تصنيفها وفق نظرية الأجناس الغربية [2]، وصنفا تأسيسيا : اتخذ الخبر موضوعا من مواضيع النقد وسعى إلى إبراز خصائصه النصية لخلق تصور نظري للأجناس العربية لوصفها في ذاتهاأوفي علاقاتها بتجليات السرد العربي ليشكل هذا المظهر قراءة جديدة للتراث العربي. في ضوء منجزات النظريات السردية الحديثة.

وتوخيا للدقة في رصد بعض ما يساعدنا على تلافي الغموض الذي ينطوي عليه " الخبر " فإننا سنكتفي منها بذات البعد التأسيسي وتتدرج في هذا الاتجاه جملة من الأبحاث من أهمها:

---

[1]- الهاشمي اسمهر، عتبات المحكي القصير في التراث العربي والإسلامي، الأخبار والكرامات والطرف ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، بيروت لبنان، ط 1 ، 2008 م، ص 88.

[2]- من أبرز الدراسات في هذا الصنف : عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دراسة بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر الدار البيضاء المغرب، ط2، 2006 م .

- دراسة بعنوان (الكلام والخبر)قام بها الباحث " سعيد يقطين " ، الذي حاول في الفصل الثالث الانطلاق من الكلام العربي جاعلا الخبر من ضمن أقسامه في أجناسه وأنواعه ، وصيغه.و خلص إلى أن أجناس الكلام العربي ثلاثة : الشعر والحديثو الخبر. قبل أن يعود في الفصل الرابع ليعتبر الخبر نوعا من أنواع السرد « وذلك لكون مفهوم السرد أوسع وأشمل ولا يمكننا نعت أي نوع من أنواعه بهذه السمة لذلك نعتبره جنسا، والخبر نوعا أوليّا»[1]، فتغدو عنده الأجناس الأدبية العربية هي : الشعر والحديث والسرد .ثم انصب اهتمامه على الخبر من حيث الأنواع والأنماط حيث يعتبر الخبر الشكل السردي الجامع لأنواع سردية متعددة أطلق عليها اسم"الأنواع الأصول "وهي:(الحكاية، القصة، السيرة)،و يؤكد أنها أنواع تقترب من الأجناس السردية من حيث طبيعتها وبناؤها وخلص إلى اعتبارها أنواعا خبرية أو سردية أصيلة والعلاقة بين هذه الأنواع حددها يقطين من خلال الفصل الذي أقامه بينها باحتكامه إلى مبدأ " التراكم " على مستوى الأحداث والشخصيات يقول : « فإن كان الخبر أصغر وحدة حكائية ، فإن الحكاية تراكم لمجموعة من الأخبار المتصلة ، والقصة تراكم لمجموعة من الحكايات ، والسيرة تراكم لمجموعة من القصص»[2]،وهو يرى أن النوعين الخبر والحكاية ينصب الاهتمام فيهما على الحدث في حين ينصب الاهتمام في القصة والسيرة على الشخصية . وبذلك يكون يقطين قد أفاد ببعض ما يضفي خصوصية على الخبر لكنه لم يمعن في التحقيق في عناصر جزئية بنيوية وموضوعية يمكن أن يقوم على أساسها التمييز داخل الشكل الجامع الخبر، ولعل ذلك راجع بالأساس إلى طبيعة الدراسة التي افترضت تخصيص حيز ضيق للحديث عن الخبر .

[1]- سعيد يقطين ، الكلام والخبر ، ص 195، ص 197، ص 219.

[2]- سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص 195.

وتعد مقاربة محمد القاضي في كتابه (الخبر في الأدب العربي دراسة في السردية العربية) من أوائل المقاربات المستفيضة للخبر حاول فيها تقديم مفهوم له وهو : أن الخبر شكل أساسي من أشكال القص العربي القديم ، ويعتبر كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، من بين أهم كتب الأخبار التي انفرد فيها مصطلح الخبر «بأنه القصة ذات الصبغة التاريخية»[1] وذلك لأنه يقوم على شكل من الترابط مختلط جمع فيه صاحبه بين البعد التاريخي والبعد الغرضي[2] ومنه توصل إلى قناعة مفادها أنه «يعسر علينا أن نعد الخبر جنسا من أجناس الأدب لأنه من جهة ضم في أنحائه أجناسا متعددة ، فالأقرب إلى حقيقة الأمور أن نعده شكلا ؛ ولأنه من جهة أخرى لم يتمحّض للأدب ، بل كان مشتركا بينه وبين مجالات معرفية أخرى لعل أهمها التاريخ »[3] . ويقسم تبعا لذلك الخبر إلى أدبي يهدف إلى الإمتاع وتاريخي يهدف إلىالإعلام والإخبار ليخلص في الأخير إلى أن السمات المميزة لخطاب الخبر هي الاقتصاد والتركيز والبساطة[4] ، كما خصص الباحث فصلا للدراسة التطبيقية « للخبر باعتبارهوحدة سردية مستقلة»[5]وذلك بتحديد البنية الحكائية للأخبار "العشق العذري " أو ما سماها أيضا " قصص الحب العذري " وتوصل إلى تقديم بنية حكائية ثابتة تتشكل من – 15 –وظيفة مستحضرا مفهوم الوظيفة عند بروب . وهو في كل عمله هذا نجده يذكر أن الخصائص المميزة للخبر على مستوى الخبر (القصة) والخطاب لا يمكن النظر إليها « باعتبارها قوانين صارمة لا يأتيها الشك، وإنما باعتبارها سمات تحضر في أغلب الأخبار، وتساعدنا على استشفاف الملامح الرئيسية لهذا الضرب من الإبداع »[6]، وقد اتضح لنا من هذه المقاربة أن الناقد اعتنى

[1]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي ، ص 66.

[2]- ن م، ص 420، ص 433.

[3]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 592.

[4]- ن م، ص 692.

[5]- ن م، ص 353.

[6]- ن م ، ص 406.

بنوع واحد من الأخبار الواردة في الأغاني في حين أغفل الحديث عن بقة الأنواع وقدم تعريفا عاما للخبر لم يعمل على تمييزه عن القصة والحكاية وما شاكلها .

واصل " سعيد جبار " سبيل سابقيه في كتابه " الخبر في السرد العربي ، الثوابت والمتغيرات " ، لاستخلاص الملامح التي يتميز بها الخبر عن غيره من الأجناس النثرية الموازية له في التراث العربي حيث أفاد كثيرا من دراسة يقطين والقاضي إضافة إلى منجزات النظرية النقديةالغربية. متخذا من مؤلفات " ابن الجوزي " (ت 597 هـ) مدونة للإشتغال عليها لينتهي إلى أن « الخبر بنية سردية بسيطة ، وهو النواة المركزية لكل فعل سردي »[1] وتتمثل بساطة الخبر فيمايلي[2] :

- الخبر بنية سردية بسيطة يطبعها الانسجام والايجاز.
- // تتمركز فيه بؤرة السرد في الحدث الواحد البسيط .
- // يتميز بقلة تنوع صيغه الخطابية وهيمنة صوت السارد فيه.
- قابليته للترهينات المتكررة يجعله يتحول إلى أنواع مركبة قد تكون حكاية أو قصة، وإن كان الباحث اجتهد في توضيح خصوصية الخبر من بساطة الشكل على مستوى القصةو الخطاب ، فإننا نجده لا يدقق في التمييز بين الخبر وأنواع أخرى [كالحديث ، النادرة ، النكتة ، القصة ...]

ثم جاء كتابه الثاني "التوالد السردي قراءة في بعض أنساق النص التراثي "، كما يمكن أن يبدو للقارئ المتتبع امتداد لكتابه الأول. إنه يسعى جاهدا للإجابة عن أحد الأسئلة التي طرحها في خاتمته المفتوحة، والمتعلقة بمفهوم الخبر باعتباره النواة المركزية لكل نوع سردي تراثي يقول: « ويمثل ذلك حافزا إلينا لتوسيع دائرة الدراسة مستقبلا للبحث

[1]- سعيد جبار ، الخبر في السرد العربي ، ص 300.

[2]- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، ص 135.

في الطرق الوسائل التي يتحول بها الخبر من هذه الصورة البسيطة إلى الصورةالمركبة ...الحكاية والقصة»[1] فكانت الدراسة هي البحث في خاصية التوالد السردي للخبر على المستويين الأفقي والعمودي ، من خلال الاشتغال على نماذج سردية تراثية من الخبر وتتبع تحولاتها في المرور إلى الحكاية ثم القصة فكانت النتائج التي توصلت إليها دقيقة ومتكاملة في الفصل بين هذه الأنواع الأصول .

نخلص من خلال استعراضنا لهذه الدراسات حول مدلول الخبر ومحاولة تحديد بعض الخصائص المميزة لهذا الشكل النثري القصير. أننا ظفرنا ببعض الملامح العامة التي يمكن الاستعانة بها في عملنا أثناء تصنيف أنواع الخبر في مدونة البحث حيث نميز مبدئيا نوعين هما الخبر الأدبي والخبر غير الأدبي. فما هي خصائص كل منهما ؟ وكيف يتم التفريق بينهما؟.

4-الخبر بين الشكل السردي الموجز والممتد

استنادا لما سبق يعد الخبر كل وحدة سردية مستقلة[2] ، ويتميز ببساطة الموضوع والشكل ووحدة الزمن والحدث وتفرد الفضاء المكاني والزماني أوغيابه في كثير من الأخبار، وقلة الشخصيات ، وهيمنة الخطاب المسرود[3] . ويجد الباحث في أخبار كتب المصادر المغربية في العصر الوسيط التي أمكننا الوصول إليها، وكانت محلا للاشتغال أنها تتدرج من حيث الشكل الخارجي (الطول) ضمن صنفين من الأشكال السردية الموجزة (القصيرة) على النحو الآتي:

[1]- ن م، ص 300.

[2]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي ، ص 117، ص 353.

[3]- سعيد جبار، الخبر في السرد العربي ، ص 135، ص137.

1. إن نصوص الأخبار التي تتسم بالإيجاز الشديد والتي لا تتعدى في معظم الأحيان سطرين أو ثلاثة وتصل إلى نصف صفحة كأقصى حد في بعض النماذج يمكن أن ندرجها في " الشكل السردي الموجز " [1] .
2. بينما نصوص الأخبار التي تتسم بالطول النسبي وبالامتداد السردي والخطابي حيث يمكن أن تمسح صفحة كاملة من الكتاب، أو صفحتين، وقد تصل في بعض النماذج القليلة إلى ثلاث صفحات يمكن أن ندرجها ضمن " الشكل السردي الممتد"[2]

فهذا التحديد الكمي للأخبار والذي سيساعدنا بشكل محدود في تعرف حجمها في أنها متفاوتة الحظ من حيث الطول والامتداد السردي فبعضها يتسم بالإيجاز الشديد إلى درجة اللمحة السريعة الخاطفة التي لا تتعدى في أغلب الأحيان الثلاثة أسطر وبعضها الآخر يمتد سرديا ويطول إلى أن يبلغ الصفحتين أو الثلاث صفحات[3]؛ فالشكل الخارجي للأخبار قد يقصر كما قد يطول « فلأخبار وحدات سردية مستقلة تختلف من حيث الموضوع والبنية ومن حيث البساطة والتعقيد»[4]، كلام يفهم منه أن الشكل الخارجي بصنفيه الموجز(البسيط)، والممتد (المركب) يمكن إدماجه في مفهوم الشكل الأدبي : الذي نقصد به مستويين اثنين متكاملين وغير منفصلين هما الشكل الخارجي والشكل الداخلي للعمل الأدبي . غير أن الشكل الخارجي ليس معيارا ناجعا يمكن الاطمئنان إليه في عملية التصنيف، بل يقتضي النظر في مجمل العناصر النصية والسمات المتغيرة التي تسم هذا

[1]- سليمان الطالي ، بلاغة النادرة في الأدب العربي، دار كنوز المعرفة عمان الأردن ، ط1 ، 2015م ، ص 26، وهامش رقم 1.

[2]- ن م، ص 27.

[3]- سليمان الطالي، بلاغة النادرة ، ص 27.

[4]- الهاشمي اسمهر ، عتبات المحكي القصير، ص 89.

الشكل السردي باعتباره جنسا أدبيا ما بميسمها الخاص، والوقوف على حدود تقاطعه مع باقي أشكال السرد التي سبقتها، أو التي كانت تتعايش معها وتتفاعل[1].

ومهما يكن من أمر فإن " السرد القصصي " يعتبر مقوما جوهريا ثابتا في الخبر، بما هو جنس أدبي كتابي[2]، فهو يعد أحد صيغ الخطاب الذي يعتمد على الحدث القصصي، والتسلسل ، والحبكة، والوصف، والحوار. والملاحظ على الخبر الأدبي في عموم المدونة الخبرية المغربية هو حضور هذه العناصر القصصية فيه بدرجات متفاوتة جدا من حيث البساطة والتركيب من خبر إلى آخر حتى داخل الكتاب الواحد، فقد تعددت أشكال السرد التي تسم مقوم القصصية في الشكل الداخلي لكل من الخبر الموجز والممتد والذي يمكن تقسيمه إلى قسمين هما :

1-الشكل الداخلي

أ- الخبر الأدبي شكل موجز قصصي ، وغير قصصي :

يجد القارئ لأخبار المصادر المغربية التي تندرج ضمن الشكل السردي الموجز العدد الكبير من الأخبار التي تتوزع بين نوعين: الخبر الأدبي القصصي، وغير القصصي،و ذلك تبعا لتفاوت توفر العناصر القصصية داخل الشكل الداخلي لكل منها على النحو الآتي:

1-الخبر الأدبي الموجز القصصي: يتميز شكله الداخلي بمجموعة من الخصائص أهمها:

أ- تتمركز البنية الحكائية في الخبر الأدبي الموجز القصصي حول عنصرين أساسيين هما الحدث والشخصية بينما يظل العنصران الآخران الزمان والمكان غير فاعلين فيها لأن حضورهما باهت وخافت، وهذا ما نجده في أخبار نوادر الكلام القائمة على ثنائية

[1]- سليمانالطالي، بلاغة النادرة، ص 26، ص 27.

[2]- فرج بن رمضان، الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس القصص، دار محمد علي الحامي صفاقس، ط 1 ، 2001م، ص 99.

الإخبار والاستخبار ، التي ترد مفردة أو تتكرر في الخبر الواحد ، وتقوم بنقل قول أو حوار لا تقدمه مصمتا ، وإنما تمهد له بمقدمة سردية تنشئ وضعا أوليا يكون من شأن القول أو الحوار أو يقلبه ، فيصبح الكلام ذا دور تحويلي سواء وقع التعبير عن ذلك الانقلاب أم لم يقع[1]، ومن أمثلتها المنتشرة بشكل واسع في المصادر المغربية هذا الخبر: « وشرب كوران المغني عند الشريف الرضي ، فافتقد رداءه ، وزعم أنه سرق فقال له الشريف ويحك من تتهم منا ؟ أما علمت أن النبيذ بساط يطوى بما عليه فقال : أنشروا هذا البساط حتى آخذ ردائي واطووه إلى يوم القيامة »[2]، وجلي أن القول الصادر عن كوفان[3] ، وإن جاء جواب عن استخبار الشريف الرضي ، فإنه اضطلع فوق ذلك بفعل تحولي ، إذ أنه قلب صورة كوفان من الوضاعة مغني سكير إلى الوجاهة الكاملة (حسن الرد) أي أحل صورة المخبر الإيجابي محل صورة الرتبة الحقيرة (المغني ، وبالرغم من أن النص لم يخبرنا بذلك الانقلاب إلا أنه أثر فينا ، فبإمكاننا أن نختم هذا الخبر بعبارة " فعظم المغني في عين الشريف "، أو سكت الشريف خجلا ، أو " فقام الشريف بمكافأته " أو " لو علمت هذا من أمرك ما ساجلتك " أو ما جرى مجراها من العبارات التي يوظفها الإخباريون في خاتمة هذه النوعية من الأخبار ، والتي ترد في أحيان كثيرة تامة ، فتكون العبارة الواردة في خاتمة الخبر هي التي تضطلع بالدور التحويلي كما جاء في هذا المثال: « دخل أعرابي مسجد الكوفة ، فرأى خالد بن سلامة المخزومي . فقال له: ممن الرجلّ؟ قال : من تيم الرباب . قال خالد : ما أنت من حنظلة الأكرمين ، ولا سعد الأكثرين ، ولا عمرو الأشدين فسأل الأعرابي عنه ، فقيل له مخزومي . فقال : ولست والله يا خالد من بني هاشم المرسلين، ولا من بني أميه المستخلفين ، ولا من بني عبد الدار المستحجبين .

---

[1]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 355، ص 356.

[2]- الحصري، زهر الآداب، مج2، ص 183، وكذلك الحصري، نور الطرف ونور الظرف، تحق: لينة عبد القدوس، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط1 ، 1996 م ، ص278.

[3]- وهو الاسم الوارد في رواية الزهر، أما في رواية النورين « فشرب كوران المغني عند الشريف ...» .

قالخالد: ولكن من ريحانة قريش قال الأعرابي: سوءة لك ما كنت أراك تتزين لهذا.إنما سميتم ريحانة قريش لحظوة نسائكم عند الرجال. فقال خالد: أعطي الله عهدا إن عبت أحدا بعدك»[1]، فالعبارة الأخيرة الصادرة عن المخزومي هي التي قلبت صورة الرجل الأعرابي من الوضاعة البادية إلى الوجاهة الكاملة (المخبر الإيجابي) ، وجعلتنا نتأثر ونتدبر في أقوال التغلبي التي جاءت أجوبة عن استخبار المخزومي الذي اتسم بالاحتقار ، فالأجوبة المفحمة جعلت المخزومي يعترف بخطئه في أن الوجاهة لا تكمن في الانتماء والنسب بل في الأدب وحسن الرد .

وكثيرا ما تكون المقدمة السردية مدخلا لإيراد نوادر الأقوال المرتبطة بكلام الهزل الصادرة عن شخصيات معروفة أم مجهولة ، لأنها مركز التأثير في المتلقي وفيها يكمن الهدف من إيراد أخبارها ، ولذلك تسكت الرواية في الكثير من الكتب عن ذكر نهاية هذه الأخبار ، وحتى وإن ذكرت في بعض الكتب تأتي مقتضبة تركز على الحدث الطريف ومنها خبر الخليفة المأمون مع ثمامة بن الأشرس أحد فصحاء المعتزلة الذي ساقه النهشلي قائلا: « ركب المأمون في بعض الليالي متطوفا، فإذا بثمامة يتمايل على سرجه سكرا ، فحرك المأمون دابته حتى لحق ثمامة ، فضرب عجز بغلته بسوطه ، وقال له ثمامة؟ قال:إي والله، قال : سكران قال : لا والله ، قال : أعرفتني ؟ قال: إي والله، قال: فمن أنا ؟ قال: لا أدري فقال له المأمون : لعنة الله عليك. فقال : تترى يا أمير المؤمنين »[2]، فالمقام السردي الذي افتتح به الخبر والمتمثل في خروج الخليفة المأمون متطوفا ليلا ولقائه بثمامة سكران، جاء مدخلا لإيراد أقوال ثمامة الطريفة ذلك أنها تهدف إلى إثارة الضحك وإدخال السرور إلى نفسية المتلقي ودفع الملالة عنه ، وهو ما جعل الراوي لا يركز في روايته على ذكر نهاية الخبر ، التي وجدناها في رواية الحصري لنفس الخبر

[1]- عبد الكريم النهشلي،اختيارالممتع في علم الشعر وعمله، تحق: محمود القطان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2، 2006 م ، ج1، ص 2015.

[2]- النهشلي، اختيار الممتع ، ج2، ص552، ص 553.

يقول: « فضحك وتركه»[1]فجاءت النهاية مقتضبة لخصت الحدث الطريف وهو موقف المأمون الهازئ المستهجن لكلام ثمامة وانصرافه عنه.

وما أكثر ما يكون المقام السردي في بعض الأمثلة مطية لإيراد الأقوال المأثورة نثرا كانت أم شعرا، وهذه ظاهرة بالغة الأهمية لأنها تكشف لنا عن سر من أسرار الخبر الأدبي القصصي يتمثل في انقطاع السردية فيه بحلول القول المقصود[2]، ونورد على ذلك هذا المثال«قال الزبير بن أبي بكر : قدمت المدينة امرأة من هذيل، وكانت جميلة ، ومعها ابن لها صغير وهي أيم ، فخطبها الناس فأكثروا فقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود:

أُحِبُّكِ حُبًّا لن يُحبّكِ مِثلَهُ قَريبٌ وَلا في العالمينَ بَعيدُ

أُحبُّكِ حُبًّا لو عَلِمْتِ بِبَعضِهِ لَجُدْتِ ولم يَصْعُبْ عليكِ شديدُ

وَحُبُّكِ يا أُمَّ الْغُلامِ مُتَيِّمِي شَهِيدي أَبو بَكْرٍ فَذَاكَ شهيدُ

وَيَعْلَمُ ما أُخْفِي سُليمانُ كلّه وخارجةٌ يُبدِي لنا ويُعيدُ

مَتى تَسْأَلي عما أَقول فَتَخْبَري فَلْحُبُّ عِندي طَارقٌ وتلِيدُ

فقال له سَعيد بن المُسيّب : فقد أمِلْنَا أن تسألنا ولو سألتنا ما شهدنا لك بزور»[3]، ففي هذا الخبر وضع سردي تجلى في قدوم المرأة من هذيل المدينة وافتتان الناس بها ومنهم الفقيه ابن مسعود إنما جاء كمقدمة لإيراد شعر الفقيه فيها ، وتعليق الفقيه ابن المسيب على ما جاء في البيت الأخير إذ السردية توقفت عند الأبيات ، لأنها بؤرة الخبر وفيها يكمن

[1]- إبراهيم الحصري ، جمع الجواهر، ص 150، ص151.

[2]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 356، ص 357.

[3]- الحصري، زهر الآداب، مج1، ص 209 ، وكذلك الحصري، المصون، ج1، ص 39 ، ص40. وابن رشيق العمدة ، ج1، ص28، ص 29.

مبرر وجوده الذي يهدف إلى إمتاع المتلقي ولذلك فإن السارد لم يعلمنا بنهاية قصة حب الفقيه للمرأة الجميلة : هل تزوجها أم لا؟

ب- بساطة العناصر الحكائية في الأخبار القصصية تشمل الشخصيات والأمكنة والأزمنة بحيث تبتعد عن كثرة الشخوص وتكتفي بشخصية رئيسة يتمحور حولها الحدث ، ولذلك فهي تبتعد عن التفصيل المكاني بوصفه وتلتفت إليه بلمحة خاطفة ، كما يغيب في متونها تفصيل الحديث عن تعاقبات الزمان ودلالاته.

إن هذه البنية البسيطة تظهر في عدد كبير من أخبار النوادر التي تكتفي بشخصية رئيسة يتمحور حولها الحدث كالأحمق والمتطفل ، والبخيل والأمير والأعرابي والعاشق وغيرها، وتسعى إلى إبراز جانب من جوانبها كالطمع أو الجبن أو السذاجة أو الذكاء أو الهوى وغير ذلك من الصفات والطبائع النادرة ذلك أنها تهدف إلى إمتاع المتلقي الحسي أو الوجداني أو العقلي ودفع الملالة عنه وهنا نأخذ عينة للتمثيل :

العينة (أ)

أ-خ1-« وخرج سالم بن عبد الله متنزها إلى ناحية من نواحي المدينة ومعه أهله و حرمه، فبلغ أشعب الخبر، فوافهم يريد التطفيل، فصادف الباب مغلقا ، فتسور الحائط، عليهم وقال له سالم : ويلك يا أشعب معي بناتي وحرمي! وقال أشعب: لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد: فضحك منه وأمر له بطعام أكله وحمل منه »[1]

أ- خ2-«كان معاوية بن مروان أخو عبد الملك بن مروان مغفلا فبينما هو واقف بباب دمشق ينتظر عبد الملك على بابطحان إذ نظر إلى حمار يدور بالرحى، وفي عنقه جلجل فقال للطحان : لم جعلت في عنق الحمار جلجلا قال : لربما أدركتني سآمة أو نعست، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت بأنه قام فصحت به. فقال له معاوية: أرأيت أنه

[1]- الحصري، جمع الجواهر ، ص91.

قائم ؟ ومال برأسه هكذا وهكذا – وحرك رأسه – ما علمك أنه قائم ؟ فقال الطحان: ومن لحماري بمثل عقل الأمير أعزه الله تعالى »[1]

أ-خ3-« وكان أحمد بن طولون قد نابذ الموفق وباينه بالعداوة وخلعه، وكان قد ضبط مصر من الجواسيس وكان متيقظا فهما، فأشرف من قصره يوما ، فإذا بجنازة قد مرت عليه فقال: علي بالنعش ومن فيه فأحضروه، فقال: قم يا متماوت، ثم دعا بالسياف وقال: اضربه، فقام الميت من نعشه، فقال له أنت متجسس من ناحية أحمد؟ قال : نعم! قال: لو لم أتقدم إليك لقتلك وقتلت من معك، وأمر من أخرجهم من عمل مصر، فقيل له من أين علمت ذلك؟ فقال: رأيت القوم ليس عليهم كآبة من مات له ميت، ورأيتهم يطوفون بالقصر، ونظرت إليه في النعش فرأيت رجليه قائمتين ورجل الميت تسترخي فحكمت أنه حي، فلما حضر، رأيته يسارق النفس فصحت القضية»[2]

أ-خ4- « وكان يزيد بن عبد الملك بن مروان صبا بحبابة جاريته، فخلا يوما في لهو معها وقال: والله لأكذبن اليوم قول من قال: ما صفا عيش لأحد قط سحابة يوم ، فأحضر صاحبه وقال: لا تأذن لأحد علي، ولا تخبرني بخبر ولو كان فيه ذهاب ملكي مدة اليوم ، وأقام معها في أمتع حال، فتناولت رمانا فشرقت به فماتت لوقتها، فعرض له عليها ضرب من الوله حال بينه وبين صبره، ومنع من دفنها أياما، حتى مشى إليه الأمويون، ولاطفوه فدفنت، فقال متمثلا بقول بكر بن النطاح ... وذكر أنه لم يقم بعدها إلا سبعة أيام، ثم مات أسفا عليها، وقيل بل عاش أكثر من ذلك »[3]

نلاحظ من خلال العينة (أ) أن الأخبار الأربعة تحتوي على إشارات مكانية وزمانية وشخصيات هامشية متحدث عنها اعتمد السارد في تقديمها على الوصف المختصر، تقوم

[1]- ن م، ص 240.

[2]- ن م، ص 356.

[3]- الحصري، المصون، ج2، ص 130.

على شخصية رئيسة أسندت لها البطولة هي (أشعب، ومعاوية بن مروان، وأحمد بن طولون، ويزيد بن عبد الملك)، أما الشخصيات الأخرى في الخبر الأول والثاني (سالم بن عبد الله، والطحان) فثانويةذات دور محدد قامت بتهيئة الموقف النادر الذي يستند على الهزل ليرد عليها من خلال الحوار بقول طريف يدخل السرور ويثير الضحك لدى المتلقي.

أما في الخبرين الأخيرين فالشخصيتان الثانويتان (المتجسس، وحبابة) شاركتا الشخصية الرئيسة في الحدث الذي يستند على الجد حيث قدمها السارد في الخبر الثالث من خلال الحوار القائم على الوصف المقتضب، وفي الخبر الرابع من خلال الوصف الذي يلخص الأفعال ويقدمها بواسطة جمل سردية متتالية حيث ينتهي السرد فيهما بعبارة شديدة التعبير عن الطبع النادر (الذكاء، الهوى)، الذي تتميز به الشخصية مركز الحدث، وذلك لأن القصد فيهما هو التأثير العقلي أو الوجداني في القارئ أو المستمع.

ج- وحدة الحدث وبساطته في الأخبار القصصية يجعله يبتعد عن التشعبات الكثيرة التي تقتضي المرور عبر فضاءات متعددة مكانية وزمانية، كما يعتبر عنصرا حيويا يوهم بالواقعية لأنه يقتضي استحضار أحداث من الواقع والاستناد إلى سرد أفعال غريبة أو عجيبة ترتبط بشخصيات تاريخية اشتهرت بالصلاح وهذا ما تمثله نسبة كبيرة من أخبار العلماء والأئمة والزهاد والمتعبدين وغيرهم من أهل الصلاح المنتشرة في كتب السير وتراجم الطبقات والتاريخ، والتي نمثل لها من خلال العينة الآتية:

العينة (ب)

ب-خ1- «ومن جملة ما روي من كرمه وجوده [يقصدإسماعيل بن عبيد الزاهد]أنه وجه رفقة إلى المشرق فيها خدم مولدات فخرج يشيعهن إلى قصر الماء فسمع بكاء فقال:

ما هذا؟ فقيل له: هؤلاء المولدات [اللاتي وجهتهن][1] يبكين مع آبائهن وأمهاتهن فبكى إسماعيل وقال: إن دنيا بلغت بي إلى أن أفرق بين الأحبة، إنها لدنيا سوء أشهدكم أن من كان له أب أو أم أو أخ أو أخت في هذه الرفقة فهي حرة لوجه الله عزوجلفأنزل من المحامل سبعين مولدة فاعتقهن »[2]

ب-خ2- «حدث أبو عياش، قال: كان أبو زكريا يمشي [و] صاحب له على شاطئ البحر، فقال له: « يا أبا زكريا اشتهيت تينا أخضر » فقال له أبو زكريا« تمشي إلى تلك الصخرة فانظر ما عندها قال: فذهب فوجد تينا أخضر، فأتى به يحمله، فأكل منه حتى شبع ، وأراد أن يحمل الباقي فقال له أبو زكريا: «أترى أمك وضعته لك؟ ألقه !، فألقاه»[3].

الملاحظ من خلال العينة (ب) أن الخبرين يتعلقان بشخصية دينية مشهورة (إسماعيل الزاهد الذي اشتهر بكثرة التصدق، وأبو زكريا الهرقلي) إضافة إلى أن كل منهما يعلمنا بتفاصيل مختصرة عن الحدث ومكانه [قصر الماء، وشاطئ البحر] وقد اعتمد فيهما السارد على الحوار ولكنه يختلف فيهما من حيث الشكل، فالحوار في الخبر الأول يتخلله بعض الوصف حيث استطاع أن ينقل لنا ما جرى بين ابن رباح ومحاوريه بالتفصيل وانتهى بتأثره الذي أدى إلى عتق مجموعة من العبيد لوجه الله، أما في الثاني فالحوار قدم عقدة الحدث، ومجموعة من الأفعال لخصت تفاصيل الحدث وانتهت بتحقيق رغبة الشخصية وحل عقدة الحدث بفضل كرامة المكاشفة . فالسارد استطاع من خلال العناصر القصصية التي وظفها فيهما ليعلمنا بالفعل الغريب أو العجيب الذي تتميز به

[1]- نريد أن نشير إلى أن المالكي في روايته لهذا الخبر تحدث عن المولدات بصيغة التذكير، وقد حاول الدباغ إصلاح النص كما تقتضيه القواعد، ونقله محققا رياض النفوس كما هو ومبررهم في ذلك: « وقد رأينا الإبقاء على النص كما هو عساه يفيد غيرنا من الدارسين»، أنظر كل ذلك في المالكي رياض النفوس،ج1، هامش رقم 14، ص 107.

[2]- ن م ،ج1، ص 107، ص 108، وعبد الرحمان الدباغ وابن ناجي ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحق: إبراهيم شبوح، المكتبة العتيقة تونس، ط2، 1993م،ج1، ص 193.

[3]- المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 417.

الشخصية أن يؤثر فينا وجدانيا وينقلنا إلى عالم أجوائهما القصصية بهدف التدبر والإرشاد أو الوعظ والتخويف.

ونخلص إلى أن أهمية الحدث في الخبر الأدبي القصصي الموجز يكمن في بساطة العناصر القصصية فيه حيث تتمركز حول الحدث وتأتي شديدة التعبير عن الموقف الطريف الذي تعيشه الشخصيات كما رأينا في الأخبار التي تنقل نوادر الكلام ، أما في الأمثلة الأخيرة فهو شديد التركيز على الحالة النفسية التي تبرز الصفات والطبائع التي امتازت بها الشخصيات وتتمثل بساطة الخبر الأدبي في هذا الانتقال السريع بين الوظائف التي تربط البداية بالنهاية في مساحة خطابية لا تتجاوز نصف صفحة[1] ، وهذا ما يجعل الحدث بؤرة الفعل السردي بصفة عامة، وبساطة الحدث تنعكس على البنية الزمانية والفضائية التي لا تتجاوز هي الأخرى هذه البساطة، وعليه فبساطة النوع تنعكس على الثوابت الحكائية التي تدعم هذه البساطة وتؤكدها.

ب- الخبر الأدبي غير القصصي

يعد من أكثر الأشكال السردية الموجزة اقترابا من الشكل الخارجي للخبر الأدبي القصصي، أما شكله الداخلي فيتميز بالإيجاز الشديد على مستوى العناصر السردية من خلال التركيز على الحدث أو المشهد الحواري، أو الشخصية حيث يغيب فيه الملمح الحكائي في صياغة الحدث السردي حتى يوشك أن يضمحل إذ أن كل جملة سردية في الخبر الأدبي غير القصصي تحمل على الإيقاع السريع لحكاية لا تكاد تبتدئ إلا لكي تنتهي .[2]ومن أهم خصائصه:

[1]- نريد أن نشير هنا إلى أن هناك بعض النماذج من الأخبار التي تتضمن القصائد الشعرية الطويلة، ولذلك قد تمتد فيها المساحة الخطابية إلى الصفحة ونصف.

[2]- سليمان الطالي، بلاغة النادرة، ص 31،ومحمد مشبال، بلاغة النادرة، إفريقيا الشرق الدار البيضاء المغرب، د ط، 2006م، ص 80.

1- يقوم على القص الموجز من خلال التركيز على سرد الحدث ، حيث يعتمد غالبا على الأسلوب الإخباري المجرد الذي لا يتضمن توالدا للأحداث ولا تشابكا فيها، وإذا أدركنا أن الشأن في هذه الأخبار هو نقل معلومات معرفية (تاريخية، وسياسية، وأدبية، ودينيـــة...) ليتعرف عليها المتلقي استطعنا أن نفهم كثرة هذه الأخبار المعرفية في المصادر المغربية القديمة ونأخذ عينة للتمثيل:

العينة (أ)

أ-خ1- « وحدثني أيضا [الشيخ الميروقي] قال: سمعت من معمري أشـــياخنا أن ممـــن أجاز بها [يقصد تلمسان] من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم المنيذر الإفريقي، المذكور في اِستيعاب ابن عبد البر»[1].

أ-خ2- « وقال محمد بن سلام الجمحي: إن القصيد حديث الميلاد، وإنما قصد الشـــعر على عهد هاشم بن عبد مناف أو عبد المطلب بن هاشم، وإنمـــا كانـــت العـــرب تقـــول الأراجيز والأبيات اليسيرة فتحفظ»[2] .

أ-خ3- « زكريا بن محمد بن الحكم عن حيوة بن شريح قال: من صلى ثماني ركعـــات من أول نهاره مات شهيدا »[3].

نلاحظ أن هذه الأخبار الثلاثة بسيطة في تركيبها فهي شديدة التركيـــز علـــى نقـــل الحدث الفذ، حيث اهتمت بالخبر الأول بنقل معلومة تاريخية حول أول من دخل تلمســـان من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، أما في الخبر الثاني فالمعلومة أدبيـــة حـــول القصيد الذي عرف عند العرب إما في عهد هاشم بن عبد مناف أو ابنه عبد المطلب، وفي

[1]- يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحق: عبد الحميد حاجيات عالم المعرفة للنشر والتوزيع الجزائر، طبعة خاصة بتلمسان عاصمة الثقافة،2011م، ج1، ص129.

[2]- النهشلي، اختيار الممتع، ج1، ص 85.

[3]- المالكي، رياض النفوس ، ج1، ص238.

الخبر الأخير فالمعلومة دينية تتعلق بصلاة النافلة وأجر ثوابها عند الله. ويتضح في هذه الأمثلة هدف التبليغ وتوصيل المعرفة جليا وبشكل مباشر للمتلقي أي هيمنة الوظيفة الإبلاغية التي لا تحتفي بذكر تفاصيل الحدث من أوصاف للشخصيات أو وصف دقيق لعنصري الزمان والمكان حيث لم يلتفت إليهما السرد إلا بلمحة خاطفة حددت الإطارين المكاني والزماني للحدث.

إن الظاهرة التي تسترعي انتباهنا في الأخبار غير القصصية المرتبطة بنوادر الكلام، هي: أن نسبة كبيرة منها ترد في بنية شديدة التركيز من حيث البساطة التي تقوم على ثنائية الإخبار والاستخبار ترد مفردة أو تتكرر في الخبر الواحد، الذي يغيب فيه الملمح الحكائي، باختفاء الوضع السردي التمهيدي المشتمل على عناصر حكائية تلخص تفاصيل الحدث كناقد وقفنا عليه سابقا أثناء وصفنا للبنية البسيطة لهذه النوعية من الأخبار القصصية، فيتدنى حظ السردية داخل الخبر غير القصصي، ويقتصر أمرها على نقل القول المتبادل بين الشخصيتين[1]، ومن أمثلته « وقال أبو جعفر المنصور[2]، لمعن بن زائدة :كبرت يا معن! قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين، قال: إنك لجلد، قال: على أعدائك، قال: وإن فيك لبقية، قال: هي لك يا أمير المؤمنين؛ قال: فأي الدولتين أحب إليك، هذه أم دولة بني أمية ؟ قال: ذلك إليك يا أمير المؤمنين، إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلي »[3]، فقوام هذا الخبر أسئلة أربعة جاءت في موقف يتسم بالسخرية والتهكم يطرحها الخليفة العباسي، وأربعة أجوبة مفحمة يرد بها معن على تلك الأسئلة، فالحدث الجوهري هاهنا هو نقل الكلام الطريف المتبادل بين الرجلين، وقد تجلى في ثنائية

[1]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 355.

[2]- في رواية بغية الرواد ، ج1، ص 210، « دخل معن على هارون الرشيد» .

[3]- الحصري، زهر الآداب ، مج4، ص9. ويحي بن خلدون، نفسه، ن ص.

الاستخبار والإخبار التي يمكن أن نصطلح عليهاهنا أيضا باسم آخر هو الامتحان والنجاح، في حين تبقى تفاصيل الحدث التي أدت إلى التباغض والتباعد مغيبة[1].

ومن ذلك أيضا الأخبار التي تركز من خلال هذه الثنائية على نقل القول الذي يكشف على جانب من الجوانب التي تتميز به الشخصية حيث ينقطع السرد بحلول القول المقصود؛ ومن هذا ما أورده الحصري قائلا: « قيل لأشعب الطماع: لقد لقيت التابعين وكثيرا من الصحابة، فهل رويت مع علو سنك حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: نعم، حدثني عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خلتان لا تجتمعان في مؤمن قيل: وما هما؟ قال: نسيت واحدة، ونسي عكرمة الأخرى»[2] فالسردية توقفت عند إجابة أشعب لأنها مركز الثقل في الخبر، ومبرر وجوده فإجابته قد أثارت ضحك المتلقي وأثبتت أن أشعب شخص ذكي جدا ويتظاهر بالتحامق ، بينما ظلت مقومات الحدث المتعلقة باشتغال أشعب برواية الحديث كأوصاف الشخصيات والمكان والزمان بعيدة تماما عن ذهن المتلقي فإذا أدركنا أن الغاية من جمع هذه الأخبار أن تنقل ما أثر عن القدامى والمحدثين من طريف القول وحسن الرد أو النصح، ولطيف الاعتذار،و صريح الفخر، وخفي التعريض وغير ذلك، أمكننا أن نفهم الانتشار الواسع لهذا الضرب من الأخبار التي تتخذ من إيراد الأقوال المأثورة، نثرا كانت أم شعرا، هدفا لا تحيد عنه في مؤلفات المغاربة. ومن ثم أمكننا أن نفهم سر تقلص السردية في بعضها، فهي أخبار ذات بنية مختلة يقتصر دور الراوي فيها على إسناد قول لقائله سواء كان معروفا أم مجهولا، والشواهد على ذلك أكثر من أن تعد[3]، ومنها « قال الأصمعي: وسمعت أعرابيا يقول: إذا ثبتت الأصول في القلوب نطقت الألسنة بالفروع، والله يعلم أن

[1]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 356.

[2]- الحصري، جمع الجواهر، ص 88، ص89.

[3]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 356.

قلبي لك شاكر، ولساني ذاكر، ومحال أن يظهر الود المستقيم من الفؤاد السقيم »[1] وكذلك « وحدثني صاحبنا الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إسماعيل بن علي الأموي، عرف بالنقاش، من علية عدول البلد ومن المجودين لكتاب الله سبحانه بقراءة السبع، عن الشيخ المسن أبي عبد الله بن داود عن بلال الحبشي خادم الشيخ أبي مدين رضي الله عنه قال: كانت هجيرى شيخنا قدس الله سره في كثير أزمنته:

الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتادا بصدق مرا د »[2]

ب- أما الخاصية الثانية التي بدت لنا واضحة في الأخبار الأدبية غير القصصية، فهي البنية البسيطة شديدة الإيجاز حيث يلتمس الإيجاز فيها في الحركة السردية التي تقوم بعرض المقومات السردية كالأحداث والشخصيات والزمان والمكان بشكل مكثف يختزل البنية في الخبر الواحد حول سرد حادثة أو سلوك مرتبط بشخصية دينية اشتهرت به كما يتضح في أمثلة العينة (ب)

ب-خ1- «قال الشيخ السنوسي: رأيت المشائخ والأولياء، فما رأيت مثل سيدي الحسن أبركان كان لا يخاف في الله لومة لائم ولا يضحك إلا تبسما وكان رحيما بالمؤمنين شفيقا عليهم يفرح لفرحهم ويتأسف على ما يسوؤهم له سبحة لا تفارقه غالبا، لأنه كان لا يفتر عن ذكر الله تعالى طرفة عين»[3]

[1]- الحصري، زهر الآداب، مج4، ص 156.

[2]- يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 156.

[3]- محمد بن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحق: محمد بن أبي شنب، نشر عبد الرحمان طالب، دط، 1986م، ص 74.

ب-خ2- «حدث علي بن المطلب،وكان من فضلاء الناس قال بار على إسماعيل [بن عبيد الزاهد] طيقان ساج[1]، سبعمائة وكان بالغرب بإفريقية فقال « لأتجرن في هذه » فاشترى مع كل ساج جبة وكساها المجاهدين في سبيل الله تعالى»[2]

ب-خ3- « وقال أبو عبد الله الزاهد، وكان قد صحب ربيعا هذا، قال: مرض ربيع مرضة فاشتهى الرمان، فطلب له بكل وجه، فلم يوجد فخرج إلى البحر فاستقبل القبلة ودعا، فأتاه آت بسبع رمانات فوضعهن في حجره وانصرف »[3]، نلاحظ أن السرد في الأخبار الثلاثة يتجه مباشرة نحو الحدث أو الفعل (بؤرة الخبر) المختص بشخصية مفردة حددها السرد مع إهمال التفاصيل، وأبرزها غياب أوصاف المؤشرات الزمانية والمكانية والشخصيات (بل حتى أسمائها الكاملة كانت مجهولة) والسمة الأساس هي هيمنة الخطاب المسرود مع تجنب أي تكرار من شأنه أن يمطط الخطاب، ولهذا وجدنا تواليا في الأفعال لأن المهم في الأخبار الثلاثة هو إبراز الفعل أو السلوك الذي اشتهرت به الشخصية التي يدور حولها الحدث.

- وإذا ما تأملنا الخبر الثاني المتعلق بشخصية إسماعيل بن عبيد وحاولنا أن نقارنه بالخبر الذي مر معنا حول الشخصية نفسها استطعنا أن نميز الفرق بين الخبر الأدبي القصصي وغير القصصي بدقة حيث لاحظنا أن الحدث موحد في الخبرين، فكلاهما يسعى لإعلامنا بمنقبة يختص بها صاحب الخبر وهي كثرة تصدق ابن عبيد، ولكنهما يختلفان من حيث البنية السردية التي تمتد مساحتها الخطابية في الخبر القصصي لتشمل مقومات سردية لم تظهر في بنية الخبر غير القصصي وهي الحوار المفصل، وبعض الأوصاف المتعلقة

[1]- الطيقان جمع طاق: ضرب من الملابس. والساج: الطيلسان الضخم الغليظ، والطاق والساج اسم لمسمى واحد وهو الطيلسان وربما خص به ذي اللون الأخضر، أنظر الدباغ، معالم الإيمان، ج1، هامش رقم 3، ص 193. والمالكي رياض النفوس ، ج1، هامش رقم 18، ص 108.

[2]- ن م، ن ص.

[3]- ن م، ص 199، ن م، ج2، ص 299.

بالزمان والمكان، التي تزود القارئ بتفاصيل أكثر عن الحدث فتظهر بجانب الوظيفة الإعلامية في الخبر القصصي الوظيفة التأثرية الغائبة تماما في الخبر غير القصصي، وهي وظيفة تجعل المتلقي ينتهي من قراءة الخبر وقد انتابته لحظة شعورية من التأثر النفسي والعقلي تجعله يتدبر في فعل صاحب الخبر الذي يدفعه إلى الوعظ والإرشاد.

نخلص إلى القول هنا أن هذه النماذج التي أوردناها عن الخبر الأدبي غير القصصي الموجز، فقد اجتمعت فيها خصائصه، وإن كانت بشكل متفاوت، فهو يقوم على بنية سردية شديدة التركيز تقل فيها العناصر القصصية ولا تكتمل ويعتمد غالبا على الأسلوب الإخباري الذي لا يتضمن توالدا للأحداث ولا تشابكا فيها، ويتحقق ذلك من خلال الإيجاز باختيار الجمل القصيرة في التعبير عن الأحداث والابتعاد عن الإسهاب في المشاهد والوقفات الوصفية قياسا بالخبر الأدبيالقصصي الموجز فماذا عن الخبر الأدبي القصصي الممتد؟.

ج- الخبر الأدبي القصصي شكل ممتد:

تعد " القصصية " أو" الحكائية " مقوما أساسيا أو صفة ثابتة في الجنس « السرد»، الذي ينتمي إليه الخبر الأدبي باعتباره جنسا سرديا قصصيا كما سبق تفصيل الحديث فيها وسنحاول استجلاء الصفات الأساسية التي تميز الخبر القصصي في علاقته باللاقصصي في عموم المدونة الخبرية المغربية. وبناء على ذلك يمكن أن نقرر في شبه اطمئنان أن الخبر الأدبي نص سردي قصصي مهما اعتراه من ضروب التغيير في شكله الخارجي الذي يتراوح بين الموجز والممتد والتنويع في شكله الداخلي الذي يتدرج بين درجات متفاوتة جدا من البساطة والتركيب

فمقوم القصصية هي الرابطة الواجبة الوجود بين الخبر الأدبي الموجز والممتد ولذلك فإن حضور السرد القصصي في الشكل الداخلي للخبر القصصي الممتد يختلف

باختلاف العناصر القصصية والمميزات التي تسم كل من الخبر الموجز، والممتد؛ فإذا كان الخبر الأدبي القصصي الموجز يركز على حدث واحد أو شخصية محورية واحدة ولا يولي للبنية الزمكانية اهتماما، وينحو نحو الإيجاز في القص بدل التفصيل والإسهاب فإن الخبر الأدبي القصصي الممتد يتسم بالامتداد السردي والخطابي وبتشعب الأحداث حيث يمكن أن يتولد عن الحدث المركزي حدثا آخر يؤدي إلى تداخل المواقف وتطور الأحداث أين يجد الخيال فرصة للخوض في التفاصيل والجزئياتو الملابسات التي تكشف عن حقيقة الشخصية المحورية وتقديمها بصورة فنية بتسليط الضوء عليها بالتدقيق في وصف حركاتها وأفعالها وسلوكهاأو استبطان دواخلها، والتوسع- نسبيا – في الاحتفاء بالفضاء الزماني والمكاني[1].

ومنه يمكن أن نعرض مجموعة من الخصائص والمميزات التي يتسم بها الشكل الداخلي للخبر الأدبي الممتدوتتمثل إجمالا فيما يأتي:

1-يتميز الخبر الأدبي الممتد بشكل خارجي يطول ويمتد ليشمل في معظم النماذج الصفحة أو الصفحتين من الكتاب،فشكله الداخلي يشتمل على عناصر قصصية تجعله يتميز ببنية سردية متكاملة(مطلع، ومتن، وخاتمة) تقوم على حبكة قصصية حيث يحضر عنصر التشويق، فتتأزم فيها الأحداث التي تنفرج في خاتمتها حيث يشكل المتن مساحة أوسع إذا ما قورنت بالمقدمةوالخاتمة، وهو الذي يضم الحدث الرئيس الذي تتناسل منه الأحداث الفرعية، أما الخاتمة فلا تتجاوز الجملة الواحدة أحيانا، كما قد تتضمن تعليق السارد على الحدث أو الشخصية أحيانا أخرى، وتتعدد فيها الشخوص مع الاحتفاء النسبي بالمؤشرات الزمكانية التي تحضر فقط من أجل الإحالة على زمكانية الحدث[2]. وتحضر هذه البنية بشكل واسع في مختلف أنواع الخبر القصصي وفي معظم المصادر المغربية

[1]- سليمان الطالي، بلاغة النادرة ، ص 31.

[2]- سليمان الطالي، بلاغة النادرة، ص 35، ص 36، ص37، وسعيد جبار التوالد السردي، ص 35، ص 36.

ومن أمثلته الخبر الذي دار بين إسماعيل بن عبيد والخياط الفقير[1]« حدث غير واحد قالوا: كان بالقيروان رجل خياط له بنات، وكان ليس يقوم به عمله إلا عن جهد فلما كان ليلة عيد الفطر دخل على بناته، فوجدهن في الظلام، وليس في البيت شيء يرد يده إليه، فخرج من بيته هائما محزونا، وشق عليه أن يرى بناته منكسرات القلوب بين أترابهنمن بنات الجيران، اللاتي يلبسن يوم العيد الثياب الحسان والزينة مع ما عند آبائهن من كفاية العيش. فسولت له نفسه الخروج من القيروان حتى ينقضي العيد، فمر بمسجد إسماعيل تاجر الله، وقد حضرت صلاة العشاء الآخرة، فصلى معه. فلما انصرف الناس ولم يبق في المسجد إلا الرجل، رآه إسماعيل فعلم أن له قصة. فمضى الشيخ إلى داره وبعث وراءه، فأدخله وسأله عن قصته، فذكرها له، فتوجع إسماعيل لذلك وبكى، وقال له: « كم عندك من البنات؟ »فقال:« خمس»؛ فصاح إسماعيل لأمهات أولاده وقال لهن:« إيتينني بحلى بناتكن وما صنعتن لهن في هذا العيد من الثياب والزينة»، فأتينه بجميع ذلك، وقال لهن : « إيتينني بمائدة العيد» فأتينه بها وفيها أنواع الأطعمة والحلوى، وقال لهن: « إيتينني بما عندكن من الطيب والحناء » فدفع جميع ذلك إلى الخياط، ودفع إليه دنانير كثيرة، وقال له: « اكس بناتك من هذه الثياب والحلى ، وطيبهن بهذا الطيب وكل معهن هذه المائدة، وأوسع على نفسك وعليهن بهذه الدنانير». ثم أمر عبيده، فحملوا ذلك إلى دار الخياط، فضرب الباب عليهن ففتحن الباب، فوجدهن في الظلام على حالهن، فأدخل العبيد جميع ذلك إلى داره وذهبوا، ففرح بناته بذلك فرحا شديدا، وكان في داره سرور كثير، ولبس بناته الحلى النفيس والثياب الجليلة واجتمعن حول المائدة ووسع عليهن في النفقة »[2]. حيث تسعى الأحداث إلى إبراز فعل نادر يكشف السارد من خلاله عن صفة خلقية

[1]- نلاحظ أن نص الخبر برواية المالكي يحتوي في مواضع منه على بعض الخلل النحوي، وقد تبعه الدباغ ولم يحاول تصليح النص كما فعل في الخبر الذي مر معنا حول نفس الشخصية وقد التزم محققا كتاب رياض النفوس الموضوعية في نقل النص وقد أشرنا إلى ذلك في هامش رقم 1، ص 28.

[2]- المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 108، ص 109، والدباغ، معالم الإيمان،ج1، ص 194، ص 195.

تميزت بها الشخصيةالمركزية، ويقوم بناء النص على ثلاثة مقاطع تتضمن أحداثا متكاملةومنسجمة كما يأتي:

- المقطع الأول (المقدمة): وصف حالة الفقر التي يعيشها الخياط

- كان بالقيروان رجل خياط له بنات

-// ليس يقوم بعمله إلا عن جهد

نلاحظ أن هذا الخبر استهل بحدث مكثف وجيز بمثابة مقدمة تمهد لظهور العنصر المفاجئ ومواقفه المتشعبة التي سيعالجها المتن

- المقطع الثاني (المتن): فالوضع الأولي لبداية النص يمثل خياطا فقيرا له بنات يعيش في القيروان، ثم التدرج إلى المتن الذي اتسم بالامتداد السردي، وتشعب الأحداث نظرا لاختلاف مواقف وملابسات المحكي، فالوضع المفاجئ الذي يضم حدثا جديدا تناسل من رحم الحدث الأولي « فلما كانت ليلة عيد الفطر دخل على بناته، فوجدهن في الظلام،وليس في البيت شيء يرد يده إليه »[1]،فهذا العنصر المبدل الذي يظهر فجأة يؤدي إلى تطور الموقف وتتابع الحدث « فخرج من بيته هائما محزونا، وشق عليه أن يرى بناته منكسرات القلوب بين أترابهن من بنات الجيران، اللائي يلبسن يوم العيد الثياب الحسان والزينة مع ما عند آبائهن من كفاية العيش »[2]، فيتجه الوضع نحو التأزم « فسولت له نفسه الخروج من القيروان حتى ينقضي العيد »[3]، فينشأ صراع بين الخياط ونفسه فيصل التأزم إلى الذروة فتتداخل الحالات والأحداث عندها تظهر الشخصية التي ستتدرج بالأحداث نحو الحل « فمر بمسجد إسماعيل تاجر الله، وقد حضرت صلاة العشاء الآخرة، فصلى معه، فلما انصرف الناس ولم يبق في المسجد إلا الرجل رآه

[1]- ن م،ص 108، ن م، ص 194.

[2]- المالكي، رياض النفوس، ج1،ص 108، ص 109، والدباغ، معالم الإيمان، ج1، ص 194، ص 195.

[3]- ن م، ص 109، ون م، ن ص.

إسماعيل فعلم أن له قصة . فمضى الشيخ إلى داره وبعث وراءه »[1]و هنا يبدأ التشـــويق في البناء من خلال فعل الشيخ من جهة، وردة فعل الخياط من جهة أخرى:

السؤال ← أدخله وسأله عن قصته ← تشويق (1)

الجواب ← فذكرها له ← تشويق (2)

التأثير ← فتوجه إسماعيل بذلك وبكى ← تشويق (3)

السؤال ← سأله كم عندك من البنات ← تشويق (4)

الجواب ← فقال<< خمس >> ← تشويق (5)

الطلب ← موجه إلى أمهات بناته ومر بثلاث مراحل:

1- إيتيننـي بجميع حلي وثياب وزينة بناتكم الخاصة بالعيد

2- إيتيننـي بمائدة العيد

3- // بما عندكن من الطيب والحناء

فتتفاعل الردود الإيجابية الخاصة بكل مرحلة لتصل ببنية الحدث إلى قمة التشـــويق كمـــا يأتي:

1- فأتينه بجميع ذلك

2- // بها وفيها جميع أنواع الأطعمة والحلوى

3- // بجميع ذلك

تفاعل ← إلى قمة التشويق

يؤدي في البناء

[1]- ن م، ص 109، و ن م،ن ص.

فيتولد نتيجة لذلك الموقف المفاجئ من الشيخ ليتدرج بالحدث نحو الحل أو الانفراج«فدفع جميع ذلك إلى الخياط، ودفع إليه دنانير كثيرة، وقال له: «أكس بناتك من هذه الثياب والحلى، وطيبهن بهذا الطيب، وكل معهن هذه المائدة، وأوسع على نفسكو عليهن بهذه الدنانير، ثم أمر عبيده، فحملوا ذلك إلى دار الخياط »[1].

- المقطع الثالث (الخاتمة): نهاية مأساة الخياط وبناته يصل السارد فيها إلى عرض الوضع النهائي وهو عبارة عن حدث انبثق من صلب الموقف المفاجئ « فضرب الباب عليهن ففتحن الباب، فوجدهن في الظلام على حالهن، فأدخل العبيد جميع ذلك إلى داره فذهبوا، ففرح بناته بذلك فرحا شديدا وكان في داره سرور كثير، ولبس بناته الحلى النفيسة والثياب الجليلة واجتمعن حول المائدة ووسع عليهن في النفقة»[2]، وهكذا تتشكل الخاتمة التي يوظف فيها السارد عادة في مثل هذه النوعية من الأخبار الوظيفة التأثرية التي توجه ذهن القارئ إلى التدبر عن طريق الإرشاد أو الوعظ ليستخلص العبرة أو المغزى الأخلاقي الذي تضمنته نهاية الخبر.

إذن تقوم البنية القصصية للخبر الممتد على حدث واحد تتولد منه عدة أحداث متشابكة، بحيث لا تقتصر على شخصية واحدة، بل تقوم على شخصيات متعددة منها الشخصيات المحورية التي لا تتعدى في الأغلب الأعم شخصيتين اثنتين (الخياط، والشيخ إسماعيل)، والشخصيات الثانوية التي تضم ثلاث شخوص فأكثر (بنات الخياط، وأهل إسماعيل وبناته وعبيده)، بينما أغفلت تفاصيل السرد التدقيق في وصف البنية الزمكانية التي ستجري فيها الأحداث، حيث سيصرح السارد أثناء عرض تفاصيل الخبر بأسماء أمكنتها(دار الخياط، ومسجد إسماعيل،و دار إسماعيل)، دون التدقيق في وصفها، أما الزمن المحدد في السرد فهو الزمن الماضي (كان ... في إحدى ليالي عيد الفطر)،

[1]- المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 109. والدباغ، معالم الإيمان،ج1، ص 194، ص 195.

[2]- ن م، ن ص ، ن م، ص 195.

والتي مثلت فترة زمنية عامة من حياة إسماعيل بن عبيد غير مؤشر عليها في النص، يمكن تحديدها بالبحث في المصادر التاريخية.

ونلاحظ أن هذا الخبر ينتمي إلى أخبار النوادر الممتدة التي يطغى عليها الوصف والسرد على الحوار[1]، حيث يرتبط الوصف بالوضع الأولي، الذي يرسم إشارات الزمان والمكان ويصور الشخصيات، وخلال السرد تركز اللوحات الوصفية التي تسلط الضوء على التفاصيل والجزئيات وتسهم في بلورة الأحداث وتطويرها باتجاه العقدة والحل،وتوفير عنصر الحركة والتشويق، فوظيفة الوصف هي تنمية وعي القارئ لإدراك سمات الشخصيات بالتركيز على ما هو خارجي (ملامح الشخصية، وأفعالها) وما هو داخلي مرتبط بانفعالات الشخصية، وهذا ما يسهم في استيعاب دوافع الحركة، ويوحي بواقعية الحدث، ويتيح إمكانية تخيل ما يجري تسهيلا للإحساس بالتفاعل والمشاركة.

2- وتحفل أخبار المصادر المغربية بعدد من الأخبار الممتدة التي يهيمن فيها الحوار والوصف على السرد ومنها خبر الخليفة معاوية مع ضرار الصدائي في وصف علي رضي الله عنه[2]، وخبر الحارث الأسدي الذي خطب ابنة الطائي[3]، وخبر أعرابي في عرس[4]،كما نجد نسبة أخرى يطغى عليها السرد والحوار كالخبر الذيدار بين الأصمعي

---

[1]- لمزيد من الأمثلة حول هذه النوعية من الأخبارأنظرما يأتي:

- المالكي، رياض النفوس،ج1،خ (عبد الله اليحصبي ومالك بن أنس)، ص 284 إلى ص286 .

- أحمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحق: إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مصطفى السقا، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي الإمارات، المغرب،ج1، خ(منذر بن سعيد مع البلوطي)، ص 270، ص 271.

- ن م، ج2، خ (ابن خميس وأهل سبتة)، ص 297 ، 298.

- ن م، ج5، تحق: عبد السلام الهراس وسعيد أعراب خ (المنصور بن أبي عامر والمتجسس)، ص 122،ص 123.

-النهشلي الممتع ، ج1، خ (وفاء أخ لأخيه)، ص 104،ص105.

[2]- الحصري، زهر الآداب،مج1، ص 69، ص 70.

[3]- النهشلي، الممتع، ج1، ص 260، ص 261.

[4]- الحصري، جمع الجواهر، ص 283، 284.

والرجل من البادية حول الغربة والاشتياق[1]، وخبر تعظيم سلطان قرطبة الحكم لفقيهها إسحاق[2]، ومنها ما يهيمن عليها السرد والحجاج على الوصف كالخبر الذي حاور فيه الخليفة معاوية أهل العراق[3]،و خبر الأعرابي من بني نهشل وكلب حسبه لصا[4]... وغيرها.

- و قد ورد في بعض المصادر التاريخية ألوان من الأخبار القصصية الممتدة يهيمن على متنها الحوار المفصل منذ بدايته إلى نهايته حيث يتم من خلاله عرض الأحداث التي يغلب عليها الجانب العجائبي الذي يخلط بين التاريخي والأسطوري، فيأتي مشتملا على الكثير من الحجج الإقناعية التي يقدمها السارد بتفصيلات دقيقة تمكن المتلقي من رسم صورة واضحة عن الشخصيات المركزية التي يدور حولها الحدث وترتبط بأشخاص حقيقيين غير عاديين من الأئمة والأتقياء والمؤمنين والعصاة والمخالفين والطغاة...إلخ؛ ومصدر هذه الأخبار وناسخها القاضي النعمان في المجالس والمسيرات[5]، وأبو زكرياء يحي في كتاب السيرة وأخبار الأئمة[6]، ولكي نوضح أكثر خصائص الحوار في هذه الأخبار نقدم كمثال خبر نفاث بن نصر أحد علماء الإباضية المعارضين للإمام الرستمي أفلح بن عبد

---

[1]- الحصري، زهر الآداب،مج2، ص 79، ص 80.

[2]- المقري، أزهار الرياض،ج2، ص 284، 286.

[3]- الحصري، زهر الآداب،مج3، ص 79، ص 80.

[4]- الحصري، جمع الجواهر ، ص 254، ص 255.

[5]- - يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 156.

[5]- محمد بن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحق: محمد بن أبي شنب، نشر عبد الرحمان طالب، دط، 1986م ورد في هذا الكتاب الكثير من هذه الأخبار ومنها خ (شاهد من المنصور على فراسة المعز)، ص 65، ص 66، وخ (كتابة بالمعمى يتوارثها الأئمة)، ص 120، ص 121، وخ (رؤية رآها المنصور حول بناء قصر البحر بالمنصورية) ص 296، ص 298...إلخ

[6]- أبو زكرياء يحي، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحق: عبد الرحمان أيوب، الدار التونسية للنشر، 1985م، وجدنا فيه بعض الأمثلة ومنها: خ (عائشة رضي الله عنها والرجل من البربر)، ص 52، ص 53، وخ (عمر بن الخطاب رضي الله عنه والقوم من البربر)، ص53 إلى ص54، وخ (بين الإمام المهدي وأصحابه)، ص 108، ص 109، وخ (بين علي بن يعقوب والرجل من الجن)، ص 262، ص 264 ...إلخ

الوهاب مع سلطان بغداد«وبلغنا أن نفاثا توجه إلى أرض المشرق، فلما وصل إلى بغداد مكث فيها زمانا، وكان يستأنس لرجل من أهل بغداد ويقعد معه في حانوته ويحدثه. قال: فبينما هما كذلك إذ سمع نفاث مناديا ينادي، فقال لصاحبه: « ماهذا المنادي؟ »فقال صاحب الحانوت:« يقول من أجاب أمير المؤمنين عن مسألة فله سؤاله ». فقال نفاث:« أنا أجيب أمير المؤمنين عن مسألته ولي سؤالي ». فقال له الرجل: « أسكت لئلا يقطع رأسك إن لم تجب أمير المؤمنين بعد تكلف الجواب ».قال، فقال: « بل أجيبه عن كل ما يسأل ». فلما دار أعوان السلطان على صاحب الحانوت قال لهم: « إن هذا تكلّف لأمير المؤمنين أن يجيب عن سؤاله ». قال: فابتدر الأعوان (إلى) نفاث فأخذوه وحملوه ومضوا به إلى دار الإمارة. فاستأذنوا له السلطان، فأذن لهم. فلما مثل بين يدي السلطان سلّم سلام الإمارة. فقرّبه السلطان وأدناه. فسأله عن أحواله وبلده ونسبه ومولده. فقال له نفاث:«يا أمير المؤمنين، أنا رجل من البربر والبربر ليس لهم آداب. فأريد أن تأذن لي أن أتكلم في مجلسك بما بدا لي» فقال له السلطان: « قل ما بدا لك » ثم إن السلطان سأله عن مسألة (فأجابها له) وزاد له السلطان السؤال فأجاب. فكلمّا زاد عليه أجاب. وقد اجتمعت وجوه بغداد وفقهاؤها وعلماؤها، فطفقوا يسألونه حتى عيُوا. فلم يقدروا له على شيء. فنظر إليه السلطان وتأمله مليا وتعجب مما حوى من العلم مع سخافته ونسبه وقلّة أدبه، وقال: « نعم العسل في ظرف سوء ففطن له نفاث فقال له: وهو يعرض له: «نعم الرجل في قبر سوء، يريد ديوان جابر بن زيد الذي عنده محصورا في الخزائن لا يستنفع به أحد واحتمى لذلك السلطان وأنف من قوله وغضب وتذكر أمره له أن يتكلم في مجلسه بما يريد. ثم إن السلطان قال لنفاث: « سَلْ حاجتك »، فقال له نفاث: « حاجتي أن تهب لي ديوان جابر بن زيد أن أنسخه » فأجابه السلطان إلى ذلك ؛ فلما خرج نفاث، قال للسلطان بعض وزرائه: « كيف يكون عندك يا أمير المؤمنين ديوان جابر بن زيد وفي بلادك وخزائنك فتجود به لغيرك وتخرجه من مدينتك، على أنه لا يوجد عند أحد في

شيء من البلدان سوى بلادك؟ أولا ترى عقل الرجل وما بلغ من العلوم على مقدار ما يتعلمه منها. فكيف لو أصاب ديوان جابر بن زيد؟ » فلما سمع السلطان ذلك من قولهم ندم على ما وعد لنفاث من نسخه فقال: « إني وقد وعدت له ذلك وما الحيلة ومثلي لا ينبغي له أن يخلف وعده؟»، فقال للوزير « أرسل إليه وقل له إن الديوان الذي وعدتك أن تنسخه، اختر له أي يوم شئت من أيام السنة ولياليه، فانسخ منه ما قدرت عليه وأما غير ذلك فلا تصيبه» ففطن أن بعض وزرائه طعن فيه عنده. فقال نفاث للسلطان:« أفعل يا أمير المؤمنين » ثم إن نفاثا اشترى بدنانير حبرا من عفص وزاج وصمغ. وعمل أحواضا مجصصة بالجير والشّيد، فهيأ للحبر أمكنة يمكن للوارقين الكتابة من أمكنتهم. فلما كان أطول يوم في السنة أمر منادي ينادي في الناس:«ألا إن كل وراق كتب يومه هذا فله دينار وللمليء نصف دينار »فابتدر إليه الناس من كل جانب يكتبون فما أن طلع عليه الفجر إلاّ وقد استكتب ديوان جابر كلّه إلاّ كتابا واحدا، فكمل عنده تسعة أحمال. ودخل على السلطان فكلّمه أن يدعه ينسخ ذلك الكتاب فأبى عليه السلطان. فسأله أن يقرأه بين يديه مرة واحدة فأعطاه له فقرأه مرة واحدة فحفظه. فقاللسلطان: « إني حفظته ظهريا فإن أردت أن أتلوه عليك فعلت ». فقال له السلطان : «اتله عليّ » قال، فأخذ في قراءته حتى أتمّه. ثم إن السلطان جمع وجوه أصحابه ووزرائه فقال لهم: « إنّ هذا الرجل قد غلبنا وما ترك لنا من حيلة وأراه يريد الخروج بهذا الديوان فلم أصب إليه سبيلا. فانظروا بماذا تحولون به بينه وبين هذا الديوان فافعلوه». ثم إن السلطان قال لهم: « إذا أراد التوجّه إلى بلاده فإني سأخرج إليه وأسأله فإن وقف في مسألة قتلته وإلاّ فاسألوه عماّ قدرتم عليه فمن أوقفه منكم في مسألة قتلناه » فلماّ عزم نفاث على السير إلى بلاده خرج إليه السلطان فتلقاّه في عدة من أصحابه. فلما وصلوا إليه وجدوه قد أراد الركوب على بغلته وقد وضع رجله في الركاب. فسأله السلطان عن مسألة وطفق الناس يسألونه حتى قرب وقت الصلاة. فلميقدروا له على شيءقال، فتعرض نفاث للطريق وأخذ

غير الطريق مخافة أن يتّبعوه فتوجّه به إلى مكّة، ثم من مكة إلى أرض المغـــرب. فلمـــا وصل إلى حيز طرابلس، نظر إلى ضعف أهل مذهبه فطعنته نفسه وساء ظنه وخاف أن يصير الديوان إلى أهل دعوة المسلمين. فأخذه وانتخب له موضعا وحفر له فيه ودفنه ولم يُعرف موضعه إلى يومنا هذا. وهذا كله بغي وحسد وسوء (العاقبة) نعوذ بالله من شـــرّ حوادث الدهر وما يختلف به الليل والنهار »[1]. هذا الخبر على طوله يشمل على:

المقدمة التي استهلها السارد بوصفه للهيئة التي اعتاد نفاث الظهور بها كل يوم فـــي حانوت الرجل العراقي يقول « فلما وصل إلى بغداد مكث فيها زمانا وكان يستأنس لرجل من أهل بغداد ويقعد معه في حانوته يحدثه »[2]، وهي هيئة اتسقت مع شخصيته الســـاذجة التي لا تقدر عواقب الأمور وترمي بنفسها إلى التهلكة «قال: فبينما هما كـــذلك إذ ســـمع نفاث مناديا ينادي فقال لصاحبه: ما هذا المنادي؟ فقال صاحب الحانوت: يقول من أجاب أمير المؤمنين عن مسألة فله سؤاله. فقال نفاث: أنا أجيب أمير المؤمنين عن مسألته ولي سؤالي فقال له الرجل: أسكت لئلا يقطع رأسك إن لم تجب أمير المؤمنين بعـــد تكلـــف الجواب فقال: بل أجيبه عن كل ما يسأل»[3]، فالمقدمة هنا قصة حوارية أبدع فيهـــا أبـــو زكرياء أيما إبداع فالحوار في نهايتها يمثل عنصر المفاجأة في تثبيـــت صـــورة البطـــل الساذج في ذهن المتلقي فالدهشة تبدأ عندما يمثل بين يدي السلطان ويقر صراحة ببداوته وحقارة نسبه فيقول:« فلما مثل بين يدي السلطان سلم سلام الإمارة فقربه السلطان وأدناه فسأله عن أحواله وبلده ونسبه ومولده فقال له نفاث: يا أمير المؤمنين أنا رجل من البربر والبربر ليس لهم آداب فأريد أن تأذن لي أن أتكلم في مجلسك بما بدا لي فقال له السلطان: قل ما بدا لك»[4]،ثم ينتقل السارد إلى عرض المتن الذي سنكتشف من خلالـــه أن بنيـــة

[1]- أبو زكرياء يحي، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، ص 139، ص 143.

[2]- ن م، ص 140.

[3]- ن م،ن ص.

[4]- أبو زكرياء يحي، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، ص139، ص140.

المقدمة عند أبي زكرياء تقوم على تقديم صورة زائفة للبطل ظاهرها الطعن فيه وحقيقتها التمويه والحيلة عن الصورة الحقيقية التي تظهر في المتن فنفاث يتميز بالذكاء والمنطق يدافع عن منهجه كما يدافع المتكلمون عن عقيدتهم ويجادل كما يجادل علماء الكلام فالحوار منذ بدايته مشوقا فكلما سأله السلطان في مسألة علمية أجابف تأتي المفاجأة الأعجب والأغرب التي أثبتت ذكاء نفاث وقدرته على المحاورة بدهاء حيث تمكن من استفزاز السلطان ليحقق رغبته الرئيسية لدخوله القصر« ثم إن السلطان قال لنفاث: «سل حاجتك» فقال له نفاث: «حاجتي أن تهب لي ديوان جابر بن زيد أن أنسخه »فأجابه السلطان إلى ذلك»[1]، وهنا تحدث المفاجأة التي تعقد الأحداث وتصل بها إلى قمة التشويق في البناء فالحوار يقوم على بناء قصصي يعتمد الحيلة من خلال ثنائية التعقيد والحل أي الانفراج، وهو بناء قصصي يتلاعب فيه السارد بمشاعر القارئ ويخلق حالة انتظار حيث يضع ورطة يعيشها نفاث إلى أن يخرج من ورطته ويمكن متابعة ذلك من خلال الجدول:

[1]- أبو زكريا يحي، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، ص 139، ص 140.

	العقدة		الانفراج
عقدة أولى	حيلة الملك ووزرائه بعدم تمكين نفاث من نسخ الديوان « اختر له أي يوم من أيام السنة فانسخ منه ما قدرت أما غير ذلك فلا تصيبه »[1]	انفراج أول	عمل أحواضا من الجير جمع فيها الحبر للوراقين واختار أطول يوم في السنة وجمع الوراقين للكتابة بعد أن أمر منادي ينادي بإغرائهم بالمال « فما طلع عليه الفجر إلا وقد استكتب ديوان جابر كله إلا كتابا واحدا»[2]
عقدة ثانية	حيلة الملك برفضه طلب نفاث في استكمال نسخ الكتاب الأخير فسأله أن يقرأه بين يديه مرة واحدة	انفراج ثان	«فقرأه مرة واحدة فحفظه. فقال للسلطان: إني حفظته فإن أردت أن أتلوه عليك فعلق» فقال له السلطان: اتله عليّ قال فأخذ قراءته حتى أتمه »[3]
عقدة ثالثة	حيلة السلطان ووزرائه لمنع خروج نفاث بالديوان إلى المغرب « إذا أراد التوجه إلى بلاده فإني سأخرج إليه	انفراج ثالث	فلما وصلوا وجدوه قد أراد الركوب على بغلته وقد وضع رجله في الركاب. فسأله السلطان وطفق الناس يسألونه

[1]-أبو زكرياء يحي، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، ص139، ص140.

[2]- ن م،ن ص.

[3]- ن م، ص 141.

	وأسأله. فإن وقف في مسألة قتلته وإلا فسألوه عما قدرتم عليه فمن أوقفه منكم قتلناه»[1]		حتى قرب وقت الصلاة. فلم يقدروا له على شيء »[2]

لقد حملت الحيلة جانب التشويق في كشف طبيعة الشخصية البطولية ونفسيتها التي تميزت بالصبر أمام العقبات التي اعترضتها لتحقيق هدفها. هذا الصبر الذي كنا نحن نشعر معه بالغليان أمام غرور المشارقة الذين يظنون أنه لا يوجد من هو أكثر منهم علما وذكاء حتى انتهى الحوار بتفوق نفاث فتظهر آخر مفاجأة في المتن « فتعرض نفاث للطريق، وأخذ غير الطريق مخافة أن يتبعوه فتوجه به إلى مكة، ثم من مكة إلى أرض المغرب»[3]، فتتحرك مشاعرنا فلا نمسك أنفسنا من الدهشة والإعجاب بذكاء الشخصية حيث لاحظنا أن السارد اعتمد على الكثير من الحجج الإقناعية للبرهنة على قوته؛ والتي أسهمت في إغناء الحوار بعدة وظائف (سردية، وصفية، وحجاجية) أدت إلى حركية الحدث وديناميته، وإبعاد المسار السردي عن الإخبار الجامد الذي يؤدي إلى سآمة القارئ وملله بهدف تشويقه إلى نهاية المتن وبداية الخاتمة يقول:«فلما وصل إلى حيز طرابلس نظر إلى ضعف أهل مذهبه فطعنته نفسه وساء ظنه وخاف أن يصير الديوان إلى أهل دعوة المسلمين فأخذه، وانتخب له موضعا وحفر له فيه ودفنه ولم يعرف موضعه إلى يومنا هذا»[4]،فنلاحظ أن السارد يستمر في التمويه الذي يمارسه على القارئ فالخاتمة تحتوي على عناصر ظاهرها الطعن في الشخص الأساس (المكر، وسوء الظن، والحسد)

[1]- أبو زكرياء يحي، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، ص 142.

[2]- ن م،ن ص.

[3]- ن م، ن ص.

[4]- ن م، ن ص.

وحقيقتها الحيلة التي يلجأ إليها أبو زكرياء لإخفاء الصورة الحقيقية لشخصية الخبر (الذكاء الشديد)، وهي خاصية تميزت بها بنية الكتابة الخبرية المغربية خاصة عنده وهي ما تأكده العبارة الأخيرة التي يقدمها في شكل خطاب ديني استعاري يتضمن تعليقه على الحدث « وهذا كله بغي وحسد وسوء العاقبة، نعوذ بالله من شر حوادث الدهر وما يختلف به الليل والنهار»[1] فالتعليق يكشف عن موقف أبيزكرياء من الشخصية وأفعالها الذي يستمر فيه التمويه والحيلة حيث يخفي من وراءه خلفيته الإيديولوجية الرافضة لكل الفرق الخارجة عن مذهب الإمامة.

ومنه فإن هذا الخبر يندرج ضمن الشكل القصصي الممتد المكتمل البنية الذي يقوم على تشعب الأحداث لا على تعدد الشخصيات؛ فإذا كانت الشخصيتان المحوريتان (نفاث/سلطان بغداد) فإن الشخصيات الثانوية هي: (الوزراء؛ وأهل العلم؛ ووجوه بغداد) إضافة إلى الشخصيات العابرة (صاحب الحانوت،وأتباع نفاث)، ومن السمات القصصية المهيمنة على هذه النوعية من الأخبار الاتكاء على الحوار في المتن لوصف الشخصيات في مشهد متشعب الأحداث شكل مساحة أوسع إذا ما قورن بالتقديم والخاتمة؛ فهو الذي يضم الحدث الرئيس الذي تناسلت منه الأحداث الفرعية؛ أما العبارة الختامية فلا تتجاوز الجملة الواحدة مع غياب تقديم أي معلومات دقيقة عن زمكنية الأحداث، حيث لاحظنا في المثال الاكتفاء بالإشارة إلى زمن عام دارت فيه هو زمن تواجد نفاث في العراق مع التصريح بأمكنتها (الحانوت،وقصر السلطان،وحيز طرابلس)، وهيمنة الخطاب المسرود الذي يتماهى فيه السارد مع مرويه في المقاطع الثلاثة التي شكلت بنية الخبر.

وهكذا قد بينت النماذج السابقة أن نصوص الأخبار القصصية الممتدة تنهض على مكونين متضافرين الإمتاع بواسطة السرد الذي يعتمد بالضرورة على نمط الكتابة الوصفي والإخباري ومن جهة أنها نص حجاجي ذو مقاصد في مجالات الأخلاق

[1]-أبو زكرياء يحي، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، ص142.

والمجتمع والسياسة والفكر... تحتاج إلى نمط الكتابة الحواري والإيعازي والوعظي غير أن الهيمنة تبقى لأحد المكونين على حساب الآخر، وهذا ما جعلها تتسم بجملة من الخصائص والمقومات التي تكفل لها الاندراج ضمن الأشكال القصصية؛ وإن لم تبلغ ما بلغته بعض الأجناس السردية من امتداد وتركيب كالحكاية والقصة وغيرها.

إذا كانت النماذج السالفة تقدم صورة عامة عن هذا الصنف فإننا نود أن نشير إلى وجود بعض الأمثلة القليلة التي تتميز بالامتداد السردي والخطابي أكثر من السابقة يصل إلى ثلاث صفحات وتقترب من شكل الحكاية وتتركب بنيتها المتكاملة (مستهل،وعرض،وخاتمة) من مجموعة من الأخبار التي تشتمل على أحداث متعددة ومتولدة بعضها عن بعض لكنها عامة تتسم بالترابط والتسلسل المنطقي وبتنوع الشخصيات (رئيسة، وثانوية، وهامشية) غير أن السمة الفارقة بين الحكاية وبينها هو أن الحكاية من أكثر الأشكال القصصية توظيفا لعنصري الزمان والمكان فتعمل على تفصيل الحديث في مكوناتهما بهدف توسيع الحدث، في حين أن حضورهما في الخبر شديد الامتداد على العكس من ذلك حيث يقتصر على توظيف إشارات تحيل على أطر الحدث الزمكانية تعمل على تضييق الحدث ومن أمثلته خبر العباس بن الأحنف مع الفتيان الأشراف« ذكر أن فتيانا كانوا مجتمعين، وقد ائتلفوا في نظام واحد، كلهم ابن نعمة، وكلهم قد شرف على أهله وقنع بأصحابه، فذكر ذاكرٌ منهم قال: كنا قد اكترينا دارًا شاسعة على إحدى طرق بغداد المعمورة بالناس، وكنا نفلس أحيانا، ونُيْسر أحيانا، على مقدار ما يمكن الواحد منا من أهله، وكنا لا نستكثر أن تقع مؤونتنا على واحد منا، إذا أمكنه، أو يبقى الواحد منّا لا يقدر على شيء، فيقوم أصحابه به الدهر كله الأطول، فكنا إذا أيسرنا أكلنا من الطعام ألينه، ودعونا الملهّين والملهّيات، وكنا في أسفل الدار، فإذا عدمنا الطرب جلسنا في غرفة لنا نتمتع بالنظر إلى الناس، وكنا لا نخلو من النبيذ في عسر ولا يسر، ولو نبيع الأقوات والثياب، فإنّا لكذلك يوما إذا بفتى يستأذن علينا، فقلنا له: اصعد، فإذا

رجل نظيف الثوب، حلو الوجه، سريُّ الهيئة، ينبئ رواؤه على أنه من أهل النعم، فأقبل علينا فقال: إني سمعت مجتمعكم، وحسن منادمتكم، وصحة ألفتكم، حتى كأنكم أدرجتم جميعا في قلب أحدكم، فأحببت أن أكون واحدا منكم، ولا تحتشمونى، قال: فصادف منا إقتارا من القوت،و كثرة من النبيذ، فقال: أول ما يبسط به أن تأذنوا لي أن أكون كأحدكم، يا غلام، هات ما عندك، فغاب عنا غير كثير، ثم إذا هو قد أتى بسلة خيزران، فيها طعام من المطبخ، من جدي، ودجاج، وفراخ، ورقاق، وأشنان، وأخلّة، وغير ذلك، فأصبن من ذلك، ثم أفضنا من شرابنا، وانبسط الرجل، فإذا أحلى خلق الله إذا حدّث، وأحسنهم استمتاعا إذا حُدّث، وأمسكهم ملاحاة إذا خولف، فأفضنا منه إلى أكرم محالفة، وأجمل مساعدة، وكنا ربما امتحناه بأن ندعوَه إلى الشيء الذي نعلم أنه يكرهه فيظهر لنا أنه لا يحب غيره، ونرى ذلك في إشراق وجهه، فكنا نغنى به عن حسن الغناء، ونتمثل بكلامه، ونتدارس أخباره، فشغلنا بظرفه، وبما رأيناه من وصفه، عن تعرُّف اسمه ونسبه، ولم يكن عندنا منه إلا معرفة الكنية، فإنا سألناه عنها، فأنبنا أنه يكنَّى أبا الفضل، فقال لنا يوما بعد اتصال الأنس: إني أخبركم كيف عرفتكم، قلنا له: إنا لنحب ذلك، قال: إني أحببت جارية بجواركم، وكانت مولاتها ذات حبائب، فكانت الجارية تختلف بينها وبين حبائبها بالرسائل، فكنت أجلس لها في الطريق ألتمس أخبارها، فأراها، حتى أخلقني الجلوس على [الطريق]، ورأيت غرفتكم هذه، فسألت عن خبرها، فخُبِرتُ عن ائتلافكم، ومساعدة بعضكم بعضا، فكان الدخول فيما أنتم فيه آثر عندي من الظفر بالجارية، فسألناه عنها، فخبرنا، فقلنا له: فإنا نخدعها لك حتى تظفر بها، فقال: ياإخوتي، والله إني على ما ترون من شدة الشغف والكلف بها ما قدرت فيها حراما قط، وما أردت إلا مطاولتها، ومصابرتها إلى أن يمن الله بثروة فأشتريها، فأقام معنا زهاء عن شهرين، ونحن على غاية الاغتباط بقربه، وعلى نهاية السرور، ثم اختلس منا فنالنا لفراقه كل مضض مُمِض، ولوعة محرقة مؤلمة، ولم نعرف له منزلا نلتمسه، فتكدر علينا من العيش ما كان طاب لنا به، وقبح ما كان حسن

بقربه، وجعلنا لا نرى سرورا ولا غما إلا تذكرناه، لإضعاف السرور بحضوره، وانصرام الغم بمحادثته، فكنا كما قال الشاعر:

يُذَكِّرُنِيْهِمْ كُلُّ خَيْرٍ رَأَيْتُهُ وشَرٍّ فما أَنْفَكُّ مِنْهُ عَلَى ذُكْرِ

فغاب عنا زهاء عشرين ليلة لا نلتذهن، ثم نحن مجتازون يوما من الرصافة فإذا قد طلع في موكب نبيل، وزيّ جليل، فحيث بصرنا انحطّ عن دابته، وانحط وغلمانه، ثم قال: يا إخوتي، ماهناني عيش بعدكم، ولست أماطلكم بخبر إلى أن أبلغ المستقر، ثم مال بنا إلى مسجد فقال: أعرفكم أولا بنفسي أنا العباس بن الأحنف، وكان من خبري [ما علمتم، ثم إني انصرفت] إلى منزلي من عندكم فإذا المسوَّدة مطيفة بي، فمُضى بي إلى دار أمير المؤمنين، فصرت إلى يحي بن خالد، فقال لي: ويحك يا عباس، إني اخترتك من [بين] ظرفاء الشعراء؛ لقرب مأخذك، وحسن تأتيك، وإن الذي ندبتك له من شأنك، وقد عرفت خطرات الخلفاء، وإني أخبرك أن ماردةَ، وهي أم المعتصم، هي الغالبة على رأي أمير المؤمنين، وإنه جرى بينهم عتب، فهي بعزة دالة المعشوق تأبى أن تعتذر له، وهو بعزة الخلافة،وشرف الملك يأبى ذلك، وقد رمت الأمر من عندهما فأعياني، وهو أحرى أن تستبعده الصبابة، فقل شعرا يسهل عليه مد السبيل، فقضى كلامه، ثم دعاه أمير المؤمنين، فصار إليه، وأعطيت قرطاسا ودواة، فاعتراني الزمع، وأذهب عني ما أريده الاستحثاث، فتعذر على كل قول، وتمنع عن كل عروض، ثم انفتح لي شيء، والرسل تترى، فجاءتني أربعة أبيات رضيتها [ورأيت أن هذه] الألفاظ ملائمة لما طلب مني، فقلت لأحد الرسل: أبلغ الوزير عني أني قد قلت أربعة أبيات، فإن كان فيها مقنع وجهت بها، فرجع الرسول: أن هاتها، ففي أقل منها مقنع، وفي قدر ذهاب الرسول ورجوعه حضرني بيتان من غير ذلك الرويّ، وكتبت الأبيات الأربعة وعقبت بالبيتين فكتبت:

الْعَاشِقَانِ كِلاَهُمَا مُتَغَضِّبُ وَكِلاَهُمَا مُتَوَحِّدٌ مُتَعَتِّبٌ

صَدَّتْ مُغَاضِبَةً وصَدَّ مُغَاضِبًا وكِلَاهُمَا مِمَّا يُحَاوِلُ مُتْعَبُ

رَاجِعْ أَحِبَّتَكَ الَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ إِنَّ المُتَيَّمَ قَلَّمَا يَتَجَنَّبُ

إِنَّ التَّجَنُّبَ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكُمَا دَبَّ السُّلُوُّ لَهُ فَعَزَّ المَطْلَبُ

ثم كتبت تحت ذلك:

لَا بُدَّ لِلْعَاشِقِ مِنْ وَقْفَةٍ تَكُونُ بَيْنَ الْوَصْلِ والصَّرَمِ

حَتَّى إِذَا الهَجْرُ تَمَادَى بِهِ رَاجَعَ مَنْ يَهْوَى عَلَى رُغْمِ

قال: ووجهت الكتاب، فدفعه يحي إلى الرشيد، فقال: والله ما رأيت شعرا أشبه بما نحن فيه من هذا الشعر، والله لكأني قصدت به، فقال يحي: فأنت يا أمير المؤمنين المقصود به، هذا يقوله العباس ابن الأحنف في هذه القصة، فلما قرأ البيتين فأفضى إلى قوله:

رَاجَعَ مَنْ يَهْوَى عَلَى رَغْمِ

استغرب ضحكا، حتى سمعت ضحكه، ثم قال: أنا والله أراجع على رغم، يا غلام، نعلّى فنهض، وأذهله السرور، فلم يأمر لي بشيء، فدعاني يحي بن خالد فقال: إن شعرك وقع من أمير المؤمنين بغاية الموافقة، وأذهل أمير المؤمنين السرور على أن يأمر لك بشيء، قلت: لكن هذا الخير لم يقع مني بالموافقة، قال: إذن أوقعه، ثم جاء إنسان فسارّهبشيء، فنهض، ثم ثبت قائما مكانه، ونهضت لنهوضه، ثم قال: يا عباس، أصبحت أقبل الناس أتدري ما سارني [به] الرسول؟ قلت: لا، قال: ذكر أن ماردةتلقت أمير المؤمنين إذ علمت مجيئه، فقالت له : يا أمير المؤمنين، كيف كان هذا؟ فأعطاها الشعر، فقال: هذا الشعر الذي جاء بي إليك، قالت: فمن يقوله؟ قال: العباس بن الأحنف، قالت: فبما كوفئ؟ قال: ما فعلت شيئا بعد، قالت: إذن والله ما أجلس [حتى يكافأ] قال: فأمير المؤمنين قائم لقيامها، وأنا قائم لقيامهما؟ وهما يتناظران في صلتك، فهذا كله لك، قلت:

مالي من هذا كله إلا الصلة، قال: فضحك، ثم قال: هذا أحسن من شعرك، قال: فأمر لي أمير المؤمنين بمال كثير، وأمرت ماردة بمال دونه، وأمر الوزير بمال دون ما أمرت به ماردة، وحملت على ما ترون من الظهر ، ثم قال لي الوزير: إن من تمام اليد عندك أنك لا تخرج من الدار حتى يؤتّل لك بهذا المال ضياع، فاشتريت لي ضياع تغل عشرين ألف درهم، ودفع إلى بقية المال، فهذا خبري الذي أعاقني عنكم، فهلموا أقاسمكم الضياع، وأفرق بينكم المال، فقلنا له: هنأك الله بمالك، كلنا يرجع إلى نعمة من أبيه وأهله، فأقسم، وأقسمنا، قال: فأنتم أسوتي فيه، قلنا: أما هذا فنعم، قال: فامضوا بنا إلى الجارية نشتريها، قال: فمشينا معه إلى صاحبها، وكانت جارية جميلة حلوة، لا تحسن شيئا، أحسن ما فيها تأدية الرسالات، وكانت تساوي على وجهها مائة وخمسين دينارا، فلما رأى مولاها قبول المشتري استامنا بها خمسمائة دينار فأجبناه بالتعجب، فحطّ مائة، ثم حط مائة، فقال لنا العباس: والله إني أحتشم أن أقول بعد أن قلتم، ولكن هي حاجة في نفسي بها يتم سروري، فإن ساعدتموني فعلت، فقلنا له: قل، قال: هذه جارية كنت أعانيها منذ دهر، وأريد إيثار نفسي بها، فأكره أن تنظر إليّ بعين من ماكس في ثمنها، دعوني أعطيه خمسمائة دينار، فقلنا لهم: قد حطّ مائتين، قال: وإن فعل، فصادف من مولاها رجلا حرا كريما، فأخذ من الثمن ثلاثمائة دينار، وجهزها بالباقي، ومازال العباس عشيرا لنا حتى مات »[1]؛ فالخبر يتركب من ثلاثة أخبار تدور حول شخصية رئيسة هي العباس بن الأحنف حيث يعتبر الخبر الأول بمثابة الإطار الذي يشكل مقدمة الخبر يفتتح السرد فيها ليعلمنا أنه ذكر أن فتيانا أربعة ائتلفوا على المحبة، وكانت لهم دار شاسعة على إحدى طرق بغداد المعمورة بالناس، اجتمعوا للعيش فيها على اللهو الذي لا يخلو من الشراب مقتسمين أسباب العيش

[1]- الحصري، المصون، ج2، ص 150 إلى ص 154، وللمزيد من الأمثلة أنظر ما يلي:
- ن م، مج1، خ (يوحنا مع ملك القسطينية)، ص 94إلى ص 96.
- ن م، خ (عمر بن ربيعة وصديقه العذري)، ص 66 إلى ص 71.
-المالكي، رياض النفوس ،ج2، خ (واصل المتعبد مع العصا)، ص 16إلى ص 19.
- ابن خلدون، بغية الرواد، ج2، خ (المأمون وإبراهيم بن المهدي)، ص 50 إلى ص 53.

بينهم، وإذا عدموا اللهو جلسوا في غرفة يتمتعون بمراقبة الناس. وزارهم ابن الأحنف يوما وأخبرهم أنه أعجب بصحة صداقتهم، ويريد الانضمام إلى صحبتهم فرحبوا به، واستمتعوا بصحبته خاصة أنه كان من أكرم الناس وأحسنهم رواية للأخبار الظريفة، فشغلوا بظرفه عن تعرف اسمهونسبه ولم يكن عندهم منه إلا معرفة الكنية " أبا الفضل " .

وبعد اتصال الأنس بينهم قال لهم يوما: إنه سيخبرهم كيف تعرف عليهم وهنا يظهر" الخبر الثاني": الذي يتضمن قصة حبه لجارتهم الجارية وكيف كان يجلس على الطريق يلتمس أخبارها، فكان ذلك هو السبب في التعرف على غرفتهم، وقصة محبتهم التي أصبحت حديث أهل الحي، فأصبح الفوز بصحبتهم أفضل عنده من الظفر بالجارية، فأقبلوا عليه يعرضون المساعدة للفوز بها، ورفض وقرر الصبر حتى يمن الله عليه بالمال لشرائها،وأقام معهم في سرور دام مدة شهرين ثم غاب عنهم فجأة فتكدر عليهم العيش حزنا على فراقه الذي دام عشرين ليلة.

ثم وهم مجتازون يوما من الرصافة إذ قد طلع عليهم في موكب نبيل وزي جليل، وحين رآهم نزل عن دابته ومال بهم إلى مسجد قريب وعرفهم أولا بنفسه أنه العباس بن الأحنف ثم انتقل ليخبرهم عن سر غيابه عنهم فيظهر " الخبر الثالث ": وتتضمن أحداثه قصة إصلاحه بين الخليفة الرشيد وزوجته؛ فهو بعد انصرافه من عندهم إلى منزله حاصره الحرس ومضوا به إلى دار الخليفة فاستقبله يحيى بن خالد وأخبره أنه اختاره لأنه من أفضل الشعراء الظرفاء ليقول شعرا يؤثر في الرشيد في مد السبيل لإصلاح المودة التي قطعت بينه وبين زوجته ماردة؛ لأنه رام الأمر مرات عدة ولكنه فشل، فصنع أبياتا ظريفة وقعت من الخليفة غاية الموافقة حيث أذهلته من الضحك وجعلته يعجل بمصالحة زوجته، وقد كافأه كل من الوزير والخليفة وزوجته بأموال طائلة فينتهي الخبر ويعود بنا السارد إلى الخبرين السابقين ليكمل معالم الأحداث التي شكلت عقدة الحدث التي تولد منها الخبر الثاني ثم الثالث. فيتشكل مقطع سردي يضم خاتمة الخبر التي تنفرج فيها الأحداث

وتنتهي باقتسام ابن الأحنف للأموال مع أصحابه وشرائه الجارية بمال كثير وظل عشيرا لهم إلى أن مات.

لقد اشتمل الخبر على عدد من العناصر القصصية المتشابكة كتعدد الشخصيات ومنها الشخصيتان المحوريتان: (العباس بن الأحنف، والفتيان الأربعة). ويقدمها النص بتفصيلات دقيقة تمكن المتلقي من رسم صورة واضحة لها، على الرغم من هيمنة خطاب الشخصية الأولى على الثانية لأنها الشخصية الرئيسة (المركزية) التي تقوم بدور البطولة وترتبط بها الأحداث. وهناك الشخصيات الثانوية: الجارية، ويحي بن خالد،والرشيد وماردة وأم المعتصم، والشخصيات العابرة المذكورة في متن الخبر وهي: الملهين والملهيات، وسيدة الجارية، والحرس ويظهر لنا عند تحليل هذا الخبر المشاهد التي تعتمد على السرد والحوار حيث يأتي على شكل سرد تتوالى فيه الأفعال ويشعر القارئ بتطور الحدث وتناميه، وقد ظهرت المشاهد الحوارية السريعة في الخبر الثالث في ثلاثة مشاهد متتالية وهي: الحوار الذي دار حول الرشيد وابن خالد حول معنى الأبيات[1]، ثم الحوار الذي دار بين الشاعر والوزير حول المكافأة[2]، وأخيرا الحوار الذي دار بين الخليفة وزوجته حول الشعر سبب الصلح وقرارها مكافأة قائله[3]، وقد اعتمد السارد في تقديم الأحداث على التنويع في صيغ الخطاب بين المعروض أثناء تقديم الأخبار الثلاثة والذي يتميز بحضور ضمير المتكلم، وبين المسرود المرتبط بصوت السارد العليم، وهو يقدم المشاهد الوصفية الدقيقة للشخصيتين المحوريتين.

ولعل هذه السمات والخصائص قد كفلت لهذا الخبر الاندراج في الجنس القصصي شديد الامتداد؛ على الرغم من عدم الاحتفاء بوصف مكونات الأمكنة والاكتفاء بالتصريح

[1]- الحصري، المصون، ج2، ص 153.

[2]- ن م، ن ص.

[3]- ن م، ص 153، ص 154.

بها فقط (منزل الفتيان،والرصافة،والمسجد،ودار الخليفة)، وكذلك الإشارة في الخبر الثالث إلى زمن عام تدور فيه أحداث الخبر وهو زمن حكم الخليفة هارون الرشيد، ونجد أن الأحداث تتوالى في زمن خاص على نحو فني حيث يبدأ من انضمام الشاعر إلى الفتيان، وهي مدة زمنية استغرقت أكثر من شهرين ثم غيابه عنهم مدة عشرين ليلة مما يسمح بتوليد أحداث متعددة، ولكنها مترابطة ومتسلسلة منطقيا ومتلاحمة ومتتابعة تنتهي بدوام العشرة بينهما، بحيث يفضي ذلك إلى تشكيل بنية مركبة شديدة الامتداد بتشعب الأحداث وتعددها وأصبحنا أمام ثلاثة من الأخبار المتداخلة التي استدعت بعضها. ويمكن أن تقدم منفصلة فيشكل كل واحد منها خبرا مستقلا، لكنها في هذا الخبر تعالقت فكان الخبر الأول بمثابة الإطار المكمل للأحداث المفتوحة للخبريين الضمنيين، وذلك لإتمام معالم البنية الحكائية التي قامت على جملة من العناصر الفنية جعلتها تقترب من الشكل القصصي المتكامل للحكاية في الأدب العربي القديم.

تتيح لنا هذه المقاربة التفصيلية لتحولات الحدث على مستوى المسار الحكائي لمختلف الأمثلة السابقة لأشكال الخبر القصصي الموجز والممتد إمكانية المقارنة بين البنية المغلقة للخبر الموجز والبنية المنفتحة نسبيا للخبر الممتد؛ حيث تمكننا من ضبط مجموعة من التحولات التي عرفتها بعض القوانين الضابطة للمستوى الأول (البنية البسيطة) وأدت إلى الانتقال إلى المستوى الثاني من التركيب السردي والذي يؤشر على وجود بنية مركبة تزداد فيها هذه القوانين وضوحا ويمكن إجمالها في الجدول الآتي[1]:

[1]- سعيد جبار، التوالد السردي، قراءة في بعض أنساق النص التراثي، جنور للنشر، الرباط المغرب، ط1، 2006م، ص26، ص27، ص28.

الخبر الموجز	الخبر الممتد
- وحدة الحدث	- توسيع الحدث (في بعض الأمثلة شديدة الامتداد تنوع الأحداث وتعددها)
- قلة الشخصيات وثباتها	- تنوع الشخصيات وإمكانية تحولها في البنية شديدة الامتداد
- غياب ملامح محددة للزمان والمكان	- التركيز على بعض الملامح المميزة للبنية الزمكنية
- هيمنة الخطاب المسرود	- حضور الخطاب المعروض إلى جانب المسرود

وعموما فإن مثل هذه التوليدات الحدثية ترافقنا على طول المدونة الخبرية، وهي تؤكد ما تمت الإشارة إليه سابقا من اشتغال المخيلة السردية العربية الشفوية في إعادة الأحداث لينهض المحكي القصير على سيرورة سردية بسيطة أو مركبة حيث أصبح بإمكاننا أن نعد الخبر شكلا من أشكال السرد الذي أصبح بعد تطور الأجناس السردية لبنة أساسية لأغلبها بدءا بالحكاية والمقامة والقصة القصيرة، والرواية ... وهلم سردا.

وأخيرا فإذا كان السند أهم خاصية ملازمة لتدوين نصوص الأخبار القديمة بسبب تأثير الخطاب الديني ، فلعل النماذج الخبرية التي مرت معنا كفيلة بأن تعطينا صورة أولية عن عدم حرص المؤلفين المغاربة على إدراج السند كخاصية ملازمة للمتن الخبري حتى داخل الكتاب الواحد، حيث تأرجحت رواية الأخبار عندهم بين التمسك به والتخلي عنه؛ وربما يعود ذلك لإيمانهم بخصوصية الخطاب الأدبي وتميزه عن الخطاب التاريخي يقول الحصري «وأنا أحذف أسانيد ما رويته وآتي بمتون ما رأيته، إذ هي الغرض

المطلوب من استمالة القلوب، بما تحويه من سحر البيان وسر البرهان »[1]، فهي تعمل بطريقة ما على تمرير عينات فكرية وثقافية تتعدد بتعدد رهانات المؤلفين وانشغالاتهم ومواقعهم واختياراتهم، التي تهدف إلى إثارة المتلقي بما تحمله من قيم ومواقف من الوجود تضاهي في عمقها وغزارتها ما تنوس به أنواعه السردية المختلفة والتي يمكن ملامستها من خلال البحث في مقاصد الخبر وعلاقته بالتجربة الإنسانية

5- أنواع الخبر:

لئن اختلفت نصوص الأخبار في أحجامها، وفي الأسس والغايات الجمالية، فإنها تشترك جميعا في الانصراف إلى إنشاء فكرة متجانسة المنطلقات والنتائج انطلاقا من الكلام في مظهر تركيبي (العلاقات بين الوحدات النصية)، ومظهر لفظي (العناصر اللسانية)، ومظهر دلالي (النتاج المعنوي)، وقد كشفت لنا التحليلات السابقة الملمح الفني الأبرز في الخبر ألا وهو التواشج الطريف بين أدب السرد (القص)، وأدب الدلالة (الصورة الرمزية)، ذلك أن الأخبار تمتعنا وتعلمنا: تمتعنا بأنها جملة من العناصر القصصية أي دعامة كاملة الترابط تجعل للمسرود بعدا حكائيا على خط السرد المباشر المتميز بالإمتاع، وتعلمنا بما تتضمنه من الإثارة رغم اختزالها في بعض النصوص الموجزة وبما تفتحه للقص من أفق واحتمالات وبما تشف عنه من صور رمزية تحمل دلالات فكرية وثقافية تشكل عالما قصصيا مكونا من شبكة من العناصر المندرجة على خط القص المباشر والمحيلة في تطابق دقيق على شبكة أخرى من المعادلات على خط الدلالة الرمزية تجعل الخطاب ثري الوظائف متعدد المقاصد.

وإذا كان " التغاير " سمة جوهرية تشترك فيها كل النصوص الخبرية، فمن الصعب أن يكون النتاج المعنوي نمطا أحاديا لارتباطه بصفات الكلام، التي تتجلى في موضوعات

[1]- إبراهيم الحصري ، نور الطرف ونور الطرف (كتاب النورين)، تحق: لينة عبد القدوس، مؤسسة الرسالة ، لبنان، ط1، 1996م، ص 108.

عديدة وذلك بحسب ما يمثله الكلام في علاقته بالتجربة الإنسانية التي تتكشف عبرها وضعيات وأبعاد وأهداف متعددة، لأن التجربة الإنسانية تتمثل في العلاقات التي يبنيها الإنسان مع الواقع المحيط به من محسوس ومعقول « إن الأنماط الأساسية الثلاثة التي نحددها من خلال علاقة الكلام و(الخبر) بالتجربة تنطلق من الأليف إلى العجيب مرورا بالغريب، وتنبني على ثلاثة أنماط من الإدراك تذهب من الحواس الظاهرة (الواقعي) إلى المتصرفة (التخيلي) مرورا بالحواس الباطنة (التخييلي) »[1]، فالنصوص الخبرية إذا ملتقى لأنماط تعبر عن عوالم عديدة يتفاعل معها الإنسان بمختلف حواسه الظاهرة والباطنة مستعملا وسائط الإدراك المتاحة أمامه « ولما كان الخبر وحدة سردية متنقلة، فإن الرغبة في الأخبار الممتعة حدت بالرواة إلى عدم الإسراف في ملاصقة الواقع، دون أن تجيز لهم أن يتجاوزوه تجاوزا تاما »[2]، وبعبارة أوضح « فإن العلاقة الثلاثية بين الواقعي والتخييلي والخيالي شيء أساسي بالنسبة للنص الأدبي، ومن هذه العلاقة يمكننا أن نستخرج الطبيعة الخاصة للفعل التخييلي. وكلما انتقلت العناصر الواقعية إلى النص أصبحت دلائل لشيء آخر، وبذلك دفعت لتتسلخ عن تحديدها الأصلي. وعندما يحدث هذا التحول من التحديد إلى اللاتحديد بسبب الفعل التخييلي تبدأ الخاصية الأساسية لهذا الفعل في الظهور إلى الوجود، أي أن الفعل التخييلي هو تجاوز للحدود، وهو أيضا فعل انتهاكي، وهذه الوظيفة الانتهاكية للفعل التخيلي هي ما تربط هذا الأخير بالخيالي ...وهذا لا يعنى القول بأن الخيالي هو الواقعي بالذات، رغم أنه دون شك يكتسي صبغة الواقع حيث يتدخل في العالم المعطى ويؤثر فيه»[3]، ولذلك يستحيل على السارد أن يسرد دون أن يخبر عن تلك الاستجابة التي تتجلى صورها في عوالم ثلاثة: واقعي (أليف)،

[1]- سعيد يقطين، الكلام والخبر ، ص200.

[2]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي ، ص 640 إلى ص 641.

[3]- فولفغانغ إيزر، التخييلي والخيالي من منظور الأنطربولوجية الأدبية، تر: حميد لحميداني، جلالي الكدية، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط1، 1998 م ، ص9 .

وتخييلي (غريب)، وتخيلي (عجيب)[1]، والتي تحدد أنواع الخبر بحسب علاقته بالتجربة على هذا النحو:

«**1-** الخبر **=** التجربة: عندما يكون الخبر يوازي التجربة نكون بصدد الأليف واليومي والواقعي الذي يتساوى كل الناس في إدراكه وتمثله.

2-الخبر**>** التجربة: وعندما يصبح ما يقدمه لنا الخبر يفوق أو يوازي التجربة نصبح أمام عوالم جديدة تتميز بغرابتها عما هو أليف وتنزاح عما هو متداول ويومي. إن هذا الانزياح يجعلنا في منطقة التماس بين ما هو واقعي وما هو تخييلي.

3- الخبر**<** التجربة: وعندما يتجاوز الخبر التجربة ويفوقها، يتم خلق عوالم جديدة تقوم على « التخيل » وذلك من خلال اختراع أشياء لا حقيقة لها بخروجها عن عوالم التجربة الواقعية العادية »[2].

إلى هنا نكون قد تدبرنا الخبر بما هو نص سردي متباين الأنماط، والتي ظلت تتأرجح في المدونة العربية القديمة بين « النمط الواقعي والنمط التخيلي على اعتبار أن التخيل السردي يفضل دوما ولأسباب متعددة أن يختفي وراء عباءة الإثبات، تمنح الخبر المصداقية، وتعطي للراوي شرعية تكسبه سلطة تفوق سلطة الحاكم »[3]، فراوي الخبر يرمي دائما إلى إمتاع قرائه المحتملين وإحراز تأييدهم، لهذا السبب فإنه يبني عوالمه على تمش فكري منسجم، وعلى تنظيم منطقي متدرج، وأيّا كان نوع الخبر، فإنه يبقى بوجه عام ظاهرة متعددة الأبعاد في مجالات الأخلاق والسياسة والفكر، وتتنوع بين مواضع الجد والهزل وتتصل بمجموعة من المقاصد والغايات المختلفة التي رسمها السارد لخطابه

[1]- سعيد يقطين، الكلام والخبر ، ص 199.

[2]-سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص 199، ص200.

[3]- سعاد مسكين، خزانة شهرزاد، الأنواع السردية في ألف ليلة وليلة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2012م، ص 136، ص 137.

حيث يندر أن يكتب الكاتب من أجل أن يكتب بل هو يسعى دائما إلى إحداث أثر ما في القارئ من خلال أسلوب الخبر الذي يتميز « بكونه أسلوبا ساميا يلتزم فيه الراوي بالعديد من المقومات البلاغية والشروط التي تجعل كلامه يلقى القبول والاستحسان لدى المتلقي يعود هذا الالتزام إلى الطبيعة النوعية لهذه الأخبار، إذ تأتي في مجملها لتمثل تجارب إنسانية كائنة أو محتملة، يهدف من ورائها إلى تبليغ عبرة أو إثبات موعظة فكرية أو تعليمية فهي إذن ذات طبيعة جادة ورصينة، على الرغم من أنها قد تقدم صورا تعبيرية عن حياة بعض الشخصيات المهمشة (الشطار والمغفلين) بطريقة مضحكة أو ساخرة، لذلك يظل الأسلوب في غالب الأحيان مرتبطا بطبيعة النوع والمقصدية المرجوة منه»[1]، وهو ما جعل النصوص الخبرية تتضمن مجموعة من المقاصد والغايات التي أراد السارد إيصالها إلى المتلقي كالآتي :

أ-خبر لتوصيل المعرفة إلى المتلقي بقصد " الإخبار والتعرف " وهنا تبرز العلاقة المعرفية التي تجعل المتلقي يدرك أشياء جديدة عن طريق إعمال الفكر، والتأمل أي معلومات ومدارك تغذي فكره وتنمي ذهنه وتنقله من الجهل إلى المعرفة كما نجد في أخبار " الأذكياء " من الأدباء والعلماء والأعراب ... وغيرهم[2]

ب-خبر لخلق الانفعال لدى المتلقي بقصد " التدبر " وهنا تبرز العلاقة الوجدانية، وهذا الانفعال يتم عن طريق " البكاء " بقصد التدبر وبناء الأخلاق في المجتمع باستخلاص العبرة كما نجد في الأخبار الممزوجة بالمواعظ التي تتعلق بالأئمة والزهاد والصالحين[3]

ج- خبر لخلق الانفعال لدى المتلقي بقصد " الحيلة " فيكون الانفعال منشدا إلى الخوف والانقباض بهدف الحيلة والسيطرة على ذهن المتلقي كما نجد في الأخبار المتعلقة بقدرة

[1]- سعاد مسكين، الأنواع السردية، ص137، ص138.

[2]- سعيد يقطين، الكلام والخبر ، ص201.

[3]-ن م، ص200.

الأئمة والأولياء الصالحين على تحقيق أمور عجيبة تخلط بين التاريخي والأسطوري وهذه الأنواع أخبار جد[1]

د-خبر لخلق الانفعال بقصد التسلية انطلاقا من خلق شعور بالمرح والتفكه لدى المتلقي، وتبرز هنا علاقة حسية، فيتم الانفعال عن طريق الضحك كما نجد في أخبـــار المخنثـــين والحمقى.[2]

هـــ-خبر لخلق الانفعال لدى المتلقي بقصد التسلية وتبرز هنا العلاقة الحسية فيتم الانفعال عن طريق تحصيل اللذة الروحية كما نجد في أخبار العشاق والغلمان والجواري[3]وهـــذان النوعان الآخيران أخبار هزل.

وعندما ننتقل لنتابع الأخبار في المصادر المغربية، وما كتبه المؤلفون في العصر الوسيط بصفة خاصة من كتب منوعات الأخبار التي استطاعت أن « تحفر مكانا لنفسها داخل الخطاب السائد أولا، لتغذي رغبة الخاصة بمعرفة الجاري، وحياة الأوائل وبعادات الشعوب الأخرى ومأثوراتها»[4]، فالمدونات المغربية الجديدة تجمع كل ما له علاقة بالأدب العربي من شعر، وفنون نثرية مختلفة " فالمقري " مثلا يجاهر بهذا التنوع قائلا: « وقد ذكرت في هذا الكتاب حكايات مختلفة، وفنونا مفيدة، يزداد الناظر بها معرفة [حسبما]جرت بذلك عادة كثير من الأئمة في مصنفاتهم، ومجالس درسهم، وقد قال الماوردي (أقضى القضاة) في كتاب آداب الدين والدنيا: القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة، وذكر أن المأمون كان ينتقل في قصره من موضع إلى موضع، وينشد قول أبي العتاهية:

---

[1]- ن م، ص201.

[2]-سعيد يقطين، الكلام والخبر ، ص201.

[3]- ن م، ن ص.

[4]- محسن الموسوي، سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي دار البيضاء المغرب، بيروت لبنان، ط1، 1997 م، ص 38.

لَا يُصْلِحُ النفسَ إذا كانت مُدْبِرَةً إلا التَّنقلْ من حـــــــالٍ إلى حـــــالٍ»[1]

فيتضح لنا جليا أن الأخبار تتميز بالتنويع حتى داخل الكتاب الواحد، ويتصل هذا التنوع بشخصية المؤلفين المغاربة التي اتسمت بالموسوعية أي الإلمام بفنون علمية شتى فمنهم الشيخ الأديب الشاعر، وإمام المذهب أو الطريقة، والعالم المتدينالزاهد، والمؤرخ الأديب الشاعر...، فما جمعه الشيوخ المغاربة من الأخبار يعد من المجالسات المتنوعة التي ترتقي بالمحكي إلى المقبول وتناجي عند العامة والخاصة الرغبة في (الجد) و(الهزل)، والممتع وبعيد المنالعند الشعراء والكتاب والأئمة والزهاد والفتيان والجواري ... وغيرهم فيخرق المؤلف بالمجالسة الخاصة المتنوعة الموضوعات ما هو مضروب من حجاب ضد المحكي، فتظهر المجالساتأسمارا يختلط فيها أكثر من نوع خبري يجمع للقارئ الجد والهزل[2].

ولم يكن هذا التغاير بين هذه الكتابات التي تحضر فيها مختلف الموضوعات غائبا عن قصد المؤلف يقول الحصري: « وتظهر في التجميع إفادة الاجتماع؛ وفي التفريق لذاذة الإمتاع، فيكمل منه ما يونق القلوب والأسماع؛ إذا كان الخروج من جد إلى هزل، ومن حزن إلى سهل أنفى للكلل، وأبعد من الملل»[3]، فالتنويع يتوسل به مصلحة القارئومنفعته، حيث تهدف الأخبار إلى إفادته والترويح عنه، وقد دفع ذلك الحصري إلى إجراء مقارنة بين أحد كتبه – سنتناول الحديث عنه بالتفصيل أثناء وصف المدونة -، وبين المائدة الجامعة، مستعينا بما تستند إليه مجالس الخاصة من تنوع، منطلقا من مادتها ليمسك باختلاف همم الجالسين وتعدد أغراضهم فيصعب الوقوف على حقيقة ما تستندره من الأطعمة لكي يبلغ ما يريد من تنوع وتباين في الخطابات النادرة كما في أذواق

[1]- المقري، أزهار الرياض ، ج1، ص 21.

[2]- محسن الموسوي، سرديات العصر الوسيط ، ص 13.

[3]- الحصري زهر الآداب، مج1، ص 22، ص 23.

الأفراد[1]، « وجعلته بتنوع الكلام، كالمائدة الجامعة لفنون الطعام، إذ همم الناس مفترقة، وأغراضهم غير متفقة، ولا أعلم حقيقة ما تستندره، ولا محض ما تؤثره»[2]،حيث إن عنصر الربط الزمني أو الحدثي يكاد يغيب في هذه الكتب إلا أنها موضوعة في أطر تاريخية أو جغرافية أو موضوعاتية أو مزاجية، هازلة، أو جادة تحيد عن تسلسل البناءات لتأتي بأخرى بديلة تتنقل فيها العين والأذن كما ينتقل الذهن مستزيدة من الكلام والمجالسة كما هي راغبة في متعة الحدث والخبر[3] فيرتبط التنويع فيها بمستويين: يتعلق الأول بالأنماط المتنوعة بتنوع القضايا والموضوعات فهي تشمل الواقعي (الأليف)، والغريب الذي يتأسس على التخييل، والعجيب الذي يرتكز على التخيل، أما الثاني فيتعلق بالأهداف (المقاصد) التي يرمي إليها الخبر وهي متنوعة يمكن اختزالها في الإثارة الوجدانية والعقلية والحسية.

إن ما يقدمه الخبر في هذه المصادر هو الشخص غير العادي أي الفئة التي لها حظوة من قبيل الأئمة، الملوك، الوزراء، القضاة، العلماء، الزهاد، الأدباء...إلخ وفي إطار علاقاتهم مع الآخرين في سياق تواصلي وتداولي محدد؛ ولعل هذا ما يجعله متسما بطابع " الرفعة "، وإن كان هذا لا يلغي اختصاص العديد من النماذج الخبرية بشخصيات عمومية (أي الناس العاديين) في إطار تعاملاتهم الوظيفية النفعية وهنا يتسم " بالشعبية " وفي علاقة الخبر بالشخصية يتعدد البعد الموضوعي للخبر الذي يتصل عادة بصفة أو قيمة خلقية تختص ببعض أنواع الناس فتتنوع تبعا لذلك أنماطه التي ترتبط بوظائف ورهانات متعددة فبالنسبة إلى كبير الأدباء وشيخهم " إبراهيم الحصري " فإن جمعه لجواهر أخبار النوادر أي الملح التي أوردها «كنوافث السحر ... يصبو إليها القلب والطَّرْف، ويقطر منها ماء الملاحة والظَّرفِ، وتمتزج بأجزاء النفس، وتسترجع نافِرَ

[1]- الموسوي، سرديات العصر الوسيط ، ص 16.

[2]- الحصري، جمع الجواهر، ص14.

[3]-الموسوي، سرديات العصر الوسيط، ص 17.

الأُنس »[1]، ولعل هذه الوظيفة التعليمية التي تهدف إلى توصيل المعرفة وإعمال الفكر هي رهان العديد من مدونات الأخبار، لكنها توازيها وظائف أخرى من قبيل الوظيفة التوجيهية التدبرية في كتب التراجم والطبقات يقول المالكي: «ورأيت في جمع ذلك [أي أخبار السالفين] إحياء لذكرهم ونشرا لفضائلهم، فيتذكر بذلك متذكر ويقتدي مقتد »[2]،وقد ترتبط بها وظائف كالفخر الذي نجده في بعض كتب التاريخ يقول ابن خلدون:«وتدوين ما اشتملت عليه أيامه من أخلاق وجدة...، ليكون ذلك أسوة في الفخر اللباب وعظة وذكرى لأولي الألباب »[3]،وسنرى – في وصف المدونة– أن هذه الوظائف وغيرها يؤصل لها في العتبات والنصوص الموازية للأخبار وخصوصا في المقدمات[4]، وقد لاحظنا أثناء مقاربة هذه الوظائف المحايثة للمتون الخبرية المتنوعة أنها تتحكم في مقاصد واختيارات المبدع المغربي وفق تجلياتها المختلفة، فأوصلنا ذلك إلى تقسيم هذه الأخبار في التراث النثري المغربي إلى الأنواع الآتية:

1-خبر النادرة:

التفسير المعجمي للفظة نادرة يحيل على « نَدَرَالشيءُ يَنْدُرُ نُدُرًا: سقط، وقيل: سقط وشذَّ، وقيل سقط من جوف شيء أو من أشياء، فظهر، ونوادِرُ الكلام تَنْدُرُ: وهي ما شذَّ وخرج من الجمهور... والنَّدرة القطعة من الذهب والفضة »[5]، ومن الجلي أنه يمكن اختزال دلالة الكلمةفي معنيين هما الشاذ والنفيس، وإذا تقصينا استعمال الكلمة في كتب الأخبار المغربية؛ وجدناها ترتبط بأخبار نوادر الكلام، والتي تعني عند الكثير من المؤلفين ومن أبرزهم " الحصري " " المُلَحُ " من الأخبار وقد وردت كلمة المُلَحُ في لسان

[1]- الحصري، جمع الجواهر، ص 25.

[2]- المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 4.

[3]- يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص15

[4]- الهاشمي اسمهر، عتبات المحكي القصير ، ص 92.

[5]- ابن منظور، لسان العرب، ج14، ص 84، ص 85.

العرب«ملح: المِلْحُ ما يطيبُ به الطعام، يؤنث ويذكر، والتأنيثُ فيه أكثر وتقول : مَلَحْتُ الشيء ومَلَّحْتُهُ، فهو مُمَلَحٌ مَلِيحٌ ... والمُلْحة والمُلَحَةُ: الكلمة المَليحة وأمْلح جاء بكلمة مَليحة؛ المُلْحَةُ: الكلمة المَليحه وقيل القبيحة...، ومَلَّحَ الشاعر إذا أتى بشيء مَليح. والمُلْحَةُ بالضم: واحدة المُلْحُ من الأحاديث قال الأصمعي: بَلَغْتُ بالعلم ونِلْتُ بالمُلَحْ، والمَلْح: المُلَحُ من الأخْبَار»[1]، فربط الكلام النادر بـــ «المُلْحَة» لما لحمولتها الدلالية من إضفاء « الذوق » فكل كلام مالح في عرف الإخباريين المغاربة لا يخلو من مكونين أساسيين هما الطُّرَفُ والظَّرْفُ، ويحيل المكون الأول من الناحية اللغوية على «طَرفَ والاسم الطُّرْفَةُ، وشيء طَريفٌ: طَيّبٌ غريب...، وقال خالد بن صفوان: « خير الكلام ما طرفت معانيه، وشرُفَت مَبَانيه والتَذّه آذان سامعيه... وأَطْرَفَ فلان إذ جاء بطُرفَةٍ... واستَطْرَفْتُ الشيءَ استحدثته...، قال ابن سيده : أطراف الأحاديث مختارها...، وطَرَائِفُ الحديث مُختاره »[2]، أما الثاني فيحيل على «ظَرَفَ: الظَّرْفُ: البراعة وذكاء القلب، وقيل الظّرف حسن العبارة وقيل حسن الهيئة، وقيل: الحذق بالشيء... والظَّرْفُ مصدر الظّريفُ وقد ظَرُفَ يَظْرُفُ وهم الظُرفاء والظّرُفُ في اللسان البلاغة »[3]،فحينما يسند إلى النادرة سمتي الطُّرَفُ والظّرْفُ فخبر النادرة يعني: الخبر المستملح الطريف أو الظريف الذي يثير في القارئ عجبا أو دهشة أو لذة أو ابتسامة أو ضحكا. وغايته التسلية أو الإفادة بما يحكي. وإن وصف النادرة بالخبر يلحقها بحقل السرد. مما قد يغري بالافتراض من أول وهلة أن الأمر في خبر النادرة عند المغاربة، «وخاصة من حيث دوافع التأليف ومقاصده، لا يخرج عن أن يكون تنويعا مخصوصا على الزوج التأسيسي للكتابة الجاحظية عموما: الجد والهزل »[4]، ولا شك أن نصوص النوادر يمكن أن تستوعب نوعين من الأخبار.

---

[1]- ن م، ج13، ص 161، ص 163.

[2]- ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص136، ص137، ص138.

[3]-ن م، ص 240، ص 241.

[4]- فرج بن رمضان، الأدب العربي القديم ، ص 93.

أ- أخبار نوادر الجد:يمكن لأخبار النوادر أن ترتبط بكلام الجد الصادر عن شخصيات واقعية كما نجد في أخبار الأذكياء من الشعراء والخلفاء والأئمة والوزراء والقضاة والعلماء والفصحاء والأعراب ...وغيرهم.

ب-أخبار نوادر الهزل: كما يمكن لأخبار النوادر أن ترتبط بكلام الهزل الصادر عن شخصيات واقعية كما نجد في أخبار العشاق والحمقى والمتطفلين والغلمان والمخنثين... وغيرهم.

2-خبر المنقبة:

نستقرئ من التفسير المعجمي لمادة (نقب) المعاني الآتية: « نقب: النَّقب: الثقب في أي شيء كان ... والمَنْقَبة: الطريق الضيق بين دارَيْنِ، لا يستطاع سُلوكُه ...، والمَنْقَبَةُ: هي الطريق بين الدارين كأنه نُقب من هذه إلى هذه...، والنَّقيبة، وقيل: الطَّبيعَة، وقيل الخَليقةُ. والنَّقيبةُ: يُمْنُ الفِعْلَ، ورجل ميمون النَقيبة: مباركُ النَّفسِ، مظَفَّرٌ بما يُحاوِلُ...،والمَنْقَبة: كَرَمُ الفِعْلَ؛ يقال: إنه لكريمُ المناقب من النَّجَدَات وغيرها ... والنقيب: هو كالعريف على القوم، المُقَدّم عليهم، الذي يتعرف أَخْبَارهم ويُنَقّبُ عن أحوالهم أي يُفَتَّشُ ... وقيل النَّقِيبُ الرئيس الأَكْبَرُ وقولهم: في فلان مَنَاقِب جميلةٌ أي أَخْلاقٌ. وهو حسن النَّقِيبةِ أي جميلُ الخليقة »[1]تحيل معاني اللفظة إذا على طباع الشخصية المحتفى بها تلك التي تكشف عن أفعالها الكريمة ومآثرها الخلقية أساسا لذلك تعرف « المَنْقَبة بضدها المَثْلَبَةُ»[2]، ويقصد بها«العيب والمنقصة »[3]أي الخسة والوضاعة.

يستعمل الإخباريون المغاربة تسمية أخبار المناقب لتشمل النصوص التي يرتكز الحكي فيها على الاحتفاء بقيم أرباب الصلاح حيث « تعمد نصوص المناقب إلى شحن

[1]- لسان العرب، ج14، ص 238، ص 239، ص 240، ص 241.

[2]- ن م، ص 240.

[3]- ن م، ج2، ص 105.

السلوك البشري بقيم مقدسة ومتعالية جاعلة من ذلك السلوك نموذجا ينتظر احتذاؤه من قبل المقبلين على قراءتها. فبعيدا عن الالتزام بميثاق تقصي الحقيقة في عرض الوقائع المتبع في الكتابة التاريخية »[1]تنقل أخبار مناقب أرباب الصلاح قراءها من متغيرات الواقع المتتالية إلى ثبوتية القيم المتكررة المستندة إلى استحضار الموعظة الدينية وإثمارها لرسم عالمها الغريب.

تصور المناقب العالم المثالي عالم الكمال والفضائل والقيم العليا لتعزز الدين وتثبته في النفوس وترد في مجموعة من السياقات تسرد وقائع وأحداث تتصل بأخبار مجموعة من الشخصيات التاريخية اشتهر جميعها بصدق الطوية وصلاح السلوك تأصيلا للموعظة وإثمارا لنهجها الفاضل القويم، وليس المقصود بالفضيلة مدلولها الأخلاقي فحسب بل جميع الخصال التي اعتبر بها العامة من الناس وأولاها مخيالهم مكانة خاصة ومن بينها الثقة في الله وصلابة الإيمان والصبر والإثار والصدق والأمانة والتغلب على مساوئ النفس وكبح شهواتها[2] كما نجد في أخبار مناقب الأئمة والزهاد والعلماء والقضاة أي أهل الصلاح على اختلاف مراتبهم، المنبثة في كتب الطبقات والشروح والتاريخ على اختلافها وعلى امتداد الثقافة المغربية في العصر الوسيط.

3- خبر الكرامة:

نجد في لسان العرب " لابن منظور " ما يلي: « تَكَرَّمَ فلان عما يشينه إذا تَنَزَّه وأَكْرَمَ نفسه عن الشائنات، والكَرامةُ: اسم يوضع للإكرام، وله عليَّ كَرَامةًأي غزارة، والكَرْم:شجرة العنب، واحدتها كَرْمة. والكَرْمُ: ضرب من الحُلِيَّ وهو قلادة من فضة تلْبَسها نساء العرب...، والكَرامَةُ الطَّبَقُ الذي يوضع على رأس الحُبّ والقِدْر...، ويقال:

[1]- لطفي عيسى، كتاب السير مقاربة لمدونات المناقب والتراجم والأخبار، دار المعرفة للنشر تونس، ط 1، 2007 م، ص 28.

[2]- لطفي عيسى، كتاب السير، ص 32.

كَرُمَتْ أرض فلان العامَ، وذلك إذا سَرْقَنَهَا فَزكَا نبتها»[1]، ويمكن أن نختزل هذه المعاني كلها في التحول والتغير من حالة أو موقف إلى ما يناقضها من الضعة إلى الرفعة، ومن الجدب إلى الخصب ومن الخمول والخفاء إلى البروز والتجلي... وهي معاني تدل على مقومات الولاية؛ الممنوحة للولي من طرف الخالق[2]، « فالكرامة هي الأمر الخارق للعادة الذي يظهره الله عزوجل على يد عبد مؤمن صالح غير مقرون بدعوى النبوة، وهي حق، وواقعة نطق بثبوتها القرآن الكريم وجاء بها صحاح السنَّة »[3]

إن خطاب الكرامة هو خطاب قائم بالأساس على فعل خارق لحدود العقل، ونواميس الطبيعة على السواء، إذ يجد المتلقي نفسه في كل مرة بعد نهاية حكيها أنه تحت تأثير الحيلة التي تسمح بقبول قوانين جديدة للطبيعة، يمكن أن تكون الطبيعة مفسرة من خلالها، فيدخل عندئذ في نوع الخبر العجيب، وخطاب الكرامة في المغرب الوسيط هو خطاب عرفته جل المذاهب (السني، والشيعي، والإباضي...)، ولذلك فإن المؤلفين المغاربة اجتهدوا في جمع أخبار كرامات أوليائهم من الأئمة وأهل الصلاح، وتعني عندهم: نصوص الأخبار التي تحكي بالرمز الكرامة، أي الخاصية المنفردة التي يمتلكها الولي وتصبح مميزة له عن غيره ومادام أن النص الخبري الكرامي وحدات سردية ومحكي قصير غالبا شائع، ومنبث في مؤلفات مختلفة: الطبقات، والتاريخ، والشروح، وبعض كتب المجمعات الأدبية على غير ما نوع من أنواعها.كما نجد في أخبار كرامات الأولياء في استجابة الدعاء، إبراء العلل، والرؤيا، والمكاشفات، والمشي على الماء باستخدام بعض الأدوات العجيبة خاصة العصا، والطيران في الهواء، وكلام الحيوانات خاصة الأسد، والالتقاء بالخضر عليه السلام والشخصيات العجيبة الجن... وغير ذلك من الأنواع.

---

[1]- لسان العرب، ج12، ص 73، ص 74، ص 75.

[2]- الهاشمي اسمهر، عتبات المحكي القصير ، ص 200.

[3]- عبد الله التليدي، المطرب بمشاهير أولياء المغرب، دار الأمان الرباط المغرب، ط4، 2003م، ص 28.

وهكذا يقترح إدراك أنواع السرد الخبري في انتقالها من (الخطاب) إلى (النص) ضمن فضاء عام هو فضاء كتب الأخبار ومؤثرات جمعها للنصوص حيث تبين أنها كتب متنوعة يمكن لنص الخبر فيها أن يستوعب موضوعات متعددة«فالأخبار -كما رأينا- وحدات سردية ذات قدرة على التنقل من موضع إلى آخر، وهي في تنقلها ذاك تحافظ على خصوصيتها واستقلالها من جهة، وتتنشأ بينها وبين أخبار أخرى علاقات جديدة من جهة ثانية، وقيام مؤلفات مختلفة على عناصر واحدة -قد تتغير جزئيا بعض مقوماتها خبرا وخطابا- لهو خصيصة رئيسية من خصائص أدب الأخبار»[1]،واختلاف الموضوعات بين النصوص لا يعني أن المتون السردية متنافرة فما تم بسطه يجعلنا نقر بأنها مشمولة بالانتماء إلى المحكي القصير (الموجز، الممتد)، فأغلبها عبارة عن وحدات قصيرة حول شخص متميز- مثلا – بحمقه، وبعشقه، وبجوده، وبولايته... إلخ؛ إنها متون بينها خيط رفيع التسمية (الأخبار) التي أنتجها مقام قص شفوي بالأساس تحول إلى كتابة، فنظام القص (الحكي) فيها يبدأ بالفريد (النوادر) ويمر بالمبهر (المناقب) وينتهي بالعجيب (الكرامات).

ونستخلص في الأخير من الجهاز الاصطلاحي الذي حللناه ومن الدلالات التي يفيدها أن الخبر الأدبي يكون في تاريخ النثر الفني المغربي نظاما من الأشكال تندرج في جنس «السرد »يجمع بين أنواعه مقوما واحدا هو « القصصية »، وبالاعتماد على هذه القواعد التجنيسية يمكن أن نسطر المبادئ والمعايير التي ستعيننا في العنصر الثاني في عملية استخراج وجمع نصوص مدونة البحث والتي تتجلى في النقاط الآتية:

- اعتماد مقوم القصصية في استخراج الأخبار الأدبية وإطراح الأخبار ذات البعد التاريخي الصرف.
- الإيجاز والامتداد في استخراج مختلف أشكال الخبر.

[1]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 413.

- التنوع في الموضوعات ما يسمح برصد مختلف أنواع الخبر.
- الإسناد باعتباره مكونا ومؤشرا بنيويا على الإخبار في الكثير من النماذج.

ثانيا: المدونة

1-مصادر البحث:

لئن كانت المصادر حول الأدب العربي بالمغرب في الفترة الزمنية للبحث الممتـــدة من بداية القرن الخامس الهجري إلى غاية القرن الحادي عشر قليلة، فهـــي حـــول الأدب القصصي أقل، وقد يخيب طموح الباحث أمام فقر المادة الأدبية في هذا الأقل المتوفر، بل قد يصيبه الإحباط لعلمه بأن أغلب مصادر الأدب المغربي وصلت إلينا مبتـــورة، أي أن جزءا كبيرا من فصول الكتب مفقودة، وأنه لم يصلنا منها إلا بعض النقول والمنتقيـــات، كما هو الحال مع كتاب الأنموذج " لابن رشيق " (ت456 هـــ أو 463 هـــ)، أو كتاب مسائل الانتقاد " لابن شرف "(ت456 هـــ) والممتع " للنهشلي " (ت 405 هـــ).

لكن أمام هذا الإحباط قد يجد بعض الأمل في ثنايا هذا القليل المتوفر، مـــن كتـــب التراجم والسير، وكتب المجمعات الأدبية والنقد[1] ، والتراجم والسير، أو من خلال بعـــض المصنفات غير الأدبية ككتب التاريخ التي تتضمن نتفا من الأخبار الأدبية، قـــد تضـــيء جوانب من الخصائص الفنية للأشكال النثرية المغربية القصيرة في هذا العصر، وقد تمكنه من الاطلاع على قسم مما أبدعه أدباء العصر وكتابه.

إنه أمل- على ضيق آفاقه الأدبية إذن- قد هيأ لنا فيما هيأ لغيرنا ممن ســـبقنا فـــي مجال البحث في شؤون الأدب بالمغرب العربي في الفترة الزمنية للبحث، الولوج إلى عالم الأخبار الأدبية راضين قانعين – اضطرارا - بما توفر لدينا من مادة أدبية، توصلت إليها

[1]- لقد حاولنا الاهتمام في المدونة بتوظيف المصادر الأدبية التي ما تزال مغمورة بحيث لم تلتفت إليها الدراسات التي اهتمت بالأدب المغربي القديم بحسب علمنا، ولذلك فإننا استثنينا كتب الرحلات لظهور عدة دراسات اهتمت بهذه الكتب خاصة في المغرب والجزائر.

عملية البحث والجمع لمدونات الأدب المغربي في فترة البحث، وما اتسمت به من طابع الشتات عبر مختلف فضاءات المغرب والمشرق. وإذا كان الإطار العام الذي ترمي الدراسة الوصول إليه هو: الكشف عن مدى اهتمام المغاربة قديما بالكتابة في مجال الخبر الأدبي، ومحاولة استجلاء أهم خصائصه الفنية، فإن الدراسة حاولت أن تجد لها إطارا خاصا يتعلق بإثراء المدونة بكل ما توصلت إليه عملية الجمع من مصادر كتبت داخل المغرب الأوسط – القطر الجزائري قديما – وهذا من شأنه أن يضيء جوانب كثيرة عن هذه الآثار ومؤلفيها من فقهاء، وأدباء، ومؤرخين، وإبراز مدى اسهامهم في تطوير الكتابة النثرية، خاصة ما تعلق منها بنصوص الخبر الأدبي، التي ظلت راكدة في بطون هذه الأسفار القديمة.

وهذا الاهتمام الواسع " بمدونات الأدب الجزائري القديم " وراءه باعث أساس يهدف إلى محاولة رد الاعتبار لهذا الأدب المنسي، الذي أغفلته معظم الدراسات المتعلقة بالأدب المغربي القديم، والأمر هنا لا يتعلق بالدراسات التي ظهرت بالمشرق فحسب بل يشمل حتى تلك التي ظهرت بتونس والمغرب، حيث نجدها اهتمت بالمصادر التي كتبت داخل فضاءاتها، مع إغفالتام لتلك التي كتبت في الجزائر[1]، والتي ظل يكتنفها الكثير من الغموض.

وعليه فإن عملية استخراج وجمع الأخبار الأدبية التيشكلت مدونة بحثنا اعتمدنا فيها على نوعين من المصادر هي:

[1]- إن هذا التهميش للأدب الجزائري القديم أساسه تأثر مؤلفي هذه الدراسات بالفصل السياسي في العصر الحديث الذي قسم المغرب إلى ثلاثة مناطق (الجزائر، تونس، المغرب)، وهو عكس ما كان سائدا في المغرب القديم فبالرغم من الفصل السياسي بين هذه الأقاليم الذي كان يفرض نفسه بين الحين والآخر إلا أن التداخل بين هذه الأقطار كان قويا جدا في معظم الجوانب، وبخاصة الثقافية حيث كان التواصل بين مراكز العلم والتعلم ممتدا وعميقا في مختلف الحواضر الثقافية.

أ-الأخبار المبثوثة في مصادر الأدب والتاريخ:

نعني بالأخبار المبثوثة: الأخبار الأدبية التي دونتها المصادر المغربية القديمة، تدوينا تاما في شكل فقرات سردية مستقلة، اختارها أصحاب هذه المصنفات وضمنوها معظم أبواب وفصول مدوناتهم أي توظيف الخبر كأداة فنية في بنية نصوصها السردية، بوصفه مجالا رحبا لتدعيم النصوص بالشواهد، لذلك حاولنا أثناء عملية استخراج الأخبار وجمعها، توظيف مدونات استطاعت أن تكشف عن خصائص تتعلق ببنية هذا الشكل النثري القصير، ومدى استجابته للتطورات التي طالت عملية الكتابة داخل هذه الأجناس، التي كانت تضمنه نصوصها عبر مختلف المراحل الزمنية المتعلقة بفترة البحث، ولذلك ارتبطت المصادر التي اعتمدنا عليها في جمع الأخبار الأدبية المبثوثة باعتبارات سنذكرها أثناء محاولتنا التعريف بها على النحو الآتي :

1- كتب طبقات التراجم والسير: لقد وجدنا في أدب التراجم والسير نماذج كثيرة، ومتنوعة من الأخبار الأدبية ذات القيمة السردية، والمتعلقة أساسا بشخصيات مغربية من مختلف الفئات التي استطاعت أن تحتل رتبا مرموقة داخل مجتمعاتها (الصلحاء، والعلماء، والأمراء) حيث قدمت صورة للواقع اليومي المعيشي وأنماط التفكير عند مختلف هذه الفئات الاجتماعية وأخلاقها وسلوكها فهي تستمد موضوعاتها المختلفة من السياق الحضاري والمجتمع الذي وجدت فيه، فارتبطت ارتباطا وثيقا بالتحولات التاريخية والسياسية والثقافية للمجتمع المغربي الإسلامي ليس في بداية الفتح فحسب بل حتى في العصور التي أعقبته.

ونظرا لكثرة ما توصلت إليه عملية البحث التي استطاعت أن تجمع عددا هاما من مصادر طبقات التراجم في فترة البحث، فإننا ارتأينا أثناء عملية اختيار الكتب التي وظفناها في البحث واستطعنا أن نخرج منها جزءا هاما من الأخبار التي تشكلت منها المدونة للاعتبارات الآتية:

- الاعتماد على أقدم المصادر المغربية، التي مثلت مرحلة بداية اندماج المؤلفين المحليين – أي المغاربة- في المنطقة، وقد تجلى ذلك من خلال عنايتهم داخل مؤلفاتهم بجمع أكبر عدد ممكن من الأخبار الأدبية المغربية، منذ الفتح الإسلامي للمغرب، وإلى غاية العصر الذي ألفت فيه ويعتبر " رياض النفوس للمالكي " (ت بعد 460 هـ)، ومعالم الإيمان "للدباغ" (ت696 هـ)، "وابن ناجي " (ت 839 هـ)، من أهم تلك المصادر.

- إن ظاهرة الامتداد في المكان والزمان التي حظيت بها عملية الكتابة في مجال التراجم – كما سيتضح لاحقا – حملتنا على اختيار مدونات مثلت عصورا مختلفة للفترة الزمنية التي تهم البحث، مع محاولة توظيف كل ما تم جمعه من مدونات القطر الجزائري وهي: عنوان الدراية " للغبريني " (ت 704هـ أو 714 هـ)، والبستان " لابن مريم " (ت بين 1025هـ- 1028هـ)، وأزهار الرياض " للمقري " (ت 1041 هـ)، لأنها تندرج ضمن الإطار الخاص الذي يسعى البحث لتوضيحه.

2- كتب النقد الأدبي: يمكن أن نضعها في المرتبة الثانية من حيث اشتمالها على أهم مصدر وصلنا وهو الممتع " للنهشلي " والذي مثل مرحلة انطلاقة الكتابة الأدبية بالمغرب الإسلامي في بداية القرن الخامس الهجري، حيث كان له الفضل في نشر الذوق النقدي الذي لم يلبث أن توج بأشهر مصدر وهو العمدة " لابن رشيق" ، وقد كان للنماذج الخبرية المتنوعة التي جاءت كشواهد ضمن الفقرات النقدية التي تخللت القصائد الشعرية أو الاستطرادات التي تضمنتها فصول الكتاب، الأثر الكبير في اتساع مجال الخبر بحضوره في خطابات أدبية متنوعة ألفها معاصروه ومن أبرزهم الحصري.

3- كتب المجمعات الأدبية: لقد مثلت مؤلفات الحصري في هذا المجال امتدادا لمرحلة الانطلاقة الأدبية حيث كانت مختاراته من كلام العرب وأهل العصر من المشارقة والمغاربة نموذجا لنشر الذوق الفني الأدبي بين طلابه ومن أبرزهم ابن رشيق، وابن شرف

وقد استخرجنا من كتب النقد والمجمعات الأدبية مادة أدبية خبرية متنوعة، ولكننا لاحظنا أن كل الأخبار الواردة عند النهشلي متعلقة بأحداث وشخصيات مشرقية سبقت عصر بني زيري، ونفس الشيء وجدناه عند الحصري الذي بحث في مؤلفاته عن التميز والتفرد بتضمينها بعض كلام أهل العصر، أما ابن رشيق الذي اقتفى أثر الحصري في التفرد فهو لم يذكر بجانب هذه الأخبار المشرقية إلا خبرا واحدا يتعلق بالنهشلي، ويفسر عدم اهتمام هذه المؤلفات بجمع أخبار الشخصيات المغربية عاملان: يتمثل الأول في أن المؤلفين في هذه المرحلة كانوا من العرب المولدين فهم في الأصل مشارقة ليس لديهم أي شعور بالمغرب لأنهم لم يندمجوا بعد في المنطقة المعاصرة، فالاعتقاد السائد في ذهنهم خلال هذه المرحلة هو أن المثقف المحل (المغربي) أقل درجة من المركزي (المشرقي) ، فثقافة المركز والهامش هي السائدة في الكتابة الأدبية وخير مثال على ذلك الخبر الأدبي فالمركزية فيه هي الاهتمام بنقل أخبار المشارقة واهمال كلي لأخبار المغاربة وهو ما بدأ يتغير عند ابن رشيق في العمدة وما تلاه من كتب وضعها حول الأدباء المغاربة والتي لم تصلنا كلها، أو وصلنا جزء منها.

أما العامل الثاني: فيعود إلى أن الأغراض التعليمية بالقيروان في هذه المرحلة التأسيسية لمدرستها هي التي جعلت المؤلفين المغاربة يحرصون على هذا النوع من التأليف، فهم يرون في المدونات المشرقية التي كانت متداولة بينهم بكثرة المثل الأعلى لتنمية ملكة اللغة العربية عند أهل المغرب فاعتمدوا عليها لنقل الثقافة العربية لأجيال ناشئة العرب والأمازيغ بإفريقيا.

ومنه يمكن القول أنه بالرغم من أن معظم الأخبار في هذه الكتب لا تتعلق بالمغرب فهي مما يدخل فعلا في باب النثر الفني، فقد كان توظيف الخبر في هذه المؤلفات مقصودا في حد ذاته لغرض جمالي محض، وهو ما خول لنا في العنصر الأول استخلاص خصائص تتعلق بتحديد بعض العناصر القصصية التي تدخل في تركيب الخبر الأدبي

القصصي ومنه إيراد بعض الملاحظات المرتبطة بمفهوم الخبر الأدبي تبين قدرة الكتاب الإفريقيين في عصر بني زيري على إجادة الكتابة وإتقانها.

4- كتب التاريخ: إن اهتمامنا بدور الخبر في تطوير جانب من النثر، يضم الأجناس السردية، اقتضى أن نعتمد في هذا البحث جملة من المصادر المغربية التي أهملتها الدراسات الحديثة، وهي تلك المصنفات المنتمية إلى التاريخ، وقد حاولنا إثراء البحث بمؤلفات ثلاثة وهي: المجالس والمسايرات " للقاضي النعمان " (ت 363 هـ) وبغية الرواد" ليحي بن خلدون" (ت 780 هـ)، والسيرة وأخبار الأئمة " لأبي زكريا " وهي تؤرخ لدول حكمت المغرب بسياسات متباينة، وتشمل العصر الذي يعنينا أمره بشكل يكاد يكون كاملا؛ لأنها ستوضح للقارئ مدى اهتمام مؤرخي المغرب الوسيط بتوظيف مختلف أنواع الأشكال السردية ومنها الأخبار كوسائل فنية تثري نصوصهم التاريخية.

2- مصادر الأخبار المستقلة:

نعني بها دواوين الأخبار التي وصلت إلينا، حيث اعتنى كتابها بجمع مجموعة من الأخبار تتعلق بفئة من فئات المجتمع، غلبت عليها صفات خلقية وحسية نادرة (الذكاء، والبخل، والهوى)، ما جعلها تندرج ضمن نوع معين من أنواع الخبر الأدبي فمثلت الخطاب الذي تنتمي إليه تمثيلا مرضيا، وقد أدرجنا في هذا السياق الكتب التالية: جمع الجواهر والمصون " للحصري" ، ونلاحظ هنا أيضا أن الأخبار الواردة فيها تتعلق بشخصيات مشرقية مما يؤكد أن عملية الكتابة في هذه المصادر اهتمت بمحاكاة الأدب المشرقي وذلك نتيجة للعوامل السابقة التي ميزت الكتابة في هذه المرحلة وهذا ما سيتضح أكثر لا حقا.

1-وصف مدونة البحث:

لقد قمنا بمحاولة لتحديد مدونة البحث وأقسامها، وما تم عرضه يؤكد لنا أن الإلمام بحركة الجمع والتأليف التي طبعت الثقافة المغربية في مختلف مراحل فترة البحث أمر ضروري لإدراك المدونات السردية المتنوعة التي أسهمت في تشكيل ملامح " أدب الأخبار" الذي تشكلت منه مدونة البحث.

ووجدنا أن جمع قدر من النصوص الخبرية في مدونة البحث – يقيم الدليل إذا ما اقتضت الحاجة - بأن هؤلاء الكتاب بين مؤرخ وأديب وفقيه، كانوا العنصر الفاعل في إثراء الحياة الأدبية، من خلال ما جمعوه من أخبار العباد والبلاد في إبداعاتهم النثرية.

وقد رأينا أن ننطلق من وصف وتحليل للكتب التي شكلت مدونة البحث، وهذا العمل من شأنه أن يوضح لنا الأدباء المغاربة الذين أسهموا في نشأة هذا الجنس الأدبي، ويطلعنا على نماذج خبرية تفيد في جلاء جوانب كثيرة من الغموض حول شخصياتهم الأدبية المغمورة.

واعتمدت في ترتيب مصادر مدونة البحث المتعلقة بمصادر الأخبار المبثوثة، التسلسل التاريخي للمؤرخين والأدباء بحسب تاريخ وفاتهم، دون اعتماد منهج آخر كالتبويب على الأغراض، أو البلدان لئلا أضطر للعودة إلى الكتاب الواحد أكثر من مرة وكذلك حاولت الابتعاد عن التصنيف باعتماد عناصر داخلية – سنعتمد عليها في فصول لاحقة -، ولأحتفظ ببساطة الطريقة وعدم الدخول فيما يكون تقويما بنيويا لا يفي به فصل الغرض منه أن يكون في وصف مدونة البحث أولا، ولكي يتسنى للقارئ أن يتتبع مختلف مراحل التطور التي عرفتها الكتابة السردية المغربية في مختلف فترة البحث.

1- وصف مصادر الأخبار المبثوثة:

أ- وصف كتب الطبقات والتراجم:

تعاطى المؤلفون المغاربة في كل مراحل فترة البحث، فن كتابة " الطبقات "، لكن الشأن كان يختص في جل الحالات بالتعريف بأعلام في الفقه، وبرجال من أهل العبادة، غلبت عليهم صفات الورع، والصلاح، والزهد[1].

واتصلت مرحلة الانطلاقة الأولى، في عملية تدوين هذه الكتب، داخل إفريقيا وعاصمتها القيروان، بمؤرخي المذهب المالكي، حيث استطاعوا من خلال الأخبار التي ضمنوها تراجم شخصيات كتبهم الاحتفاء بمآثر، وصدق العلماء والزهاد في التصدي لمختلف الدول التي قامت في القيروان، منذ منتصف القرن الثاني للهجرة، وأرادت إخضاع أهل السنة المالكية لمذاهبها العقائدية والدينية.

ففي سنة (184 هـ)، نشأت الدولة الأغلبية بالقيروان، وقامت سياستها على تبني الأفكار التي نادى بها المعتزلة، حيث شهدت بعض فترات حكمها اضطهاد علماء السنة المالكية، ويؤكد ذلك ما نقلته كتب " الطبقات " المؤسسة لفن التراجم بالقيروان من أخبار تعنى بتفاصيل حياة العلماء والزهاد، وكان سحنون بن سعيد (ت 240 هـ) من أبرز علماء المالكية الذين طالهم ذلك الاضطهاد، فقد عثرنا على إشارة لمحنته جاءت ضمن أحد أخباره ومنها: « فلم يكن إلا يسيرا حتى قدم سحنون بكتبه هاربا، من أحمد بن الأغلب حين دعاه للقول بخلق القرآن، فأقام عند عبد الرحيم شهرين ونصف مستخفيا ... فلما كان بعد ذلك وصل رسول أحمد. إلى قصر زياد في طلب سحنون ورفعه إلى رقادة للمحنة... فقال الأمير لداود بن حمزة: ما تقول أنت، قال: قتله بالسيف راحة ولكن أقتله قتل الحياة: تأخذ عليه الضمناء وينادى عليه بسماط القيروان أن لا يفتى، ولا يسمع أحدا،

[1]- الشاذلي بويحي، الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، تر: محمد عبد الرزاق، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، سنة 1999م، مج2،ص 725.

ويلزم داره! ففعل ذلك وأخذ عليه عشرة حملاء»[1]. تقيم تلك الإشارة برغم قصرها الحجة على اضطهاد العلماء في فترة إبراهيم بن الأغلب، كما تكشف عن شخصيته المتميزة بالغلو والعصبية، في تبني ونشر معتقداته المذهبية بالقوة.

وبقيام الدولة الفاطمية سنة (297 هـ)، يتغير وجه الصراع ويعنف، لما اتسمت به سياستها العسكرية الصارمة، والتي استطاعت بفضلها القضاء على كل الدويلات المنافسة لها في حكم المغرب لغاية مزدوجة: السيطرة، ونشر المذهب. مما أعطى للحياة الدينية طابعا خاصا اشتهر بأبشع صور التعذيب والتنكيل لأهل إفريقية المالكية، الممتد على طول مراحل حكمها[2].

وتصور لنا كتب التراجم أيضا، الكثير من ذلك التنكيل، الذي وقفنا عليه من خلال تلك الفقرات السردية المقتضبة، يسوقها المترجمون بغرض تسليط الضوء على أبشع الجرائم التي نفذتها شخصيات تولت مهام إدارية في هرم السلطة الشيعية، ومن أمثلتها: ما قرأناه بعد نهاية خبر جارية الفقيه (محمد بن خيرون، ت 301 هـ)، مع قاتله، فقد جاء التعريف به كمايلي: « وكان محمد بن عمر المروذي هذا معتقدا لمذهب الشيعة معروفا بذلك، فلما دخل الشيعي – لعنة الله عليه - بادر إليه ودخل في دعوته ولزمه فولاه قضاء إفريقية، فتصلب، وتكبر وكانت أيامه صعبة جدا، وأخاف أهل السنة...، وقتل ابن هذيل وإبراهيم بن البرذون، وأول ما ولي زاد في الآذان "حي على خير العمل"، وترك الناس يصلون " القيام " سنة واحدة ثم منعهم، وترك أكثر الناس الصلاة في المساجد، وأخذ أموال الأحباس والحصون التي على البحر وأمر الفقهاء، أن لا يفتوا. ولا يكتبوا وثيقة إلا من تشرق وكفر وأمر (أن) يزال (من) الحصون والمساجد اسم الذي بناها وأمر بها من

[1]– عبد الله المالكي، رياض النفوس ،ج1، ص425، ص 426، والدباغ معالم الإيمان ،ج2، ص 95.

[2]– محمد بن تميم القيرواني، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحق علي الشابي، نعيم اليافي، الدار التونسية للنشر تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط2، ج1، 1985م، ص 17.

السلاطين ويكتب اسم المهدي »[1]، ويفهم من سياق التعريف بالعبيديين وقاضيهم أن هناك مقاومة لأهل السنة في القيروان، لمحاولة القاضي فرض الدعوة الشيعية عليهم قصرا.

وضمن نفس الإطار، ألفت كتب الطبقات، التي كان لها شرف السبق، في نقل أخبار العلماء والمتعبدين من الرواية الشفوية إلى التدوين حيث ركزت في مراحلها الأولى بداية من القرن الثالث الهجري مع "محمد بن سحنون" (ت 256 هـ)، و"أبي العرب" (ت 333 هـ)، إلى نهاية القرن الخامس مع " المالكي "، على نقل أخبار العلماء والزهاد الذين صدقوا في المحافظة على المذهب المالكي.

أما المرحلة الثانية فتبدأ من القرن الثامن الهجري إلى غاية القرن الحادي عشر، فقد اهتم فيها مؤلفوا كتب طبقات المالكية، بذكر أخبار العلماء والعباد، وذلك باستعراض مآثر ورموز المذهب المالكي، بحواضر علمية مغربية، (القيروان، وفاس، وبجاية، وتلمسان) بغرض إثبات انتشار ظاهرة الزهد والتصوف في هذه المراكز العلمية، لتنتهي في مراحل متقدمة بتأليف العديد من الآثار الموضوعة في سير أعلام السنة المالكية ركزت على إبراز تفاصيل أخبار الجانب العلمي، الذي اشتهرت به الشخصية المترجم لها.

إنها كتب تميزت عبر مختلف عصورها، بكون المتأخر منها يقتبس من المتقدم، فمؤلفات تراجم رجال إفريقية التي وضعت في المرحلة الأولى مثلا: يرجح الدارسون أن كتاب طبقات رجال إفريقية " لأبي العرب " كان المصدر الأساس لها، وظاهرة الامتداد هذه لا تخلو من إضافات مفيدة جاءت لتثري وتكمل ما سكت عنه فعل السرد في بعض أبواب تراجم كتب الأمهات التي سبقتها، فلعل أصحابها استغلوها مما ضاع من كتب

[1]- المالكي ، رياض النفوس، ج 2، ص 291، ص292. والدباغ، معالم الإيمان، ج2، ص 55، ص56.

التراجم والسير والمغازي والتاريخ، ما جعلنا نعرف الكثير من أسمائها دون أن يكون لها أثر في المكتبة العربية بالمشرق أو المغرب.[1]

ومن أهم هذه المصادر المستغلة في البحث هي:

1- كتاب رياض النفوس للمالكي (ت بعد 460هـ)[2]:

يعتبر من أبرز مصنفات تراجم علماء المالكية بالمغرب في فترة البحث، التي رأت النور، وعرفتها المطبعة العربية، ويقع الكتاب في جزأين من الحجم الكبير، اهتم فيهما المؤلف، بتدوين أخبار إفريقية وعاصمتها القيروان، وتسجيل أخبار رجالاتها من العلماء والعباد – وقد بلغ عددهم مائتين وثلاثة وسبعين، وكثير منهم كانوا أدباء -، وتتبع آثار الدول المتعاقبة عليها من الفتح الإسلامي إلى آخر القرن الخامس للهجرة.

ويتصدر صفحة الغلاف اسم الكتاب الكامل " رياض النفوس في طبقات علماء القيروان، وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم "، وهذا العنوان ببنيته التركيبية الطويلة، التي انبنت على تظافر مركبات اسمية تمفصلها حروف الجر وبهيئة سجعية في نهايتها جعلتها تتآلف موسيقيا، مما ينبئ على ما احتوى عليه التأليف، فالشطر الأول من العنوان يؤدي دور المحفز على القراءة، فالكلمة الألى منه تدل على « اسم لما كتب مجموعا، أي ما يكتب ويدون فيه كالصحيفة »[3]، ثم تأتي الكلمة الثانية، والثالثة لتركز على البعد النفسي « فرياض مفردها روضة وهي الأرض ذات الخضرة، والبستان الحسن»[4]، أما النفوس « فمفردها النفس يعبر بها على الإنسان

---

[1]- محمد توفيق النيفر، الحياة الأدبية في العهد الفاطمي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان ومركز النشر الجامعي، تونس، ط1، 2004 م،ج1، ص 29.

[2]- أنظر الأسباب التي دعت المحقق يرجح هذا التاريخ على التاريخ الثاني أي (بعد 449 هـ) وهو التاريخ الذي ذكره ابن ناجي في المعالم ، ضمن حديثه عن كتاب المالكي،ج1، ص 21.

[3]- ابن منظور لسان العرب، ج12، ص 20، ص 21.

[4]- ن م، ج5، ص 356، ص 357.

جميعه، والإنسان نفسان الروح والعقل »[1]، وبتوالي المركبات الاسمية في الشطر الثاني من العنوان يتحدد البعد الفئوي لطبقات من المجتمع في فضاءات محددة (القيروان، وإفريقية)، إضافة إلى البعد الاعتباري المتمثل في الرتب العلمية والدينية التي حظيت بها هذه الذوات داخل سلم مجتمعاتها، ويؤكد ذلك قول المالكي نفسه في المقدمة أثناء حديثه عن سبب التأليف «فقد شهدتكم سألتموني أن أجمع كتابا أذكر فيه من كان بالقيروان وإفريقية من (العلماء)، والمتفقهين والأولياء والعباد والمجتهدين، ومن كان بمراسي إفريقية وسواحلها ومراسيها وحصونها (منهم) »[2].

فالرياض إذن جاء استجابة لإلحاح بعض الناس المقربين من الكاتب، ولعلهم كانوا من العلماء، الذين كانت تتملكهم رغبة ملحة في التعريف بعلماء وعباد المغرب وجمع مآثرهم وتخليدها، وفي استخدام حرف الجر (من)، الذي يفيد (التبعيض) ما يجعلنا ندرك ذلك، فالمالكي قصد من وراء جمعه لنصوص السير الإفادة بالدرجة الأولى، لأن رواية أخبارها وما تحتويه من فضائل وأوصاف إنما هي للاعتبار والاتعاظ يقول: « وذكرت ما بلغني من أخبار نساكهم وعبادهم، وفضائلهم وأوصافهم... بحسب ما انتهى إليه علمي وبلغته معرفتي وطاقتي ورأيت في جمع ذلك إحياء لذكرهم ونشر لفضائلهم فيتذكر بذلك متفكر ويقتدي (مقتد) ومزدجر، فلعل الله عز وجل يوفقه بفضله لسلوك طريقهم والتمسك بهديهم فيكون في ذلك حياة لقلبه، وافتقار إلى ربه جل جلاله ومعرفة بنفسه، واحتقار لعمله وزيادة في اجتهاده»[3].

وارتباط العنوان بطبقة العلماء والمتعبدين له وقعه المتفرد ودلالته ومكانته الخاصة، لتجتمع الحيثيات الدلالية، بإحالتها الدينية، فتفرد للمؤلف سلطة الكتابة بما يعنيه في تحديد

[1]-ن م، ج14، ص 223، ص 224

[2]- المالكي،رياض النفوس، ج1، ص 4.

[3]- المالكي، رياض النفوس، ص4.

ميثاق للقراءة يمكن اختزاله (أنا المؤلف أدون لك أيها القارئ سيرا لطبقات من العلمـــاء والمتعبدين تستطيب النزهة في بساتين وحدائق أخبارها، فتشعر براحة عقلية ونفسية تأثرا بفضائلهم وأوصافهم).

وبالاطلاع على متن الكتاب يبرز بوضوح، مدى تعلق العنوان بـــالمتن الســـردي، فالكتاب غني بأخبار أدبية كثيرة تتصل بأوصاف وفضائل العلماء والصلحاء مـــن أهـــل القيروان تضمنتها نصوص التراجم ، وقد بلغ مجموعها -475- جاءت موزعة علـــى الأنواع الخبرية الآتية (المناقب، والكرامات، ونوادر الظرف والطرف) والجدول يوضح ذلك:

1- أخبار المناقب	**الصفحة**	**2-أخبار الكرامات**	**الصفحة**	**أخبار نوادر الظرف والطرف**	**الصفحة**
1: المسور بن مخرمة	70	1:أبو ذر الغفاري	72-71	1: حمار يزيد بن الطفيل	173
2←4: إسماعيل بن عبيد	108-107	2:عقبة بن نافع	98	2: ابن فروخ والجارية	170
6،5:علي بن رباح	120-119	3، خالد بن أبي عمران	196-195	3:البهلول وامرأتان	211-210
7: عبدالله بن المغيرة	127	5،4: مروان اليحصبي	196-195	4: ابن غانم وابن حاتم	220-219
8←10: عباد بن عبد الصمد	140-138	7،6: البهلول بن راشد	207-205	5: البهلول وزيادة الله	281-281
11←16:عبد الرحمان بن أـــنعم	159-152	8: رؤية قبر عبد الله بن غانم	229	6: ابن محرز والأمير	396
18،17: خالد بن أبي عمران	165-164	9: علي بن زياد	236-235	8،7: إسحاق بن الملشوني	403-402

20،19: جميل بن كريب	170-168	10←13: عنبسة بن خارجة	245-243	9: إغتمام المهري	407-405
21: غوث بن سليمان	171	14: رؤية علي بن يونس	294-293	11،10: أحمد بن داود	508-505
22: جميل بن كريب	171	15: أبو شيخ المفسر	298	12: أبو عقال وزوجته	535
23: يزيد بن الطفيل	173-172	16: دعاء رباح بن يزيد	304	13: سعيد بن الحداد	99-98
24←30: عبد الله بن فروخ	187-178	17: دعاء ابن المبارك	304	15،14: حماس ين مروان	122-121
31: يحي بن عبد السلام	191-190	18: رباح بن يزيد واللبن	305	16: ابن البناء	159-157
33،32:محمد بن مسروق	194-193	19: شقران بن علي	318-317	17: أحمد الدباغ	273
34: مسافر بن سنان	200-199	20: دعاء يونس بن يوسف	319-318	18: عبد الله بن مسرور	424
35←46: البهلول بن راشد	214-204	21←24: شقران بن علي	321-319	19: يحي بن خلفون	431-430
47←63: عبد الله بن غانم	229-217	25: أبو سليمان الحبال	328		
64←65:علي بن زياد	237	26: حفص الجزري	332-331		
66: زكريا بن الحكم	238	27←30: إسماعيل الجزري	341-336		
67: عنبسة بن خارجة	244	31←33: سحنون بن سعيد	372-349		
68، 69: عباس	250-242	34: الجزري	371		

بن الوليد		والرجل من الجان			
70: العباس بن أشرس	253-252	35: رؤية الرجل لسحنون	375-374		
71←85: أسد بن الفرات	273-256	36: ابن معاوية والشاب	384		
86←90: أبو محرز	280-274	38،37: أبو خلف الخياط	409-408		
91: البهلول بن عمر	281	39: رؤية أبو محمد الأنصاري	413		
92←95: عبد الله بن أبي حسان	289-284	40: محمد المسوحي	415		
96، 97: علي بن يونس	294-292	41، 42: أبو زكريا الهرقلي	417-416		
98←104: رباح بن يزيد	312-303	43←47: عبد الرحيم بن عبد ربه	429-425		
105: شقران بن علي	316-313	48←51:واصل الجمي	439-436		
106: عبد الملك بن أبي كريمة	323	53،52: محمد بن سحنون	458-448		
107←112: عبد الخالق القتاب	329-325	54:محمد بن عبدوس	461-460		
113: أبو عثمان الجزري	333-332	55: أحمد الغافقي	462		
114←120: إسماعيل الجزري	341-334	56: أحمد بن عبد الله	484		
121،142:	374-348	57: يحي بن	494-493		

سحنون بن سعيد		عمر			
143←148: موسى بن معاوية	382-377	58: أحمد بن داود	507-506		
149:عمر بن الخطاب	383-382	60،59: محمد بن زرزر	515-514		
150: سليمان عليه السلام	383	61: أبو هارون الأندلسي	518		
151: عون بن يوسف	387	62←65: ابن غلبون	535-528		
152: زيد بن بشير	391-390	67،66: محمد بن أبي حميد	8-6		
153: مروان بن أبي شحمة	392	68←70: سعيد بن إسحاق	15-13		
154←157: أحمد بن أبي محرز	401-396	73،71: واصل المتعبد	19-16		
158←159: أبو الوليد المهري	405-404	74←77: جبلة بن حمود	41-24		
160: الشيخ وأهل العلم	405	78: ابن هذيل	51-50		
161: أبو خلف الخياط	410-409	80،79: محمد بن خيرون	55-53		
162←165: حمدون العسال	311-310	82،81: سعيد بن الحداد	103		
166: أبو محمد الأنصاري	413-412	83←86: أبو يونس المتعبد	127-124		
168،167: محمد المسوحي	415-414	87: يونس المؤدب	134-133		

169،170: بشير بن عمروس	418-419	88: إبراهيم الدمني	138-139		
171: زهد الرجل الخرساني	419	89: أبو علي الضرير	141		
172←174: مكرم المتعبد	420-421	90←93: هاشم بن مسرور	148-151		
175،176: عبد الرحيم بن عبد ربه	423-430	94،95: محمد بن محمد بن سحنون	153-155		
177←183: واصل الجمي	431-441	96: الطرابلسي العازب	160-161		
184: الشيخ المشرقي	442	97←99: محمد السدري	167-175		
185←195: محمد بن سحنون	455-459	100: محمد بن قطانية	176-177		
196: محمد بن عبدوس	460	101: محمد بن علي	186-187		
197←200: عبد الجبار بن خالد	464-467	102،103: الغيمي	192		
201: أحمد بن متعب	471-472	104،105: أبو الحسن الصقلي	204-206		
202: أحمد بن وازن	472-473	106←115: القمودي	212-234		
203: أحمد بن يزيد	473-474	116،117: يوسف بن مسرور	238-240		
204←208: عبد الله بن طالب	474-478	118،119: سعدون الخولاني	245-258		

210،209: ابن دارس	480-481	120: أحمد الدباغ	272-273		
211←215: أحمد بن عبد الله	482-487	121: ابن اللباد	284		
217،216: حمديس القطان	488-497	123،122: عباس الممسي	299-300		
218: عبد الله بن هارون	500	124: ابن أبي سهل	305		
219←226: أبو هارون الأندلسي	517-526	125: محمد المرجي	314-316		
227←236: ابن غلبون	527-539	126: حشيش بن يحي	321-322		
238،237: محمد بن أبي حميد	7-9	127←131: ربيع القطان	328-337		
239←248: جبلة بن حمود	29-44	132: محمود القطان	347-348		
249: يونس الورداني	45-46	133: سعيد المعلم	350		
250: ابن البرذون وابن هذيل	49	134 : نصرون اللوزي	355-356		
251←256: سعيد بن الحداد	58-104	135←137: ابن المهزول	372-373		
257: ابن عبادة السوسي	116-117	138←141: عمرون الحامي	378-383		
258←260: حماس بن مروان	118-120	142،143: زهرون بن حسنون	383-388		
261: أبو يونس	126-127	144: ابن أبي	388-389		

المتعبد		حميد			
263،362: صدقة الضرير	128-130	145، 146: التنمزيلي	390-391		
264: أبو بكر السوسي	130-132	147،148: الحسن النحوي	408-409		
265: سعيد الصبري	134-135	149،150: أحمد الأطرابلسي	434-436		
266: محمد بن عمرو	135-136	151←154: الغدامسي	444-446		
267- شاب آخر بالدمنة	142-143	155: عمر الصدفي	457		
268←270: هاشم بن مسرور	144-151	156: عطية الجماهري	459		
271،272: محمد بن محمد بن سحنون	154-155	157←168: إبراهيم السبائي	478-506		
273: ابن البناء	156-157				
274،275: نفيس السوسي	163-164				
276،277: محمد السدري	168-169				
278: ميمون بن المغلوب	180				
279←281: أحمد بن نصر	183-185				
282: لقمان بن يوسف	193-194				
283←287:	214-230				

القمودي					
288،289: يوسف بن مسرور	237-238				
290: سعدون الخولاني	252				
291،292: محمد بن سهلون	261-262				
293: الحسن القلانسي	263				
294،295: عبد الوهاب بن نصر	266-271				
296،297: أحمد الدباغ	272-274				
298←201: ابن اللباد	283-292				
202←204: عباسالممسي	293-299				
205: محمد بن تميم	307-309				
206،207: إبراهيم القصري	318-319				
208: حشيش بن يحي	320-321				
209: ربيع القطان	326-327				
210: محمود القطان	346-347				
264: ابن أبي المنظور	359-361				

265: أبو ميسرة	364-363				
266: عمرون الحامي	378-377				
267: زهرون بن حسنون	386				
268←271: الحسن بن نصر	403-394				
272: محمد الجبلي	405-404				
273، 274: محمد بن العسال	413-411				
275،276: محمد بن سعدون	418-415				
277: عبد الله بن مسرور	424				
278،279: يحي بن خلفون	429-425				
280: بشير المتعبد	438				
281،282: الغدامسي	454-448				
283: خلفونالنوفلي	466-464				
284←288: إبراهيم السبائي	485-469				
المجموع	**288**	**-**	**168**	**-**	**19**	**-**

جدول(1): التوزيع النوعي لأخبار كتاب رياض النفوس

نلاحظ من خلال الجدول ظهور بعض أخبار المناقب والكرامات تتعلق بشخصيات مشرقية دخلت إلى القيروان خلال فترة الفتح الإسلامي للمغرب وهي قليلة مقارنة بأخبار

الشخصيات المغربية، وهو ما يظهر بوضوح اهتمام المؤلف بجمع أكبر عدد من الأخبار التي تتعلق بمناقب وكرامات شخصيات اشتهرت في القيروان بعلمها أو بعبادتها.

- أما التباين العددي الكبير المسجل بين مجموع أخبار نوادر الظرف والطرف مقارنة بمجموع أخبار المناقب والكرامات فهو يؤكد ما جاء في نهاية المقدمة من إشارة تحيل على أن المؤلف سيهتم بالدرجة الأولى بجمع أكبر عدد ممكن من الأخبار التي تتعلق بالأوصاف والفضائل التي ستؤثر في القارئ وتدفعه لسلوك طريق الإيمان والتمسك بهديه.

2- كتاب معالم الإيمان للدباغ (ت هـ605)، وابن ناجي (ت 839 هـ):

يعد كتاب معالم الإيمان " للدباغ "، مواصلة لما ألف في باب طبقات تراجم العلماء، ومن أبرزها رياض النفوس " للمالكي " لما في الكتاب من ضوابط أهمها: الالتزام بالحديث عن العلماء والصلحاء بالقيروان، والجنوح للاقتصار على معطيات تتعلق بالمسيرة العلمية للمترجم لهم، بذكر أسماء شيوخهم وأسماء تلاميذهم، إضافة إلى إثراء سيرهم بملخصات من أخبار أوصافهم تتعلق بالحياة الاجتماعية أضافها ابن ناجي. وقد نتج عن ذلك كثرة المعطيات المتصلة بمختلف جوانب الحياة في هذا الكتاب.

وحرر هذا الكتاب عالمان جليلان على التوالي، ألفه أولا عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي، المشهور بالدباغ[1]، وبعده أتى ابن ناجي التنوخي[2]. وذيل الكتاب يقول:« فرأيت أن أذكره أولا وأعبر عنه بـ " قال " كأنه أصل، وأكمل عليه ما يتأتى لي

[1]- عبد الرحمان بن محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري الأسيدي نسبة إلى أسيد بن حضير رضي الله عنه، واشتهر بالدباغ، أنظر معالم الإيمان،ج1، ص 7.

[2]-أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجيالتنوخي القيرواني، أنظر ن م، ص 9.

تكميله من غيره وأعزوه لقائله»[1]، وهي إضافات وزيادة تكميلية تتعلق بموضوعه كانت لها قيمتها وأهميتها.

وأهمية الكتاب، تكمن في أنه بالإضافة إلى جمعه الكثير من تراجم أهل القيروان، المذكورة في مصنفات المرحلة الأولى استطاع أن يجمع أيضا بين ثلاث حلقات من حلقات رجال القيروان الذين نشأوا بداية من عصر المؤلف الأول (القرن السابع للهجرة)، إلى عصر المؤلف الثاني (القرن التاسع للهجرة)، وبذلك يعتبر مصدرا وثيقا لثلاثة مائة وواحد وتسعين ترجمة احتوت عليها أجزاؤه الأربعة.

ويعلمنا ابن ناجي في المقدمة عن الاسم الذي وضعه المؤلف للكتاب وسماه " معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان "[2]، تسمية طويلة تتناغم فيها أسماء المعاني واسم المكان والصفات، وحرف الجر (في) لتنوء بكل ثقلها التركيبي، مخترقة فضاء المتلقي الحسي والذهني، لتنتصب فيه باطمئنان،[3] فالشطر الأول من العنوان يقدم وصفا للكاتب في كلمتين تدل الأولى معالم على « اسم جمع معلم وهي: العلامات والآثار التي يستدل بها على الطريق»[4]، أما الثانية الإيمان «مصدر آمن يؤمن إيمانا وهو مؤمن ومعناه التصديق أي إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم واعتقاده وتصديقه بالقلب، وذلك الإيمان الذي يقال للموصوف به مؤمن»[5]، فيأتي الشطر الثاني ليكشف أن الآثار والعلامات يستدل بها لمعرفة أشخاص في مكان محدد " القيروان "، أي أن المؤلف يقدم تراجم ما عرفه هو من خلال تتبع علامات وآثار الإيمان التي اتصف بها المؤمنون بالقيروان.

---

[1]- ن م، ص 3.

[2]- م ن، ن ص.

[3]- الهاشمي اسمهر، عتبات المحكي القصير ، ص215.

[4]- ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص364.

[5]- ابن منظور، لسان العرب ، ج1، ص209.

ويظهر الاطلاع على متن الكتاب، تعلق العنوان بالمتن حيث وجدنا معظم نصوص التراجم قد تضمنت أخبارا أدبية بلغ مجموعها – 350- تتناول الحديث عن الكثير من أوصاف وفضائل أهل القيروان وغيرها من مدن إفريقيا وقد توزعت على الأنواع الخبرية الآتية: (المناقب والكرامات، ونوادر الظرف والطرف) والجدول يظهر ذلك:

1- أخبار المناقب	**الصفحة**	**2-أخبار الكرامات**	**الصفحة**	**3-أخبار نوادر الظرف والطرف**	**الصفحة**
1:أبو ذر الغفاري	86	1:أبو ذر الغفاري	91-90	1:ابن فروخ والجارية	242-241
2:حميد بن أرقم	101-100	2:عقبة بن نافع	165-164	2:يحي بن سلام	222
3:المسور بن مخرمة	135-134	3:خويلد بن خالد	175-173	3:ابن الفرات وأصحاب مالك	6
4:سعد بن مسعود	185	4:مروان اليحصبي	251-250	4:البهلول وزيادة الله	67
7،5:إسماعيل بن عبيد	195-193	10←5:رباح بن يزيد	257-250	5: محمد بن سحنون	134
8: علي بن رباح	201-200	11:ابن المبارك	257	6:عبد الله بن أحمد والكفيف	172-171
9:عبد الله بن المغيرة	211-210	12:قبر رباح بن يزيد	263	7:أبو عقال وزوجته	229-228
11،10: جميل بن كريب	227-226	14،13:البهلول بن راشد	271-269	8:عبد الرحمانالدباغ	90
12:عون بن سليمان	228	15:أبو سراج البناء	271		
15←13:عبد الرحمان بن أنعم	235-233	19←16:شقران بن علي	285-284		
18←16:عبد الله	274-242	21،20:عبد الله بن	313-301		

بن فروخ		غانم			
19←23:ابن المبارك	257-261	22:عون بن يوسف	74-75		
24←30:البهلول بن راشد	267-278	23:سحنون بن سعيد	100-101		
31،32:شقران بن علي	280-284	24:أبو محمد الأنصاري	115		
33،34:عبد الله بن غانم	393-397	25:محمد بن سحنون	133-134		
35:عيسى الغبريني	296-298	26:محمد بن عبدوس	139		
36←41:عبد الله بن غانم	300-308	27:إبراهيم بن المضاء	175		
42:يحي بن سلام	324	28:معتب بن رباح	193-194		
43:محمد المكاري	335	29:أحمد بن داود	209		
44:الرجل القفصي	335-336	30←36:أبو عقال	216-230		
45:يحي بن سلام	336-338	37:عبد الله بن محمد	332		
46:محمد بن مسروق	329	38:محمد بن أبي حميد	251		
47←50:أسد بن الفرات	7-11	39:ابن هذيل	266-268		
51←53:عبد الخالق القتات	27-29	40،41:جبلة بن حمود	278-279		
54←58:أبو	30-38	42:محمد بن	287		

محرز		إسماعيل			
59←62:أحمد بن أبي محرز	48-40	43←45: سعيد بن الحداد	315-310		
63←66- موسى بن معاوية	56-52	46- حماس بن مروان	326		
67،68: عبد الله اليحصبي	62-60	47: هاشم بن مسرور	344		
69:البهلول بن عمرو	68-67	48:محمد بن محمد بن سحنون	346		
70:يحي بن الحكم	69-68	49:الحسن بن مفرج	356-355		
71←73:سحنون بن سعيد	94-89	50:عبد الرحمن بن عبد الله	360-359		
74:حمدون العسال	108-107	51:محمد بن قطانية	361		
75:أبو محمد الأنصاري	116-115	52،53:يوسف بن نصر	15-14		
76:سعيد بن عباد	120-119	54:أحمد بن أبي خالد	19-18		
77←81:محمد بن سحنون	133-125	55:محمد بن سهل	21-20		
82:محمد بن عبدوس	141-140	56:ربيع القطان	31		
83:محمد بن يحي	147-146	57←59:أحمد بن نزار	42-41		
84←92:عبد الله بن أحمد	161-160	60:مروان بن نصر	48		

94،93:أحمد بن متعب	180-178	62،61:علي المؤدب	50		
95←98:عبد الجبار بن خالد	191-187	63:محمد بن العسال	58		
98:أحمد بن وازن	198-197	65،64:حجاج بن أبي يعقوب	63-62		
99:حمديس القطان	203	66←74:إبراهيم السبائي	72-65		
100←102: أبو عقال	230-215	75:أبو القاسم بن سعيد	84		
104،103:محمد بن أبي حميد	253-251	76:هبة الله بم محمد	87		
106،105:سعيد بن إسحاق	257-255	77←82:عبد الله بن أبي زيد	120-112		
107:ابن البرذون	264-263	83:أبو بكر الخزاعي	122		
108:جبلة بن محمود	274	84←86:علي بن القابسي	142-139		
110،109:محمد بن محمد بن خيرون	291-289	87:أحمد الخولاني	167		
111:سعيد بن الحداد	212	88:الواعظ عبد الصمد	192-191		
112:محمد بن فرج	318-317	89:علي بن محمد	200		
113:حماس بن مروان	326-324	90:يحي بن عوانة	205		
115،114:الحسن	356-355	91←93:يوسف	208-207		

بن مفرج		بن حسون			
116:ميمون بن عمرو	357-356	94:خلف بن أبي شيخ	209		
117: يوسف بن نصر	14-13	96،95:محمد الدباغ	211-210		
118:محمد بن سهل	21	97←111: أبو يوسف الدهماني	229-214		
120،119:محمد بن اللباد	25-24	112:عبد السلام المسراتي	12-11		
121:ربيع القطان	31	114،113: عبد السلام بن نصر	16-15		
122:محمد بن أحمد(أبو العرب)	38-37	116،115:عمار المعروفي	24-21		
124،123:إبراهيم بن محمد	40-39	117:يعقوب الدهماني	28		
125:أحمد بن نزار	42-41	119،118: غيث بن قاسم	37-36		
127،126:محمد بن أبي منصور	46-45	120:محمد الدكالي	39		
128: مروان بن نصر	47	121←124:محمد بن يخلف	48-43		
129:محمد بن إسحاق	49	125←141:سالم القديدي	84-56		
130:عمر بن العسال	52-51	142:ميمون بن زيد	104		
131:محمد بن مسعود	54-53	144،143:محمد بن عبد الرحمان	115-114		
132:عبد الله بن	57	145←148:علي	129-126		

قاسم		بن عبد الله			
133: محمد بن التبان	74	149:موسى بن عيسى	141-140		
134:علي بن محمد	76	150←152:أحمد الدباغ	144-143		
135:عبد الله بن هاشم	81-80	153:سليمان النفوسي	163		
136:أبو القاسم بن سعيد	84	154،155:عبد الناظر بن سالم	165-164		
137:عبد الله بن إسحاق	90-89	156←158:يعقوب الزعبي	169-166		
138:أبو سعيد الربعي	101-100	159←163:صالح الصدفي	178-173		
139:أبو بكر الزعفراني	108-107	164←167:عبد الكريم الأرنبي	185-183		
140،141:عبد الله بن أبي زيد	116-113	168:خليفة بن ناجي	199		
142:أبو بكر الخزاعي	122	169←171:عبد الله بن محمد	212-210		
143:علي بن القطان	126-125	172←178:محمد الجريدي	238-226		
144:أبو بكر الحذاء	133	179:محمد المدلجي	243		
145:علي بن القابسي	141-140	180،181:عبيد الغرياني	256-253		
146:حسن بن خلدون	152-151	182:محمد بن علي	262		

147،148:موسى بن عيسى	163-161					
149:أحمد بن أبي زيد	188-187					
150:يوسف بن حسون	207					
151:أبو يوسف الدهماني	223					
152،153:محمد بن ثغر	8-7					
154:غيث بن قاسم	35-34					
155:ميمون بن زيد	106					
156←158: محمد بن عبد الرحمان	119-109					
159:موسى بن عيسى	139-138					
160:محمد بن أبي يحي						
المجموع	**160**	**-**	**182**	**-**	**8**	**-**

جدول (2): أنواع الخبر في كتاب معالم الإيمان للدباغ

نلاحظ من خلال الجدول: أن الكتاب يحتوي على الكثير من الأخبار التي ذكرها المالكي ويفسر ذلك أن ابن ناجي وهو يواصل عمل الدباغ قام بإثراء كتابه بالكثير من الأخبار التي أضافها من كتب سابقة ومن أهمها رياض النفوس.

أما التباين العددي الكبير المسجل بين أخبار نوادر الظرف والطرف والمناقب والكرامات يفسره – هنا أيضا – اهتمام المؤلف في الكتاب بجمع أكبر عدد ممكن من أخبار الشخصيات المغربية التي ارتبطت بالعبادة حيث كانت بمثابة معالم للإيمان عرف بها أهل القيروان كما أشار إلى ذلك العنوان.

3-كتاب عنوان الدراية للغبريني (ت بين 704 هـ، 714 هـ)[1]:

يعد كتاب "عنوان الدراية "، لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني المتوفي أوائل القرن الثامن الهجري، تحقيق محمد بن أبي شنب، من أنفس وأهم مصنفات القطر الجزائري التي وصلتنا في مجال التراجم، كونه صنف في وقت متقدم عن لاحقيه، الأمر الذي جعله محط اهتمام المحققين الجزائريين عبر العصور، ومن أبرزهم "الأستاذ رابح بونار"، الذي كشف لنا عن ذلك في مقدمة تحقيقه للكتاب قائلا: «إن أهم باعث حفزني على إعادة طبع هذا الكتاب هو أهميته الأدبية والعلمية التي ينطوي عليها كمصدر أساسي للحركة الثقافية ببجاية والقطر الجزائري في القرن السابع الهجري»[2]

ويفهم مما أدركه الباحث من أهمية للكتاب، أن مدينة بجاية نالت عناية " الغبريني " بفضل دورها الحضاري وإشعاعها العلمي الواسع الذي تميزت به منذ نشأتها، فقد استقطبت عددا من العلماء والأولياء من الجزائريين الوافدين والأندلسيين المهاجرين، والمشارقة الغرباء، فالكتاب يعد بحق أثرا علميا نفيسا يطلعنا على النشاط الدراسي الذي كان يتحلى به، علماؤها، فكانت رغبة المؤلف في التعريف بالعلماء حتى تكون صفاتهم ومزاياهم واضحة لدى قارئ الكتاب، الباعث الذي حمله على تأليفه فيقول: « لما كان طلب العلم اللدني فرضا على الكفاية حينا، ومتعينا في الحال، ولم يكن بد في تحصيله من تلقيه عن الرجال، وكان التلقي إما بمباشرة أو عن سند ذي اتصال، وكان المباشر تكفي معرفته والمسند عنه لابد أن تعرف صفته فلذلك اهتم العلماء بذكر الرجال، واستعملوا في

[1]- هناك اختلاف في تاريخ وفاته فرابح بو نار اعتمد الأول (704هـ) وفقا لرواية مجموعة من المؤرخين من أبرزهم ابن خلدون، ومحمد بن شنب اعتمد الثاني (714هـ) وفقا لرواية مجموعة من المؤرخين أبرزهم ابن خليكان، راجع ذلك في أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحق: رابح بونار، الشركة الجزائرية للتوزيع الجزائر، د ط، 1981م ص 13، ص 14.

[2] - ن م، ص50.

تميز أحوالهم الفكر والبال»[1]، فاشتمل الكتاب على مائة وثمانية ترجمة لمشاهير علماء بجاية وقد انتهى منه عام 699 هـ.

ويقر "الغبريني" ابتداء من المقدمة أن منهجه في الكتابة حصره في أن يذكر فيه « من عرف من العلماء ببجاية في هذه المائة السابعة التي نحن في بقية العشر الذي هو خاتمتها ختمها الله بالخيرات وجعل ما بعدها مبدأ المسرات، أذكر منهم من اشتهر ذكره، ونبل قدره، وظهرت جلالته، وعرفت مرتبته في العلم، ومكانته»[2]، ثم يعتذر أنه لم يتقيد بهذا المنهج، فقد خرج عنه خاصة في بداية الكتاب، فقد أورد الكثير من تراجم علماء أواخر المائة السادسة كانت لهم مقامات، وصفات مشهورة، جعلتهم من أهل الجلال والكمال»[3]، يقول: «وقد رأيت أن أصل بذكر علماء هذه المائة ذكر الشيخ أبي مدين، والشيخ أبي علي المسيلي، والفقيه أبي محمد الإشبيلي – رحمهم الله ورضي عنهم - لقرب عهدهم بهذه المائة، لأنهم كانوا في أعقاب المائة السادسة للتبرك بذكرهم، ولانتشار فخرهم»[4]. ويبدو أن الغبريني كان شديد التأثر بأعلام الصوفية، الوافدين من الأندلس، وبخاصة أبو مدين شعيب الذي عمل على نشر هذه الطريقة بحاضرة بجاية أين ألحق بترجمته العديد من أخبار أوصافه.

ثم ذكر المؤلف في آخر المقدمة تسمية الكتاب « وسميت هذا المجموع (عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية) »[5]، وهي تسمية طويلة – هنا أيضا - تحيلنا مباشرة على محتوى الكتاب، فالمركب الاسمي في الشطر الأول منها يحدد

---

[1] - أحمدالغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحق: محمد بن أبي شنب، دار البصائر للتوزيع والنشر الجزائر، ط1، 2007م، ص6.

[2] - ن م، ص6، ص 7.

[3] - الغبريني، عنوان الدراية، تحق: رابح بونار، ص35.

[4] - الغبريني، عنوان الدراية، تحق: محمد بن شنب ، ص7.

[5] - ن م، ن ص.

صفة لذوات موضوع السرد، فالكلمة الأولى منه عنوان تدل على « يعن عنا عننا وعنوانا إذا ظهر أمامك، وكلما استدللت بشيء يظهرك على غيره فعنوان له، وعنوان الكتاب، سمة الكتاب، وعنونه وسمه بالعنوان، قال ابن سيده: في جبهته عنوان من كثرة السجود أي أثر»[1]. أما الكلمة الثانية الدراية فهي: « مصدر درى الشيء دريا ودراية: علمه ويقال دريت الشيء أدريه: عرفته، وأدريته غيري إذا أعلمته، قال الجوهري: دريته ودريت به دريا ودراية: أي علمت به »[2]، معاني ودلالات تتحد لتحيل المتلقي على " سمة العلم " فيأتي الشطر الثاني ليعين بشكل دقيق مجال المعرفة فيحدد (الفئة، الزمان، المكان) للذوات، فسمة العلم تختص بفئة العلماء الذين عاشوا ببجاية في المائة السابعة.

ويشتمل متن الكتاب وفقا لعملية القراءة على -42- خبرا أدبيا، احتوت عليه بعض نصوص التراجم، وجاءت موزعة على الأنواع الخبرية الآتية: (المناقب والكرامات، ونوادر الظرف والطرف) والجدول يبين ذلك:

1-أخبار المناقب	الصفحة	2-أخبار الكرامات	الصفحة	3-أخبار نوادر الظرف والطرف	الصفحة
1:حسن بن علي المسلمي	17-16	1←4:أبو مدين شعيب	11-8	1: أبو الفضل القيسي	27-26
2:الوالي قراجة	17	5←7:حسن بن علي المسيلي	18-14	2:أحمد الغماري	46
4،3:أبو عبد الله بن شعيب	90-89	8: أبو عبد الله العربي	24	3:عمر الكلبي	126-125
5:أبو الحسن الششتري	112-111	9:يعيش السقطي	25-24	4: الجزولي	133

[1]- ابن منظور لسان العرب ، ج9، ص437.

[2]-ن م، ج4، ص334.

6: الحسن بن محمد		145-144	10:أحمد القيسي	49	5: محمد بن كحيلة	135
			11:علي الزواوي	61	6:أبو محرز	136
			13،12:علي بن عبد الله	68-66		
			14←19:علي التجيبي	75-72		
			20:محي الدين بن عربي	78		
			21←27:قاسم القرطبي	82-79		
			29،28:أبو الحسن الششتري	113-111		
			30:عبد الله بننعيم	153-152		
المجموع	**6**	**-**	**30**	**-**	**6**	**-**

جدول(3): أنواع الخبر في كتاب عنوان الدراية للغبريني

4- كتاب "البستان" لابن مريم التلمساني (ت بين 1025 هـ، 1028 هـ)[1]:

يدخل كتاب " البستان " لأبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني، في طليعة تعداد كتب التراجم الخاصة بمدينة تلمسان في أواخر العهد الزياني، لاشتماله على معلومات تتعلق بمختلف جوانب الحياة فيها، خاصة العلمية والثقافية منها، وزاد من أهمية الكتاب الطريقة التي سار عليها المؤلف في تتبع صلحاء وعلماء تلمسان بداية من القرن السادس إلى القرن الحادي عشر الهجري، وهو ما جعل "الأستاذ محمد بن أبي شنب"، ينشره لأول مرة سنة 1908م.

وتبرز أهمية الكتاب أكثر حين أدرك المهتمون بالعلم والثقافة في الجزائر المستقلة، قيمة المعلومات، التي احتوى عليها، حيث حفز المدير الجهوي لديوان المطبوعات الجامعية بوهران السيد " ديدي محمد الهادي " زميله الأستاذ " عبد الرحمان طالب " على إعادة نشر نسخته الأولى سنة 1986م، بإضافة مقدمة توضح للقارئ بعض الأمور التي تتعلق بالكتاب، وموضوعه ومحققه "محمد بن أبي شنب" إضافة إلى التعريف بمدينة تلمسان وحضارتها، وهي النسخة المعتمدة في بحثنا.

وقد صدر المؤلف الكتاب بمقدمة تشتمل على دوافع تأليفه وتتضمن اعترافا صريحا بمنافع التأليف في أخبار العلماء والصلحاء لأن فيها سلوانا لقلوب القراء من مصائب الزمان وتنشيطا لنفوسهم يقول: « وقد طالعت ما أشرتم به علي من ذلك التأليف الأبرك المتضمن جمع أولياء تلمسان وفقهائها الأحياء منهم والأموات وجميع من كان بها وحوزها وعمالتها فأسعفتكم فيما طلبتم نسأله سبحانه وتعالى أن يكمله لكم وأن ينفعكم به

[1]- هناك من رجح وفاته بعد 1014هـ، ولكننا اتبعنا ما توصل إليه حسن الفكيكي وفقا لما وجده من قرائن في كتاب أحد تلاميذ ابن مريم. أنظر ذلك في مقال: عبد القادر بوباية، عرض وتقديم كتاب البستان نقلا عن: **www.attarika_alarabi.ma** ص220.

خصوصا...، وهذا الذي ألهمتم إليه أيها الأخ من أفضل ما يبذل فيه العمر كله... لأن فيه أنسا للقلوب المتوحشة من شر الزمان وأهله وتنشيطا للنفوس»[1].

يفهم من هذا الكلام أن ابن مريم قد استجاب لطلب أحد المحيطين بـــه، والمهتمـــين بالاطلاع على تراجم تخص أولياء تلمسان وعلمائها، فأسعفه بذلك من خلال الترجمة لهذا العدد الوافر من هؤلاء الأعلام الذين ولدوا أو عاشوا في تلمسان، وأحوازها، وساهموا في تنشيط الحركة العلمية والثقافية بها.

وتظهر صفحة الغلاف العنوان الكامل للكتاب وهو " البستان فـــي ذكـــر الأوليـــاء والعلماء بتلمسان "، وهي تسمية تختلف عن تلك التي ذكرها ابن مريم في مقدمـــة تأليفـــه حيث قال: «وسميته بالبستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان»[2]. فالعنوان قد وقع فيـــه اختلاف بين المحقق والمؤلف، سببه بحسب " عبد القادر بوباية " هو ورود كلا التسميتين في النسخ الأربعة للكتاب، التي اطلع عليها وتميزت بتفاوتها من حيث الزمن، فتوصل إلى أن المحقق اختار عنوان النسختين المتقدمتين، وأهمل عنوان النسختين المتأخرتين، بالرغم من أنه هو العنوان الأكثر دقة لوروده في أقدم نسخة وهـــي (أ)، التـــي كتبـــت ســـنة (1049هـــ/1639م)، وقد تميزت بقلة الأخطاء الواردة فيها[3]، وهي حقائق لا نظن أنهـــا كانت لتخفى عن الناشر الأول، فقد بين في صدر الكتاب ونهايته أنه اعتمد لتحقيق الطبعة الأولى، على عدة نسخ مخطوطة حدد مصادرها بدقة، ونرجح أن الاختيار قد جاء نتيجـــة لقراءته المتمعنة لنصوص النسخ المتوفرة لديه، فأدرك ببصيرته النافذة أن التصنيف يهتم أكثر بجمع أخبار رجال تميزوا بفضلهم وصلاحهم، وينفرد بالترجمة للكثير مـــن رجـــال تلمسان المشهورين بالولاية، فالناشر الأول تفاعل مع هذا الاهتمام منذ مقدمة الكتاب التي

[1]-محمد بن مريم ، البستان ، ص5.

[2]- محمد بن مريم ، البستان ، ص 8.

[3]- عبد القادر بوباية، عرض وتقديم كتاب البستان، ص 223.

كشف فيها المؤلف أن أهم غاية لدافع التأليف هي التقرب إلى الله، فنجده يشرح ذلك قائلا: «إن ذكر العلماء وحكايات الصالحين واقتصاص أحوالهم أنفع للنفس بكثير من مجرد الوعظ والتذكير بالقول... لأن الصالحين إذا ذكروا نزلت الرحمة وفيه عدة لكم وأوثق عروة وأقرب وسيلة في الدارين لأنه إذا كان مجرد حب الأولياء ولاية وثبت أن المرء مع من أحب فكيف بمن زاد على مجرد المحبة بموالاة أولياء الله تعالى وعلمائه وخدمتهم ظاهرا وباطنا بتسطير أحوالهم ونشر محاسنهم في أقوالهم وأفعالهم نشرا يبقى على ممر الزمن، ويزرع المودة لهم والحب في صدور المؤمنين للاقتداء بهم بحسب الإمكان »[1]. وهي سلوكات معينة خاصة تسمح بتتبع نشأة الحركة الصوفية بحاضرة تلمسان والتعرف على مدى تأثير هؤلاء الصوفية في مجتمعها.

ويؤكد صحة ما رجحناه حول سبب الاختيار ما احتوت عليه نصوص التراجم من أخبار تحتفي بسلوكات معينة وخاصة اتصف بها شيوخ المتصوفة بتلمسان، ووقفنا على أن جل هذه التراجم تخص شيوخ المؤلف الذين تتلمذ على أيديهم ومن أبرزهم « الحسن بن مخلوف الشهير بأبركان»[2]، «أحمد بن عيسى الورنيدي يعرف بأبركان»[3]، ويضاف إلى ذلك ما وجدناه في شجرة النورالزكية لمحمد مخلوف الذي ترجم ابن مريم فقال فيه: «أبو عبد الله محمد بن أحمد يعرف بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني الفقيه العالم الشيخ الصالح المؤرخ الأديب الكامل أخذ عن الشيخ سعيد المقري وغيره، ألف البستان في علماء تلمسان فرغ منه سنة 1014هـ، وذكر فيه مشايخه والتآليف التي ألفها وهي أحد عشر تأليفا منها غنية المريد شرح لمسائل أبي الوليد، وتحفة الأبرار في الوظائف والأذكار، وكشف اللبس والتعقيد، عن عقيدة التوحيد وشرح المرادية للتازي»[4].

---

[1]- ابن مريم، البستان ، ص6.

[2]- أنظر ترجمته في ن م، من ص74 إلى ص93.

[3]- أنظر ترجمته في ن م، من ص24 إلى ص26.

[4]- محمد مخلوف، شجرة النورالزكية ،مج 1، ص428.

تعريف يفهم منه أن ابن مريم كان من أبرز أهل العلم الذين اشتهروا بالصـــلاح، وهـــو وصف يدل على تأثره بشيوخه، ما جعله من أبرز أئمة التصوف في ذلك العصر، فـــألف أحد أشهر الكتب في ذكر علماء وصلحاء قطره، وهو ما أكسب " البستان " مكانة مرموقة على اعتبار أنه نقل لنا صورة عميقة الأبعاد عن الحياة الفكرية والأدبية في مدينة تلمسان خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين بخاصة.

وتقوم تركيبة العنوان الطويلة – هنا أيضا -، على تشاكل دلالي وصوتي بين أسماء المكان (تلمسان، والبستان) الواردة فيها، لتضع في الذهن أن الكتاب سيعرفنا بأشـــخاص استثنائيين (أولياء، وعلماء) في مكان استثنائي (تلمسان)[1] ، التي تغنتي ببستان يجمع مائة وأربعة وثمانين من تراجم الأولياء والعلماء، شكلت متن الكتاب، لكننا نلاحظ أن المؤلـــف لم يلتزم بهذا المنهج المحدد، حيث أن البعض منها خصصه لذكر أعلام من علماء المالكية من خارج تلمسان ممن كانت لهم علاقة مباشرة بعلمائها «كابن ناجي التنوخي»[2]، « ابن عرفة»[3]، «البرزلي»[4] وغيرهم، إضافة لذكره العديد من الأولياء المشهورين من خـــارج تلمسان، ومن أبرزهم خليل بن إسحاق المعروف بالجنيد، وافتتح به حرف الخـــاء قـــائلا: «لم أجد من شيوخ تلمسان من اسمه خليل لكن أكتب في كتابي ســـيدي خلـــيلا صـــاحب التوضيح والمختصر التماس بركته»[5]، وكذلك افتتح ترجمة من اسمه يوسف قائلا: « إن يوسف بن عمر الأنفاسي ويوسف بن محمد المعروف بابن النحوي لم يكونـــا مـــن أهـــل تلمسان لكن أذكرهما تبركا بهما رحمهما الله تعالى وأولاهما بالتقديم يوســـف بـــن عمـــر

[1]- الهاشمي اسمهر، عتبات المحكي القصير، ص 214.

[2]- ابن مريم، البستان، ص 149.

[3]-ن م، ص 190.

[4]- ن م، ص 150.

[5]-ن م، ص 96.

الأنفاسي»[1]، ورتب ابن مريم أسماء تراجمه على حروف المعجم مبتدأ بمن اسمه أحمد ومنتهيا بمن اسمه يحي، وقد تضمنت في معظمها العديد من الأخبار الأدبية بلغ مجموعها -111- خبرا، وقد جاءت موزعة من الأنواع التالية (المناقب والكرامات، ونوادر الظرف) والجدول يظهر ذلك:

1-أخبار المناقب	الصفحة	2-أخبارالكرمات	الصفحة	3-أخبار نوادر الظرف	الصفحة
2،1:أحمد بن الحاج	17	1:أحمد بن الحاج	16	1:ابن قطرال	159
3:أحمد بن مرزوق	29-27	2←5:أحمد أبركان	26-24	3،2:محمد المقري	163-162
4←6:أحمد الغماري	34-32	6:الشريف الإدريسي	26	4:محمد بن مرزوق الحفيد	213-212
7←10:أحمد بن زكري	40-38	7:أحمد مرزوق	29		
11:إبراهيم بن يخلف التنسي	67	8←12:أحمد الغماري	37-32		
12←15:الحسن أبركان	91-86	13:أحمد بن زكري	41-40		
16:عبد الرحمان اليعقوبي	134	15،14:إبراهيم بن محمد	65		
17←19:الشريف الحسني	176-167	16:إبراهيم بن يخلف	67		
20:محمد بن مرزوق الخطيب	188	17:الشوذي الحلوي	69-68		
21:محمد بن عمر الهواري	236-234	18←32:الحسن أبركان	84-74		

[1]-ن م، ص 297.

22: محمد بن عمر	264	34،33: حدوش بن تيرت	94-93		
		35:حمزة بن أحمد	94		
		36:السعيد البجائي	104		
		46←37:شعيب بن أبو مدين	113-109		
		47:عبد الله البكاء	121		
		49،48:عبد الرحمان اليعقوبي	135-134		
		54←50: عبد الله المغراوي	139-135		
		55:الشيخ صالح	159-158		
		56:القرموني	160		
		59←57:الشريف الحسني	177-166		
		60:محمد بن مرزوق الخطيب	189-188		
		61:محمد بن مرزوق الحفيد	212		
		67←62:محمد بن عمر الهواري	236-230		
		69،68:محمد السنوسي	245-244		
		74←70:محمد الشريف المليتي	270-268		
		75: محمد القلعي	272-271		
		76: محمد البطيوى	274-273		
		77: محمد	288-287		

		الفجيجي				
		79،78:محمد السويدي	289-288			
		80:محمد الأدغم	290			
		82،81:يوسف بن عمر	299-298			
		83←85:يوسف بن النحوي	304-300			
المجموع	**22**	**-**	**85**	**-**	**4**	**-**

جدول (4): أنواع الخبر في كتاب البستان لابن مريم

نلاحظ من خلال الجدول أن أخبار الكرامات المتعلقة بأبي مدين شعيب قد ورد أربعة منها عند الغبريني في عنوان الدراية.

5- كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري (ت 1014هـ):

ارتبط " أزهار الرياض "، ككل كتاب اهتم بالترجمة لعلم مفرد من أفذاذ العلماء في المغرب والأندلس، بسيرة العلم موضوع الترجمة، ويكون بذلك قد غطى كامل فترة ازدهار دولة المرابطين التي عاش فيها القاضي عياض (476هـ، 544هـ) فهو يعتبر في مقدمة مصادر السيرة التي تحوي الكثير من أخبار الأجيال التي تعاقبت في المغرب والأندلس، خلال هذه الفترة، واستطاعت التأريخ لفترة حاسمة في تاريخ العدوتين عزت فيها المصادر المؤرخة لها، أو هي لا تزال سرا مطويا في خزائن الكتب لم تنشره المطابع بعد لذلك قام صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارات بإعادة طبع الأجزاء الثلاثة، التي سبق أن أصدرها بيت المغرب بالقاهرة سنة 1939م، ثم تحقيق وطبع ما بعد الجزء الثالث إلى نهاية الكتاب سنة 1980م.

وتكتمل أهمية كتاب " أزهار الرياض " عندما نعرف أنه يمثل شهادة موضوعية، عن قاضي المالكية المشهور في المغرب والأندلس، عياض بن موسى اليحصبي، السبتي، صاحب المؤلفات في الفقه وعلوم اللغة والتراجم، وهي شهادة كتبها شيخ أدباء المغرب أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت 1014هـ)، صاحب نفح الطيب وغيره من الكتب الممتعة، وبحسبنا أن نذكر هنا المنهج المميز الذي اتبعه المؤلف في ترجمته لعياض حيث رسم لها خطة واضحة، ورتب عناصرها ترتيبا حسنا، وتضمنت تعريفات واسعة خصبة النواحي جعلته يخوض في التفاصيل ويتعمق ويتتبع أخبار صاحب السيرة حتى قبل ولادته، فيحدثنا عن أسرته، ويبحث عن نشأته عبر مختلف مراحل حياته ثم يذكر شيوخه الذين أخذ العلم عنهم، في كثير من التفصيل والدقة بذكر مؤلفاتهم، ويخص بالعناية النتاج الأدبي لعياض ويذكر تآليفه، وتصرفه في الحياة وعمله في خدمة السلطان ووفاته، وآراء الناس فيه، فهو يجعله مركزا لدائرة معارف تاريخية وأدبية تحوي أخبار عصره ومصره.

ويحدد " المقري " في المقدمة الدافع لتأليف كتابه، وسمات منهجه في جمع الأخبار، بعد اعترافه بقصر باعه في براعة التأليف فيقول: « ووردت كتب من تلك الناحية، حركت شجو الغريب والشوق إلى لقائهم... وكان من جملة فصولها، وفروع أوصولها طلب التعريف. ببعض أحوال الشيخ الإمام قاضي الأئمة... سيدي أبي الفضل عياض ابن موسى الشهير الصيت... ثم وقع العزم والتصميم على جواب هذا السائل، وأخذت في هذا الغرض ... وهذا مع أني ما مهرت وما برعت، ولا أتقنت لصناعة التأليف عملا، وكثير ما خرجت من الشيء إلى ما يناسبه ويدانيه، وربما أبعدت النجعة، ثم وقعت الأوبة والرجعة...، وقربت بذلك كله شاسعا كي تسهل مئونته على معانيه وهصرت أفنان ألفاظه ومعانيه»[1].

فالتأليف جاء استجابة لرغبة بعض أهل بلاده تلمسان في التعريف بعياض قاضي المغرب الأشهر، فكان شافيا في موضوعه منتشلا من الضياع طائفة من الأخبار التي لولاه لضاعت. وتناول في المقدمة كذلك تسمية الكتاب فقال: « وسميته بأزهار الرياض في أخبار عياض، وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض تسمية وافقت إن شاء الله معناه وناسبت منزله ومعناه، لأنه جمع أزاهر ذات ألوان من ورد وأقحوان وبهار عرفه ذو انتشار ومنثور روضه مريع ممطور، ونسرين يفوح أريجه مسك دارين، آس، عاطر الأنفاس، وشقيق خليق بالمدح، ونيلفور حاز من المحاسن النصيب الأوفر»[2]، لقد تصور المؤلف كتابه رياضا، كما سماه يتألف من روضات عددها ثمانية تشتمل على أزهار عطرة ويصف اهتمامه بسقيها فيقول:« وأجريت جداول أنهار من الحكايات لسقي هذه الأزهار، فأينع النوار، وتألقت الأنوار، وتفنن الناظر بين أنحاء وأغوار، ولم يدر وقد انتقل من أطوار إلى أطوار وتأمل صرحا بني على غير جرف هار، وقد أفصح ترجمان

[1]-أحمد المقري، أزهار الرياض، ج1، ص 15، ص 16.

[2]-ن م، ص16.

التراجم عن عدها وسرحها، ولوح لنكتة الاختتام بنيلفورها والافتتاح بوردها[1]، ثم حدد الجوانب العطرة من سيرة القاضي التي ستتولى سردها كل روضة، وبعدها توجه للقارئ مخاطبا «فدونك أيها الناظر روضات أزهار، وجنات تجري من تحتها الأنهار، أبوابها ثمانية، وقطوفها دانية، تعطّر منها نسيم الصبا بزهر الآداب، وسما إلى محاسنها من تعلق بالتاريخ بأهداب، لم أسبق إلى مثلها فيما رأيت»[2]، وهو خيال شاعر لطيف، لعله يكون مماثلا في ذلك ما وجدناه عند لسان الدين بن الخطيب في كتابه روضة التعريف بالحب الشريف الذي بناه على ما يشبه ذلك من أغصان وأفنان وأوراق وأزهار وأثمار وما إلى ذلك وكله في التصوف وخاصة أننا نعلم أن المقري هو مؤرخه وخلفه في الكتابة وفق منهجه.

وقد أوضح الإقبال على قراءة أقسام الكتاب من مقدمة وروضات أزهار أبوابها ستة، لسقوط الروضتين السادسة والسابعة، من نص التأليف[3] ، اشتمال المتن على أخبار أدبية بلغ مجموعها -36- جاءت موزعة على مختلف الأقسام، ارتبطت بصاحب السيرة، أو المؤلف، أو بشخصيات اشتهرت بـ(العبادة، والعلم، والسياسة)، ويمكن أن نرجع انخفاض مجموع أخبار الكتاب مقارنة بحجمه -05 أجزاء - إلى اهتمام المؤلف بجمع النصوص النثرية والشعرية على حساب الأخبار الأدبية، وكذلك اهتمام الكتاب في جوانب كثيرة منه بالأخبار التاريخية العامة وأكيد لضياع الروضتين (6 ، 7) تأثيرا على أخبار الكتاب، التي جاءت موزعة على الأنواع الآتية: (المناقب والكرامات، ونوادر الظرف والطرف) وكل ذلك يوضحه الجدول الآتي:

---

[1]-أحمد المقري، أزهار الرياض، ج1، ص 16، ص17.

[2]- ن م، ص 17، ص18.

[3]- أكد المحققان سقوط الروضتين من سائر النسخ حسبما وقفا عليه ووصل إليه بحثهم عن نسخ الكتاب المخطوطة بالمغرب وتركيا، أنظر في ذلك ، نفسه، مج 5، هامش رقم 170، ص 79.

1-أخبار المناقب	الصفحة	2-أخبارالكرمات	الصفحة	3-أخبار نوادر الظرف والطرف	الصفحة
1:أبو يوسف يعقوب	22-21	1:أبوعلي الصدفي	22-21	1: ابن جماعة والشران	134
2:ابن الخطيب	63-62	2←4:القاضي عياض	86-84	2: الخليفة الناصر الأندلسي	265
3:الفقيه إبراهيم	284-286	5،6: أبو عنان	90-87	3: ابن خميس وطلبة سبتة	303-297
4: القاضي عياض	13	7: المنصور بن أبي عامر	136-137	4: القاضي عياض	20
5:أبو عنان	28-27			5: الصدفي والفتى	153
6: بين علماء فاس وتونس	29-28			6:المازري والطلبة	167-166
7:القاضي عياض	85-84			8،7:أبو عنان	93-92
9،8:أبو عنان	92-91			9: القاضي بن عيسى	95-93
10←12:المنصور بن أبي عامر	120-122			10←16:المنصور بن أبي عامر	138-122
				17:سعيد العنبسي	139-138
المجموع **12**	**-**	**7**	**-**	**17**	**-**

جدول (5): أنواع الخبر في كتاب زهر الآداب للمقري

ب- وصف كتب النقد:

لقد حظي التأليف في النقد قديما عند المغاربة باهتمام بالغ منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والسنوات الأولى من القرن الخامس الهجري، أي الفترات الأولى من عهد بني زيري على أيدي رواد. فكانت البداية مع النهشلي في كتابه "الممتع" الذي يستجيب لمتطلبات هذا الفن واستطاع بأسلوبه القائم على الشمول والاستعاب لمختلف القضايا النقدية التي اطلع عليها في كتب النقد المشرقية، ومن أهمها: " نقد الشعر " لقدامة بن جعفر، والشعر والشعراء. لابن قتيبة أن يجمع مادة متنوعة من الشعر والنثر يغلب عليها الطابع القديم، وتمكن بطريقته الاستطرادية الفذة التي ظهرت في ثنايا آرائه النقدية أن يمثل النزعة الكلاسيكية في النقد المغربي حيث مثلت مفاهيمه النقدية مرحلة تأسيسية كان لها الفضل في انتشار الاهتمام بالنقد بين الأدباء المغاربة.

واستمرت حركة التأليف نشطة في العصر الصنهاجي وبخاصة أثناء حكم " المعز بن باديس" « فقد بالغ في إكرام العلماء والأدباء والإغداق عليهم ومنحهم أسمى الرتب، حتى سارت بذكره الركبان وقصده العلماء والأدباء من كل حدب وصوب، وصارت القيروان أيامه قبلة الطلاب، والتقى فيها شوامخ الأدباء والعلماء »[1] ، فكان العصر الصنهاجي العصر الذهبي لأدباء إفريقية، حيث عاشت فيه مدرسة القيروان الأدبية أزهى عصورها الفكرية والثقافية على الإطلاق « مما جعلها في طليعة العواصم الإسلامية الكبرى التي لعبت دورا فعالا في تاريخ الفكر الإسلامي، وأصبح لقب القيرواني للعالم أو الأديب وسام فخر له وقعه على الأسماع »[2]، وازدهرت فنون الأدب تبعا لذلك، واتسع نطاق التأليف في كتب النقد واهتم به أدباء القيروان بعد أن لاقت كتب المشارقة لديهم

[1] - عبد العزيز قليقلة، البلاط الأدبي للمعز بن باديس، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض السعودية، دط،1980م، ص 44.

[2] -ديوان ابن شرف، تحق: حسن ذكرى حسن، مكتبة الكليات الأزهرية، د ط، د ت، المقدمة، ص14.

رواجا كبيرا، فكانت آثار كل من ابن رشيق " العمدة "، " قراضة الذهب "، وابن شرف القيرواني " مسائل الانتقاد " والتجيبي (تـ بعد 414 هـ) المختار من شعر بشار استمرارا طبيعيا لهذه الحركة مع المساهمة من قبلها في تأسيس مدرسة نقدية كان لها الأثر في تطوير النقد العربي واثرائه فيما لحقها من نظريات نقدية متجددة فيما بعد.

وقد الف المغاربة كتبهم على السبيل التي جرت عليه كتب الأدب الجامعة المشرقية "كالبيان والتبيين" للجاحظ و"الكامل" للمبرد من حيث الاستطرادات المستمرة التي ظهرت داخل الآراء النقدية والتي استطاعت من خلالها جمع نصوص نثرية وشعرية متنوعة نقلت الأدب المشرقي للمغاربة، ولذا فهي تعد من أهم المصادر في تاريخ الأدب.

والملاحظ أن عملية الجمع والتدوين كان الهدف من ورائها في مختلف المراحل هي جمع أدب المشرق من أخبار وأشعار وهذا عائد إلى شدة إعجاب المغاربة آنذاك بالمشرق، وحرصهم على أن يحذوا حذو أدبائه ويؤلفوا عنهم، وينقلوا أخبارهم وأشعارهم، وهو الأمر الذي عابه بعض الباحثين على هذه الكتب، ونرى أن هذا الأمر ليس عيبا على الكتب، فقد كان في مدرسة القيروان الأدبية، في بدايتها أدباء كان أبرز شاغل لهم هو التركيز على التعليم وعلى العناية باللغة. فكانت مؤلفاتهم عامة، جاءت لتؤسس مدرسة تهدف إلى تخريج الناشئة في مجال الأدب واللغة. ومما له صلة بميدان التدريب على العلوم ووضع قواعدها، ومقايسها ما جعل هذا الهدف الذي فرضته حالة البلاد حديثة العهد بالإسلام يكتسي وجهان: انتشار اللغة العربية وعلومها، وتخريج الأدباء والشعراء من جانب أول، وتنشئة طبقة من صفوة كتاب الدواوين ليكونوا في جهاز الدولة من جانب ثان[1].

[1]- الشاذلي بو يحي، الحياة الأدبية بإفريقية، مج2، ص 684.

ومنذ عشرينيات القرن الماضي، أخرجت المطابع العربية بالمشرق والمغرب، الكثير من كتب التراث المغربية ذات الطابع النقدي القائم على الانتخاب والاختيار، المحققة بمعرفة مجموعة من العلماء الذين بذلوا جهدا مشكورا لإحياء التراث المغربي المغمور ومن أهم تلك المصنفات التي وجدنا فيها ذخيرة أدبية جمة من الأخبار الأدبية المتنوعة أسهمت بشكل كبير في تشكيل مدونة البحث وهي كتب النقد الآتية:

1- كتاب اختيار الممتع للنهشلي (ت 405 هـ):

إن " اختيار الممتع في علم الشعر وعمله "، هو قطعة مختصرة[1]من الكتاب المفقود " الممتع في علم الشعر وعمله"، لأبي عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي، وهذا الكتاب المفقود الذي لم يصلنا كاملا بل مختصرا « يتميز نسبيا بغزارة المادة، ويقدم صورة صادقة عن المصنف الأصلي، وعن فن – الأدب الكلاسيكي – وهو في نظرنا الأول والأهم في جملة ما كتبه المؤلفون الأفارقة في هذا الباب»[2]، فالطابع التعليمي الذي امتازت به حركة التأليف الأولى بمدرسة القيروان في عهد بني زيري جعلت النهشلي يمثل بكتابه " الممتع " الأساس في «انطلاق النهضة الأدبية في القرن الخامس/ الحادي عشر: فكان تلاميذ النهشلي يجدون في هذا الكتاب مادة الأدب التقليدي وطريقته، كما يجدون القواعد الأساسية لـ "علم الشعر" والمبادئ الرئيسية التي تسوس النقد الأدبي»[3]وإنما نعني بالأدب التقليدي أو الكلاسيكي، ذلك الصنف من كتب المجمعات الأدبية المغربية، التي تضم مختارات من روائع الأدب المشرقي، وهو فن « شرع نهجه " البيان والتبين " للجاحظ،

---

[1]- أنظر فيما يتعلق بمسألة الاختصار: منجي الكعبي النهشلي القيرواني، الدار العربية للكتاب تونس ليبيا، د ط ، 1978م، ص154 إلى ص175، وكذلك: عبد الكريم النهشلي، اختيار الممتع في علم الشعر وعمله، تحق: محمود القطان، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر، ط2، 2006م، ص36 إلى ص40، وأيضا الشاذلي بويحي الحياة الأدبية بإفريقيا، مج1، ص 161، ص162.

[2]- الشاذلي بويحي الحياة الأدبية بإفريقيا ،مج2، ص 685.

[3]- ن م، ص 161، ص 162.

وإنما الشأن فيه هو تعليم القارئ وإمتاعه-دونما تصميم مسبق ولا موضوع محـــدد فـــي الظاهر- عن طريق إيراد أبيات مأثورة من الشعر الجـــاهلي القـــديم، يجـــري شـــرحها والتعقيب عليها وتنزيلها في سياقها التاريخي والاجتماعي»[1].

ولعل أو ما يجب أن نتناول به الحديث حول كتاب " اختيار الممتع "، هـــو الاســـم المجهول للكاتب الذي قام بتلخيصه، إذ جاء الاختيار دون مقدمـــة تكشـــف لنـــا بعـــض الغموض عن شخصيته، ولكن كل هذا لا ينقص من عمل الناسخ، فقد أمكن له أن يحفـــظ بهذا المجهود الكبير الكثير من المختارات الشعرية والنثرية التي قام بانتخابها من الكتـــاب الأصلي إضافة إلى تعليقات وآراء أوردها بعد تلك المختارات الرائعة الدالة على رهافـــة الحس النقدي الذي كان يتمتع به النهشلي التي لولا جمعها فـــي " المنتخـــب " لضـــاعت واندثرت كما ضاعت بضياع الكتاب الأصلي الذي نقل عنه تلك المنتخبات.

ونخرج مما سبق أن "عبد الكريم النهشلي" كان من الشخصيات الأدبية التي كان لها تأثير واسع على أهل الأدب بالمغرب، وأن هناك قرائن كثيرة تؤكد ذلك يرجع بعضـــها: لمكانته الشعرية بين شعراء عصره، ويثبت ذلك ما وقفنا عليه من مقطعات شعرية لعبـــد الكريم وردت عند كل من الحصري في (الزهر، والنورين، والمصون)، والعمـــدة لابـــن رشيق ، كاستشهادات مضمنة في مواضع مختلفة من فصولها، ويرجع بعضـــها لمكانتـــه كناقد: فقد توصل كل من تناول الاختيار بالدراسة[2]إلى أن ابن رشيق قد تأثر بـــه كثيـــرا ونقل عنه نصوصا كثيرة وقد صرح في مواضع منه بأنه نقل ما نقل من كتابه المشـــهور فجاء العمدة موشحا بآرائه النقدية التي كانت تسبقها عبارات (وقال عبـــد الكـــريم، مـــا زعمه النهشلي، ومن كلام عبد الكريم ...إلخ) وكذلك ما عثرنا عليه من قرينـــة تثبـــت

[1]- الشاذلي بويحي الحياة الأدبية بإفريقيا ،مج2، ص 685.

[2]-بخصوص ذلك أنظر منجي الكعبي، النهشلي القيرواني ، ص70، ص154، ص163، ص 166، والنهشلي، اختيار الممتع ، ص11، ص37، والشاذلي بويحي، الحياة الأدبية بإفريقية، ، مج1، ص162.

مكانة عبد الكريم " الرواية الأخباري " فقد وجدنا – أثناء عملية جمع المدونة – الكثير من الأخبار الواردة في الاختيار قد نقلها كل من الحصري وابن رشيق عن النهشلي.

وما دمنا قد بينا أن الاختيار الموجود بين أيدينا من نصوص كتاب الممتع لعبد الكريم النهشلي، فلا بد أن نذكر أن اسم الكتاب الكامل كما توصل إليه معظم الباحثين المعاصرين اعتمادا على ما ورد في " كتاب نثار الأزهار لابن منظور " هو: « الممتع في علم الشعر وعمله »[1]، وهي التسمية التي اعتمد عليها الناسخ للدلالة على عملية الاختيار والانتخاب التي طالت الكتاب الأصلي، فجاء عنوان الكتاب المختصر " اختيار الممتع في علم الشعر وعمله "، حيث توحي كلمة " اختيار" على ما يبدو بالإيحاء العام لبنية الحدث المتعلق بعملية الكتابة فتضع في ذهن القارئ منذ البداية، أن النصوص الموجودة في المختصر تخضع للاختيار أي "الانتقاء" الخاضع للذوق الشخصي للناسخ، ثم يأتي الشق الثاني ليوضح بأن عملية الانتخاب تتعلق بكتاب عنوانه " الممتع في علم الشعر وعمله " وهي تركيبية ثنائية تقوم على تشاكل دلالي وتتصدرها كلمة " الممتع "، التي تضعنا في قلب الوظيفة المركزية لحدث الكتابة التي ستختار نصوصا الغاية من جمعها هي تحقيق المتعة والسرور الدائم للمتلقي، وذلك من خلال إمتاعه بنصوص شعرية من علم الشعر بلغ فيها أصحابها غاية الجودة في العمل والصناعة.

غير أن الكتاب يتجاوز في الكثير من الأحيان هذا الإطار العام القائم على الاختصار باستطرادات هامشية، تمدنا بالكثير من جواهر المنثور، فالكتاب حافل بالأخبار الأدبية التي بلغ عددها-110- خبرا أدبيا تضمنتها أقسام الاختيار الثلاثة والملحق، والعدد قليل مقارنة بأقسام الكتاب التي أشار إليها الناسخ، فعملية الاختصار التي حلت بممتع عبد الكريم، الذي كان من الممكن أن يمتعنا بأخبار أدبية كثيرة حقا لو وصل إلينا كاملا، ونكاد

[1]– لقد اعتمد على ذلك كل من منجي الكعبي، المرجع نفسه، ص168، ص169، ص170،النهشلي، المصدر نفسه ، مقدمة التحقيق، ص39.

نقطع بأن الناسخ قد قام بحذف كثير من الفقرات السردية التي أوردها بعد تلك المختارات الرائعة من الشعر، كتعليقات وآراء تتضمن الكثير من الأخبار الأدبية، لأنه لا يعقل أن يكتفي عبد الكريم بإظهار قدرته الفائقة على حفظ الشعر دون أن يتعرض الكثير منه للشرح والتحليل وقد جاءت الأخبار موزعة على الأنواع الآتية (نوادر الظرف والطرف والهوى، والكرامات) والجدول يبين كل ذلك:

1- أخبار النوادر						2-أخبار	
أ-أخبار الظرف	الصفحة	ب-أخبار الطرف	الصفحة	جـ- أخبار الهوى	الصفحة	الكرامات	الصفحة
1:الرسول صلى الله عليه وسلم وقتيلة	68-69	1: فاطمة بنت الحسين	75	1:الفتاة العاشقة وعشيرتها	187	1:دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم	128-130
2:عمر بن عبد العزيز والفرزدق	71-73	2: الحارث بن عبد الله	159	2: ابن تلوب وجمرة بنت نوفل	329-330	2: السوداء بنت زهرة	259
3: ابن ميادة	73-74	3: الحجاج والأسير	165-166	3: العرجي وأم الأوقص	388-389	3: سعيد بن أبي وقاص	454
4: المساور بن هند	81-82	4: روح بن زنباع وأهل الكوفة	185-186			4:ابن عبد الله	549-549
5:رجل يحكم بين الشعراء	90	5: أبو العيناء وابن داوود	198-199				
6- الرشيد وشعر ابن عوف	93	6: أبو بكر رضي الله عنه	205-208				
7: ابن علي وابن منصور	93-94	7: خالد المخزومي وأعرابي	215-216				

8:ابن عباس وابن الأزرق	94-95	8:عمر بن عبد العزيز والفرزدق	223				
9:الوليد بن عبد الملك	101-102	9:ابن جحفة وزوجته	253-255				
10: وفاء أخ لأخيه	104-105	10:ابن زرارة	255-256				
11: ابن الحجاج	105-106	11: الحارث الأسدي	260-261				
12:كعب الإيادي	106-107	12: الأعشى	269				
13:ابن زياد وابن زهير	110-111	13:ابن بيان والأخطل	282-283				
14:قيس بن عاصم	113-114	14:جرير وعنبسة الفيل	350-351				
15:ابن محرق وابن سعد	118-119	15:ابن زياد	358-359				
16:عاصم بن خليفة	122-128	16:الفزاري والنميري	360				
17:عاصم بن خليفة	122-128	17:الرخجي والباهلي	361				
18:ابن زرارة وكسرى	130	18←23: الفرزدق	368-377				
19: حاجب وذي الرقيبة	130	24: العرجي يواعد امرأة	389-390				
20: ابن هند وابن كلثوم	134-135	26:المخبل السعدي	441-442				

21:سليمان بن عبد الملك	143-144	27: سليمان بن عبد الملك والفرزدق	502-503				
22: عمر بن الخطاب رضي الله عنه	144-145	28:معاوية وأعرابي	525-527				
23:الشيباني وزوجته	153-154	29:بعض الرواة وامرأتان	532				
24: جمال آل الزبير	181-182	30:ابن المهلب وعقيل	543-544				
25: مصعب بن الزبير	182-183	31: الحجاج ورجل من أهل الشام	550-551				
26-حنبة بن أدّ	184	32:عبد الملك بن مروان والأخطل	525				
27،28:ابن أبي داوود	196-198	33:المأمون وثمامة	552-553				
29: أبو بكر رضي الله عنه	209-212						
30: عمر بن عبد العزيز وجرير	223-224						
البحتري وقتل المتوكل	240						
32:النبي صلى الله عليه وسلم وجد الفرزدق	257-258						

33-عمر بن الخطاب رضي الله عنه وامرأة	259-260						
34:ابن معبد وابنه	269-270						
35: ابنة قيس ولقيط	270-271						
36: معدان التغلبي	276-277						
37:اليشكري وحلية بنت الحسن	277						
38←40:موسى الهادي	283-287						
41:الأحوص والأنصاري	293-394						
42:ابن ميادة والمنصور	298						
43:حكم ابن مالك	319-320						
44: ابن مسلم	336-337						
45:هارون الرشيد والبيذق	337						
46-أبو عبيدة والبدوي	363						
47: خالد بن عبد الله	365-368						
48:49:الفرزدق	377-378						

50:عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبني العجلان	380-381						
51:سوار القاضي	384-386						
52:الوليد بن يزيد	395-396						
53:الرشيد وإسحاق الموصلي	396						
54: عمر بن عبد العزيز وابن بردة	400-401						
55: عنترة العبسي	414-415						
56: سعيد بن المسيب	415-416						
57:زيد بن علي	417-418						
58: ابن براء	427-428						
59: الحطيئة والفرزدق	431-432						
60-أسيد الفزاري	460-461						
61: أبو تمام	463						
62: معاوية وابن الزبير	463-465						
63: زبيد وأبي	529-						

العتاهية	530						
64: أبو عمر والرجل	533-534						
65:وفاء السموآل	535-536						
66: الأعشى وابن ثعلبة	538-540						
67:ابن أرطأة	549-550						
68:عبد الملك بن مروان وابن قيس	551						
69: معاوية وابن مفرغ	553						
70:الرجل القرشي والشيخ	554-555						
المجموع 70	-	33	-	3	-	4	-

جدول (6): أنواع الخبر في كتاب اختيار الممتع للنهشلي

2- كتاب العمدة لابن رشيق (ت456هـ أو463 هـ):[1]

يعد كتاب العمدة من أشهر مؤلفات ابن رشيق المسيلي، التي وصلتنا؛ فهو الكتاب الذي خلد اسمه، وشهره من بين آثاره؛ وقد أشار إلى ذلك "ابن خلدون" في المقدمة حين تحدث في "فصل البيان"، عن اهتمام المغاربة بالبديع خاصة في نظم أشعارهم قائلا: « وممن ألف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيق، وكتاب العمدة له مشهور، وجرى كثير من أهل إفريقية والأندلس على منحاه»[2]، وهو ما جعل الأدباء القدماء؛ يعتنون بالكتاب منذ ظهوره « وتم اختصاره مرارا، ولاسيما على يد ابن القطاع الصقلي، وموفق الدين البغدادي، والنحوي عثمان بن علي الصقلي، وابن السراج الشنتريني»[3]، أما عناية المحدثين بالكتاب فتظهر في اعتمادهم عليه في مؤلفاتهم بشكل واسع، سواء تعلق الأمر بالمغاربة أو المشارقة « فيتضح في أنك لا ترى مؤلفا يؤلف كتابا في البلاغة أو النقد أو الأدب وتاريخه إلا ويستشهد بما كتب ابن رشيق في العمدة وقل أن يخلو كتاب من نقل عنه أو أخذ منه أو استشهاد به»[4]، وهو مطبوع طبعات عديدة منذ طبعته الأولى بتونس سنة 1968م.

والعمدة من أمهات كتب الأدب التي اهتمت بشرح نظريات وقواعد تتعلق بصناعة الشعر وتعلمها « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة، وإعطاء حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله... وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق... ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك »[5]، فقد أراد له أن

---

[1]- أقدم المصادر تذكر التاريخين معا- وتوردهما أحيانا الواحد إلى جنب الثاني- ، ولا يوجد ما يجيز تفضيل تاريخ على الآخر، رغم أن الأول أقرب احتمالا، أنظر الشاذلي بو يحي، الحياة الأدبية بإفريقية ، مج1، هامش رقم 3، ص 195.

[2]- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، مج1، ص1067، ص 1068.

[3]- الشاذلي بويحي،الحياة الأدبية، مج1، ص199.

[4]- عبد الرؤوف مخلوف، ابن رشيق القيرواني، دار المعارف القاهرة مصر، ط2، 1983 م، ص66.

[5]- ابن خلدون، المقدمة ، مج1، ص1106 ، ص1108.

يكون موسوعة في الشعر ومحاسنه ولغته وعلومه وأغراضه، ونقده والبلاغة وفنونها، فهو يضم الكثير من الأشعار والآراء لأبرز أعلام الأدب بالمشرق والمغرب فهو « يكشف لنا عما يتسم به هذا الكتاب الخاص "بعلم الشعر" من طابع كلاسيكي ومن صبغة إفريقية وشخصية في آن معا: فالأعلام الذين يرجع إليهم كحجة في كل صفحة إنما هم أصحاب الأسماء المرموقة في هذا العلم، مثل دعبل وقدامة، وغيرهم، أما وجه الطرافة والأهمية في الكتاب، فيكمن في تعويل الكاتب، بقدر يكاد يكون مماثلا.. على مشايخه القيروانيين من أمثال القزاز والنهشلي... وغيرهم ممن يمثلون في آن معا التصور العربي الكلاسيكي والمنازع الخاصة بـ "مدرسة القيروان"، فهذه الظاهرة هي إذن بمثابة حصيلة تأليفية للثقافة العربية تمت في رحاب إفريقيا الصنهاجية »[1]، وذلك بهدف تعليم المغاربة أهم النظريات النقدية المتعلقة بعلم الشعر العربي، أي اكتساب ملكة الذوق النقدي التي تعينهم على تمييز الجيد منه.

وقد ألف " ابن رشيق " كتابه ما بين سنة (412 هـ و425 هـ) وأهداه على عادة أهل زمانه إلى راعيه وولي نعمته؛ مربي المعز بن باديس، ورئيس ديوان كتابه – الذين كان منهم ابن رشيق - « السيد الأمجد... باني المكارم، وآبي المظالم،رجل الخطب، وفارس الكتب: أبي الحسن علي بن أبي الرجال»[2]، ودعا له في آخر الكتاب حين قال: « وهذه أبيات كنت صنعتها للسيد أبي الحسن – أدام الله عزه – ختمت بها الكتاب»[3]، وكان سبب تصنيفه هذا الكتاب ما أفصح عنه المؤلف نفسه في مقدمته حين قال: « مع ما للشعر من عظيم المزيه...، وجدت الناس مختلفين فيه، قد بوبوه أبوابا مبهمة ولقبوه ألقابا متهمة، وكل واحد منهم قد ضرب في جهة، وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه وشاهد دعواه، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه، ليكون العمدة في

[1]- الشاذلي بويحي، الحيات الأدبية ،مج2، ص706، ص707.

[2]- ابن رشيق، العمدة، في محاسن الشعر وآدابه ونقده، المكتبة العصرية صيدا لبنان، ط1، 2001م، ص 9.

[3]- ن م، ص 315.

محاسن الشعر وآدابه إن شاء الله تعالى»[1]فهو دون شك أحسن كتب "ابن رشيق"، وأعظمها فائدة، بل هو من عيون ما ألف المغاربة في مجال الشعر ونقده.

وننتهي إلى اسم الكتاب الظاهر على صفحة الغلاف " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده "، وهو عنوان اعتمد عليه محقق النسخة التي هي بين أيدينا[2]،ولم نجد ما يؤيد ذلك في مقدمة المصنف، الذي ذكر صراحة أن اسم الكتاب هو: " العمدة في محاسن الشعر وآدابه" دون ذكر لكلمة " نقد "، ولهذا اعتبرنا أن عنوان الكتاب هي العبارة التي جاءت في المقدمة فحسب، ولو أن كماله بلفظ " نقد " معقول، بالنظر إلى ما احتوى عليه الكتاب من بسط لقضايا تتعلق بنقد الشعر، ولفظ " العمدة " الذي استعمله "ابن رشيق" في بداية العنوان، لفظ نادر من حيث استخدامه كعنوان، فابن رشيق يعتبر الأول الذي استعمله، ولكنه جميل أحسن في اختياره لما له من معاني الرفعة والسيادة ومنها «عمد الشيء يعمده عمدا: أقامه، ... والعماد الأبنية الرفيعة، واعتمد على الشيء توكأ عليه، والعمدة ما يعتمد عليه، والعمود العصا، والخشبة القائمة في وسط الخباء، والعميد السيد المعتمد عليه في الأمور، وكذلك العمدة الواحد والاثنان، والجمع والمذكر والمؤنث فيه سواء، وعميد القوم: سيدهم، وفلان عمدة قومه إذا كانوا يعتمدونه فيما يحزبهم»[3].

وإذن فالمراد بالكلمة الأولى من العنوان أن الكتاب عمدة أي سيد الكتب التي يعتمد عليها المتعلم في صناعة الشعر، وسيجد القارئ لهذا الكتاب أنه يطوف في موسوعة جامعة لمحاسن الشعر وآدابه وفنونه ووجوه نقده، ووسائل تحسينه، فقد اشتمل على جل فنون البلاغة لاسيما أغلب مباحث البيان والبديع، مما يدل على ملكة ابن رشيق كناقد

[1]- ابن رشيق، العمدة، ص 10.

[2]- اعتمد الشاذلي بويحي في دراسته عنوان العمدة في صناعة الشعر ونقده وذكر أن العنوان يختلف باختلاف المصادر والطبعات؛ ثم تساءل: هل تكون صيغة العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، التي يستعملها ابن رشيق في مقدمة الكتاب هي التي اختارها الكاتب نفسه؟ أنظر كل ذلك في كتابه الحياة الأدبية ، مرجع سابق، مج1، ما كتب في المتن وهامش رقم 2 ص 198.

[3]- ابن منظور، لسان العرب، ج 9، ص 379، ص380.

عارف بالجيد منه وغير الجيد ولكن أهم من الشعر في الكتاب نثـــره ففيـــه اســـتطرادات تتضمن أخبارا غاية في الفائدة، استطعنا أن نستثني منها -73 – خبرا أدبياكان لها نصيب في تشكيل مدونة البحث، وتتعلق بنوع واحد من الأخبار هي أخبار النوادر التي ارتبطت بالظرف أو الطرف أو الهوى، والجدول يوضح ذلك:

1- أخبار النوادر					
أ-أخبار الظرف	**الصفحة**	**ب-أخبار الطرف**	**الصفحة**	**جـ-أخبار الهوى**	**الصفحة**
1:علي بن أبي طالب	19	1:ابن الحارث ومؤدب ولده	28	1:عبيد الله بن مسعود والجارية	29-28
2: شعر الأعشى يرفع المحلق	38-37	2: أبو دلامة والقاضي	43		
3:الحطيئة وبنو أنف الناقة	38	3:زنقطة والقاضي	43		
4:جرير وبنو نمير	38	4:أبو دهمان	60		
5:لبيد وابن زياد	39-38	5:الرشيد وابن الحباب	63-62		
6:بنو العجلان وعمر رضي الله عنه	41-40	6:الحجاج ويزيد الثقفي	63		
7:الأعشى وابن الطفيل	43-42	7←11:الفرزدق	68-63		
8:العماني والقاضي	44-43	12:سليمان بن عبد الملك والفرزدق	172-171		
9:الفرزدق والحسن البصري	44	13:البحتري والصيرمي	183		
10:الرسول صلى الله عليه وسلم	45				
11:الغساني وعلقمة	46-45				
12:ابن حرثان	46				

13:العماني والرشيد	46-47				
14: الرسول صلى الله عليه وسلم وكثير	49-50				
15:السفاح وسديف	50				
16:ابن عبد الله وابن علي	51				
17:العبدي وابن علي	51-52				
18:الأحوص والوليد بن عبد الملك	52				
19:المأمون ومحمد بن عبد الملك	52				
20:الفرزدق وزياد الأعجم	53				
21:الزبعري وبني قصي	53-54				
22:الأحوص والأنصاري	54				
23:أبو الشمقمق وابن يزيد	56				
24:موسى بن عبد الملك والمتوكل	57				
25:المأمون وابن عقيل	59				
26:يزيد بن معاوية والغنوي	59-60				
27:يزيد بن عبد الملك والزهري	61				
28:ابن العباس وابن	61				

وهب					
29:المعتصم والخزاعي	62-61				
30:سديف الشاعر	64				
31:ابن ميادة	71				
32:ابن مقبل	97-96				
33:موسى الهادي والسعدي	171-172				
34:الجماز والرشيد	173				
35:أبو تمام والكندي	173-174				
36-ابن الجهم	176				
37-النهشلي والشعر	185-186				
38:أبو تمام والشعر	187				
39:دعهبل وديك الجن	196-197				
40:النعمان بن المنذر وكاتبه	199-200				
41:أبو نواس والبرمكي	200				
42:سيف الدولة	225				
43:المهلهل	271-272				
44:أبو نواس والأمين	273				
45-المأمون وابن يوسف	53				
46:ابن علي والكاتب	144-				

	145					
47:الفرزدق	148					
48:سليمان بن عبد الملك وجاريته	154					
49:المعتصم وابن وهب	156					
50:ابن خالد وأعرابي	160-161					
51:ابن حمام السلولي	173					
52:الحسن بن علي وشاعر	191					
53:معاوية والشيباني	231-234					
54:ذو الجدين	234					
55:الأصمعي وابن حيان	254					
56:الأخطل والفتى	256-257					
57:أبو نواس	266-267					
58:ابن أصرم	315					
المجموع	**58**	**-**	**13**	**-**	**2**	**-**

جدول(7): أنواع الخبر في كتاب العمدة لإبن رشيق

نلاحظ من خلال الجدول أن الأخبار المشتركة بين " العمدة " و" الاختيار " هي أربعة أخبار تتعلق بنوادر الظرف وهي: خ(6، 10، 22، 31)، وقد ورد ترتيبها في الممتع كما يلي خ(50، 1، 41، 3) وخبر واحد يتعلق بنوادر الطرف وهو خ(7) وترتيبه في الممتع خ (27)، وربما لضياع النص الكامل للكتاب الأثر الكبير في قلة عدد الأخبار المشتركة؛ خاصة أن الكثير من النصوص الشعرية والنثرية وردت عند ابن رشيق كنا قد وقفنا عليها عند النهشلي.

ونلاحظ كذلك اشتراك العمدة مع زهر الآداب في سبعة أخبار تتعلق بنوادر الظرف وهي: خ (3، 4، 6، 10،31، 40، 45) وقد كان ترتيبها في الزهر هو: خ (2، 3،5، 6،82،48،11) وخبر واحد يتعلق بنوادر الطرف هو: خ (1) وترتيبه في الزهر خ(18) وكذلك خبر واحد يتعلق بنوادر الهوى هو خ(1) وترتيبه في الزهر خ (2)، أما بالنسبة للنورين نلاحظ عدم اشتراكه مع العمدة في أي خبر، وهذا راجع ربما لطبيعة الاختصار التي اتسم بها كتاب النورين.

جـ- وصف كتب الأدب الجامعة:

كتب الأدب الجامعة في التراث المغرب يبحر واسع من العلوم والمعرفة؛فهي كتب أدب عام تعنى بعملية الجمع والانتخاب من الإنتاج الأدبي المشهور والمتنوع بين الشعر والنثر بمختلف أنواعه: الخطب،والرسائل،والخبر،والمقامة،والأمثال،والحكم،فكان المؤلف يتجه إلى انتقاء البعض منه وتصنيفه وتبويبه بحسب الموضوعات التي يراها مناسبة للمادة التي قام بجمعها،ليخرج بها مدونة فيشكل كتاب مخطوط يتم تداوله بين طلبة العلم والأدباء خاصة داخل حلقات العلم،وفي مجالس قصورا لأمراء.

وقد نشطت حركة التأليف في كتب الأدب الجامعة بالمغرب في العصر الصنهاجي على أيدي شيوخ كان لهم الفضل في تأسيس مدرسة القيروان الأدبية،ومن أبرزهم الحصري الذي اهتم بالتأليف في هذا المجال حيث سار فيه على منهج الجاحظ في كتابيه "

الحيوان " و"البيان والتبين " وابن قتيبة في كتابه " عيون الأخبار " وهي مصنفات أدبية جمعت ثقافات متنوعة وأخبارا وأشعارا راعى فيها أصحابها ترتيبا لمادة بحسب معانيها العامة،وقد رمى الحصري من خلال تأليف كتبت عارض هذه الموسوعات المشرقية في منهجها إلى تزويد طلاب العلم المغاربة بثقافات عربية متينة مع فوائد تعليمية.

ولاريب أن مؤلفات الحصري من أشهر كتب المنتخبات الأدبية في القرن الخامس الهجري حيث مثلت استمرارا للمنهج المشرقي الجامع الذي يأخذ من كل فن بطرف ما جعلها تتكامل في اتساق وانسجام مع الطريقة التي رأيناها مع معاصره النهشلي في كتابه " الممتع " فكانت بذلك مواصلة للنزعة الكلاسيكية في الأدب المغربي التي قدمت بفضل منهجها القائم على الاستطراد المستمر وتنوع الموضوعات مادة غزيرة من أدب المشرق للمغاربة،فأقبل عليها المغاربة بشغف يحفظون منها سحر أدب المشرق الذي طالما فتنوا به وتغنوا بأدبائه،وقد ذاع صيت مؤلفات الحصري في المغرب بأسره ثم انتقلت إلى المشرق والأندلس وأصبحت تضاهي مؤلفات كل من" الكامل "للمبرد والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني و"العقد الفريد" لابن عبد ربه و"الأمالي" للقالي ويتضح ذلك من مديح ابن بسام للحصري وآثاره في ذخيرته يقول مترجما له« كان أبو إسحاق هذا صدر الندى ونكتة الخبر الجلي،وديوان اللسان العربي،راض صعابه وسلك أوديته وشعابه وجمع أشتاته،أحيا مواته حتى صار لأهله إماما،وعلى جده وهزله زماما،وظنت بها لأقطار،وشدت إليه الأقتاب والأكوار، وأنفقت فيما لديه الأموال والأعمار،وهو يقذف البلاد بدرر صدفها الأفكار وسلوك ناظمها الليل والنهار[1]»،تعريف يسهم بإعطائنا صورة مشرقة عن ازدهار حركة التأليف فيا لمغرب من جهة كما يصور مدى الاتصال الوثيق بين الفكر المشرقي والمغربي والأندلسي من جهة أخرى، ويبرز ذلك الاتصال على الأخص في مؤلفات الحصري التي أصبحت مصدرا رئيسا لأدب المشارقة بالنسبة للمغاربة فأقبلوا عليها إقبالا

[1]-علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1998م، مج 1، ص 321

ارتفع بصاحبه إلى منزلة رفيعة وامتدت ثقافته وشملت أسماء لامعة كان لها الأثر في تطوير النثر المغربي وإثرائه كابن رشيق وابن شرف وغيرهم كما أسلفنا.

ومن أهم مصنفات الحصري التي وجدنا فيها ذخيرة أدبية جمة من الأخبار الأدبية المتنوعة كتب المجمعات الأدبية الآتية

2- كتاب زهر الآداب للحصري (ت 413هـ)[1]:

يعد كتاب " زهر الآداب " لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري (ت 413هـ)، من أشهر أمهات كتب الأدب التي صنفت في القيروان، واهتمت بجمع أدب أهل المشرق، فالحصري أراد بوضع " الزهر" وجميع ما تضمنه من رائق المنثور والمنظوم، أن يبصر أهل إفريقية بقدرة أدبائهم على الجمع والانتخاب، وروعة إنتاجهم، وأن الإحسان ليس مقصورا على أهل المشرق، ويشير ابن رشيق إلى ذلك فيقول: « وله تأليف جيد في ملح الشعر والخبر صنعه بالقيروان، وجمع فيه أخبار أهل المشرق وكلامهم، ووقائعهم أراد بذلك الإعجاز»[2]، ومن الواضح أيضا أن " الحصري " أراد أن يعارض بكتابه أديب المشرق الكبير " الجاحظ " صاحب " البيان والتبين "، وقد أخبرنا ابن بسام في الذخيرة بذلك قائلا: «عارض أبا بحر الجاحظ بكتابه الذي وسمه بـــ" زهر الآداب وثمر الألباب". فلعمري ما قصر مداه، ولا قصرت خطاه، ولولا أنه شغل أكثر أجزائه وأنحائه، بكلام أهل العصر دون كلام العرب، لكان كتاب الأدب لا ينازعه ذلك إلا من ضاق عنه الأمر، وأعمى بصيرته الحسد»[3]، فابن بسام يعترف أن " الزهر" و" البيان " صنوان يدعو كل منهما إلى تذوق محاسن أدب المشرق، وإنما يأخذ عليه اعتناءه بكلام أهل العصر دون

[1]- هناكاختلاف في المصادر القديمة في تاريخ وفاته وقد رجحنا هذا التاريخ الوارد في الأنموذج لمعاصره ابن رشيق، ص46.

[2]- شعراء القيروان من أنموذج الزمان لابن رشيق القيرواني، جمع زين العابدين السنوسي، دار المغرب العربي، تونس، 1973م، ص 19، نقلا عن النورين للحصري تحقيق ودراسة لينة عبد القدوس، مؤسسة الرسالة، بيروتلبنان، ط1، 1996م، ص35.

[3]- ابن بسام الذخيرة ، مج4، ص 321.

كلام العرب، مع أن إيراد الحصري لكلام المعاصرين من المشارقة وبعض المغاربة، جعل الكتاب متميزا عن غيره من كتب المنتخبات الأدبية التي سبقته.

وليس كتاب " زهر الآداب " الأثر الأدبي الوحيد للحصري وإنما كان لذلك العالم الجليل الذي وهب حياته كلها لتدريس العلم والتأليف فيه، تصانيف عدة في الأدب، ولعل أهم خبر وصلنا عن نشأته في الأنموذج لمعاصره ابن رشيق يكشف إلى حد ما عن مكانته العلمية وشهرة مصنفاته خارج فضاء المغرب حيث ترجم له قائلا: «كان أبو إسحاق الحصري قد نشأ على الوراقة والنسخ لجودة خطه، وكان منزله لزيق جامع مدينة القيروان فكان الجامع بيته وخزانته وفيه اجتماع الناس إليه ومعه، ونظر في النحو والعروض ولزمه شبان القيروان، وأخذ في تأليف الأخبار وصنعة الأشعار مما يقرب في قلوبهم. فرأس عندهم وشرف لديهم، ووصلت تأليفاته صقلية وغيرها وانثالت الصلات عليه»[1]، ورغم أنه وصل إلينا العديد من قصائده الشعرية مجموعة في ديوان، تؤكد وصف ابن رشيق أنه كان شاعرا ذائع الصيت فإن شهرة الحصري وصيته الذائع في عصرنا الحالي يقومان أساسا على مصنفاته الأدبية التي وصلتنا جميعها[2].

وزهر الآداب؛ هو أول كتاب ألفه الحصري سنة (405هـ) بطلب من كاتب ديوان الإنشاء "أبي الفضل العباس بن سليمان "الذي أتى من المشرق بعدد من المؤلفات، وطلب منه أن يجمع له منها أحسنها من المنظوم والمنثور، فأجابه إلى ذلك فألف " الزهر" وأهداه له على عادة أهل زمانه ليستغني به ويكف عن طلب سواه يقول:« وسألني أن أجمع من مختارها كتابا يكتفي به عن جملتها، وأضيف إلى ذلك من كلام المتقدمين، ما قاربه وقارنه... فسارعت إلى مراده، وأعنته على اجتهاده وألفت له الكتاب ليستغني به،

[1] – ابن رشيق، أنموذج الزمان في شعر القيروان، تحق: محمد المطوي، وبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1991م، ص45.

[2] – الشاذلي بو يحي،الحياة الأدبية، مج1، ص109.

عن جميع كتب الآداب، إذ كان موشحا... بكلام يمتزج بأجزاء النفس لطافة، وبالهواء رقة، وبالماء عذوبة»[1]، وطبع الكتاب طبعات عديدة محققة ومشروحة ومضبوطة ومفهرسة.

وقد تحدث الحصري عن منهجه في تنسيق موضوعات " زهر الآداب" في بداية مقدمته فقال: « فهذا كتاب اخترت فيه قطعة كاملة، في الشعر والخبر، مما حسن لفظه ومعناه... ولم أذهب في هذا الاختيار إلى مطولات الأخبار، كأحاديث صعصعة بن صوحان، وخالد بن صفوان، ونظائرها إذ كانت هذه (يريد الفقر القصيرة) أجمل لفظا، وأسهل حفظا يتصرف فيه الناظر من نثره إلى شعره»[2]، ثم يقر المؤلف أن مهمته فيه تقتصر على مجرد الانتقاء يقول: «وليس لي في تأليفه من الافتخار أكثر من حسن الاختيار، واختيار المرء قطعة من عقله تدل على تخلفه أو فضله»[3]، فهي عملية تدل مع ذلك على فضل " القائم بها " وتكشف عن الطابع التعليمي في كتابه الجامع لمختارات من النصوص الأدبية الحديثة قصد إمداد المتعلمين بكل طريق مستحدث وقد شارك ذلك في «إشاعة ذوق التعلق بنوع من النثر المتين والفني وإليه يعود (يريد الحصري) إدخال فن المقامة الذي لم يلبث أن طرقه بمهارة وتوفيق واحد من تلاميذته على الأقل وهو ابن شرف»[4].

والكتاب تنقصه الوحدة والتبويب الدقيق، وقد دافع أبو إسحاق عن منهجه قائلا: « وقد يعز المعنى، فألحق الشكل بنظائره، وأعلق الأول بآخره، وتبقى منه بقية أفرقها في سائره ليسلم من التطويل الممل، والتقصير المخل، وتظهر في التجميع إفادة الاجتماع، وفي التفريق لذة الإمتاع، فيكمل منه ما يؤنق القلوب والأسماع، إذا كان الخروج من جد

[1]- الحصري، زهر الآداب، مج1، ص23.
[2]- الحصري، زهر الآداب، مج1، ص 21، ص22.
[3]- ن م، ص 24.
[4]- الشاذلي بو يحي، الحياة الأدبية ، مج1، ص 115.

إلى هزل، ومن حزن إلى سهل أنفى للكلل وأبعد من الملل» ،[1] وهو عمل يزود القارئ بصور متعددة ومتنوعة لمواقف أو عواطف متشابهة، وقد حرص الكاتب على تطبيق هذا المنهج في معظم كتابه.

ولم يفت المؤلف أن يعتذر للقارئ في نهاية مقدمة كتابه على أسلوبه الذي حرص فيه على الاختيار المفتقر إلى التنسيق في بعض الاستطرادات التي سيعثر عليها القارئ في جميع مسالك الكتاب « ولكنني اجتهدت في اختيار ما وجدت، وقد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظات، ويمر البيت في خلال الأبيات، وتعرض الحكاية في عرض الحكايات، يتم بها المعنى المراد، وليست مما يستجاد، ويبعث عليها فرط الاختيار فلا تعرض عنه بطرف الإنكار، وما أقل ذلك في جميع المسالك الجارية في هذا الكتاب»[2].

إن الحصري في هذا المصنف يعترف أن بعض الاستطرادات ينقصها التبويب والترتيب الدقيق للمسائل والموضوعات، وهو نهج معظم الكتب القديمة كالحيوان، والعقد الفريد والأغاني والأمالي... وغيرها من المصنفات الجامعة، وهو إلى جانب ذلك يمثل صورة للعصر الذي عاش فيه المؤلف، وهو عصر له طابع خاص، تميز بإجادة فن الوصف، فالكتاب حافل بالنصوص النثرية والشعرية، التي اهتم فيها الشعراء والكتاب باستقصاء مختلف الموضوعات الوصفية فأطالوا الحديث في وصف ما وقعت عليه أعينهم من مظاهر الطبيعة، والمعالم الحضارية، وصفات الشخصيات، كما أطنبوا في وصف المعاني الوجدانية.

وتشمل نهاية المقدمة أيضا ذكر تسمية الكتاب يقول: « في هذا الكتاب الموسوم بـ " زهر الآداب وثمر الألباب "»[3]، وهي تركيبة تقوم على تشاكل دلالي وصوتي بين أسماء

[1]-الحصري، زهر الآداب، مج1، ص 22، ص 23.
[2]-الحصري، زهر الآداب، مج1، ص 25، ص26.
[3]- ن م، ص26.

تربط بين الطبيعة، وجملة من المعارف الإنسانية، فالكتاب حديقة أريجة، وسفر أدبي بديع لما اشتمل عليه من عجائب وفرائد وغرائب ونوادر من الإنتاج الفكري شعرا ونثرا، ولا شك أن القارئ وهو يتنزه في هذه الحديقة سيقطف من فواكهها وثمارها لبها، وهو في كل ذلك سيستنشق عطر أزهار وأطايب من جيد المنثور والمنظوم، مـــلأ عطرهـــا فضـــاء القيروان، وفاح ليعم الأقطار والبلدان.

ولعل أبرز ما وصف به " زهر الآداب" أنه كتاب جمع فيه كل غريبـــة[1]، فـــالمطلع عليه سيجده زاخرا بأخبار أدبية بلغ عددها- 208 - خبرا أدبيا اشتمل متن الكتاب عليها، فجاءت موزعة على مختلف موضوعات الكتاب المتنوعة والزاخرة بفنون القول من شعر ونثر، وما يتصل بذلك من استطرادات طالت ضروب البلاغة وجمال الصياغة وإصـــابة التشبيه، وحسن الإنشاء ، حيث نلاحظ أن عدد الأخبار يرتفع كلما أطلق الحصري العنان لهذه الاستطرادات التي جاءت موزعة على مختلف أبواب الكتاب في أجزائه الأربعة.

حيث تضمنت أخبارا أدبية ترد كشواهد داخل (التعليقات النقدية، والفقرات النثرية)، أو كأخبار مستقلة تأتي لتعرفنا بأحداث تتعلق بالأشعار المختارة في الكتاب، وتتعلق بنوع واحد من الأخبار هي النوادر التي ارتبطت بالظرف أو الطـــرف أو الهـــوى والجـــدول يوضح ذلك:

[1]- ابن خليكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحق: إحسان العباس، دار الثقافة بيـــروت، دط، مـــج1، 1972م، ص54.

1- أخبار النوادر					
أ-أخبار الظرف	الصفحة	ب-أخبار الطرف	الصفحة	جـ-أخبار الهوى	الصفحة
1:عمر بن عبد العزيز والغلام	30-29	1:علية بنت المهدي	34-33	1:عروة بنت أذيبة	205-206
2:الحطيئة وبنو أنف الناقة	45	2:شريك النميري والفزاري	48	2:عبيد الله بن عتبة	209
3:بنو العجلان والنجاشي الحارثي	47-46	3:أبو جعفر المنصور	125	3:ابن خالد وعائشة بنت طلحة	296-297
4:بنو العجلان وعمر بن الخطاب رضي الله عنه	47-46	4:أبو دلف والعباس بن الحسين	128	4:عبدوالملك بن مروان وعزة كثير	299-300
5:بنو نمير وجرير		5:ابن جعفر وابن ربيع	128-129	5:عمر بن ابي ربيعة وان أبي عتيق	300-302
6:الرسول صلى الله عليه وسلم وقتيلة	57-56	6: العباس بن خالد	197	7،6:عمربن أبي ربيع	307-309
7:أبو بكر رضي الله عنه	61	7:بعض ملح العاضري	199	8:جميل وعمر بن ربيعة	296-297
				9: ابن جندب والمرأة الجميلة	160-161
8: ضرار الصدائي	70-69	8:بعض ملح أشعب	199	10:عتاب بين امرأتين	163
10،9:معاوية بن سفيان	79-77	9: الجماز والمتوكل	202	11:القينة وعشاقها الأربعة	47-45
11: الحسن بن علي وشاعر	90	10:رقة أهل الحجاز		12:ابن المعتز وقينة	48-47
13:الحسين بن علي	92	11:طرب أبي ريحانة	213	13:المهدي وعبد العزيز بن الزبير	85-84
14:الفرزدق	96-95	12:مزيد المدني	291	14←16:ليلى	110-

				الأخيلية	117
15:محمد بن علي	114	13:محمد بن زياد	294-295	17:ذو الرياستين وأهله	131-133
16:عبد الملك بن مروان وعمر بن أبي ربيعة	115-116	14:سليمان بن عبد الملك وأعرابي	314	18:بهرام جور	132-133
17:السفاح وعبد الله بن الحسن	117-118	15←17:أبو العيناء	327-342	19:ابن عباس وقتيل الحب	179-180
18،19:أبو جعفر المنصور	118-119	18: الفرزدق ونصيب		20:المبرد والحسن بن رجاء	184-185
20←22:الحسن بن زيد	123-125	19،20: كثير عزة	79-85		
23:علي بن محمد والحسين بن إسماعيل	126	21:أبو تمام وابن عبد الله	104-105		
24:دعبل والمأمون	130-131	22←25:بشار بن برد	158-160		
25:الوزير المهلبي	175-176	26: الشريف الرضي وكوران	183		
26: إياس	196-197	27:كشاجم	187		
27: أبو جعفر المنصور	246-247	28: عبد الله بن الزبير	206-207		
28: ابن سهل وابن عبيدة	250	29: كثير ورجل مهدي	212-213		
29: ابن المهدي والطبيب	251-252	30: أحمد بن المدبر والجمل الشاعر	228		

30: المأمون والفضل بن سهل	253-254	31:عتبة بن أبي سفيان	230	
31: فضل أخت ملك الخزر	254	32: ابن خاقان	285-286	
32: ابن عتيق ورجل من ولد ابن العاص	290-291	33:حزن المرأة المكية على عمر بن ربيعة	297-298	
33: الوليد بن عبد الملك والثريا	298-299	34:ثمامة بن أشرس والمأمون	40-41	
34: ابن جريح ومعن بن أوس	305	36،35: ابن أبي داود	131-132	
36،35:عمر بن أبي ربيعة	307-308	37:ابن جندب والجميلة	160-161	
37، 38:أبو العيناء	337-338	38: سريج الشافعي	166	
39: خلف الأحمر	15	39:المعتضد ودريدة	217-218	
40: ابن هريم	17-18	40:الحجاج وكثير	79	
41: عقبة بن سنان	24	41:ابن صفوان وابن الجهم	86-87	
42←47: أبو العتاهية	45-54	42:وزير المأمون	158-159	
48:النعمان وعدي بن زيد	55-56	43: الحمدوني	233-234	
50،49: ابن أبي داود	64-66	45: من اسمه علي ممن استخلف	254-255	
51: أبو تمام	104	46:أبو دلف في بغداد	256-257	

52:الواثق وابن داود	105-106			
53:الأعرابي والأصمعي	132-134			
54: معبد العنبري	135			
55: كلام الأعرابية في فقدان إبنها	138-139			
56: الرشيد وأعرابي	142			
57: المعذل وابن ربيعة	143			
58: أبو نواس والأمين	144-145			
59:بشار بن برد والمهدي	150-151			
60:ابن سهل والمأمون	162			
61:خالد الكاتب	178-179			
63،62: المأمون	180-183			
64:ابن جدار وابن أيوب	183			
65: تطير ابن الرومي	222-223			
67،66: الجاحظ	229-233			

68: عمر بن سعد	259-260			
69:المتوكل وابن الضحاك	264-265			
70: ابن دستوريه والبحتري	269-270			
72،71:الأمين	278-279			
73: الفضل بن الربيع	279-280			
74: سهل بن هارون والرشيد	285			
75: الحسن بن رجاء	293			
76:المبرد والمتوكل	293			
77: العرجي	299			
78:عفو المأمون	208-209			
79: بعض ملوك فارس	311			
80: بهرام جور	316			
81:سهل بن هارون	316			
82: ابن ميادة وابن سليمان	15-16			
83: النجيرمي	50			
85،84: العتابي	52-53			
86: ابن وهب	58-59			

88،87:الأحنف بن قيس	79-73			
89: أبو حكيمة	88-87			
90: أبو العيناء وابن رباح	90-89			
91: ابن وهب وابن ثوابة	102-101			
92: المعتضد وقطر الندى	102			
93: رأفة المأمون بعماله	107-106			
94: ابن أبي داود	131			
95: عقال بن شبة	141-140			
96: زهير وابن سنان	142-141			
97: أبو تمام والوشاء	145			
98: الأعرابي وعبيد الله	146			
99: معاوية بن يسار	148			
100: أبو نواس	177-175			
101: أبو خراش	178-177			
102: خالد الكاتب والشاب	184-183			
103: حكم الشعبي	188-187			

104:سيف عمر يثرب	226-227			
105: الغفاري وابن منصور	228-229			
106: تميم بن جميل	229-230			
107: المعتصم	231			
108: كعب بن معدان	232-233			
109: بشر بن مالك	233			
110: رثاء الجنوب لأخيها	240-241			
111،112: ابن إبراهيم	258			
113: عمر بن معسرة	281-283			
114: عمران بن حطان	24-25			
115: خالد بن صفوان	34-35			
116:المتوكل وابن داود	52			
117: شديد بن شبة	53			
118: سحبان ومعاوية	55			
119: الحجاج وأيوب بن القرية	78			

120: ابن دأب والأمير	87			
121: المهدي وأعرابية	91			
122: عميلة الفزاري وأسيد	137-138			
123:ابن بكرة وأعرابية	151			
124: الأصمعي والبدوي	171-173			
125: موسى بن عيسى	173-174			
126: العمري	174			
127: ابن طاهر وابن شبيب	174-175			
128: إسحاق الموصلي	199-200			
129: ابن عبدل وابن بشر	202			
130: الرشيد والشاعر الباهلي	204			
131: كاتب الحجاج	204-205			
132: المأمون	209			
133: المهدي والضبي	231			
134: زياد وزوجة الدؤلي	232			

135: ابن عدي وابن سعيد	245				
136: الشعراء الثلاثة وقبر الروسي	245-247				
137: سائل في مسجد الكوفة	248				
138: أبو دلف والمأمون	256-257				
139: عامل المأمون	264-265				
140: عبد الملك بن مروان والجارية	273-275				
141: النعمان بن المنذر وابن حري	276				
142: : مالك بن طوق وأعرابي	277				
المجموع	**142**	**-**	**46**	**-**	**20**	**-**

جدول (8): أنواع الخبر في كتاب زهر الآداب للحصري

نلاحظ من خلال الجدول أن الأخبار المشتركة بين الزهر والاختيار خمسة أخبار تتعلق بنوادر الظرف وهي: خ(6، 82، 9، 3، 122) وترتيبها في الاختيار:خ (1، 3، 28، 60، 50)، وخبرين من أخبار الطرف هما: خ(35، 2)، وترتيبها في جدول أخبار الممتع هو: خ (5،16)

ونعتقد أن عملية الاختصار التي طالت كتاب الممتع ، كان لها الأثر في اختفاء الكثير من عناوين الأبواب التي وردت عند الحصري وعليه انخفاض عدد الأخبار المشتركة بين الكتابين، خاصة أن النهشلي ومعاصره الحصري، كانا من أبرز شيوخ مدرسة القيروان التأسيسية، حيث كان الهدف الأساس لمؤلفاتهما هو تعليم الأدب العربي لطلاب المغربي الإسلامي.

2- كتاب نور الطّرف ونور الظّرف للحصري:

يعد كتاب نور الطّرف ونور الظّرف ، أو كتاب النورين للحصري- أيضا-، من أنفس آثار الكتب الجامعة وأهمها؛ لكونه يكمل في مادته الأدبية كتاب زهر الآداب فقد صنف في وقت متأخر عنه، كما أخبرنا بذلك " ابن بسام " بعدما انتهى من مدحه للزهر قائلا: « ثم أخذ بعد ذلك في إنشاء التواليف الرائقة والتصانيف الفائقة ككتاب " النُور والنوْر "»[1]. ولم يفت المؤلف أن يصرح في مواضع كثيرة من مقدمة كتابه على أنه ألفه بعد كتابه الكبير زهر الآداب، وأنه يشبهه ويحذو حذوه في نهجه ومن ذلك قوله: «وقلت: اجعله كالمختصر من الكتاب الموسوم بزهر الآداب وثمر الألباب، ليكون لما استعاره من حليه، وسلك من سبله، كالأنموذج له والمدخل إليه، والمعرف به...، فقديما دلت الأوائل على الأواخر»[2]. كما أن المؤلف يحيل في متن الكتاب على الزهر فنجده بعد أن ذكر جملة من النظم والنثر في وصف النور والزهر يعلق قائلا: « وفي الكتاب الكبير من هذا وغيره، وإنما ألمع هنا باليسير»[3].

وحدثنا " الحصري " في مقدمة كتابه عن السبب الذي دفعه إلى التأليف، فذكر أنه ألفه، استجابة لطلب أحد الأعيان الرؤساء في عصره، الذي أرسل إليه كتابا يطلب فيه منه

[1]- ابن بسام الذخيرة ، مج 4، ص 321.

[2]- الحصري، النورين، ص 101.

[3]- ن م ، ص 174، ص175.

أن يصنف من مختاراته، مصنفا لطيفا في الأدب، وشرط عليه أن يجمع فيه مقطعات نثرية وشعرية، من غرر الأدب، ولم يشر الحصري إلى اسم هذا الطالب الذي أهدى إليه الكتاب بعد أن أتمه، ولكن يبدو أنه كان ذا رتبة مرموقة، يتضح ذلك من افتتاح الحصري مقدمة كتابه بمدحه والإشادة بمكانته وعلمه وبمكان خطابه من نفسه، ثم يتحدث عن استجابته لطلبه قائلا: « أمرت فيه (أي الكتاب) – أعلى الله أمرك، وأسنى قدرك- قلبا لا ينقلب إلا في طاعتك، وصبا لا يتصرف إلا في مرضاتك، أن يمد يد الاختيار والاستجادة، لما يقع منك بحسب الإشارة والإرادة من تصنيف كتاب لطيف...، في مقطعات أدب كقراضة الذهب، من شذور منثور وعيون موزون»[1]، ويختم إهداءه فيبين أنه استجاب لطلب سيده الجليل قاصدا من وراء ذلك الإفادة وحسن الوصل يقول: « فلعله يمر بك في تضاعيف هذا التأليف شيء تسندره مما تؤثره فيكون سعيي سعيدا، ويقع سهمي سديدا ببلوغ الزلفى من حبك، والقربى من قلبك وتلك أمنيتي قبل أن ألقى منيتي»[2].

ثم يذكر المؤلف طريقة عمله في كتابه، فأوضح أن منهجه في ترتيب أبوابه، وموضوعاته هو نفسه المنهج المتبع في زهر الآداب، من حيث حسن الاختيار للنصوص حسب الذوق الشخصي، فهو يميل إلى انتقاء الجديد والطريف، والابتعاد عما ألفه الناس دفعا لملل القارئ يقول: « وقرنت الفصول بالأصول...، وضمنت الأشعار إلى الأخبار، ووشحتها بالمستندر والمختار من كلام ملوك النظم والنثر من أفراد أهل العصر....، والنفوس قد طبعت على استظراف ما سمعت مما لم يتكرر فيتكدر، وتكثر روايته فتمل حكايته...، وليس للناقل من الفضل أكثر من تجويد النقل، وقد قالوا: "اختيار المرء وافد عقله ورائد عقله"»[3]. وهو في كل ذلك يعتمد طريقة الترتيب المعروفة في الزهر وهي

[1]- الحصري، النورين ، ص 99، ص100.

[2]–ن م، ص 103.

[3]- ن م، ص102، ص 105.

الاستطراد المستمر والتنويع، وخلط الموضوعات يقول: « فنثرت ما سطرت على غير تبويب، وجمعت ما صنفت على غير ترتيب، وذلك أقرب لنشاطك وأوجب لانبساطك»[1].

وهناك حقيقة هامة توصلت إليها محققة الكتاب " لينة عبد القدوس"، لابد من بسطها وربما كان فيها السر لفهم أسلوب " الحصري "، القائم على الاختيار والاستجادة ، وهو الشرط الذي قدمناه للرجل الذي أهدى له الكاتب كتابه، تلك الحقيقة هي أن " النورين " ليس اختصارا لـ (زهر الآداب) تقول: « وبعد أن قمت بتحقيق الكتاب، وقابلت نصوصه الشعرية والنثرية بما ورد في زهر الآداب، وتبين لي أن الجزء المختصر من زهر الآداب فيه شكل حوالي ثلث الكتاب، أو أكثر بقليل، ولا يعد كله مختصرا »[2]. كما أشاع ذلك " الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب" وتابعه في ذلك أغلب الباحثين المعاصرين، وقد اعتمدوا في ذلك بحسب الأستاذة على إشارة وردت في نصوص لابن رشيق وياقوت، والصفدي تفيد أن: النورين كتاب اختصر فيه الحصري زهر الآداب[3].

ثم تنتقل الباحثة لتوضح أن عبارة المؤلف " أجعله كالمختصر" التي ذكرناها سابقا، - أثناء حديثنا عن علاقة النورين بالزهر- هي التي أوهمت القدماء بأنه مختصر من الزهر دون إضافة جديد، ولو أراد الحصري ذلك لقال : "أجعله مختصرا "، فالحصري صحيح سار في كتابه على نهج الزهر، فإن الجديد الذي أضافه مما لم يرد فيه الشيء الكثير، فهو حافل بالأبيات الشعرية والنصوص النثرية والأخبار الكثيرة لم ترد في الزهر أصلا، كما وضف الكثير من عناوين الأبواب التي لا نجدها في الكتاب الكبير[4]؛ وقد أقر المصنف بذلك في المقدمة قائلا: « وفيما ألقي إليك في هذا الكتاب، المختار الكثير مما

[1]- ن م، ص 106.

[2]- الحصري، النورين ، ص 40.

[3]- ن م، ص 39، ص40.

[4]- ن م ، ص 40، ص41.

ليس في الكتاب الكبير»[1]، ويكفي أن نثبت هنا ما يدعم ما توصلت إليه محققة الكتاب من نتائج فقد وجدنا أثناء عملية استخراج الأخبار من الكتاب مجموعة من الأخبار الأدبية بلغ عددها - 17- خبرا، لم يرد في الزهر مطلقا، جاء بعضها مضمنا كشواهد في أبـــواب حملت أسماء جديدة لم تذكر في الزهر.

وفي مقدمة الكتاب ذكر المؤلف العنوان الذي اختاره للكتاب كاملا فقـــال: « وفيمـــا ألقي إليك في هذا الكتاب، الذي هو " نُورُ الطّرف ونَوْرُ الظّرف"»[2]. هذا الذكر الصريح للاسم يقطع كل ما دار حول العنوان من اختلاف، ويؤكد أن التسميات الأخرى إنما كانت على سبيل الاختصار، عند الاستشهاد، وهو أمر شائع على طريقة العرب في التغليب فقد قالوا: القمران للشمس والقمر، والعمران لأبي بكر وعمر بن الخطاب، وأطلقوا اســـم ذي النورين على عثمان بن عفان لتزوجه بنتي الرسول صلى الله عليه وســـلم، وقـــد تخيـــل الحصري كتابه من خلال تسمية مسجعة– هنا أيضا - مكونة من مقطعين أنه بمثابة ضوء يعين البصر ويدله على ملاحة النثر ورجاحة الشعر مما اختاره الكاتب للقارئ من زهـــر البلاغة وهو بذلك نور للعين ونور للسان يقول: « فإنما حقه [يقصد المؤلف] انتقاء مـــا اتصل بناظره، واقتفاء ما وصل إلى خاطره، إذ لا معنى يقتضيه دينه، إلا وغيره يقتضيه عينه»[3].

وهكذا فقد وجدنا في متن الكتاب مجموعة معتبرة من الأخبار الأدبية، بلغ عددها - 28- وتتعلق بنوع واحد هي أخبار النوادر التي ارتبطت بـــالظرف أو الطـــرف أو الهـــوى ، ويفسر قلة عدد الأخبار مقارنة بكتاب الزهر، ما ذكرناه سابقا من أن الحصري عمد فـــي

[1]- ن م، ص 103.

[2]- الحصري، النورين ،ص 103.

[3]- ن م، ص106.

كتاب النورين إلى الإيجاز، وعدم الإسهاب في الاستطرادات الواردة في أبواب الكتاب كما يتضح في الجدول:

1- أخبار النوادر					
أ-أخبار الظرف	الصفحة	ب-أخبار الطرف	الصفحة	جـ-أخبار الهوى	الصفحة
1:علي بن بسام وابن الجراح	110-109	1: أبو دلف والتاجر البغدادي	126-125	1:ابن وكيع	141-139
2:أبودلف والمأمون	125-121	2:الرشيد وعلية	244-243	2:الغلام والجارية من طي	143-142
3: الأصمعي والرشيد	155-154	3: المأمون وثمامة بن أشرس	254-253	3:القينة وعشاقها الأربعة	181-180
4:ابن دستوريه والبحتري	168-164	4: الشريف الرضي وكوران	278-277	4:عليه وزبيدة بنت جعفر	243-242
5:ابن المعتز	208-206			5: المأمون إسماعيل بن الهادي	247-246
6:ابن المهدي والطبيب	241-237			6:أبو فراس الحمداني	267-264
7: كسرى وجارية ابن المنذر	256-255			7:ابن جندب والمرأة الجميلة	290-289
8: ابن حفص وابن جدار	279-278			8:بين رجل وامرأة	340-339
9:الوليد بن مروان وشراعة	280				
10:ابن مخلد الكاتب	315				
11: ابن ناجية	324-322				

وامراة					
12:الأصمعي والرشيد	340-341				
13:أبو نواس في إيوان كسرى	356-358				
14:المأمون وطاهر بن الحسين	381-382				
15:أبو نواس والأمين	383-385				
16: بشار بن برد والمهدي	385-387				
المجموع	**16**	**-**	**4**	**-**	**8**	**-**

جدول (9) أنواع الخبر في كتاب النورين للحصري

نلاحظ من خلال الجدول أن مجموع الأخبار المشتركة بين النورين والزهر هي -14- خبرا أدبيا منها ثمانية تتعلق بأخبار الظرف وهي: خ (2، 4، 6، 8، 12، 13،14، 15)، وترتيبها في الزهر كان : خ (138، 70، 29، 64، 71،100، 58، 59)،و أربعة تتعلق بأخبار الطرف وهي: خ (1، 2، 3، 4)، وترتيبها في الزهر كان خ (44، 1، 33، 25)، وخبرين يتعلقان بأخبار الهوى هما: خ(3، 8)، وترتيبها في الزهر كان خ(11، 9). وهو ما يؤكد ما ذهبت إليه " محققة الكتاب " من أن النورين ليس اختصارا لكل أبواب زهر الآداب فالجدول يبين أن هناك – 14- خبرا أدبيا جديدا لم ترد أصلا في كتاب الزهر، وقد استخرجنا بعضها من داخل عناوين أبواب لم يوظفها الحصري في الكتاب الكبير، وقد كان لطبيعة الاختصار التي طالت الأبواب الواردة في الزهر الأثر في عدم اشتراك النورين مع الاختيار في أي خبر.

3- كتب التاريخ:

اهتم المغاربة بتدوين تاريخهم السياسي اهتماما كبيرا في فترة البحث، وحظي بعناية أمرائهم في مختلف الدويلات التي تعاقبت على حكم المغرب – بتقسيماته الثلاثة -، لاسيما أن معظمهم كان محبا لأهل العلم يستدعيهم إلى الإقامة بحضرته، ويظهر التنويه بهم ويجلهم، ويؤثرهم على غيرهم، وذلك تشجيعا لهم على كتابة تاريخ بلاطهم، فكثر المؤرخون المغاربة واشتهر منهم طائفة كبيرة أمثال: "ابن المهاجر"، و" أبو العرب"، و" محمد بن سحنون"، و"ابن الرقيق"، و" ابن شرف "، و" ابن الصغير "، و"عبد الرحمان بن خلدون"، وغيرهم.

وما تركه لنا أصحاب المصادر التاريخية من الكتب والأسفار الطوال، تتفاوت قيمة وأهمية بطبيعة الأمر من ناحية: حرصهم الشديد على تدوين نصوص تؤرخ للحياة السياسية والعلمية وجميع أوجه النشاط الفكري بالمغرب وكل ذلك مرتبا على السنين، أو مقسما بحسب الدول والإمارات، وضمنوه أخبار ملوكهم، وحضارتهم وصنوف علومهم وألوان ثقافتهم، مع ذكر لطبيعة حياتهم الاجتماعية ولم يخل الحديث من الاستطرادات إلى روايات أشعارهم وآدابهم وكل ذلك أثناء الاسترواح بذكر أخبار محاوراتهم وحروبهم، ومسايراتهم ومجالسهم، فكتب التاريخ فضلا عن كونها مرجع تاريخي هام للعصر الوسيط وملوكه ورجالاته وخصائصه السياسية والاجتماعية، فهي بما تنقله لنا من فصول نثرية وشذور عديدة من الأشعار، ضاع الكثير منها اليوم وثيقة أدبية نفيسة، تقدم ما أمكن من مختار المنظوم والمنثور لأهم الأدباء الذين عاصرهم مؤلفيها أو عاشوا قريبا من عصرهم.

وقد ذكرت كتب التراجم والرحلات والأدب عددا كثيرا من مصنفات المغاربة في هذا المجال، عثرنا منها على ثلاثة مصادر قيمة ومفيدة تؤرخ لفترات متفاوتة ولدويلات متباينة في سياستها، ولكنها تشمل العصر الذي يعنينا أمره، إضافة إلى أنها تشكل المصدر

الرئيس بالنسبة للمؤلفات التي تقدمتها، فهي بمثابة المصادر الأصلية المعتمد عليها في نقل الكثير من المادة الأدبية التي احتوت عليها والتي تساعد الباحث على دراسة اتجاهات عامة في الأغراض الشعرية، أو الوقوف على خصائص الكتابة النثرية خاصة ما تعلق بالنثر القصصي، المتوفر في الكثير من الأخبار الأدبية التي احتوت عليها هذه المصادر وهي:

1- كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان (ت 363هـ):

يعد كتاب "المجالس والمسايرات"، للنعمان بن محمد (ت363هـ) أهم كتاب وصلنا عن تاريخ الشيعة بإفريقيا؛ فقد كتبه قاضي الفاطميين الأول، ومؤرخهم بدون منازع، تخليدا لمآثر الأئمة، ودعوة ودعاية للمذهب الشيعي، ويغلب على الكتاب الطابع القصصي الذي يهمل ذكر التواريخ، ويركز على تحديد أماكن أقوال، وأفعال، وتوقيعات المعز، التي يسجلها القاضي يوميا، حتى لكأنه سيرة مفصلة لهذا الخليفة الفاطمي، وفيها يميل المؤلف إلى نقل أخبار الأئمة المتعلقة بالنوادر والمناقب والكرامات أكثر من عنايته بالتاريخ.

ويكشف كتاب "المجالس والمسايرات"، على أن النعمان دخل في خدمة الدولة منذ عهد المهدي، وخدم المنصور منذ أيام جده المهدي، فلما آلت الخلافة إليه رفع رتبته وعينه قاضيا في عاصمة خلافته " المنصورية "، فتوثقت الصلة بينه وبين الأمير المعز، فقد كان يراجعه فيما أعده من تقارير للخليفة فيشير عليه بما يرفعه منها ويترك، وكان يتدخل لفائدته ويدعمه ويشد أزره في مناسبات عدة[1]، ولما مات المنصور وظهر على النعمان الحزن الكبير لوفاته وقع إليه المعز بخط يده كتابا يؤكد استمرار عطفه عليه « يا نعمان، ليحسن عزاؤك ويجمل صبرك فمولاك مضى، ومولاك بقي، وأنت واجد عندنا ماكنت واجدا عنده، ونحن كنا سببك عنده ولن ينقطع ذلك السبب لدينا لك إن شاء الله

[1]-القاضي النعمان،المجالس والمسايرات، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ط1، 2007م، ص 73، ص 74، ص348، ص321، ص64.

تعالى فطب نفسا وقر عينا وليحسن بنا ظنك وتسكن إلى ما تحبه لدينا نفسك »[1]، وأصبح القاضي النعمان بعد الدربة الطويلة في خدمة المعز والوفاء له، لسان المذهب وفقيهه.

وقد أشار " القاضي النعمان" في مقدمة كتابه إلى ما سبق له من تآليف كتبها عن الخلفاء: المهدي، والقائم، والمنصور ثم عن المعز منذ بداية إمامته، وأعلن عن منهج كتابه هذا فقال: « أذكر في هذا الكتاب ما سمعته من المعز من حكمة وفائدة وعلم ومعرفة، عن مذاكرة في مجلس أو مقام أو مسايرة، وما تأدى إليّ من ذلك عن بلاغ أو توقيع أو مكاتبة على تأدية المعنى دون اللفظ »[2] ويعثر القارئ في الجزء الرابع عشر عن كلام جرى في مجلس حول هذا الكتاب، يشرح فيه منهجه في التأليف القائم على التوثيق، باعتبار توخيه التسجيل المباشر لمواده أولا، حتى لا ينسى لفظه ومعناه مع ما في هذا العمل من صعوبة وجهد، ثم مراجعة المعز لهذا المواد، والتي تزيد النعمان وثوقا من عمله فيقول: «غير أنني صنعت في ذلك صنيعًا لم أعلم أن أحدا ممن نقل الحديث سبقني إليه: وهو أنني جعلت كلما أثرت شيئا عن الإمام كتبته، وعرضته عليه بعد أن قدمت في ذلك العذر عنده؛ فكلما رأى أنني غيرت المعنى عنه قومني على المعنى وردني إليه، فأصلحته عنه وصفح لي عما لم أستطعه من حكاية لفظه وإن لم يكن هو بحقيقته فقال: «... ووالله ما جمع عن آبائنا قبلك أحد مثل هذا من جمعك وإنه لكتاب قلما يكون مثله من الكتب وإن فيه لحياة " لمن كان له قلب" »[3]؛ فيقدم الكتاب معلومات تاريخية هامة حول حياة الأئمة وأسرار البلاط، وخفايا السياسة الإسماعيلية أسقط كاتبها صفة التأريخ عنها إلا ما جاء بصفة عرضية.

[1]–ن م، ص 76.

[2]–القاضي النعمان،المجالس والمسايرات ، ص 45.

[3]–ن م، ص 273، ص274.

وننتهي إلى اسم الكتاب، فنلاحظ أن المحققين، اعتمدوا على العنوان المختصر الظاهر في معظم النسخ المخطوطة التي توصلوا إليها كتسمية للكتاب هو "المجالس والمسايرات" وهناك عنوان كامل ظهر على الصفحة الأولى لإحدى النسخ هو "المجالس والمسايرات في تاريخ الإسماعيلية وعقائدهم"، ولكن المحققين أهملوه ولم يتبنوه في تسميتهم، ويؤيد ذلك ما وجدناه في المقدمة التي صدروا بها الكتاب من كلام يفهم منه أن للكتاب اسما كاملا مغايرا لما وجدوه ذكره المجدوع في فهرسته للكتب[1] هو " المجالس والمسايرات والمواقف والتوقيعات "، فهو بحسب قناعتهم الاسم الأصلي للكتاب لأنه أكثر مطابقة لمحتوى الكتاب ومادته[2]ولعل هذه القناعة الشخصية[3] كانت السبب الذي دفع بهم إلى الشك في صحة التسمية والعدول عن تبنيها، والاكتفاء بالتسمية المختصرة.

أما نحن فنعتقد أن طبيعة العمل الجماعي، القائم على تجزئة الكتاب، واختصاص كل باحث بتحقيق جزء منه هي التي دفعت بالمحققين إلى الاضطراب بين التسميتين ثم الاكتفاء بترجيح تسمية المجدوع دون الأخذ بها، ولو أننا بعد القراءة المتأنية لأجزاء الكتاب، نرى أن اسم الكتاب الكامل الذي شكك فيه المحققون هو الأكثر دقة خاصة أن كل ما ذكر في الكتاب من مجالس ومسايرات وما نتج عنها من مواقف وتوقيعات هي سيرة تؤرخ لمسائل عقائدية تشيد بالمذهب الإسماعيلي، وتدعو إلى تنبيه، فالعنوان تسمية مسجعة ذات مقطعين، اعتمدها المؤلف: استئناسا بما سار عليه القدماء في اتخاذ عنوان مسجع لمؤلفاتهم وبخصوص الأخبار، تفيدنا مادة الكتاب، بكثير من الأخبار عن حياة المعز ووقائعه الحربية، وعلاقته بقواده ووزرائه مما لا نظفر به في كتب التاريخ العام،

[1]- إسماعيل المجدوع، فهرسة الكتب والرسائل 52، طهران، 1966م نقلا عن المصدر نفسه الهامش رقم 4 ص 17.

[2]- نفسه، ص 17.

[3]- ربما قد يضاف إلى هذه القناعة الشخصية سبب ثاني لم يصرح به المحققون في مقدمتهم، وهو ما أشاروا إليه أثناء الحديث عن صفة الورقة الأولى للنسخة التي ظهر فيها العنوان الكامل في ص 27 وص 28 من أن خط هذه الورقة مغاير لنسخة الكتاب، وهو ما أظهرته الصور المرفقة بعد هذه الإشارة.

وجدناها مبثوثة في كلامه وأفعاله، التي سجلها النعمان إما بحضوره لمجالسه التي كان يعقدها للناس في بلاطه، أو في مسايراته له خارج بلاطه، وقد استثنينا منها -54- خبرا أدبيا أضفناها إلى مدونة البحث وقد توزعت على الأنواع الآتية (المناقب، والكرامات، وأخبار نوادر الظرف والطرف) والجدول يبين ذلك:

1-أخبار المناقب	الصفحة	2-أخبار الكرامات	الصفحة	3-أخبار نوادر الظرف والطرف	الصفحة
1:كلام المنصور فيه ظاهر وباطن	50-51	1:شاهد من المنصور على فراسة المعز	65-66	1: زهد الناس في علم معاصرهم	126-127
2:قدرة المعز على استنباط الأحكام	56-58	2:شفاعة الأئمة لمن أحبهم	81	2: الخياط كاتم السر	236
3:سليمان عليه السلام أفقه من داود عليه السلام	58-59	3:رؤيا المعز	81-82	3: كاتم سر المنصور	237
4:الحسن بن علي أفقه من أبيه	59-61	4:المنصور يرى فتنة أبي يزيد	103	4: طرفة من الحساب للمعز	269-271
5:أمانة الدعاة وتواضعهم	83	5:المنصور ينعي نفسه للمعز	119	5: المعز يعرض أحجية نحوية	281-283
6:لا كرامة لعالم في قومه	92-93	6:كتابة بالمعمي يتوارثها الأئمة	120-121	6: منجم محتال	397-398
7:القائم يقتل رجلا بوشاية كاذبة	93-94	7:رؤية مخيفة للمنصور	122-123	7:جعفر الصادق والنجوم	399-400
8:المنصور ينعي نفسه ببيت لبيد	97	8:رؤية للمنصور حول معالم قرطاجنة	185-187	8:ذكاء المهدي	499
9:لا يرد الماء على من عرضه	100-101	9:المنصور ينعي نفسه	219-220		
10:انتقال سيف الرسول (ص) إلى	104-105	10:حميد بن يصل والتوبة	230-231		

الفاطميين					
11: إجلال الدعاة للمهدي	144-145	11:اتفاق رأي النعمان مع رأي الأئمة	241-244		
12:داع عفا عنه المعز	182-183	12:النعمان يتداوى بتفاح المعز	266-267		
13: صبر المعز على الخادم	192	13:المعز يتداوى بمعجون المهدي	268		
14: صبر الباقر على الجارية	192-193	14:المعز يرى في منامه النعمان	283-284		
15: شيخ من الرعايا	308-310	15:المعز وبطليموس	296-298		
16: النعمان والأهالي	311-312	16:المعز يرى الناصر الأموي	331-332		
17: القائد والمهدي	453-454	17:المعز يرى	351-352		
18: إخلاص القائد	454-455	18:المعز يبتكر قفصين عجيبين	385-389		
19: رواية الأحاديث المدلسة	467-468	19:الغلام وبركة المعز	390-391		
20: المعز والكتب	491	20:رسول إلى المعز	391-392		
		21:أرجوزة النعمان	426-427		
		22:المعز والجراد	434-435		
		23:المنجمون وموت المعز	465-466		
		24:توقع المهدي لفتنة أبي يزيد	499-500		

		25:المنصور يتنبأ بكشف المحنة	500-501			
		26:المنصور يعتل في تاهرت	514-515			
المجموع	20	-	26	-	8	-

جدول (10): المجالس والمسيرات للقاضي النعمان

2- كتاب "بغية الرواد" ليحي بن خلدون (تـ 780هـ):

يعد كتاب " بغية الرواد "، ليحي بن خلدون (تـ 780هـ) واحدا من أقدم مصنفات التاريخ السنية، التي وصلتنا عن المغرب الأوسط، ومن أعظمها إفادة في التعرف على أخبار الدولة الزيانية، التي قامت بتلمسان، وسير ملوكها وأمرائها، مع اهتمام كبير بوصف البلاد التي شملتها مملكتهم، فالكتاب متنوع المادة والمراحل، فهو يقدم الكثير من أخبار السياسية العامة لملوك بني زيان؛ ابتداء من تأسيس دولتهم في النصف الأول من القرن السابع الهجري، إلى غاية النصف الثاني من القرن الثامن، وهو العصر الذي توفي فيه المؤلف.

وقد صدر المؤلف الكتاب بمقدمة تشتمل على تصريح يفيد أنه ألف كتابه استجابة لأمر السلطان الزياني أبي حمو الثاني، ويتضمن اعتذارا عن قصر باعه في كمال التأليف يقول:«وبعد ولما كان مولانا السلطان الهمام، أبو حمو ابن مولانا الأمير الخليق بصفات الكمال الأولى أبي يعقوب....، ابن مولانا المرحوم أبي يحي يغمراسن بن زيان، فكان مما وقف ركاب عنايته عليه وهدى رائد الكمال سرح آماله إليه، تخليد ما لدولته من معال، وبأس ونوال، وأحاديث للفخر صحاح عوال، وما جمعته سيره الكريمة من حرب وسلم.... وكنت ممن يأمره أعلى الله مقامه، بذلك فأهاوي علما بما عندي من قصور الباع، وعدم الانطباع، وضعف المنقلة والاضطلاع، ثم رأيت أن امتثال أمره العزير

فرض....فانتدبت لإملاء هذا الكتاب راكبا لرضاه الأخطار»[1]، ولذا فالكتاب ألف لغرض تخليد أمجاد ملوك الدولة العبدوادية، وبخاصة عهد أبي حمو الثاني، الذي أفرد له المؤلف كامل الجزء الثاني من الكتاب، وبذلك يكون ككل كتاب تاريخي مرتبطا بسيرة السلطان الذي أمر بتدوينه قد غطى كامل الفترة التي عاشها المؤلف في بلاطه، وهو ما يضفي عليه أهمية خاصة فهو يمثل الشهادة المعاصرة المحلية الوحيدة عن هذه الدولة، لما يكتنف بعض أعمال رجالها من غموض وتعتيم كبيرين، فهي فترة عاتمة في تاريخ البلاد الجزائرية القديم، عزت فيها المصادر المؤرخة لها، ولربما انعدمت تماما.

ولم يفت المؤلف أن يتحدث في نهاية مقدمته عن فهرست كتابه، فقد قسمه إلى ثلاثة أقسام، متبانية في الحجم، وحدد عناوينها، وعدد أبوابها، واشتمل الباب الأول من القسم الأول على التفريع لفصول، وخلت أبواب الأقسام الأخرى منه، ولم يتأخر المؤلف، قبل ذكره لهذا الترتيب من شرح طريقة تأليفه القائمة على السجع، وتكلف المحسنات البديعة بعد السفر والاطلاع قائلا:«ومسطرا بهذه القوافي والأسجاع الأسطار، جالبا إلى سوق الأدب سقطا، ومكسبا نفسي بمجاراتها فرسان البيان غمطا.... وشرعت في تصنيفه.. بعد أن خليت الأوراق، وطفت بها الشام والعراق، وحادثت المعمرين العراف، وافترعت برود رياضه النضرات الأعراف ودعوت المحفوظ فأجاب»[2]، فهو يستوفي منهج تأليفه من أسلوب بعض مؤرخي البلاط المغاربة آنذاك من أمثال لسان الدين بن الخطيب، وعبد الواحد المراكشي وغيرهم، وهو تسجيل مفاخر وأمجاد عهد السلطان وذكر الأحداث الشهيرة في حياة البلاط، بأسلوب العصر الأدبي وما يمتاز به تصنع وتكلف.

وهذا يدل على أفق أوسع في نظرية التاريخ عند "ابن خلدون"، بالنسبة للكثير من كتاب عصره، حيث انتهج اتجاها جديدا في معالجة التاريخ يتمثل في ربط التواريخ

[1]-يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص114، ص115.

[2]- يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص115.

السلطانية بالتاريخ الإقليمي السابق وبالإطار الجغرافي، والبيئة الاجتماعية والثقافية، ويشير إلى ذلك في بداية القسم الأول من الكتاب قائلا:«ولما كان كل حادث مفتقر بذاته إلى مكان سابق وزمان لاحق، وجب أن نفرد لذكره، وذكر كل منها بابا نفي فيه بغرضنا من خبره حسب الوسع»[1] وهو في ذكره لكل ذلك يعتمد الأسلوب المدحي المثقل بالمحسنات البديعة، والذي اضطلع بدور الغلاف والزخرفة لكل إنجازات السلطان والأمراء الذين سبقوه.

أما أول ما يمكن أن نتناول به الحديث عن اسم الكتاب، فهو ما توصل إليه المحقق حول "العنوان المختصر"؛ فهو يرى أن "يحي بن خلدون" قد أطلق على كتابه بادئ ذي بدء عنوان "تجعة الرواد"، الذي ظهر في بداية أقدم النسخ المخطوطة، ثم بدا له أن يغير العنوان في نهاية التأليف إلى " بغية الرواد "، الذي هو أجمل وأفصح، خاصة أنه يوجد تكرار في المعنى في كلمتي: النجعة/ والرواد فكلاهما يدلان على البحث عن المرعى»[2]، بينما لا يوجد هذا التكرار في عنوان "بغية الرواد"، فكلمة بغية تدل على « ما يبتغي المطلب أي الحاجة أو الضالة»[3]، ولذلك اشتهر الكتاب بالعنوان المختصر الجديد، وهو ما يفسر وروده في أحدث المخطوطات التي استخدمها التحقيق[4].

ويتبين للقارئ من عنوان الكتاب التام الذي ذكره المؤلف في نهاية المقدمة « وأسميته بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، وماحازه أمير المسلمين مولانا أبو حمو من الشرف الشاهق الأطواد»[5]، أن المعنى المراد من هذه التسمية الطويلة القائمة

---

[1]–ن م، ص 119.

[2]– تدل كلمة النجعة لغة على «النجعة عند العرب: المذهب في طلب الكلإفي موضعه» أنظر لسان العرب ج14، ص51، أما الرواد فتدل «المصدر رائد: وهو الذي يرسل في التماس النجعة وطلب الكلإ، والجمع رواد». نفسه، ج5، ص352.

[3]– ابن خلدون، بغية الرواد ،ج1، ص 438.

[4]–ن م، ص 42، ص 43، وكذلك ص 70، هامش رقم 157.

[5]–ن م، ص 115.

على الاستعارة، هو رغبة الأوائل في ذكر تاريخ الدولة الزيانية من نشأتها إلى عهد المؤلف، ورغم دقة العنوان في تحديد موضوع الكتاب، إلا أننا بعد الاطلاع على مادته لاحظنا أن الاستطراد والتطويل كانا يلاحقان العرض في غير موضع من الكتاب، مثال ذلك تضمينه الكتاب مجموعة ضخمة من الأشعار، إذ كان في كثير من الأحيان لا يكتفي بالبيت الواحد أو البيتين، وإنما كان يورد القصائد الطوال، وكان يعلل ذلك بجودة معانيها وحسن تمثلها للمواقف والأحداث، وأيضا استطراده الطويل بالترجمة لـ - 109- من العلماء والصلحاء الذين عرفتهم مدينة تلمسان في القسم الأول من الكتاب، وهي تراجم استنتجنا أن ابن مريم نقلها عنه كلها في كتابه البستان- أنظر ما ذكرناه سابقا- وقد اشتملت بعض أبواب القسم الأول والثالث على بعض الأخبار، وأورد في الباب الأخير من القسم الثالث الكثير من الحكايات الفارسية المقتبسة من كتاب سلوان المطاع لابن ظفر الصقلي الغرض منها تذكير القارئ وتسليته.

وقد أوضحت عملية القراءة المتأنية لمختارات الكتاب من الأخبار أن "ابن خلدون" قد اختارها كشواهد متنوعة الأغراض منها ما ضمنها تراجم كتابه فجاءت مرتبطة بأفعال العلماء والصلحاء، ومنها ما اشتمل عليها المتن وارتبطت بأفعال السلطان والأمراء، استخرجنا منها - 22 - خبرا أدبيا تتعلق بالأنواع الخبرية الآتية (المناقب، والكرامات، ونوادر الظرف والطرف) والجدول يوضح ذلك:

1-أخبار المناقب	الصفحة	2-أخبار الكرامات	الصفحة	3-أخبار نوادر أخبار الظرف والطرف	الصفحة
1:توبة يحي بن يوغان	135	1:عمر بن الخطاب وقوم من البربر	121	1:أحد رؤساء بني عبد الواد	208
2:عمر الحباك	143	2:فاطمة رضي الله عنها ورجل من البربر	121-122	2،3:الغضبان الشيباني	208-209
3:أبو الربيع	144	3:مكاشفة عبد الله	142	4:خالد بن الوليد	209

التلمساني		المجاصي				
4: الشوذيالحلوي	167	4: التفريسي وصور الجان	12- 143	5:أبو العيناء		210- 211
		5:محمد بن خميس	145	6←9:إبراهيم بن المهدي		49- 53
		7،6:أبو مدين شعيب	164			
		8:الشوذي الحلوي	165- 165			
		9:ابن إبراهيم	169			
المجموع	**4**	**9**	**-**	**9**	**-**	**-**

جدول(11): أنواع الخبر في كتاب بغية الرواد لإبن خلدون

نلاحظ من خلال الجدول أنا كتاب "بغية الرواد" يشترك في بعض أخباره مع كتب عدة حيث وجدنا أن كل الأخبار الواردة ضمن " تراجم من أنجبته تلمسان من العلماء نقلها عنه ابن مريم في البستان، إضافة إلى أن الأخبار المتعلقة بكرامات أبي مدين شعيب موجودة في عنوان الدراية.

ولاحظنا كذلك أن الخبر (9) من أخبار الظرف قد ورد عند الحصري في زهر الآداب بترتيب خ (78)، وكذلك خ(5) من أخبار الطرف قد ورد عنده في الجمع بترتيب خ (242) مع اختلاف بعض الألفاظ والأسماء.

وسنجد أيضا أن خ (1) حول كرامة عمر بن الخطاب والبربر سيرد لاحقا في كتاب السيرة لأبي زكريا بترتيب خ (7).

3-كتاب السيرة وأخبار الأئمة لأبي زكريا يحي (تـ بعد 504هـ):[1]

يعد " كتاب السيرة وأخبار الأئمة "، لأبي زكرياء يحي بن أبي بكر الورجلاني (تـ بعد 504هـ)؛ المشهور " بتاريخ أبي زكرياء "، من أقدم ما ألف في تاريخ إباضية المغرب، من قبل أحد شيوخها المغاربة؛ فالمؤلف عاش في القرن الخامس الهجري بوارجلان مسقط رأسه، وقد صنفه الدرجيني رفقة أخيه أبي يحي زكرياء بين شيوخ الطبقة العاشرة فترجمهما قائلا: «كانا من الأفاضل المقتفيين لآثار الأوائل، لم تزل الديانة بحياتهما حية وطرق البر ناهجة، وطلب علوم المذهب، وسير من تنسك وترهب، ولهما في علوم النظر أطول باع بأدلة ذات إقناع»[2]تعريف فيه شهادة ترفع من شأن أبي زكريا، وتكفي للدلالة على مكانته المرموقة بين المؤرخين الإباضيين في إفريقيا الشمالية، وهو ما جعل الكثير من المتأخرين منهم يعتمدون عليه: «فهو أحد المصادر الرئيسية لكتاب طبقات المشايخ للدرجيني؛ الذي يعتبر القسم الأول منه تحريرا للقسم الأول من مؤلف أبي زكرياء، ويذكره الشماخي في عشرات المواضع- في كتابه السير-»[3]؛ فالكتاب ذاكرة حية لمجموعة من الأخبار والسير التي تمت رواية الكثير منها بالاعتماد على الرواية الشفوية، نقلا عن شيوخ المؤلف؛ وهنا تكمن أهمية الكتاب في كونه المصدر الرئيس الذي يزودنا بعدد من الإيضاحات حول تاريخ الدولة الإباضية التي أسسها البربر في أفريقيا الشمالية.

---

[1]- التاريخ الذي ذكره المستشرق ليفيتسكي فهو يرى أنه توفيفي بداية القرن السادس بعد(504هـ)، ودفن في وارجلان وذلك اعتمادا على أثر إباضي من وارجلان دونه الأستاذ سموغرزفسكي خلال إقامته في هذه المدينة سنة 1925 م، أنظر ليفيتسكي،المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية، تر: ماهر جراروريماجرار دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط1، 2000م، ص 137 ، وهناك تاريخ آخر ذكره محقق الكتاب وهو أن المؤلف توفي (بعد سنة 474 هـ) هو آخر تاريخ مذكور في الكتاب، أنظر أبو زكرياء يحي، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحق: عبد الرحمان أيوب، الدار التونسية للنشر، ط1، 1985م، ص 15.

[2]- أحمد الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، تحق: إبراهيم طلاي، دار البعث قسنطينة الجزائر، دت، د ط،ج2، ص 448.

[3]- ليفيتسكي، المؤرخون الإباضيون، ص137، ص138.

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى جزئين صدر كل جزء منها بمقدمة مختصرة حـــدد فـــي الأولى الدافع لتأليفه قائلا:« فإنه لما رأينا ما انطمس من الآثار واندرس مـــن الأخبـــار، انبعثت أفكارنا إلى تأليف أخبار من سلف من مشايخ أهل الدعوة وصلحائها وتذكر مناقبهم وحسن سيرهم، وجميل مذهبهم، ونشر فضائلهم فكتبنا من ذلك ما تيسرت كتابته ورجونـــا منفعته، من بعد ما خشينا على العوام أن يتخذوه وراءهم ظهريا ويجعلوه نسيا منســـيا»[1]، واشتملت الثانية على توضيح الهدف الذي يسعى التأليف لتحقيقه بدقة يقول: « وقد قصدنا في هذا الكتاب إلى إيضاح ما انتهى إلينا من سير أوائلنا وأسلافنا، من أدركنا منهم، ومـــا بلغنا عمن لم ندركه، من المناقب الكريمة والمراتب الشريفة المنتخب من الفعل والمنتحل من القول، رحمة الله عليهم إذ النجاة في إتباعهم والسلوك على مناهجهم...،وحكـــي عـــن رجل من خيار نفوسة قال:" نحن أصحاب آثار لو سلك الطريق بنا على جدار لسلكناه بل لو سلك بنا طيات السيوف وسبات السنون فسلكناه، مرضاة لله وقواما لدينه وإظهارا لـــه ولو كره الكافرون»[2].

وكل ما جاء من كلام حول الدافع والهدف في المقدمتين يفهم منه أن المؤلف مشغول بالبحث عن أخبار مشايخ وصلحاء أهل الدعوة الإباضية، لتحقيق غايتين: إبداء الشكر لهم بحفظ أخبارهم، وأخذ العبرة منها، وهنا يتجلى لنا أن المؤلف ذو قضية تتصـــل بإظهـــار مكانة رجال عرفوا بعملهم وصلاحهم، مقابل ظاهرة أخرى مسكوت عنها هي " فكرة آخر الزمان"، التي لم تكن مستبعدة عنده، خاصة أنه وجد في زمن كثـــرت فيـــه الحـــروب، والتحولات داخل المذهب، وهي الفكرة التي أشار إليها في مقدمة الجزء الثاني وعبر عنها في آخر الكتاب، فأورد مجموعة من الأخبار حول موقع جغرافي خيالي انفرد بـــذكره « وقد ذكر أنه لا يبقى مسلم في آخر الزمان إلا في جوغراف... موضع في حمر الرمـــال

[1]- أبو زكرياء، السيرة ، ص39، ص40.

[2]- ن م، ص 281، ص 282.

ذو مياه كثيرة »[1]،فعبارة " لا يبقى مسلم " تشير إلى أن أمر الإسلام مقصور على مشايخ أهل الدعوة وصلحائها، وفيها دعوة صريحة للمتلقي بضرورة الاقتداء بسلوكهم لتكتب له النجاة ويكون من سكان جغراف.

ولا تنحصر أهمية " تاريخ أبي زكرياء " في بعده التاريخي بل إنها تشمل أسلوب وبنية الكتابة؛ فهي تتموقع بين مستويين لغويين: لغة عربية، ولغة أمازيغية، فالكتاب بأسلوب تحريره يمثل وثيقة لغوية هامة لفترة احتكاك اللسان العربي مع اللسان الأمازيغي. حيث لا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن حركة تعريب شمال أفريقيا لم تكتمل نهائيا في عهد المؤلف، فهذا التقاطع بين اللسانين جعلنا نؤكد أن الكتاب موجه للعامة قبل الخاصة، فأبو زكريا شيخ داعية، قبل أن يكون شيخ حلقة، رغب في تدوين سير وأخبار الأئمة بأسلوب ولغة ميسرة للقارئ المغربي ليضمن لها الانتشار[2] .

و يتبين للقارئ من الألفاظ المعتادة لعنوان الكتاب التام " كتاب السيرة وأخبار الأئمة؛ أن الموضوع المطروق فيه هو الترجمة والإخبار عن الأئمة، ولكن الكتاب لا يخلو من الاستطراد في مواضع كثيرة منه، فقد تناثرت في معظم فصوله معلومات قيمة عن دخول العقيدة الإباضية إلى المغرب وتطورها فيه وعن تاريخ الرستميين وسقوطهم وعن مقاومة الإباضيين للفاطميين، كما تتضمن هذه الاستطرادات الكثير من تراجم عدد من أعلام الإباضيين المشهورين من مواليد الجنوب الجزائري والتونسي من القرنين الرابع والخامس الهجريين، وأهم ما ميز هذه الاستطرادات هو التكرار الممل لبعض الأحداث التي يعيد ذكرها في سياقات متعددة، وكذلك صعوبة استخراج بعض التراجم التي قسمها إلى أجزاء بثها ضمن استطرادات متفرقة من فصول الكتاب.

[1]- ن م، ص377.

[2]- أبو زكرياء، السيرة، ص14.

وقد أظهرت عملية القراءة أن المادة الأدبية للكتاب محدودة في نصوص نثرية في الحكم والأمثال والسير والتراجم، والأخبار الأدبية التي بلغ مجموعها – 65 - وتتوزع على الأنواع الآتية: (المناقب، والكرامات، ونوادر الطرف والظرف) والجدول يبين ذلك.

1-أخبار المناقب	الصفحة	2-أخبار الكرامات	الصفحة	3-أخبار النوادر	الصفحة
1:عبد الأعلى بن سمح	65-67	1:إهتزاز إيوان كسرى	44-45	1: الإمام عبد الوهاب	96-99
2: عبد الرحمان بن رستم	88	2:عبد المسيح بن عمر	46-49	2: الإمام أفلح	135
3: الإمام مهدي	108-109	3: عائشة رضي الله عنها	52-53	3←5: نفاث بن نصر	138-142
4:أيوب بن العباس	112-113	4:عمر رضي الله عنه	53-55	6: محمد بن أفلح	142-143
5:الشيخ النفوسي	114	5: عبد الأعلى بن سمح	70	7: ملك الروم واليهودي	156-157
6:الإمام عبد الوهاب	117-118	6: يعقوب بن يوسف	84	8: دوسرا بنت يوسف	162-163
7: أبو مرداس	127	7:العباس بن أيوب	134	9:الشيخ يغلي	216-217
8:نفاث بن نصر	139	8: نفاث بن نصر	138	10: عبد الله بن الأمير	291
9: الشيخ عبود	204	9: الرجل من عسكر ابن الأغلب	154-155	11: أحمد بن خيران	297-298
10: أبو نوح	210-211	10: يوسف النفوسي	155-156	12: خلف بن بكر بن حماد	398
11: الشيخ يغلي	219-220	11: عبد الله السعدي	160-164		
12: المعز بن فضالة	237-	12: أبو الخطاب	188		

	238					
13: محمد كموس	244-245	14،13: الشيخ أبو زكريا	249-251			
14:زوجة ابن الإرث	246	16،15: الشيخ محمد بن بكر	260-264			
16،15: الشيخ أبو زكريا	247-250	17-علي بن يعقوب	262-264			
17←20:الشيخ محمد بن بكر	262-268	18:سليمان بن يخلف	275-276			
21:محمد بن مانوج	283-284	19:خليفة العاصمي	300-301			
22:عبد الله بن الأمير	291	21،20:أم المؤمنين بنت حمو	318			
23: ويسلان والقوم	295-296	24،22:محمد بن بكر	325-335			
26،24:محمد بن بكر	322-327	25: المديوني	359			
27: العزابة والعامل من بني زيري	258	26:قصة جوغراف	377-381			
المجموع	**27**	**-**	**26**	**-**	**12**	**-**

جدول (12): أنواع الخبر في كتاب السيرة وأخبار الأئمة لأبي زكرياء

2- وصف مصادر الأخبار المستقلة:

مما يجدر بنا توضيحه في مجال مؤلفات النثر القصصي التي تعتمد الخيال، عند الكتاب المغاربة في فترة البحث؛ هو عدم الظفر بشيء يذكر، وأحد أسباب ذلك - هنا أيضا - ما ذكرناه سابقا من أن معظم المصادر الأساسية للأدباء المغاربة مفقودة كلية أو على الأقل محتجبة عنا، مما يترك دائما فراغا كبيرا في معلوماتنا التاريخية عن ماضي المغرب الأدبي، ومن بين أهم مصادر النثر القصصي التي وصلتنا أسماؤها ولم تبلغنا مؤلفات الكاتب " إبراهيم بن القاسم " المعروف بالكاتب الرقيق (تـ 425هـ) وهي: كتاب الأغاني الذي نحا فيه نحو " أبي الفرج الأصفهاني " (تـ 365هـ)، وكتابيه النساء والمتيمين، إضافة إلى كتاب عقيل وعليم " لابن شرف القيرواني " (تـ 460هـ)، وكتابه الزمان الذي عارض به كتاب كليلة ودمنة " لابن المقفع " (تـ 142هـ).[1]

على أن هناك نماذج من النثر القصصي تنحصر في أوفر قسط منه في بعض مؤلفات الحصري ذات الطابع القصصي، والتي اهتمت بجمع مجموعة من الأخبار تختص بفئة من فئات المجتمع غلبت عليها صفة خلقية أو حسية وهي:

1- كتاب المصون في سر الهوى لإبراهيم الحصري:

يعد كتاب المصون في سر الهوى؛ من أشهر ما كتبه المغاربة في مجال أدب الرسائل المفردة لموضوع واحد، حيث تناول فيه الحديث عن عاطفة الحب المكتوم في الصدر بوجه عام، وما يدور حوله من أخبار ومعطيات ويفصل الحديث بالخصوص في ظهور الحب في صور وأشكال مختلفة لا تدخل تحت حصر، فكتابه صنف على طريقة الأدب الخالصة، أفرده لموضوع ذي صبغة موسوعية يسعى إلى أن يكون كتابا فنيا مختصا بل وعمليا أيضا حول عاطفة الحب يقول: «وشهدت أن الهوى يخدع العقل ويسحره...

[1]- حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، قسم 2،ص 441، ص 442، وبويحي، الحياة الأدبية، مج2، ص 694، وهامش رقم 1، ن ص .

ويغلب القلب ويبهره، حتى يرتبط بملكه، وعهدته لا يعلق إلا بذوي الأفهام اللطيفة والأوهام الشريفة، ممن اتسعت في الأرب رباعه، وامتد في الأدب باعه»[1]، ويبدو أن هذا الضرب من المؤلفات كان شائعا في ذلك الوقت بالمغرب والأندلس، ومن أهم ما وصلنا منها كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لمعاصره " ابن حزم القرطبي " (ت 456هـ)، فهو يشبهه من حيث اشتراكهما في الموضوع الذي اختص بالبحث في عاطفة الحب[2].

وقد بين " الحصري " هدفه من تأليف كتابه في المقدمة بقوله: «قال: من رقت حواشي فهمه، ودقت معاني علمه وأنجبت بنات فكره واتسعت موارد صدره لتوليد عقائل الكلام الرقيق، وتنضيد فواضل النظام الأنيق، فوشي ديباج هذا النمط المصون في سر الهوى المكنون ببدائع الأوصاف، وروائع الاتصاف»[3]،فالغرض من التأليف هو رغبة الكاتب في التجديد، وأن يظهر قدرته في مجارات الأدباء الذين سبقوه إلى الحديث في الهوى وجمع أخباره وأشعاره فعلى خلاف كتب الحصري الأخرى التي وجدنا فيها المعلومات والمواد مأخوذة في معظمها عن وسائط، فإن التعريفات المقدمة في الكتاب حول الحب وما يتصل به من مظاهر وأسباب هي من إنشاء المؤلف وأجرى كتابه كما هو متعارف عند أدباء اليونان على شكل حوار على لسان صديقين قرر أحدهما أن يبوح للآخر ما يجيش به صدره من أسرار أهل الهوى يقول: « التقى آليفان... تآلفا على استثارة ما في الضمائر.. فأفاضا في حديث أرق من نسيم الشمال... فقال أحدهما لصاحبه منحت ودك، وجعلت فداك... وجملة ما أبوح به إليك وأعول فيه عليك أنه ضاق ذراعي، وقصر باعي من احتمال ما يجيش بصدري ويجول بفكري مما عدمت لقبوله

[1] - الحصري، المصون، ج1، ص 34.

[2]- بويحي، الحياة الأدبية ، ص 725، ص 726.

[3]- الحصري، المصون، ص 29.

مسعدا يفهمه عني إلى أن قابلني من عقلك فاتخذتك شقيق مهجتي، اعلم أعلمك الله »[1] ومن هنا يفتتح الحوار الذي يتخلله الكثير من الكلام حول مختلف مسائل الهوى « قال لصاحبه الناظم معه در البلاغة ومرجانها... قد آثرت أن أعقد خبء مجالسنا... على مسائل في الهوى وحالاته ومراتبه ودرجاته... ونقرع من أبواب الخطاب على وجه المسألة والجواب، أفهم فيها ما تفهمني وأعلم ما تعلمني»[2]، فهذا الحوار لم يكن خياليا إلا في انتحال الشخصيتين المتآلفتين فقط لأنه حديث تقريري عن واقع الحب ومسائله كما تعارف عليه أدباء عرب وفلاسفة وعلماء من اليونان، فالحوار يكون تمهيدا لهذا الحديث التقريري الذي يضمنه الكثير من أشعار وأخبار العشاق، التي تنتهي بإعلان أحد المتحاورين عن توقف الكلام فيما استطردا فيه من معاني توالدت عن سر الهوى المكنون « فقال: قد وقف لي السؤال على غايته، وانتهى مني المقال إلى نهايته»[3]، ثم يستمر الحوار متخذا شكلا آخر هو ثناء كل واحد منهما على كلام صاحبه مع الاستشهاد بنظم ونثر يوافق وصفه لبلاغته.

ويفهم مما ذكره " الحصري " في نهاية كتابه أنه ألف الكتاب استجابة لطلب أحد الأعيان وإليه أشار«فقال: قد رأيتك نموذج القول فيما أخذنا بعنانه وجلنا في ميدانه... بما اتسع له ناظر الخاطر.. كثير الفروع، غزير الينبوع، فإذا أذنت كشفت وجهي عن كتاب جامع للأبواب، مشتمل على فنون التأليف... في مختار أخبار المتأخرين منهم والمتقدمين، وأحوال المشهورين والمغمورين - يقصد أهل الأدب - مفصل ببديع الشعر ورفيع النثر وإحكام الوصف»[4]كلام يفهم منه أن الشخص الذي طلب منه تأليف المصون هو نفسه الذي طلب منه تأليف الزهر، لأننا رأينا أن الكثير من الأبواب التي تضمنها المصون

[1]- ن م، ص 29، ص 33، ص34.
[2]- الحصري، المصون ، ص 48.
[3]- ن م، ج2، ص196.
[4]- ن م، ص 200.

وردت في الزهر بتفصيل أكثر وإليه أشار بقوله:«كتاب جامع الأبواب»، وهو ما يجعلنا نعتقد أن الحصري ألف المصون قبل زهر الآداب.

وجاء عنوان الكتاب في المصادر القديمة بتسميات مختلفة منها تسمية " ابن بسام" «المصون من الدواوين»[1]وتسمية ياقوت «المصون والدر المكنون»[2]وذكرته بعض المصادر بتسمية توافق ما جاء في مخطوطة الكتاب حيث سماه المؤلف « المصون في سر الهوى المكنون»[3]وهي التسمية الكاملة للكتاب، وأن ما ذكره ابن بسام وياقوت هي التسمية المختصرة له، فالحصري حدد العنوان ومنه فقد حدد الحديث فيه بكل أجزائه وجزيئاته، فقد قصر الكلام فيه عن الحب وما يتصل به من (عفة، وكتمان، وهجر...إلخ).

وعلى كل حال فالاطلاع على مادة الكتاب بينت أنه مليء باستطرادات علمية وأدبية ونقدية جاءت في تعريفات وتعليقات المؤلف استثنينا منها - 44 - خبرا أدبيا تعلق الكثير منها بأخبار نوادر الهوى كما يتضح في الجدول:

1- أخبار النوادر					
أ- أخبار الهوى	الصفحة	ب- أخبار الظرف	الصفحة	أخبار الطرف	الصفحة
1: عروة بن عبيد الله والمخزومي	36-37	1: ابن عدي وابن سعيد	71	1: القياسي وابن شريح	125-126
2: عرة بن أذينة	37	2: النعمان بن المنذر وابن زيد	87		
3: عبيد الله بن مسعود	37-40	3: المأمون وابن	110-111		

[1]- ابن بسام، الذخيرة، مج4، ص 321.

[2]-ياقوت الحموي،معجم البلدان، دار صادر بيروت، د ت، د ط، ج2، ص97.

[3]- الحصري المصون، ج1،ص23.

والمرأة الجميلة		أكثم			
4: المخزومي وعائشة بنت طلحة	42	4: المأمون والشيخ	116		
5:النميري وابن المعتز	45-42	5: ابن إبراهيم وابن العلاء	127		
6: ذو الرياستين	48-47	6: ابن ابراهيم وابن علي	127-128		
7: برهام جور	48-47	7: خالد الكاتب وابن المهدي	144		
8: النظام والغلام	66-65	8: الأصمعي وخلف الأحمر	145-146		
9: ابن القاسم والأسود	66	9: ابن عتيق ورجل من ولد خالد بن العاص	174-175		
10: عمر بن ربيعة والغلام	67-66	10: موسى شهوات والأحوص	176-177		
11: عمر بن ربيع والمسهر	68-67				
12: المسهر والجارية	70-68				
13:عمر بن ربيعة	71-70				
14: بين كاتبين	72-71				

15: بين امرأتين من المدينة	74-75				
16: مطيع بن إياس	87-88				
17: المأمون	88				
18: يوحنا	94-97				
19: جميل بن معمر وابن ربيعة	101-102				
20: أبو حاتم والغلام	127				
21: عبيد الثعالبي والفتى	128-129				
22: كسرى والعالم	129-130				
23: يزيد بن عبد الملك وحبابة	130				
24: مريم الأسدية وعقيلية	131				
25: الواثق والجاحظ	131-132				
26: سليمان بن عبد الملك وجاريته	132-133				
27: الغفاري والرجل	138				
28: ابن الأحنف والفتيان	150-155				

29: ابـــن حميـــد وجاريته	160-161					
30: المبرد والحســن بن رجاء	169-170					
31: ابن دريد وابن أخ الأصمعي	170-171					
32: ابـــن طـــاهر والخزاعي	183-184					
33: محمد الغفــاري والفتى	188-189					
المجموع	**33**	**-**	**10**	**-**	**1**	**-**

جدول(13): أنواع الخبر في كتاب المصون للحصري

نلاحظ من خلال الجدول أن مجموع الأخبار المشتركة بين المصون وزهــر الآداب - 16 - خبرا أدبيا موزعة على النحو الآتي: أخبار الهــوى خ (1، 3، 4، 6، 7، 15، 19، 30)، وترتيبها في زهر الآداب هو: خ (1، 2، 3، 16، 17، 10، 8، 20)، وأخبار الظرف وهي: خ (1، 2، 5، 6، 7، 8، 9) وجاء ترتيبها في الزهــر: خ(135، 111، 112، 61، 39، 32) وخبر واحد يتعلق بالطرف وهو: خ (1) وترتيبــه فــي الزهــر خ(37). بينما لم يرد أي خبر من أخبار النورين في الكتاب وهو ما يؤكد أن الزهر ألــف بعد المصون، وقد حاول فيه الحصري التوسع في مواضيع الأدب ليكون جامعا لكل أنواع الأشكال الأدبية كما صرح في نهاية المصون.

- ولاحظنا كذلك عدم اشتراك المصون مع الاختيار في الأخبار، بينما وجدناه يشترك مع العمدة في خبرين هما: خ (3) من أخبار الهوى، وترتيبه في العمدة هـو خ (1)، وخ (1) من أخبار الظرف وترتيبه في العمدة خ (40).

2- كتاب جمع الجواهر لإبراهيم الحصري:

يختلف كتاب جمع الجواهر عن كتاب المصون في المادة التي يتناولها؛ فهي أكثـر حصرا وتجانسا مع موضوعها المرتبط بخطاب خبر النادرة في حين رأينا الحصري في المصون، يستطرد في بعض المواضع فيضمن خطابه أخبارا لا تتعلق بأهل الهوى وهـو ما جعلنا نعتقد بأن الغاية التعليمية التي ارتبطت بشخصية الحصري هـي التـي جعلتـه يخصص جمع الجواهر لتعليم المغاربة فن من أصعب الفنون وهو القدرة علـى حـديث يمتلك الانتباه، ويعلم ويسلي بدون تكدير أو إملال قط ، يقول: « وهل يستغني أهل الأدب وأولوا الأرب عن معرفة ظريف المضحكات وشريف المفاكهات، إذ لاطفوا ظريفـا، أو مازحوا شريفا؟ فقد قال الأصمعي: بالعلم وصلنا وبالملح نلنا»[1]، فالهدف من تأليف الكتاب هو شعور المؤلف بضرورة تأليف كتاب للمغاربة يجمع فيه ما تميز به المشـارقة مـن ظريف الكلام؛ ليبين لهم أن الهزل ضرورة من ضروريات الحياة يقول: « وهذه النوادر، وإن وقع عليها اسم الهزل، وأسقطت من عين العقل، عند من لا يعلم مواقع الكلم ولا يفهم مواضع الحكم، فليس ذلك بمروجها، ولا بمبهرجها عند أهل العقول، وأولـي التحصـيل العارفين بمعاقد المعاني، وقواعد المباني، وهل يستندر مـن المغمـورين والمشـهورين، ويستظرف من المغفلين والمعقلين إلا ما خرج عن قدر أشكالهم، وبعد من فكر أمثـالهم، وإنما يذكر ما يستظرف، لخروجه عما يعرف»[2].

[1]- الحصري، جمع الجواهر، ص 40.

[2]- ن م، ص25.

ونقرأ في المقدمة التي استهل بها أبو إسحاق كتابه أنه ألفه كما ألف مصنفاته السابقة بناء عن طلب أحد أعيان عصره « سألت أطال الله بقاءك أن يجمع لك كتابا في جواهر النوادر ولمح الملح وفواكه الفكاهات، ومنازه المضحكات... ويطلق النفس من رباطها، ويعيد إليها عادة نشاطها إذا انقبضت بعد انبساطها»[1]، ونعتقد أن الشخص نفسه الذي أهدى إليه مؤلفاته السابقة وهو ولي نعمته الذي زوده برصيد من المؤلفات استجلبها من المشرق، واستمد منها الحصري هذه المرة مادة أفردها للحديث عن نوادر الكلام يقول: « فأجبتك بكتاب كللت نظامه، وثقلت أعلامه، بذهب يروق سبك إبريزه، من نوادر المتقدمين والمتأخرين، وجواهر العقلاء والمجانين وغرائب السقاط والفضلاء، وعجائب الأجواد والبخلاء وطرف الجهال والعلماء، وتحف المغفلين والفهماء، ونتف الفلاسفة والحكماء، وبدائع السؤال والقصاص وروائع العوام والخواص، وفواكه الأشراف والسفلة، ومنازه الطفيلين والأكلة، وأخبار المخانيث والخصيان وآثار النساء والصبيان»[2]، فالكتاب جاء لإكمال فجوة في مؤلفه الكبير زهر الآداب الذي اتسم موضوع الأدب فيه بالجد، فلم يستطيع المؤلف التعرض بالتفصيل للكلام النادر، خاصة ما تعلق منه بالجانب المرح، والذي يتسم في مواضع كثيرة باستخدام ألفاظ سخيفة وخليعة أحيانا، وقد وضح ذلك قائلا: « ولو كنت هنا إنما آتي بما فيه ركانة وأصالة، دون ما فيه سخافة ورذالة لزال عن الملح اسمها، وارتفع عنها وسمها... وكما يمل الجد فيدخل فيه الهزل؛ كذلك يمل الرقيق فيحتاج إلى الجزل»[3].

وقد تحدث " الحصري " عن منهجه القائم على التنويع والذي اعتمده في تأليف كتابه، وجعله يصفه بكونه مائدة جامعة لكل أنواع نوادر الكلام قائلا: « وأتيت به على سبيل الاختصار، وطريق الاختيار؛ وجعلته بتنويع الكلام كالمائدة الجامعة لفنون الطعام إذ

[1] - الحصري، جمع الجواهر ، ص12.

[2] - ن م، ص 13، ص14.

[3] - ن م، ص 88.

همم الناس مفترقة، وأغراضهم غير متفقة، ولا أعلم حقيقة ما تستتدر ولا محض ما تؤثره إذ لا يطلع بذلك إلا علام الغيوب»[1]، فكل ما في الكتاب من أبواب يتعرض لنوادر الكلام في جانبيه الجد والهزل مع خلو هذا الأخير من كل ما يخرج عن حدود اللياقة والأخلاق السليمة يقول: « وقد تجنبت أن أهدي إليك وأورد عليك، ما يخرج به قائله في الدين عن اتباع سبيل المؤمنين، فمن أهل الإلحاد والأهواء... يغر به من ضعفت نحيزته، بألطف ما يمكنه كمون الأفعوان في أصول الريحان، إذا قابله بشمه قتله بسمه»[2]، فلم يكن أمامه إلا إدانة هذا النوع من أخبار الهزل التي تتعرض لسادة أهل الدين أوردها بعض الإخبارين الملحدين بغرض الحقد وهو عمل لا يجر إلى صاحبه إلا الاحتقار.

وجاء عنوان الكتاب في مختلف نسخه المخطوطة بالتسمية نفسها وهي: جمع الجواهر في الملح والنوادر، وهي تسمية مسجوعة قائمة على التناغم، الذي تشير من خلاله إلى سمتي الجودة والنفاسة يقول المؤلف في آخر الكتاب: « قد أتممت أكرمك الله لهذا الكتاب جميع شروطه، ولم أخل بتحريره وضبطه... فأمضي بك في العجائب المضحكة، والغرائب المؤنقة ثم أصلها ولا أفصلها من تعلق بأخبار ظريفة، وأشعار شريفة»[3]، فمادة الكتاب جعلها جواهر فريدة قام بجمعها من ملح الأقوال والأشعار ونوادر الكلام، حيث كشفت عملية القراءة أن مجموع الأخبار الأدبية المتعلقة بأخبار نوادر الطرف والظرف والهوى بلغت - 209 - والجدول يبن ذلك:

[1]- ن م، ص14.

[2]- الحصري، جمع الجواهر ، ص14.

[3]- ن م، ص 420.

1-أخبار النوادر					
أ-أخبار الطرف	الصفحة	ب-أخبار الظرف	الصفحة	جـ-أخبار الهوى	الصفحة
1:عائشة رضي الله عنها والملحد	15-14	1:ابن طاهر	17	1:أبو السائب وابن أذينة	67-65
2:المتوكل وابن خاقان	21-20	2:عمر رضي الله عنه	18-17	2:المصلى ورجل يتغنى	69-68
3:الجماز وبعض الولاة	21	3:الحجاج وكثير	22	3:معبد المغني	70-69
4:الرشيد والقلال	21	4:السخيسي وابن خالد	23	4:ابن عتيق وابن ربيعة	72-71
5:مزيد المدني	22-21	5:الإمام الشافعي	29	5:ثمامة والمأمون	364-365
7،6:أبو العبر	28-26	6:المتوكل وابن داود	45	6:أبو فراس والمهبلي	370-371
8:أبو العنبس	28	7:الرسول صلى الله عليه وسلم	52		
9:المتوكل وعبادة المخنث	31-30	8:المنصور والغتى	94-93		
11،10:الحجاج والأعرابي	32-31	9:الأحوص	95-94		
12:المهدي وأحد المصلين		10:ابن جرار وابن طولون	98-97		
13:المدني والفرسان	33-32	11:ابن عبد السلام	101-107		
14:المنصور والمنتوف	33	13،12:أبو محجف	107-108		
16،15:المأمون	34-33	14:ابن معاوية والقاضي	112		
17:يزيد وبديح	35-34	15:ملك الفرس	112-113		

18:الطفيلي والمأمون	35-37	16←18:الحسن بن سهل	116-121		
19:الجنابي	37-38	19،20:المنصور	130-133		
20:الوزيرر ابن خنزابة	38	21:المهدي	151-152		
21:المنجم والخليفة	38-40	22:ابن جامع	154-157		
22:أبو نواس والجماز	41	23:ابن هارون	164		
23:الحمدوني وابن حرب	42-43	24:سفيان الثوري	164-165		
24:المثنى وزنباع	43-44	25:ابن اليتيم	169-170		
25،26:روح بن زنباع	45-47	26:ابن أبي داود والجاحظ	180-181		
27:القرشي والقاضي	48-48	27:بهلول والرشيد	197-198		
28←31:الرسول صلى الله عليه وسلم	51-54	28←30:أبو نواس	200-207		
32:ابن سيرين وابن حاتم	56	31:ابن عتيق وابن العاص	212-213		
33،34:أبو السائب المخزومي	63-65	32:القاضي وصاحب اليمين	231-332		
35:أبو ريحانة	67-68	33: الأعمى وجارية	234-335		
36،37:ابن عتيق	73-74	34،35:الجاحظ	240-242		
38←40:بديح	74-76	36:المنتصر وأحد رجاله	248		
41،42:إبراهيم الحراني	80-82	37:الهاشمي وابن القاسم	251-252		

43:الغلام وصاحبه	86	38:ابن مخلد وابن سليمان	252		
44←47:أشعب الطماع	90-92	39:الرشيد والموصلي	275-276		
48:ابن عبد السلام	100-101	40:عمر بن الخطاب والخطيئة	321-323		
50،49:أبو العبر	105-107	41: أبو العيناء والمتوكل	327-328		
51:الحجاج ورجل من الشام	108-109	42←46:ابن الرومي	337-342		
52:العراقي والشامي	109-110	47:هارون وابن عبد الملك	349-350		
53: ثمامة والقاضي	114	48: سقراط	352-353		
54:هارون الرشيد	114-115	49:ابن طولون والمتجسس	356		
55:أبو هذيل	115-116	50:المبحث وسيف الدولة	361-362		
57،56:أبو دلامة	126-127	51:ابن يزيد وخالد	362-363		
58:ابن عبدل	128	52: المهلبي والصوفي	379-380		
60،59: المنصور	129-130	53:زينة بنت المهلبي	384-385		
61←69:أبو دلامة	134-141	54: القسري وأعرابي	387-388		
71،70:الجماز	142	55:ابن طوق وأعرابي	388-389		
72:ابن الجهم	147	56: لبيد وعمه	389-390		

73:المتوكل	150	57: مقتل بشار	393-399		
74:ثمامة والمأمون	150-151				
75:المهدي والرجل	152-153				
76:ابن عينة	153				
77:التاجر وابنه	168-169				
78:الغاضري والقرشي	185				
79:بهلول والخياط	197				
81،80:أبو نواس	199-200				
83،82:مزيد المدني	211-212				
84: المعتضد والنديم	216-217				
85: عبادة والمتوكل	217-218				
86: كثير وحمقه	224				
87: ثمامة والشيخ	224				
88: سعيد الحربي	232				
89: أبو العالية والفتى	237				
90: الواثق وابن وهب	238-239				
91:معاوية والطحان	240				
92:أبو الأسود الدؤلي	243-244				
93:ابن الخصيب	249-250				
94:ابن مخلد وكاتب	250				

95:الأعرابي والكلب	254-255				
96:اليزيدي وابن نصر	260-261				
97: أبو العيناء والمرزبان	265-266				
98،99:سبويه	266-267				
100:الأخشيدي	267-268				
101:أبو العبر	269-270				
102:عجوز وشابة	270-271				
103:ابن منصور	271-273				
104:صبي يتعلم الهجاء	274				
105:المخزومي وأعرابي	274				
106:الألكن والجندي	278-279				
107:ابن جعفر والمخنث	281-282				
108:أعرابي في عرس	283-284				
109:الرجل واللص	290-291				
110←115:الشق	314-319				
116:الأعرابية والصلاة	319				

117:الأعرابي وأبنائه	321				
118:أبو العيناء والمتوكل	327-329				
119←121:ابن الرومي	338-339				
112،123: المتوكل	344-345				
124،125:ابن الزيات	345-347				
126:ابن حفصة	354-355				
127:ابن طاهر	355-356				
128: رجل وزوجته	358-359				
129:عمر بن ربيعة	360-361				
130:إبراهيم الموصلي	368-370				
131:المتوكل وقطاطة	389				
132:المرأة وزوجها	390-391				
133←135:بشار بن برد	392-399				
136: الواعظ والخباز	400				
137،138:الحمصي	400-401				
139:أبو العيناء وابن خاقان	402-403				
140:أبو عباد والمأمون	408-410				

141:الأعبش		-411 412				
142:أشعب والقطيفة		413				
143:الرجل وصديقه		413				
144:أشعب وبعض الولاة		-413 414				
145:الملك والمساكين		414				
146:عائشة بنت سعد		-416 417				
المجموع	**146**	**-**	**57**	**-**	**6**	**-**

جدول (14): أنواع الخبر في كتاب جمع الجواهر للحصري

نلاحظ من خلال الجدول أن " الجمع " يشترك مع " المصون " في خبرين هما: خ(1) من أخبار الهوى وترتيبه في المصون كان خ(2) وخ(31) من أخبار الظرف وترتيبه في المصون كان خ (9)، مما يدل على اختلاف موضوع الكتابين في حين أن هناك أخبارا كثيرة مشتركة بين الجمع والزهر، تتعلق بشخصيات اشتهرت بنوادر الكلام حيث يرتفع العدد حينما يتعلق الأمر بإبراز الجانب المرح الذي تميزت به الشخصية ومن أمثلة ذلك (أبو العيناء، وأشعب، والجماز، وأبو دلامة، وثمامة بن أشرس، وابن الرومي، وأبو نواس، وبشار بن برد، وأبو العبر ....إلخ) ، وهو والدافع الذي رجحناه سابقا حول تأليف الكتاب، وهو ما يوضح أيضا أن الحصري يهتم فيه بجمع أكبر عدد من أخبار الملح بهدف تسلية القارئ.

واستنتجنا كذلك عدم اشتراك الجمع مع العمدة في أي الأخبار، في حين يشترك مع الممتع في خبرين من أخبار الطرف هما: خ(51، 74) وترتيبها في الممتع كان خ (31، 33).

خاتمة الفصل:

بعد هذا الإيغال في تحديد مدونة البحث، نلاحظ أننا اشتغلنا في هذا البحث على مدونة امتدت فيها حركة مهمة من حركة التأليف المغربية عبر مختلف مراحل فترة البحث، توجهت للعناية بجمع أخبار العباد، التي شملت في امتدادها مساحات جغرافيا مشرقية ومغربية، أضاءت تنوعا حضاريا كشف في جانب أساسي منه اهتمام الكتاب بنشر حياة العربي وتجاربه وهي تنعكس على مرآة الخبر لتطبع في ذاكرة الإنسان المغربي ضمن رصيد خبراته وتجليات معارفه.

1- ولطول العناوين التي اتخذها المؤلفون المغاربة لكتبهم خاصة تلك التي هيمن فيها الميسم الخبري الاسمي؛ مغزى واضح ينبئ أن هناك تداخلا بين البنية التركيبية، والبنية الدلالية، فالطول يؤكد أن هناك عنوان رئيسا هو النواة التي تبئر انتباه القارئ، وتأتي الاستطرادات بهيئة سجعية لتشكل المفتاح الأول للمؤلف لفتح أفق القارئ على هؤلاء الذين يكونون ذواتا لموضوع سرد الأخبار التي تحويها مؤلفاتهم « قد أسست العنونة فيها على الطبيعة التجريبية وجهت هذه المؤلفات وأحكمت مجال عملها، لتنظر إلى ذواتها في معاينة كنائية واصفة مع أول مكونات عنواناتها، وتتحول بعدئذ إلى موضوعاتها بما يوجبه السجع من توافق أو تقارب في الوزن والقافية تكتمل به مؤديات موضوعاتها وتحافظ على تركيبها»[1].

وأما البنية الدلالية للعناوين، التي اعتمدت عليها كتب المجمعات الأدبية والشروح، والآثار المستقلة فقد حرصت كل هذه المدونات على التخير الدقيق للعنوان والمتكون غالبا من أربع كلمات تجاور دلالاتها بين مدارات الحكي وأجناسه، فمحور الحكي قد يكون عاما (الأدب) أو خاصا (الظرف، والطرف، والهوى...)، وقد يكون فئويا (المتصوفة،

[1]-لؤي حمزة عباس، سلوان السرد دراسة في كتاب (سلوان المطاع في عدوان الأتباع) لابن ظفر الصقلي، الموسوعة الثقافية عدد (60)، دار الشؤن الثقافية، بغداد، 2008م، ص12.

والأئمة، والعلماء...)، فالبنية الدلالية تنعكس على نسيج الأخبار ومضمونها « باعتباره نواة ومركزا لمجموع الأفكار وعليه فالعنوان مرآة مصغرة لكل النسيج النصي تعكس الأفكار والخلجات المتخلقة»[1]، فالعنوان الرئيس هو بنية دلالية شاملة كلية تتوازى وتتعالق مع بنيات وأنساق مضمون الأخبار المكونة للكتاب، حيث يفهم من البنية التركيبية لعناوين المدونة وما اتسمت به من خصائص دلالية اتساع مجال امتداد الخطاب الخبري وحضور أنواعه في مواضيع محورية وعينات اجتماعية مختلفة.

2- وقد عملت الدراسة إلى تقسيم المدونة قسمين: مصادر الأخبار المبثوثة والمستقلة: وما تم بسطه من تعريف بالكتب المشكلة لكل قسم مع تحديد دقيق لمجموع الأخبار الأدبية التي تضمنتها جعلنا نقر بأن المرحلة الأولى: تبدأ بكتب الأدب ، وكتب الأخبار المستقلة، لكونها أول ما وصل إلينا من مؤلفات تمثل المرحلة الأولى من التأليف المغربي الأدبي، التي ظهرت في عصر الازدهار الثقافي الذي عرفته مدرسة القيروان الأولى في العصر الصنهاجي، فاستطاعت الدراسة اعتمادا على هذه المصادر استخلاص رصيدا مهما من الأخبار الأدبية التي تمحورت مضامينها حول موضوعات خاصة بالأدب شكلت مدونة البحث، حيث وجد المؤلفون من خلال جمعها في مدوناتهم مجالا لنشر ما في صدورهم من أخبار تتعلق بشخصيات مشرقية بين طلاب العلم من المغاربة حديثي العهد باللسان العربي، وهي أخبار اعتمدوا في جمعها على كتب مشرقية مشهورة.

أما المرحلة الثانية من التأليف المغربي الأدبي فتتمثل أصداء منه فيما تردد داخل كتب التراجم والسير وكتب التاريخ من أخبار- بالرغم من أن القاضي النعمان ألف كتابه في الفترة الزمنية نفسها للكتب السابقة – أدبية اعتمدت عليها مدونة البحث في تشكيلها؛ فهي تمثل على نحو خاص بما حملته كتبها من متون المحكي القصير مثلت البداية في

[1]- شعيب حليفى، هوية العلامات وبناء التأويل، المجلس الأعلى للثقافة القاهرةمصر، ط1، 2004م، ص11.

التشكيل السردي لنصوص الأخبار الخاصة بشخصيات مغربية احتلت مكانة اعتبارية داخل المجتمع المغربي في فترة البحث (زهاد، علماء، أئمة، سلاطين).

3- اقتضت عملية استخراج الأخبار الأدبية تنويع الآثار بحسب المراحل التي مرت بها الكتابة الأدبية المغربية، لأنها دراسة زمنية تطورية- فصلت الأخبار بالأجناس السردية التي تضمنتها تتطور وتتعقد بتطور تقاليد الكتابة القصصية المغربية التي عرفتها مراحلها لذلك استندنا في دراستنا إلى تنويع المصادر وفق مراعاة العوامل الآتية:

1- عامل زمني: تنويع الآثار السردية وفقا لما يقتضه طابع الضياع الذي طبع متون الأدب المغربي في فترة البحث من جهة ، ومن جهة أخرى فإن طابع المركزية المشرقية الذي طغى على الخبر القصصي داخل مصادر الأدب، ومصادر الأخبار المستقلة التي ألفها المؤلفون المغاربة في المراحل الأولى لفترة البحث جعلنا نوسع المدونة ، لتطال أشكال سردية متنوعة وظفت الخبر داخل متونها.

2-عامل نظري: إذا كنا في العنصر الأول ونحن نبحث في مفهوم الخبر الأدبي القصصي، وتحديد أشكاله وأنواعه احتجنا إلى تنويع النصوص الخبرية، حيث اعتمدت عملية التحليل على أخبار الشخصيات المشرقية والمغربية ذلك أن إبراز سمة القصصية في المؤلفات المغربية تحتاج إلى نماذج من جميع المصادر التي تتضمن هذا العنصر القصصي أو ذاك، وهكذا فقد توصلنا إلى مفاهيم تبرز سمات الخبر القصصي وأنواعه في مختلف المراحل التي مرت بها الكتابة الخبرية خلال فترة البحث.

3- عامل تصنيفي: حاولنا في العنصر الثاني تصنيف الخبر الأدبي القصصي داخل المصادر التي اعتمدت عليها مدونة البحث إلى أنواع بحسب ما توصلنا إليه في الباب الأول من مفاهيم دقيقة حددت الخبر القصصي وأنواعه الثلاثة (النادرة، والمنقبة، والكرامة).

4-عامل نصي: يمثل هذا العامل مستندا جوهريا في هذا البحث ؛ فهو يتعلق بالهدف العام الذي يسعى في تحقيقه وهو إعادة الاعتبار للأدب المغربي الذي لقي الكثير من الإهمال والتهميش في الدراسات العربية، ولذلك فقد حاولنا أن نعيد استغلال أنواع الخبر القصصي في المدونة بحسب البيئة المغربية وموضوعاتها حيث ستقتصر الدراسة في الفصول اللاحقة على توظيف المصادر التي اهتمت بجمع أخبار ترتبط بشخصيات مغربية من مختلف الفئات الاجتماعية (دينية، وعلمية، وسياسية)، وتستمد موضوعاتها من البيئة والواقع المغربي فمضامينها إذا تختلف وتتنوع كما تتواشج لذلك فإننا لن نهتم بدراسة كل مصدر دراسة وافية بل سنحاول تحديد السمات البنيوية المهيمنة داخل كل نوع من أنواع الخبر لننطلق منها لتحديد عينات خبرية مشتركة بين مختلف مصادر الأخبار المغربية وذلك بهدف الوقوف على أهم العناصر والمميزات البنيوية التي تسهم بها في تطوير أدبية الخبر القصصي، تم استغلالها ضمن الأطر الخطابية التي بدت لنا ملائمة لدراسة الخبر المغربي في بنيته السردية والحكائية.

الفصل الثاني: البنية الحكائية للخبر

2- البنية الحكائية للخبر

1- تأطير:

تعتمد الدراسات الغربية الحديثة التي جعلت " الحكي" جزءا أساسيا من اهتمامها في تصورها " المادة الحكائية " نفس التصورات الرائجة بصفة خاصة لدى الشكلانين الروس في نطاق تحليلهم الشكلي لجنس القصص الذي ميزوا فيه جانبين في القصة هما: المتن الحكائي في مقابل المبنى الحكائي، وربطوا مفهوم المتن الحكائي بمفهوم المادة الحكائية، والمبنى الحكائي بمفهوم البناء القصصي، ربطا نجد جذوره فيما قدموه من نظريات تأسيسية بصدد الدراسات السردية، حيث اعتبروا كلا من المادة الحكائية، والبناء القصصي مركبين أساسيين للقصص يعرفهما توماشفسكي بقوله: « المادة الحكائية هي مجموع الأحداث المرتبط بعضها ببعض، وهي تلك التي تساق إلينا من خلال الأثر القصصي، أما البناء القصصي للأحداث المذكورة في النص فقائم بالسرد وفيه ولا يتصور خارج نطاق صياغته»[1] ويعرفها إيخنباوم أنها « عبارة عن المادة الأولية المكونة من الأحداث التي تستخدم لتشكيل بناء القصة »[2]

وتبعا لذلك أصبح " الحدث " أهم عناصر السرد التي تتشكل منها المادة الحكائية للنصوص السردية، والحدث في مفهومه البسيط يعنى« الانتقال من حالة إلى أخرى في قصة ما، ولا قوام للحكاية إلا بتتابع الأحداث واقعية كانت أم متخيلة، وما ينشأ بينها من ضروب التسلسل[3]»، فالحدث هو« مجموعة من الوقائع الجزئية مرتبطة ومنظمة على

[1]- محمد القاضي، معجم السرديات، ص 363.

[2]- ن م، ن ص.

[3]- ن م، ص 145.

نحو خاص»[1]، ومن الجدير الإشارة إلى أن أغلب السردين تخلوا عن استعمال كلمة (الحدث) واستعاضوا عنها بكلمة (الفعل)، والفعل عندهم هو مجموع الأحداث المترابطة بحسب التعاقب الزمني والتراتب السببي[2]، فالحدث « فعل الشخصية و حركتها داخل القصة و هو يرتبط بوشائج قوية مع بقية الأحداث الفنية الأخرى، ولا سيما الشخصية، والحدث داخل العمل القصصي لا يطابق الحدث في واقع الحياة، صحيح أنه يشبهه في خطوطه العامة ولكن عنصر الخيال يدخل طرفا مهما في عملية الخلق الفني... »[3]

وبارتباط "الحدث " بالفعل (الوظيفة) ظهرت دراسة بروب في كتابه « مرفولوجية القصة»[4]،الذي تعرف فيه من خلال تحليل نماذج من الحكاية الشعبية الروسية على بنية تركيبها الحدثي فقد لاحظ « بأن ما يتغير في الحكايات هو أسماء الشخصيات وصفاتها، بينما أفعالها أو وظائفها فتظل ثابتة»[5]، ومن ثم فقد حصر وظائف الحكايات بأكملها في إحدى وثلاثين وظيفة [6]، فتمكن بذلك من صياغة نموذج تركيبي لبنيتها الحكائية المشكل للأرضية التي استندت عليها جل الدراسات الحديثة من أجل تقديم صياغات ونماذج في السرود القصصية المختلفة من قديم الأدب وحديثه، فتعددت مناهج مقاربة البنية الحكائية ولعل من أبرزها (بارت، وتودوروف، وكريماص، وبريمون) واستطاعت هذه الدراسات تحديد مجموعة من المصطلحات وهي: (المتتالية، والوظيفة، والحوافز) بمثابة مقومات وعناصر تعتمد عليها لصياغة نماذج تركيبية لوصف البنية الحكائية واستخلاص قواعدها.

---

[1]- أحمد الخفاجي، المصطلح السردي، مؤسسة دار الصادق الثقافية، دار صفاء للنشر و التوزيع، عمان- الأردن، ط1، 2012م، ص 246.

[2]- محمد القاضي، معجم السرديات، ص 145.

[3]- أحمد الخفاجي، ، المصطلح السردي، ص 246.

[4]-ڤلادمير بروب، مرفولوجيا القصة، تر: عبد الكريم حسن وسميرة بن عمو، شراع للدراسات والنشر و التوزيع، دمشق سوريا، ط1، 1996م

[5]- ن م، ص 37.

[6]- ن م، ص 81.

يظهر من خلال هذا العرض المقتضب لأهم التصورات الغربية التي حاول صياغتها ثلة من الباحثين في مقاربتهم حكائية الأعمال السردية أن اهتمامهم كان مختزلا في تحديد مجموعة من القوانين و المقومات التي تتحكم في نمو الفعل أو الوظيفة بهدف صياغة خطاطة تتحكم في نمو البنية الحكائية وإنتاج المعنى، وبالرغم من اختلافاتها الجوهرية فقد حاولت مجموعة من الدراسات السردية العربية الاستفادة منها جميعا لا سيما أنها لا تتواجه فيما بينها و إنما تتنافس، و توجد في الوقت الراهن في حالة تطور مستمر .

2- السرد العربي القديم والبنية الحكائية:

في التراث العربي أشكال مختلفة من السرد القصصي، فالسرد قديم قدم الإنسان لأنه نابع من رغبته في محاكاة واقعه، ونقل الحقائق المتمثلة في أفعال الناس و علاقة بعضهم ببعض من ناحية، و علاقتهم بالقوى المتحكمة فيهم من ناحية أخرى[1]، بالرغم من ذلك ظلت الكثير من أشكاله مهمشة و بعيدة عن اهتمام الدراسات العربية الحديثة باعتبارها بنية حكائية متعددة الجوانب فهناك قيود و ضعت على السرد أيام النهضة العربية و أدت إلى إقصاء جانب هام منه إذ لم يكن السرد مقبولا في الثقافة الكلاسيكية إلا عندما يشتمل على حكمة مثل: كليلة و دمنة أو عبرة كالسرد التاريخيأو صورة بلاغية ترفع من قدره كالمقامات[2].

ثم حاولت مجموعة من الدراسات السردية الحديثة مواكبة النظريات الغربية في مقاربتها للبنية الحكائية من خلال محاولتها استيعاب نظرياتها وتطبيقها على التراث السردي بهدف إعادة الاعتبار لبعض أنواعه القصصية، وسأنطلق من محاولة سعيد قطين في كتابه " قال الراوي " التي تبدو لي رائدة ومهمة فيما قدمته من مجهود تنظيري في مقاربة البنية الحكائية لنص السيرة الشعبية حيث اهتم فيها بالحكاية كمفهوم مركزي

[1]- سعد جبار الخبر في الأدب العربي، ص 144.

[2]- عبد الفتاح كيليطو، الحكاية و التأويل، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1999م، ص 5.

ويعتبرها«الطابع الذي تشترك فيه مختلف الأنواع التي تندرج ضمن السرد إنها العنصر الثابت الذي ينظم أي كلام يوسم بميسمها، ويلحقه بدائرة جنس السرد. بغض النظر عن الزمان والمكان»[1]، ويكون الاشتغال المنهجي قائما على سرديات القصة أو سرديات المادة الحكائية التي تضم «مختلف ما تتشكل منه البنيات الحكائية»[2] ثم سعى إلى تأسيس تصور نظري بفعل تأثره ببارت وتودروف حيث لاحظ أن سرديات القصة تهتم بالحدث الذي يتشكل من فعل مركزي (فكرة مركزية) يدور حولها النص السردي (القصة) (المحتوى)، واعتبره بمثابة " البنية المركزية المتحكمة في توليد السرد، وفي ظل هذا التصور عمل على رسم خطاطة عامة اعتبرها تتميز بالكفاية الإجرائية في مقاربة كل بنية حكائية حصرها على صعيد الأحداث (الأفعال) في: (الوظيفة المركزية (الدعوى)، الوظائف الأساسية (الأوان، والقرار، والنفاذ)).

لقد هدف الباحث وهو يدرس سرديات القصة إلى رصد حدود السرد و بنياته كما تتجلى في نص مكتمل (السيرة الشعبية) استوعبه استيعابا تاما وتم اختزاله في بنيات (مركزية، أساسية، فرعية) ويصف ذلك قائلا:« وصلنا من خلال تحليل البنية الكبرى (نص السيرة) إلى صياغه خطاطة تنسحب على كل البنيات الفعلية (الوظائف) من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى ، أي من أكبر وحدة حكائية إلى المقطع الحكائي »[3]، فالتأسيس القائم على ما هو مكتمل غالبا ما يحظى بالتوفيق و النجاح كما هو الحال في عمل بروب مثلا، وهو ما أعطى لهذا التصور وزنه المتميز، حيث حاولت الدراسات السردية المغربية التي اهتمت بالخبر الاستفادة من اقتراحاته حول البنية الحكائية فمثل كتابه " الكلام والخبر " امتدادا لـ" قال الراوي "، فواصل من خلاله يقطين البحث في

[1]- سعيد يقطين، قال الراوي(البنيات الحكائية في السيرة الشعبية)، المركز الثقافي المغرب،لبنان، ط1،1997م،ص12.

[2]- سعيد جبار، الخير في السرد العربي، ص 150.

[3]- سعيد يقطين، قال الراوي، ص 317.

إشكالية " البنية الحكائية" في السرد العربي القديم لتعميق التصورات النظرية حولها باعتماد انتظامات البنية الحكائية لجنس السيرة بما يعين أشكالها النصية و الخطابية في علاقتها بباقي الأنواع السردية المجاورة ومن أهمها الخبر « لا جرم إذن أن يستند مبنى الاستدلال النقدي في الكتاب على منطلقات نظرية، وخطوات تحليلية، تصل العناصر التكوينية للنوع المفرد – وهو في هذه الحال "السيرة الشعبية" بالبنية الكلامية الحاضنة، وتقاليدها التأليفية وبما يتفرع عن أصلها الجامع من تخصيص جنسي (السرد/الخبر)، وتربط كل ذلك بالتجليات النصية المفردة، بالوسيلة التي تجلي تفاعلات النص المكتمل بخبرات الحاضر الممتد »[1]، أما سعيد جبار في دراسته، فحاول الانطلاق من مفهوم " البنية الحكائية "عند يقطين مستثمرا منها كل ما من شأنه أن يعينه لتقديم نمذجة لأنواع الخبر البسيط التي اختارها من مؤلفات ابن الجوزي المختلفة، وتوصل إلى أن نمو الأحداث في الخبر البسيط يكون أفقيا صرفا واعتبره بمثابة " البنية الحكائية " الأصل في حين قد تتجاوز هذه البنية الخبر لتنمو عموديا فتتفرع عنها أنواع سردية مركبة، ويوضح ذلك قائلا: « معنى النمو الأفقي الصرف في الخبر من خلال النماذج التي قدمناها أن المرور من وظيفة إلى أخرى لا يتعدى في بعض الأحيان جملة واحدة أو جملتين، و عليه تأتي الوظيفة الموالية مباشرة بعد السابقة عليها، في حين نجد في الأنواع المركبة أن الفاصل بين الوظيفة والأخرى قد يستغرق الصفحات المتعددة وهو ما سميناه النمو العمودي، ويكفي أن نشير إلى الطريقة التي قدم بها سعيد يقطين البنية الحكائية في السيرة الشعبية في كتابه " قال الراوي " لنتعرف على الفرق بين النمو الأفقي والعمودي »، وفي السياق نفسه نجد أن محمد القاضي في دراسته اتبع التصور الغربي نفسه للبنية الحكائية الذي تبناه يقطين مقتصرا على مفهوم الوظيفة عند بروب حيث لاحظ أن الخبر المركب بنية حكائية تحمل في جوهرها قوة التطور أكثر في اتجاه السيرة الشعبية واستطاع أن

[1]- شرف الدين ماجدولين، ترويض الحكاية، الدار العربية للعلوم، لبنان، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2007م، ص20، ص21.

يقدم نموذجا لهذه البنية «هي الوظائف الرئيسية للرواية العذرية كما وردت في كتاب " الأغاني " أردنا من خلالها أن نبين كيف أصبحت الأخبار تخضع في ظهورها لنظام محدد ...إنها تتصل بموضوع واحد هو الحب، وقد أسلمنا النظر في هذه النصوص أن نظام الأخبار فيها محدد بجملة من الوظائف أحصينا منها خمس عشرة وظيفة»[1]، وأهم ما ميز هذا النموذج أنه لم يتسع ليشمل كل أنواع الخبر الواردة في المتن المشتغل عليه ولذلك بقية النتائج التي توصل إليها نسبية.

إن ترهين البحث في " البنية الحكائية " عند السردين العرب باعتبارها الجوهر الثابت الذي تتشكل منه كل السرود الإنسانية واقعية كانت أو تخييلية أو تخيلية، فهل يمكن النظر انطلاقا من هذا التصور إلى " البنية الحكائية " أنها المفهوم السردي الوحيد الذي يمكن أن يصور لنا محتوى الأخبار العربية أو الإنسانية؟ وهل بالإمكان أن نضع خطاطة نموذجية عامة تستوعب الأنواع الخبرية التي حددناها في المدونة المغربية ؟ ثم ما موقع الأشكال الخبرية الموجزة أو الممتدة ضمن هذا التصور الإجرائي للبنية الحكائية؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، سنموقع أنفسنا في الإطار الذي سنشتغل به ونقول: استنادا على مفهوم البنية الحكائية سنحاول تحليل مادة الحكي للأخبار القصصية في صورتها الموجزة و الممتدة التي حددناها قصد معاينة بنياته الحكائية المختلفة، وفي تأسيس هذا التحليل سنراعي جانبين أساسيين:

1- في الجانب الأول: سنراعي كل النظريات السردية التي اطلعنا عليها سواء في الدراسات الغربية أو في المحاولات العربية التي قاربت تجليات البنية الحكائية في النص السردي العربي و راعت في أغلب الأحيان خصوصياته، فلا يمكننا أن ننشئ تصورا أو نموذجا من فراغ، وهو ما يجعلنا نقر أننا لن نلتزم تصورا في حد ذاته ونطبقه بحرفيته،

[1]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 478.

لأنه قد لا يلائم طبيعة النصوص التي نشتغل بها، إن هذا التراكم النظري يتظافر ليعرفنا على الطرق والوسائل التي يمكن بواسطتها أن نتأمل النصوص الخبرية و نستوعبها لنعيد بناءها وفق قوالب نموذجية خاصة.

2- في الجانب الثاني : يمكن اعتبار عنصر الحكائية في الخبر الأدبي القصصي هو مشاركة كل مكونات السرد في بناء حدث يتجلى فيه السرد وهو يمارس فعل الحكي حيث يرى سعيد يقطين أن الحكائية هي مقولة كلية ثابتة تضم شبكة من المقولات الفرعية، وكلما توفرت في أي عمل – وبأية صورة – أمكننا وصف هذا العمل بأنه ينتمي إلى جنس السرد .

وتتحقق الحكائية في الكلام من خلال تحقق العناصر الآتية :

- فعل أو حدث قابل للحكي

- فاعل أو عامل يضطلع بدور ما في الفعل

- زمان الفعل

-مكانه و فضائه[1].

ومنه «فالحكائية من ثوابت الجنس السرد وتنحصر في ذلك المنطق السردي الذي يحكم بناء الأحداث وتعالقها»[2] ولذلك سنجعل من البنية الحكائية مجالا خصبا للدراسة والاستقصاء باعتبار أن البحث فيها يحتاج إلى المزيد من الجهود والمساهمات لذلك سنعتمد على المتن الذي سميناه الأخبار الأدبية القصصية (النادرة، والمنقبة، والكرامة) في المتن الذي سنشتغل عليه، فهي موضوع التأمل الذي سيمكننا من تحديد البنيات

[1]- سعيد يقطين، قال الراوي، ص 19.

[2]- سعيد جبار، التوالد السردي، ص 34.

المتشابهة والمتكررة في هذه الأخبار بمختلف موضوعاتها وأشكالها ومقاصدها حيث يمكن اعتبار أن نسقية الحدث الحكائي هي الجوهر الثابت الذي يوحد بين هذه الأنواع الخبرية القديمة[1].

ومنه فالتحليل الذي سنقدمه سيكون مرتبطا أكثر بالخبر الأدبي القصصي، وقد نلتقي مع بعض التصورات السابقة وقد نختلف معها.

3- بنية الخبر الحكائية:

بتأطيرنا للخبر كبنية سردية بسيطة أو مركبة يطبعها الانسجام والإيجاز أو الامتداد، وتجعل بؤرتها في الحدث دون غيره من العناصر الأخرى التي يحتويها السرد نكون قد أشرنا على عنصر ثابت وملازم للخبر وهو الحدث الرئيس أو الفعل الرئيس تلك النواة التي تشكل البؤرة السردية[2] ، فكل الأنواع الخبرية تلتقي مع بعضها في هذه الخاصية إذ أن غياب الحدث أوالفعل البؤرة يجعل السرد ممتنعا وغالبا ما يكون في البؤرة أو المركز فعل واحد مركزي يتم التركيز أو التشديد عليه ذلك الذي يبرز لنا حفرة السرد ونعني بها « نقطة البدء مثل " درجة الصفر " فهي هنا تمثل النقطة التي تنطلق منها و التي تحدد بقية عناصر العمل الحكائي وتعطيها ماهيتها و أهميتها من خلال علاقتها به، لما تتمتع به هذه النقطة أي درجة الصفر من الثبات فهي كالمعيار أو الميزان إن صح التعبير »[3]. فالبنية الحكائية تعرض من خلال فعل واحد متفرد يشكل بؤرة للسرد، ويمكن أن يجزأ إلى

---

[1]- ن م ، ن ص.

[2]- «يرجع استعمال هذا المصطلح في مجال الدراسات السردية إلى كل من كلينتبروكس و روبرت وران و يعنيان به وجهة نظر الشخصية ...فكل ما يسرد ويوصف نابع من هذه الخصية ملون بوجهة نظرها، حتى أن جونات صاغ مصطلحه المركزي " التبئير " من مصطلح " بؤرة السرد "، أنظر محمد القاضي معجم السرديات مرجع سابق ص49. والتبئير هو انتقاء للمعلومة السردية أداته بؤرة واقعة في مكان ما تحدد إطار الرؤية عند الراوي وتحصره، أنظر ن م،ص65.

[3]- أحمد الخفاجي، المصطلح السردي في النقد، هامش**، ص 283.

مراحل وجيزة و مقتضبة ترتبط بدايته بنهايته، أو نقول يتوزع في مجموعة من الوظائف التي تجليه في مراحله المختلفة.

إن هذا الفعل البؤرة الذي نتحدث عنه ينمو أفقيا في الخبر الموجز، كما ينمو عموديا في الخبر الممتد لأن بنية الخبر البسيطة أو المركبة تجعله على مستوى الخطاب وجيزا أو ممتدا، ولاحظنا أن البنية الموجزة هي التي ميزت الخبر في الثقافة المغربية منذ البداية وعبر قرون متلاحقة لذلك كان حظ الأخبار الموجزة في المدونة المغربية كبيرا «لأن الأخبار تنزع من حيث بنيتها إلى البساطة إذ هي في أكثر الأحيان كلام ينقل كلاما لذلك كان حظ الأخبار المركبة [الممتعة] ضئيلا»[1]، وهكذا فالسرد الخبري يركز على الفعل و تحولاته أكثر من الشخصيات أو الفضاءات لذلك « وجدنا الأخبار الأدبية تنزع إلى تقديم الوظائف على الشخصيات، فما يقال أهم من القائل، وما يحدث أهم من الفاعل»[2]، فالخبر في بنيته البسيطة أو المركبة لا يغدو أن يكون مجموعة من الوظائف المتتالية التي تختزل المراحل الأساسية للسيرورة الحكائية للحدث المركزي الذي يثيره الخبر، ولعل ذلك من الدوافع التي جعلت يقطين يصف البنية الحكائية للسرد العربي انطلاقا من "الوظيفة المركزية" التي يعتبرها بمثابة المبتدأ و المادة الحكائية الملموسة بمثابة الجملة الفعلية المتضمنة للخبر الذي يتم بواسطته الإخبار عن المبتدأ»[3].

ويمكن أن نؤشر بامتياز على المجهودات التي قدمها يقطين في هذا المنطلق الجديد "الوظيفة المركزية " وما تبعه من مصطلحات حيث لاحظ وهو يعيد اختزال الوظائف التوزيعية و الاندماجية التي قدمها بارت أن الوظيفة المركزية تشكل البنية الأساسية للمتون الحكائية العربية القديمة، وتتجلى من فعل حكائي مركزي يتطور في اتجاهين:

[1]-محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 406.

[2]- ن م، ن ص.

[3]- سعيد يقطين، قال الراوي، ص 35.

أفقي يتولد عنه الوظائف الأساسية، وعمودي يتولد عنه الوظائف الفرعية، وتظل العلاقة بين هذه الوظائف متينة إذ الواحدة تحيل على الأخرى في نوع من التحالف المنطقي و الدلالي، فالفعل الأول الذي ينفتح عليه الحكي هو فعل اختياري يشكل بؤرة الحكي بحيث ما يترتب عنه من أفعال لاحقة تصبح في مجملها أفعالا إجبارية تظل بصورة أو بأخرى متصلة به وتسير بالحكي نحو نهاية معينة.

إن هذه المفاهيم جديرة بالتبني و التطبيق عندما نضع الخبر موضع فحص و تحليل قصد معاينة بنياته الحكائية المختلفة و ما تزخر به من بؤر سردية لمختلف الأفعال التي يتشكل منها الحدث، حيث نجدها تقترب من هذه الوظائف التي يضعها يقطين فكل خبر قصصي «كيفما كان نوعه تحكمه وظيفة مركزية فالراوي قبل أن يقوم بخلق شخصياته و أفعالها ومكان تواجدها وزمنها ينطلق من فكرة معينة يريد إبلاغها، هذه الفكرة يمكن تسميتها على غرار السيميوطيقيين بـــ " المحتوى " أي محتوى الرسالة التي يريد إيصالها إنها سابقة على القصة والخطاب معا »[1]، هذه الفكرة المركزية التي يدور حولها الخبر السرديأو (القصة) أو(الموضوع) ترادف البؤرة المركزية للسرد وهي:« الوظيفة المركزية التي تشكل الوظيفة الأم، أو النواة المركزية التي يمكن أن تبتدئ من فعل واحد (مركزي) أو من فعلين اثنين، هذا الفعل المركزي يشكل بؤرة الحكي، سواء كان ظاهرا أو مضمرا »[2].

هذا الفعل المركزي هو بؤرة الحكي الذي يكون البنية الكبرى للخبر« إذ كل الأفعال تظل بصورة أو بأخرى متصلة به »[3]، فتتولد عنه مجموعة من الأفعال تسمى بؤرا أساسية تتعالق أفقيا لتشكيل البنيات الحكائية الكبرى، و تترابط عموديا لتتمفصل إلى بؤر

[1]- سعيد يقطين، قال الراوي، ص 35.

[2]- ن م، ن ص .

[3]- ن م، ن ص .

فرعية فتتشكل البنيات الحكائية الصغرى وتظل مشدودة إلى بعضها بعض منطقيا ودلاليا حتى يتم الإنجاز النهائي للوظيفة المركزية التي تقوم عليها البؤرة المركزية للسرد الخبري[1].

إننا ونحن ندرك أن البؤرة المركزية يمكن أن تجزء إلى أكثر من وظيفة أو فعل، نفتح إمكانية توسيع هذا التصور وتعديله، انطلاقا من البنيات الحكائية التي نشتغل بها، وسعيا منا إلى الحفاظ على توازن النص المغربي، ومراعاة خصوصياته ارتأينا أن نكشف عن البؤر السردية التي ينطوي عليها هذا المتن الحكائي لمقاربة بنيته الحكائية وهي كالآتي:

1- البؤرة المركزية

ترتبط معظم أنواع الخبر ببؤرة سردية مركزية هي مركز جذب وتوجيه لمختلف البؤر السردية، إنها بذلك تمثل درجة الصفر التي تحدد لنا ما قبل ومابعد وما دامت تمثل أساس الحكي فقد أسميناها " المتعة " حيث لاحظنا من خلال وقوفنا الطويل والدائم على نصوص الخبر أنها تهدف بالدرجة الأولى إلى تحقيق الإمتاع، والمتعة كما تأكد لنا من المعاجم «متع مصدر أمتع يمتع إمتاعا فهو ممتع، ومتع الشيءمتوعا: بلغ في الجودة الغاية في بابه، وأمتع بالشيء وتمتع به واستمتع: دام له ما يستمده منه... وأمتعه بكذا: جعله ينتفع ويتلذذ به زمنا طويلا والإمتاع بالمال الانتفاع به»[2]، وذلك على فرض أن كل أنواع الخبر ستمتعنا وتنفعنا من خلال فعل الحكي الذي يستند على الانتفاع والإفادة بمنح

[1]- ن م ، ص 35، ص36.

[2]- لسان العرب، ج13، ص13، ص14، والمعجم الوسيط ج2، ص852.

المتعة في ابتنائه، والإمساك بمتعة النص معناه الإمساك بجوهره الذي يقوم عليه وبالإثارة التي تحدد مقاصد الخبر ونهايته[1].

فالخبر القصصي شأنه في ذلك شأن باقي الأعمال الحكائية يقوم على متعة محددة، إذ تشير نصوصه في الأغلب الأعم إلى أشخاص حقيقين اشتهروا بخاصية من الخصائص وتناقلت أخبارهم كتب التراجم و الأدب و التاريخ، وقد أراد المؤلف المغربي توصيل حقيقتهم إلى القراء، والإخبار عنهم ليس سوى نقل لحقيقتهم الماثلة في المجتمع الذي ينتمون إليه، وكأن الأمر لا يعدوأن يكون توصيلا للصفة المركزية التي ترسمها الكلمات لتعرفها وتخبر عنها، وربما لتثبت ما يشيع حولها من معلومات للتأثير في اعتقاد المتلقي وسلوكه حتى تصبح للصفة وظيفة تأثيرية تتولد عنها وظيفة إمتاعية تضاف إلى وظيفتها المرجعية أو الإخبارية حيث أصبح الخبر في هذه الحالة« عملا قوليا لا يهدف إلى الإعلام - وإن كان ذلك هدفه الأصلي الأول الذي منه ولد- و إنما يهدف إلى الإمتاع بنقل الأقوال المأثورة شعرا ونثرا وإدراجها في مساق سردي يثبت من خلاله الراوي سطوة الخطاب على الخبر وسيرورة الكلام المأثور في كلام فني سمته الاقتصاد والتركيز والبساطة»[2]، فتتحول البنية الحكائية إلى علامات مستقلة لا تشير إلى أشخاص محددين بقدر ما تشير إلى بؤرة مركزية للسرد" المتعة "تعرض من خلالها الحكاية، فهي بمثابة الصورة المجردة التي يسعى السارد إلى تجليتها باعتماد مختلف الصور الملموسة (شخصيات، وأفعال، وزمان، ومكان) التي تتجسد من خلالها، لذلك يمكن الذهاب إلى أن المادة الحكائية ليست سوى تجلية لصورة ذهنية مجردة يطالب التحليل بالكشف عنها من خلال اعتماده مختلف الصور الملموسة المقدمة[3].

[1]- سعيد يقطين، قال الراوي، ص35، ص36.

[2]- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص692.

[3]- سعيد يقطين، قال الراوي، ص36، ص37.

فالمتعة في الخبر القصصي تقوم على الإخبار بما سيقع من أحداث مقصودة بذاتها للإمتاع، فهي البؤرة المفعلة الأولى لحركة السرد، حركة تتقاطع فيها أفعال شخصية واحدة و محددة توجه مسار السرد، وهي بفعلها ذاك تصنع دائرة القص، تكون فيه الافتتاحية كما تكون الفعل الذي ينتهي إليه السرد إثارة، فيكتسب منها القص شكله الدائري، فالمتعة إذن بؤرة الإثارة في حاضر الحكي حيث انبثقت منها الأحداث معللة تعليلا سببيا مركبا.

ومن طبيعة المتعة في الخبر باعتبارها بؤرة مركزية للسرد الخبري كله عبر أنواعه المختلفة أن يكون لها قدر من الإشعاع يتوزع السرد على محاور القص المتنوعة بتنوع موضوعات الخبر، فهي بمثابة نواة تختزن جميع مواصفات الخبر الأدبي القصصي، فهي عند جميع الرواة واحدة وحدة الجنس الأصلي (الخبر) بأشكاله الموجزة و الممتدة، لكنها متعددة لكل واحد منهم بما تتخيله من بؤر سردية أساسية تتولد عنها، ليعمر بها فضاءات مختلف أنماط الحكي و مقاصده التي اختارها لبناء مختلف أنواع النصوص الخبرية في المدونة المغربية، فما هي طبيعة هذه البؤر الأساسية للسرد؟

2- البؤر الأساسية:

تتولد عن البؤرة المركزية بؤر أساسية للسرد أقل أهمية من المركزية، وتتألف من مجموع الوظائف (الأفعال) التي تتنامى من الفعل البؤرة كتعبير عن التعالق مع البؤرة المركزية للسرد لذلك فإن« روح كل وظيفة هي إنجاز القول بذرتها، وهو ما يتيح لها أن تبذر في السرد عنصرا سينضج فيما بعد على الصعيد نفسه أو بعيدا على صعيد آخر»[1]، وإذا كانت "المتعة " إيذانا بانطلاق السرد عند سارد الخبر فإن البؤر الأساسية -هي أيضا – عنده إيذانا بتحديد نوع الخبر الذي ستترتب عليه أحداث ممتعة، فتأتي مرتبطة بالبؤرة

[1]- رولان بارت، التحليل البنيوي للسرد، تر: حسن بحراوي وآخرون، مقال منشور ضمن كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الدار البيضاء، ط1، 1992م، ص 12.

المركزية، وعاملة على تحقيقها في مختلف أنواع الخبر، و لكي تكون بؤرة ما أساسية فإنه« يكفي أن يكون الفعل (الحكائي) الذي ترجع إليه، يفتح (و يبقى أو يغلق) خيارا منطقيا بالنسبة لباقي القصة (الخبر)، وباختصار يكفي أن يدشن أو ينهي ترددا أو شكا ما (عن المسار الذي ستأخذه القصة) »[1]، ولذلك فإنها آلية الكتابة الكثيفة للحكي كله تتكتل فيها جميع عناصر الخبر القصصي على شكل وحدات معنوية تتأولها دلالات موضوعاته المتعددة تبعا لتعدد مقام روايته (التندر، والمنقبة، والكرامة)، وباختلاف مقاصده لتتجسد بذلك بؤره الأساسية الأربعة التي تتشكل منها البنيات الحكائية الكبرى للنص الخبر ونصطلح عليها بـــ:

1- التعرف: تتحقق بالتعرف على تجليات فعلية باعتبارها مواقف تعبر عنها الشخصيات الحكائية فيتم التركيز في هذه البؤرة على أنماط تمثل صور الذكاء التي اتصفت بها شخصيات أخبار الظرف (أئمة، وملوك، وسلاطين، وعلماء، وأدباء...) صور تسود داخل المجتمع المغربي والعربي لتعبر عن سنن أدبية تحمل الفرد على الاتصاف بالقيم الحميدة ونبذ الخصال السيئة.

2- التفكه: يتم التركيز في هذه البؤرة على الصفات المستهجنة التي اتصفت بها شخصيات أخبار نوادر الطرف والهوى، والهدف من ذلك تحصيل ملاحة الفكاهة الوجدانية (المزاح والضحك) أو تحقيق المسرة الحسية (اللذة).

3- التدبر: تتحقق هذه البؤرة عبر التركيز على توجيه و تربية الفرد بتزويده بتجارب الآخرين والتعرف على قيمهم و فضائلهم من أجل السير على منوالهم أسوة بهم و تحضر هذه البؤرة في أخبار المناقب التي تهدف إلى تحقيق العبرة عن طريق التأثير في فكر

[1]- ن م، ص17.

المتلقي للتأمل والتفكير في الموعظة من خلال ربط مبادئها و مرتكزاتها بأحكام الشريعة والبرهنة على مطابقتها لمنطوق القرآن وهدى السنة.

4- الحيلة: الاعتماد على العجيب القائم على الانزياح عن كل ما يحتكم للواقع والمنطق، فالغرض في هذه البؤرة توظيف الحيلة للسيطرة على عقل وعاطفة المتلقي عن طريق الكرامة كبرهنة عن نجاح الولي في قهر الطبيعة والطباع باعتماده الخلوة و التعبد.

ونخلص إلى أن هذه البؤر تتصل اتصالا وثيقا بالبؤرة المركزية المتعة فهي عبارة عن متع أساسية ويمكننا ربط كل بؤرة بها فنقول: (متعة التعرف، ومتعة التفكه، ومتعة التدبر، ومتعة الحيلة) ويمكن تمثيلها على الشكل الآتي:

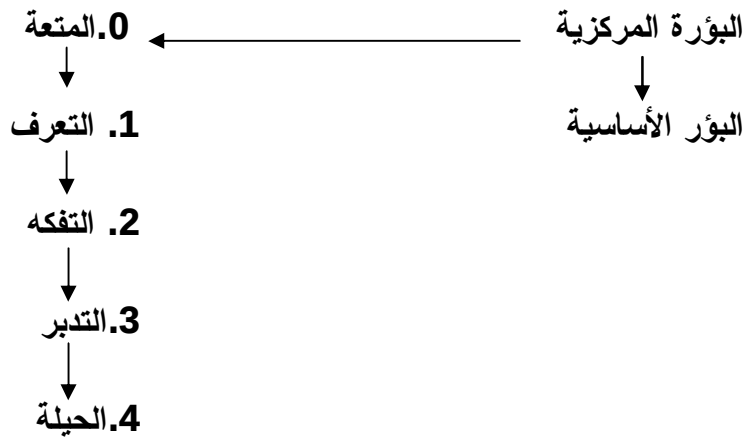

- البنية الكبرى لنصّوص الخبر -

إن البؤرة المركزية التي سنشتغل بها هنا تبقى مكونا معنويا ثابتا يعمل على تنظيم مختلف أنواع النصوص الخبرية و توجيه أحداثها ودلالتها، ولما كانت البنيات الحكائية الكبرى تتألف أفقيا من بؤر مركزية مؤطرة ليست بؤرة سردية لنوع محدد من الأخبار وإنما هي بؤرة للسرد الخبري عبر موضوعاته المتعددة حيث تتدرج تحتها مجموعة من البؤر الأساسية تتحكم بشكل أو بآخر في البناء الأفقي الذي تتشكل منه البنيات الحكائية على مستوى كل نوع من أنواع النصوص الخبرية حيث يمكن لكل واحدة من هذه البؤر

السردية الأساسية التي تشتغل على مستوى أفقي والتي تتمفصل داخل نصوصها إلى أربع بؤر: بؤرة بنيوية مركزية ترتبط بها ثلاث بؤر فرعية هي: (التعريف، والكشف، والنهاية)؛ فالتعريف هو الفعل الإخباري الأول الذي ينفتح عليه الحكي الخبري، وهو الكفيل بضمان سيرورة المسار السردي في الكشف عن شخصيات استثنائية تتميز بمميزات وسمات خاصة، فالكشف يؤدي إلى تدخل فعلي من لدن الشخصية المركزية في الخبر فيؤدي إلى إثارة معينة لدى القارئ تفتح الباب أمام الخبر في اتجاه النتيجة التي تنغلق عليها نهاية الخبر حيث لاحظنا أن هذه النتيجة تختلف من نوع لآخر وإذا أخذنا البؤر الأساسية وأردنا أن نجري عليها عملية تحليل فإننا نجدها تتحقق بدورها من خلال الرسم الآتي:

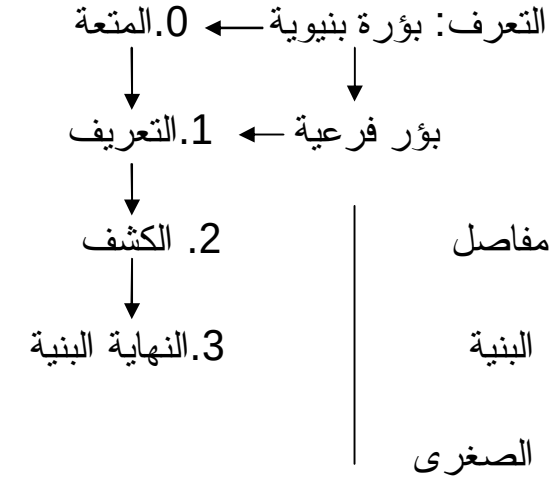

البنية الصغرى للبؤرة الأساسية

التعريف

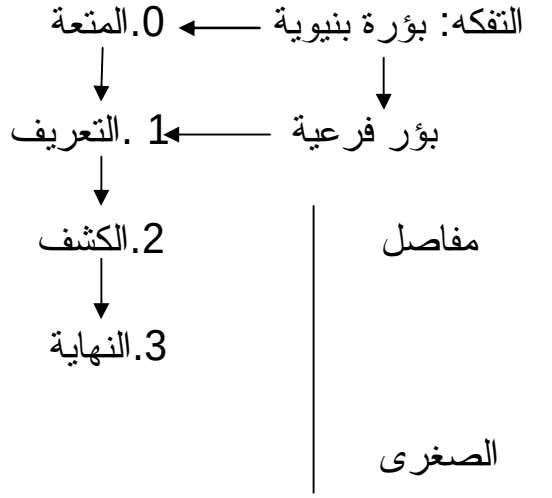

البنية الصغرى للبؤرة الأساسية

التفكه

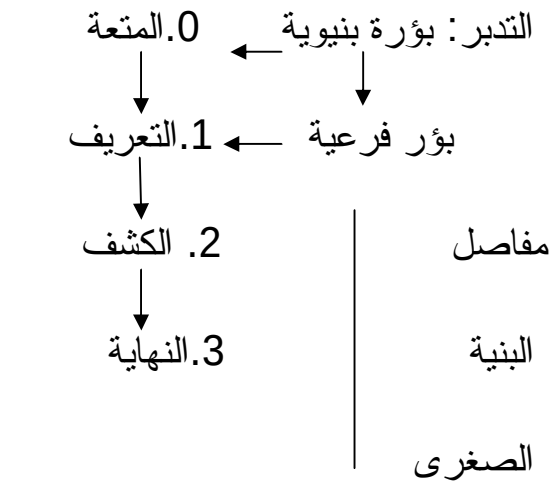

البنية الصغرى للبؤرة الأساسية

التدبر

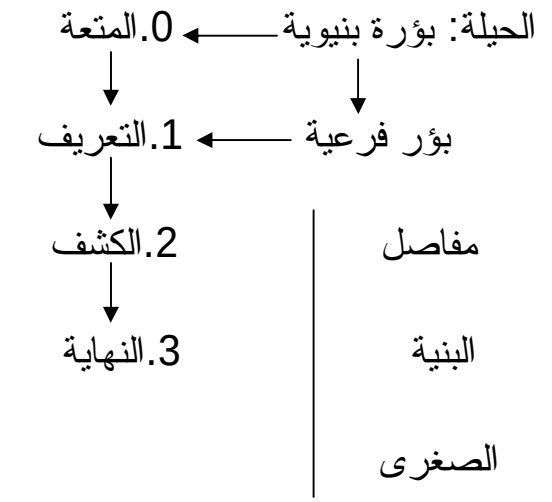

البنية الصغرى للبؤرة الأساسية

الحيلة

عندما تنمو هذه الخطاطة في اتجاه أفقي طبيعي فإن البؤرة تحيل على الأخرى مباشرة. فتتميز البنية الحكائية بالبساطة والإيجاز في إطار ما أسميناه بالخبر الموجز إلا أن هذه الخطاطة قابلة للتطور والامتداد فتنمو في اتجاهين أفقي وعمودي فيساهم الاتجاه الثاني الذي تتمفصل فيه البؤر الفرعية إلى بؤر جزئية إلى أن نصل إلى أصغر وحدة حكائية غير قابلة للتمفصل فيساهم ذلك في خلق مسافات زمنية وخطابية تفصل بين فعلين تتشكل منهما بؤرتين أفقيتين فنتنقل من البنية الموجزة للخبر إلى بنية جديدة تنحو نحو التركيب أطلقنا عليها سابقا الخبر الممتد الذي يتطور في بعض الأمثلة إلى شديد الامتداد تبعا لمبدأي الإطناب و الاختزال تتميز بهما مختلف المتون الحكائية الكلاسيكية بما فيها المتن الحكائي الخبري الذي نحن بصدد مقاربته فقد اعتبر سعيد يقطين «اعتمادا على مبدأ الاختزال، أن السيرة الشعبية " جملة كبرى" تتضمن جملا متعددة صغرى تتضافر مجتمعة لتشكيل تلك الجملة كما رأى بناء على مبدأ التراكم أن البنية الجملية الكبرى قابلة لأن تتولد عنها بنيات جملية لا حصر لها .مادامت تنتظم في نطاق هذه البنية»[1]، فالمرور من الخبر الموجز إلى الممتد وصولا إلى شديد الامتداد هو تمديد على مستوى الفصل بين البؤر الفرعية فتظهر بؤر جزئية يساهم في تشكيلها ما أطلق عليه " رولان بارت " الوظائف الإدماجية، التي تركز على الشخصيات وبعض الاشارات المتعلقة بالزمان والمكان. و لكن بالرغم من هذه التمفصلات التي يمكن أن تخضع لها أغلب البؤر إلا أنها تظل متضافرة فيما بينها، ومترابطة دلاليا وفق تسلسل معنوي مشكلة الوحدة الموضوعية للنص ، أي ذلك الانسجام الذي يطبع الحكي الخبري فيغدو النص مقروءا متلاحما تتناسل حركاته السردية والإخبارية في سبيل تشكيل المعنى لكل نوع من أنواع الخبر، و سنكتفي في هذا المقام بمعاينة هذه البؤر من خلال الخطاطة التي قدمناها مركزين على كل بؤرة على حدة ضمن مختلف أنواع النصوص الخبرية التي حددناها سابقا، وقد رتبنا هذه البؤر

[1]- سعيد يقطين، قال الراوي، ص31، ص 32.

بحسب ورودها في النص أحيانا وفق ما نستنتجه مما لم يقع التصريح به في إبانه أحيانا أخرى، لننتقل بعد ذلك إلى دراسة العلاقة بين هذه البؤر جميعا، وطرق التحول من بؤرة إلى أخرى في الخبر البسيط والمركب، قصد الخروج بمجموعة من الخلاصات التي تنسحب على صعيد كل نوع من أنواع الخبر التي اشتغلنا عليها في مدونة البحث فما هي تجليات كل بؤرة ضمن الخطاطة الخاصة بالبؤرة الأساسية لكل نوع؟ و كيف تتعالق فيما بينها؟

4-البؤر في البنية الحكائية لخبر النادرة:

إن أخبار النوادر في المدونة المغربية مادة غزيرة كما وكيفا تأتلف وتتجانس حينا وتختلف وتتمايز حينا آخر إلى درجة يصعب فيها استخراج نموذج يشملها أو يشمل أغلبها على الأقل، ولكننا اجتهدنا في ذلك حيث لاحظنا أثناء تحديدينا لأنواع الخبر– في الفصل الأول- أن النادرة خبر يقوم بتصوير كلام الناس وأفعالهم في مواقف قصصية مخصوصة تقوم على سمتي الظريف أو الطريف فخبر النادرة « يتسم تارة بالهزل والفكاهة وتارة بالغرابة الطبيعية، وهو نص واقعي بسيط يتوجه إلى المتلقي برسالة تثقيفية وخلقية»[1]، وهكذا فالنادرة تنطوي على قول أو فعل نادر الحدوث أي ينأى عن معتاد الكلام أو الأفعال موظف للجد أو الهزل يحدث في السامع غرابة واندهاشا لذلك عد العدول عن المألوف من أبرز مكوناتها وهو الباعث عن التعرف أو التفكه فيها والدافع للاستمتاع.

ونظرا لهذا التعدد في الموضوعات يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أنواع: 1- نوادر الظرف، 2-نوادر الطرف، 3- نوادر الهوى، على أن الملمح المميز لهذه الأنواع من النوادر في المدونة المغربية هو أن الأخبار الخاصة بالشخصيات المغربية ظهرت في نماذج معتبرة من نصوص نوادر الظرف والطرف بينما تعلقت نوادر الهوى بشخصيات

[1]- محمد مشبال، البلاغة والسرد، ص10.

مشرقية، ولهذا فإننا نؤكد أننا سنحاول الوقوف على خصوصية الكتابة الخبرية من خلال اهتمام الدراسة بتحليل نماذج من نصوص أخبار النوادر التي تتعلق بالواقع المغربي، ولو كانت بنسبة قليلة وذلك من خلال الكشف عن كيفية اشتغال البؤر في البنية الحكائية لهذه النوعية من الأخبار.

1- البؤر في البنية الحكائية لأخبار نوادر الظرف

بالاعتماد على الخطاطة التمثيلية السابقة لبنية خبر نادرة الظرف التي تتبني على بؤرة مركزية متعة التعرف حيث تقوم على الظرف الذي يعني البراعة في الفعل أو القول، فالظرف مفهوم مجرد يتجلى عبر سلوكات في المدونة المغربية – ورأينا في الفصل الأول – أن الظرف جاء في معظم النماذج الخبرية مرادفا للذكاء « ذكاء مصدر ذكي، ذكاء الإنسان قدرته على الفهم والاستنتاج والتميز بقوة فطرته وذكاء خاطره »[1]، وهو عادة ما يعبر عن ذكاء في الفعل أو القول من خلال قوة الذهن، أو بلاغة اللسان مما يكشف عن قدرة الشخصية المغربية على الفهم والاستيعاب بحيث يجعلها تتميز بحسن الأدب والظرف.

إن هذا الارتباط بين الظرف والذكاء يؤكد أنهما خاصيتان تستدعي الواحدة منهما الأخرى فالذكاء هو الموضوع المحوري المشكل لفعل الظرف الذي تتبني عليه بؤرة التعرف في إمتاعها المتلقي حيث تعمل الكثير من أخبار الظرف على إبراز صفة الذكاء الذي نجده مرتبطا بالخاصة من (العلماء والسلاطين والأئمة والشيوخ...إلخ) وبين هؤلاء تتنوع موضوعات الذكاء الفرعية لأخبار الظرف التي يمكن أن نجملها فيما يأتي:

[1]- المعجم الوسيط، ج1، ص314.

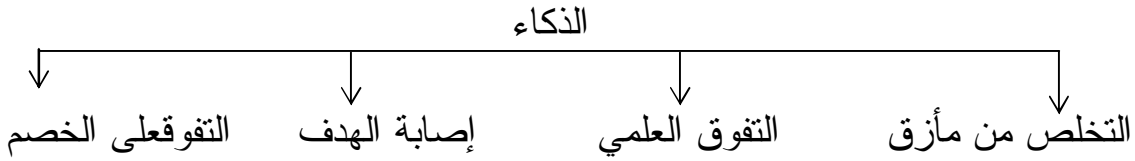

إن الوصول إلى البؤرة المركزية متعة التعرف عبر هذه الموضوعات الفرعية الذكاء التي يتشكل منها فعل الظرف يستدعي تحولات منطقية تنقل المتلقي عبر متتالية من البؤر الأساسية (التعرف، الكشف، النهاية) تتوالد من البؤرة المركزية وسنحاول متابعة ذلك في أخبار الظرف التي تتعلق بموضوعات الذكاء الأكثر تواترا في مدونة البحث ومن أهمها التخلص من مأزق حيث سنعتمد على النماذج التمثيلية الآتية:

خ1: « قال بهلول بن عبيدة، "جمعنا زيادة الله بن الأغلب و شاورنا في قاض، وكنا جماعة، وكان فينا ابن الصمادحي فلما حضرت الصلاة قلت لهم: إن قدمنا أحدا منا رأى هذا - يعني السلطان- أنه خيرنا فيوليه القضاء. لكن قدموا موسى بن معاوية الصمادحي فإنه ليس له في هذا الأمر نصيب إذ هو مكفوف البصر فقدمناه فصلى بنا»[1].

خ2:«قال شيخنا أبو عبد الله محمد بن شبل رحمه الله تعالى: وسبب تسمية جده الكبير بالدباغ أنه قدمه قاضي الجماعة و السلطان وكتب له الظهير بقضاء بلدة القيروان و بعث له به فلما عرف أن الظهير يرد عليه في وقت الضحى بكر رضي الله عنه إلى دار الدباغ، وعد حوائجه و تحزم ثم أخذ يملأ بالدلو من بئر الدار و يفرغ على الجلود. فلما وصل الرسول بالظهير طلبه في داره و في المسجد فلم يجده و مازال يبحث عنه حتى وجده فقال له يا سيدي نحب البشارة فقال له: ارجع بظهيرك، و قل لمن بعثك به: وجدته دباغا فلا يليق بكم أن تقدموا من كانت هذه حالته قاضيا على رقاب الناس. فلما عرف من

[1]- المالكي رياض النفوس، ج1، ص281، ص282.

ذكر قالوا: نعرف أنه ما صناعته دبغ الجلود بحال إنما ذلك بقصد الهروب من القضاء لنجاة نفسهو قدموا غيره»[1]

خ3:« بلغني أن أحدرؤساء هذا القبيل المبارك حج ولقي أمير المؤمنين محمد المهدي فاستعزاه فانتمى إلى ولد بر بن قيس من أهل المغرب. فقال المهدي: إنمامثل الدنيا كطائر ذنبه المغرب. فقال له الشيخ العبدوادي: نعم يا أمير المؤمنين، لكنه طاووس. فعجب المهدي لفصاحته و بداهة جوابه وأوسع جائزته»[2]

خ4:«و منها ما حكي أنه كان يحضر مجلس السلطان أبي عنان المريني لبث العلم. و كان مزوار الشرفاء بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان و جميع من كان في المجلس اجلالا له إلا الشيخ المقري فإنه كان لا يقوم في جملتهم فتحسر المزوار من ذلك وشكاه للسلطان فقال له السلطان هذا رجل وارد علينا نتركه على حاله إلى أن ينصرف فدخل المزوار في بعض الأيام على عادته فقام له السلطان و أهل المجلس فنظر المزوار إلى المقري و قال له أيها الفقيه مالك لا تقوم كما يفعله السلطان نصره الله و أهل مجلسه إكراما لجدي و شرفي و من أنت حتى لا تقوم لي فنظر إليه المقري و قال له أما شرفي فمحقق بالعلم الذي أنا أبثه و لا يرتاب به أحد و أما شرفك فمظنون و من لنا بصحته منذ أزيد من سبعمائة عام و لو علمنا شرفك محققا قطعا لا قمنا هذا من هنا و أشار إلى السلطان أبي عنان وأجلسناك مجلسه فسكت المزوار انتهى»[3]

0-متعة التدبر:

انطلاقا من متون هذه الأخبار الموجزة نلاحظ أن البؤرة المركزية التي توحد بين الأخبار هي متعة التعرف على الذكاء الذي تتميز به الشخصية المركزية في الخبر و التي

[1]- الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان، ج4، ص90.

[2]- ابن خلدون، بغية الرواد،ج1، ص208.

[3]- ن م، ن ص.

هي في الأمثلة الأربعة من الخاصة (الشيخ ابن عبيدة، والشيخ الدباغ، والرئيس العبدوادي، والشيخ محمد المقري)، و نلاحظ أن المأزق الذي يدور حوله الحدث في الخبرين الأول و الثاني حقيقي، و هو عادة يقع في مجالس خاصة و عامة (مجلس الأمير ابن الأغلب، وبيت الدباغ)، فيفكر أصحابها بجدية للتخلص منها، فالشيخ ابن عبيدة يتفطن إلى أن مشاورة الأمير ابن الأغلب له ولأصحابه في اختيار شخص يوليه القضاء مأزق حقيقي يجب التخلص منه، وكذلك يتفطن الدباغ أيضا بمجرد أن علم بقدوم رسول السلطان إليه ليسلمه ظهير القضاء لخطورة ذلك المأزق الذي سيقع فيه و بما أن كلا الشيخين يدرك أن لا قدرة له على رفض أمر السلطان فكان السبيل للتخلص من ذلك هو الحيلة باستخدام الذكاء للنجاة من القضاء، فالأول اهتدى إلى تقديم ابن الصمادحي المكفوف لإمامة الصلاة ليعتقد الأمير أنه الأفضل، و بما أنه عاجز عن البصر سينصرف عن اختياره و هكذا ينجو ابن عبيدة والجماعة التي كانت معه بفضل هذا الفعل من مأزق التزكية لتولية القضاء، أما الثاني فقد أثبت بالفعل ذكاءه في استخدام الحيلة حيث اهتدى إلى فكرة ممارسة صناعة دباغة الجلود لتضليل الرسول وإقناعه بعدم صلاحه لتولية منصب القضاء وهو الفعل الذي جعله يتخلص من مأزق تسلم الظهير والالتحاق بالمنصب وفقا لأمر قاضي الجماعة و السلطان.

أما المأزق الذي يدور عليه الحدث في الخبرين الثالث و الرابع فقد تكون من أجل إحراج الذي وقع فيه و مدى قدرته على التخلص منه،ويقع في الغالب في المجالس الخاصة (مجلس السلطان المهدي، ومجلس السلطان المريني) فالذكاء الموظف في التخلص من مأزق الإحراج شديد الارتباط بالمقام حيث يسعى الخليفة أو أحد الحاضرين في المجلس إلى إحراج أحد الجلساء فيوقعه في ورطة ليرى كيف يتخلص منها، وطريقة التخلص باستخدام البداهة وحسن الرد تعكس ذكاء الشخصية المتمثل في قوة الذهنعلى استيعاب الكلام وبلاغة اللسان في الرد فالشيخ العبدوادي في الخبر الثالث ينجو من خلال

بداهته وحسن جوابه من ورطة الإحراج الذي يسعى الخليفة المهدي لإيقاعه فيها، فثنائية الإخبار والاستخبار تعكس موقف الاستخفاف و الاحتقار الذي يكنه الخليفة المشرقي للنسب المغربي وهو أقرب إلى المداعبة منه إلى الجد، ولكنه سرعان ما تحول بفضل قوة ذهن المغربي وبلاغة لسانه إلى التعجب من بداهة جوابه ومكافأته، وقد استطاع الشيخ محمد المقري في الخبر الأخير النجاة من ورطة الإحراج التي أراد الشريف إيقاعه فيها. فهو يرى في مخالفة الشيخ لعادة السلطان وأهل المجلس في الوقوف له إجلالا لنسبه وانتقاصا من قيمته، ففكر في الانتقام بإحراجه أمام السلطان ولكن الشيخ استطاع من خلال ثنائية الإخبار والاستخبار إثبات قوة ذهنه في استيعاب الكلام وبلاغته في الرد والتي انتهت بإفحام المزوار أمام السلطان و جلسائه. بتفوق الشيخ الذي أكد للجميع صحة شرفه المحقق بالعلم.

ونستنتج من خلال هذه العينة من الأمثلة أن السارد يتوخى في هذه النوعية من الأخبار الموجزة تثبيت صفة أخلاقية محددة من السلوك الإنساني البداهة باعتباره قيمة رئيسة تتناسل منها الأحداث لتشكيل بؤرة مركزية التزم السارد فيها بحدود المرجعية الواقعية التاريخية التي يعيد المؤلفون المغاربة في إطارها نسج الحدث و في سياق مغاير تحمل رسالة معرفية و إمتاعية للمتلقي الذي سيشعر بمتعة التعرف بتجارب من نموذج السلوك الشاذ " الذكاء " الذي تتمتع به هذه الشخصيات و استطاعت بفضله التخلص من مآزقها.

1- التعريف

يمثل التعريف في الخبر الإشارة المعلنة عن انفتاح متن الخبر و يكون بمثابة الأرضية الأولى التي تموقع المتلقي و هو يتابع أحداث الخبر، فبؤرة الحكي في هذه الوضعية الافتتاحية ستبنى على التعريف باعتباره فعل الحكي الأولى المتولد من البؤرة

المركزية " متعة التعرف "، حيث إن التركيز في هذه البؤرة الأساسية نجده مختزلا في إدراك السارد أن بناء البؤرة المركزية أساسه التعريف الذي سيعتني فيه بعرض الحدث المركزي مع ذكر شخصياته التاريخية التي سيرتبط بها الحكي إلى غاية إنجاز البؤرة المركزية.

ويعمل التعريف على إيضاح وضعية الشخصية المركزية في الخبر و السبب الذي سيؤدي إلى اختلال التوازن في الحدث فيتولد تبعا لذلك المأزق، و قد اتفقت المتون الخبرية السابقة في افتتاحها. بالتعريف على النحو الآتي:

1- « قال بهلول بن عبيدة جمعنا زيادة الله بن الأغلب و شاورنا في قاض، و كنا جماعة، و كان فينا ابن الصمادحي»[1]

2- « قال شيخناأبو عبد الله بن شبل رحمه الله تعالى: و سبب تسمية جده الكبير بالدباغ أنه قدمه قاضي الجماعة و السلطان و كتب له الظهير بقضاء بلدة القيروان و بعث له به»[2]

3- « بلغني أن أحد رؤساء هذا القبيل المبارك حج ولقي أمير المؤمنين محمد المهدي فاستعزاه فانتمى إلى ولد بر بن قيس من أهل المغرب»[3]

4-« و منها ما حكي عنه أنه كان يحضر مجلس السلطان أبي عنان المريني لبث العلم و كان مزوار الشرفاء بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان و جميع من كان في المجلس إجلالا له إلا الشيخ المقري فإنه لا يقوم في جملتهم، فتحسر المزوار من

[1]- المالكي رياض النفوس، ج1، ص281، ص 282.

[2]- ابن خلدون بغية الرواد،ج1، ص208.

[3]- الدباغ معالم الإيمان،ج4، ص90.

ذلك وشكاه للسلطان فقال له السلطان هذا رجل وارد علينا نتركه على حاله إلى أن ينصرف»[1]

ولعل ما يلفت الانتباه في التعريف من خلال النماذج السابقة أنه اعتنى بأمرين: عرض الحدث السبب من خلال الأفعال الماضية و ذكر الشخصيات التاريخية التي عادة ما تشير إلى زمان الأخبار مع تحديد المكان، وكل ذلك على لسان السارد الذي تلقاه من راو معلوم أو مجهول، لاحظنا أنه اعتمد في عرض تفاصيل التعريف على تكثيف الحدث و تقديمه في جمل نصية لا تتجاوز الأربعة أسطر في أطولها (الخبر الرابع)، حيث بلغ التكثيف في الحدث أقصى درجاته في الخبر الأول حيث أشار السارد إليه بصورة عابرة في الحكي من خلال كلمتين (شاورنا في قاض)، و هذا من مميزات الخبر الذي يتميز بالإيجاز والاختصار في عرض البؤر الأساسية حتى لا تصرف تركيز المتلقي عن الحدث الرئيس للبؤرة المركزية متعة التعرف.

2- الكشف:

ينجر عن المأزق عادة عمل تقوم به الشخصية لتفادي وقوعها فيه، وعلى هذا العمل مدار بؤرة الكشف التي تعمل على إبراز الخاصية السلوكية الأخلاقية التي تتميز بها الشخصية الفاعلة في الخبر، وعادة ما يتم إنجاز ذلك من خلال الفعل الاختباري " الذكاء " الذي تتوصل إليه عن طريق إثارة عقلية ولدها شعور بالخوف من الوقوع في المأزق، و إذا ما عدنا إلى الأخبار التي اعتمدناها في التحليل نجد أن المثالين الأول و الثاني كان الكشف فيهما يتعلق بالذكاء المرتبط بالفعل الذي ستلجأ إليه الشخصية لتفادي الوقوع في المأزق الذي حيك ضدها؛ فالشيخ ابن عبيدة أدرك بذكائه أن المشاورة سيتلوها فعل اختيار الأحسن للقضاء، فالسلطان سينتظر وقت الصلاة ليتعرف عليه ظنا منه أن الشيوخ

[1]- ابن مريم، البستان، ص162.

سيقدمون أفقههم للصلاة بهم، و لكن الشيخ استطاع بفضل قوة ذكائه في استخدام الحيلة الاهتداء إلى الفعل الذي سيمكنهم من تفادي الوقوع في مأزق الاختيار و قد تجلى الكشف عنه في قوله « لكن قدموا موسى بن معاوية الصمادحي فإنه ليس له في هذا الأمر نصيب إذ هو مكفوف البصر »[1]

و في السياق نفسه نلاحظ أن شعور الشيخ " على الأسيدي " بخطورة الوقوع في مأزق ممارسة مهنة القضاء جعله يستخدم الذكاء في التوصل إلى الحيلة بخرق ما هو متعارف عليه من اشتغال الشيخ بالعلم باللجوء إلى التظاهر بممارسة فعل الدباغة، و قد كشف عن ذلك قوله: «بكر (رضي الله عنه) إلى دار الدباغ، وعد حوائجه و تحزم، ثم أخذ يملأ بالدلو من بئر الدار و يفرغ على الجلود»[2]، وهكذا فاللجوء إلى ممارسة صناعة الدباغة خرق يتولد عنه تشويه لصورة الشيخ حيث أصبحت الظروف مواتية لإعادة حالة الاتزان للخبر بالنجاة من القضاء فيتوجه إلى الرسول الذي أبلغه أمر السلطان بكلام يكشف عن النية الحقيقية التي جعلته يعتمد على الحيلة بهدف التضليل و التمويه « فقال له: ارجع بظهيرك وقل لمن بعثك وجدته دباغا فلا يليق بكم أن تقدموا من كانت هذه حالته على رقاب الناس»[3]

أما فيما يتعلق بالنموذجين الثالث و الرابع فإن الكشف ارتبط بقوة الذهن في استخدام البلاغة للتخلص من مأزق الإحراج حيث تجلى الخرق فيها في الرد الصارم المكثف كوسيلة لإعادة التوازن للخبر فالرئيس العبدوادي استطاع بفضل قوة بداهته في الرد « لكنه طاووس »، أن يستحضر جمال ذنب الطاووس ليشبه به المغرب، و هو جواب مركز مكنه من التخلص من مأزق الإحراج مع تحويل موقف السلطان من الاستخفاف

[1]- المالكي، رياض النفوس، ص282.

[2]- الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان، ص90.

[3]- ن م، ن ص.

بنسبه إلى الإعجاب بفصاحته، و كذلك الشيخ المقري فإنه استطاع بفضل قوة ذهنه على استيعاب الكلام الرد على الشريف بجواب صارم تميز بقوة التكثيف في الاستدلال الذي ظهر من خلال المقارنة الجريئة بين الشريف و السلطان المريني و ذلك بهدف إثبات صحة موقفه من الشرف المظنون و قد ظهر ذلك في نهاية الكشف « و أما شرفك فمظنون و من لنا بصحته منذ أزيد من سبعمائة عام و لو علمنا شرفك محققا قطعا لأقمنا هذا من هنا و أشار إلى السلطان أبي عنان وأجلسناك مجلسه فسكت المزوار »[1]

بهذه الصورة نتعرف على بؤرة الكشف في بنية الخبر الحكائية فهي بؤرة تحول المسار السردي في اتجاه معين ممهدة لتوازنه الطبيعي الذي فقده مع الخرق، و هذا الكشف كما لاحظنا يتنوع من خبر إلى آخر بتنوع ذكاء الشخصيات المرتبط بالقول أو الفعل، و الذي سيتشكل بناء على خرق الحدث السبب الذي تضمنته بؤرة التعريف، فيأتي كنتيجة منطقية للإثارة العقلية، التي تولدت في نهايتها، و على أساسها سيتشكل الكشف عن القول أو الفعل الذي سيشكل بؤرة الحدث لشخصيات الخبر الفاعلة و هي تحاول إعادة التوازن لحياتها من خلال الهروب من مآزقها.

ومن ثم فبؤرة الكشف تضعنا في بؤرة القول أو الفعل الذي قام من أجله الحدث في البؤرة المركزية، فالخبر يقدم حدثا بسيطا يتجلى في نموه من خلال هذه البؤرة التي تقوم في هذه العينة من الأخبار الموجزة على البساطة و التركيز على الحدث الأساس و إهمال التفاصيل حيث تبلغ البساطة أقصى درجات التكثيف بالتركيز على الفعل أو القول الحدث في الخبرين الأول و الثالث كما يهدف السارد من خلال الكشف إلى التمهيد لنهاية الأحداث، بحيث تكون نهاية هذه البؤرة هي المهيأة للمتلقي لاستقبال نهاية الحدث و ما تثيره من إثارة يسودها التأمل و الاستنتاج و هي البؤرة الثالثة و الأخيرة و التي تتكفل بإغلاق المسار السردي.

[1]- ابن مريم، البستان، ص162.

3- النهاية:

إنها البؤرة الأخيرة التي تنغلق بها البنية الحكائية و يتوقف فيها السرد، فالكشف يكون قد هيأ المتلقي لنهاية منتظرة، فتأتي هذه البؤرة لتتم مضمون الخبر و توقف حدثه، و هذه النهاية تتخذ حسب المتن الذي اشتغلنا به طريقا واحدا هو الخلاص من المأزق، أي أن الخلاص يضع الشخصية الفاعلة أو الشخصية الموضوع إما في نهاية يغيب فيها الخلاص المباشر فتترك ذلك للمتلقي ليستنتج الخلاص المتوقع كما في خبر " ابن عبيدة " الذي انتهى بالإشارة إلى تنفيذ فعل الحيلة الذي قامت عليه بؤرة الكشف يقول « فقدمناه فصلى بنا »[1]، و هو الحدث الذي سيجعل القارئ بعد ربط فعل التقديم بسيرورة الأحداث في الكشف يتوقع إمكانية نجاة الشيخ و من معه من القضاء.

وقد يكشف سارد الخبر عن النهاية المتوقعة للشخصيات الرئيسة في أخباره فيطرح فيها الخلاص المباشر الذي يحقق الانغلاق للأخبار فلا يتركه مفتوحا للمتلقي لتقديم تأويله بل يجزم في تأكيد نجاة الشخصيات من مآزقها، و نلاحظ أن الخلاص يختلف فيها بحسب طبيعة الحدث الذي يحتويه الخبر ففي خبر الشيخ الدباغ مثلا: ارتبط بالحيلة التي عاد بها الشيخ إلى حياته العادية قبل كتابة السلطان لظهير توليته قضاء بلدة القيروان، ففي الكشف كان عزم الشيخ أن يتخلص من هذا المأزق حيث لجأ إلى تشويه صورة الوجاهة التي نالها بالعلم بممارسته لمهنة بسيطة دبغ الجلود، و بالرغم من أن النهاية بينت أن الحيلة لم تمر على من قدموه للقضاء« فلما عرف من ذكر قالوا: نعرف أنه ما صناعته دبغ الجلود بحال وإنما ذلك لقصد الهروب من القضاء لنجاة نفسه »[2]، إلا أنه لم يكن أمامهم إلا الإقرار النهاية بينت أن الحيلة لم تمر على من قدموه للقضاء « فلما عرف من ذكر قالوا: نعرف أنه ما صناعته دبغ الجلود بحال. و إنما ذلك بقصد الهروب من القضاء بعدم

[1]- رياض النفوس، ج1، ص 282.

[2]- الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان، ص90.

صلاحيته للقضاء يقول « وقدموا غيره »[1]، و هكذا يطرح الشيخ الخلاص لنفسه من أجل العودة إلى حياته العادية، لكن التوازن سيأخذ طريقا آخر باختفاء صفة الوجاهة التي اشتهر بها قبل حدث توليته القضاء من حياته نهائيا حيث أصبحت تسمية الدباغ لصيقة بالشيخ وأبنائه من بعده[2] وكانت السبب في رواية هذا الخبر.

يتخذ الخلاص صورة مماثلة في الأخبار التي ترتبط فيها قوة الذكاء بتوظيف الرد الفصيح للنجاة من مأزق الإحراج كما في النموذجين الثالث والرابع، فبالنسبة للرئيس العبدوادي، والشيخ المقري كان الخلاص في الرد الصارم الذي واجهوا به محرجيهم، و نلاحظ أن العودة إلى حياة التوازن العادية لم تكن واحدة حيث إن الرئيس بعد أن واجه الخليفة برده لم يكن أمام هذا الأخير إلا الاندهاش وانغلق الخبر بالشكل الآتي: « فعجب المهدي لفصاحته وبداهة جوابه و أوسع جائزته »[3]، فالتوازن يعود بظفر الرئيس بإعجاب ومكافأة المهدي، وبهذه الجائزة يحافظ الرئيس على وجاهة نسبه المغربي، و يستقر الوضع من جديد. بينما سار التوازن في الخبر الأخير في اتجاه آخر حيث حددت نهاية الخبر المكثفة مصير الفاعل الحقيقي للمأزق « فسكت المزوار »[4]، فالخلاص هنا يتجلى في إسكات الشريف ونجاة الشيخ من الإحراج وبذلك يعود إلى العادة الطبيعية التي تميز بها في التعامل مع المزوار والتي انفتح عليها الخبر.

بالمقارنة بين النهاية في العينات الأربعة نلاحظ أن اهتمام السارد فيها يتجه مباشرة نحو الحدث بؤرة النهاية عن طريق تضمين البؤرة ما يشير إلى إمكانية إنجازه أو ذكره

---

[1]- ن م، ن ص.

[2]- من أشهرهم حفيده عبد الرحمان الأسيدي الذي عرف بالدباغ المؤرخ ، وهو مؤلف الكتاب الذي ورد فيه هذا الخبر على لسان ابن ناجي ضمن الترجمة التي خصه بها وقد أشار إليه في افتتاح الخبر أعلاه بعد ذكر السند قائلا « وسبب تسمية جده الكبير بالدباغ » أنظر ذلك في مصدر نفسه من ص88إلى ص 90.

[3]- ابن خلدون، بغية الرواد، ص 208.

[4]- ابن مريم البستان، ص 262.

بشكل مباشر دون حشو للتفاصيل، فالحدث فيها يتمركز حول فعل البؤرة المركزية في تأثيره في حياة الشخصيات الفاعلة من جهة و حياة الشخصيات التي كانت السبب في تشكيل المآزق من جهة أخرى، وهو ما يوازي ما قدمته نهاية الأخبار التي عززتها بلاغة التضمين أو التكثيف فيصح معها وصف بنية هذه البؤرة – أيضا – بالإيجاز الذي يوازيه القصر.

يظهر من خلال هذا التحليل أن النهاية هي التي ستضع القارئ في بؤرة الفعل الذي سيثير في المتلقي مجموعة من الأسئلة ترتبط بأفعال وسلوكات تدرك عقليا فقط؛ فالنهاية تتضمن فعل يلخص نتيجة الحدث الممتع يراد به التأثير في عقل القارئ ليشعر بالبؤرة المركزية: متعة التعرف فهو أداة التواصل التي يهدف السارد من خلالها توصيل غاية أخلاقية إلى القارئ تحيل على منظومة خلقية تجلت عبر بؤر سردية بسيطة لجأ فيها إلى الواقعية لتصبح حجة تاريخية و تمثلا سرديا لسلوك أخلاقي يسعى من ورائه إلى تقديم المعرفة للقارئ، و هي تمثل نموذجا للسلوك النبيل الذي يقصد من خلاله التأثير في سلوك القارئ و تعديل أخلاقه في ضوء ما يمكن أن يستنتجه من معان حملتها الرسالة الصريحة لنهاية الأخبار إذ تثير فيه شعور بالإعجاب بالذكاء الذي اتصفت به شخصياتها حيث سيدفعه ذلك إلى اتخاذ موقف يقضي بضرورة التصرف بذكاء يعتمد على الفعل أو القول لمواجهة مآزق الحياة.

إن هذه المعاني الخلقية التي حملتها الرسالة الصريحة لنهاية هذه الأخبار، يفضي إلى توجيه ضمني لأفعال المتلقي وهو يحاول فهم الرسالة الخفية التي تروم البؤرة المركزية تحقيقها، فالتفسير الداخلي لهذه الأخبار لا يتم إلا بتفسير خارجي اجتماعي يوضح قيمة هذه المعاني، فإذا اختار كل سارد في الأخبار الأربعة أن يدير سرد الحدث حول معاني الخوف والهروب من القضاء أو الإحراج ليحليها في عالمه الفني إلى نجاة ونجاح و ثقة وإعجاب بفضل الذكاء في القول أو الفعل؟ لعلنا لا نحتاج إلى إطالة القول بالنسبة

للنموذجين الأول والثاني عن مظالم تلك العهود الإسلامية الأولى التي عانت فيها الشعوب المغربية السجن واستصفاء الأموال بسبب عدم نزاهة أحكام القضاة الذين تملقوا الطبقة الحاكمة وأعانوها على ظلمها. حيث كشفت الكثير من الأخبار أن القضاء إذا عرض على أحد العلماء امتنع من ذلك[1]، ولعلنا نجد في الشرط الذي اشترطه القاضي أحمد بن أبي محرز على الأمير زيادة الله بن الأغلب لما أجبره على القضاء ما يؤكد ذلك: « فلما ولي القضاء اشترط على الأمير أن لا يقبل من أحد من أقاربه أو حشمه أو من يلوذ به وكيلا»[2]، و بالتعرف على الدافع الحقيقي لخوف الشيوخ نستطيع أن نفهم لجوءهم إلى الحيلة التي اتسمت مع الدباغ بالغرابة التي انتهت بالتضحية بوجاهة رتبته في سبيل التخلص من مأزق القضاء، و بالانتقال إلى النموذجين الأخيرين سنجد أن خبر الشيخ المقري يسير في نفس اتجاه النماذج السابقة من حيث طبيعة مضمون الرسالة الخفية حيث لاحظنا أنها ترتبط فيه أيضا بحقيقة سلوكية ميزت المجتمع المريني و هي قيامه على الطبقية: الشرفاء والعامة، و هي حقيقة يرفضها الشيخ ومن ورائه السارد. أما في خبر الرئيس العبدوادي فإننا لاحظنا أن مضمون الرسالةالخفية يسير في اتجاه مغاير لا يتوافق مع توجيه الفعل السلوكي الذي حملته الرسالة الصريحة حيث يعمل مضمونها على إثبات الغاية الحجاجية الكبرى التي توجه الخطاب التاريخي عند " يحي ابن خلدون ": و هي تخليد ما لدولة بني عبد الواد من أحاديث للفخر فجاء الخبر كحجة ساقها الكاتب ليقضي على استخفاف المشارقة بانتساب بني عبد الواد إلى عرب اليمن، و ليقنع أيضا المتلقي بوجاهة نسب رؤسائه الذين أثبتوا تفوقهم على المشارقة.

[1]- ضمن المالكي تراجم علمائه أثناء التعرض لسبب توليتهم القضاء الكثير من الأخبار الأدبية التي أكدت امتناع علماء تلك الفترة عن القضاء ومن بينهم أحمد بن أبي محرز الذي بين خبره أن الأمير أجبره على ذلك خاصة أنه لم يتفطن لمأزق الاختيار فوقع فيه، و لكنه لم يمارس المهنة إلا وفق الشرط أعلاه، أنظر رياض النفوس، ج1، ص396.

[2]- ن م، ن ص.

نستنتج مما تقدم انسجام مضمون الرسالتين الصريحة و الخفية في أخبار الشيوخ من حيث القصد مع الغاية الحجاجية الكبرى التي توجه خطاب التراجم عند الإخباريين المغاربة وهي تضمين سيرهم أخبار أوصافهم وهو ما يؤول في النهاية إلى التصور الذي انبنى عليه خطاب البؤرة المركزية : الكشف عن القيمة الأخلاقية الذكاء الذي اتصفت به شخصيات تاريخية شكلت مآزقها مكونا رئيسيا في سردية أخبارها التي يحاول من خلالها الراوي إصلاح السلوك وتعديل أخلاق الفرد وهي في الحقيقة دعوة تنطوي على توجيه علمي يسعى من خلالها إلى تخليق السلطة وحملها على تحقيق العدل بين أفراد مجتمعاتها أما في الخبر الذي ساقه " ابن خلدون " فإنه يمكن النظر إلى الرسالة الصريحة باعتبارها وسيلة لإبراز القصد العام للوظيفة المركزية التي تجيب دوما عن سؤال تواصلي يعلم و يوجه و يرسخ السلوكات و المفاهيم في ذهن المتلقي و الذي ورد ضمن خطاب أدبي ينطوي على حجة تفسر و تحلل مقولة التاريخ التي يسعى المؤلف إلى صياغتها عبر خطاباته التضمينية ومن أهمها الخبر القصصي الأدبي الموجز.

لقد انتبهنا ونحن بصدد استقراء أخبار الذكاء المغربي أن بعض الأمثلة جاءت لتكشف عن التفوق العلمي لشخصيات الخبر والذي يرتبط بالفصاحة والبلاغة حيث لا ترد هذه الأخبار في إطار مأزق الإحراج و إنما يتوقف الخبر فيها عند نقطة معينة هي القول أو الكلام، حيث يصبح الحدث أو الفعل الذي ترتكز عليه بنية الخبر فعل القول فالخبر يقوم من خلال ثنائية الاستخبار والإخبار بالتوقف عند قول وقع فيه جدال لغوي طريف بين شخصيتين ينتهي بتفوق الشخصية الرئيسة بإصلاحه ليكون التفوق العلمي بؤرة الخبر وهذا ما يتضح من النماذج التمثيلية الآتية:

خ1:« قال أحمد: دخل علي بكر بن حماد، فتحدث عندي ساعة فقلت له: أيش قلت؟ فقال: قلت هذه الأبيات:

نهـــار مشرق وظـــلام ليـــل ألحا بالبياض و بالســـواد

هما هدمـــا دعائم عـــمر نوح ولقمان وشداد بن عـــاد

فيا بكر بن حمـــاد تعجـــــب لقوم سافروا من غير زاد

تبيت على فراشـــــك مطمئنـــا كأنك قد أمنت من المعاد

فيا سبحان من أرسى الرواسي وأوتدها على السبع الشداد

قال أحمد بن أبي سليمان: فلما انتهى إلى هذا البيت قلت له: أمسك. رفعت الجبال فوق السموات و أنزلت السموات تحت الجبال! فقال لي: وكيف ذلك؟ فقلت له: اقرأ سورة عم يتساءلون. فقرأها حتى انتهى إلى قوله تعالى: «و بنينا فوقكم سبعا شدادا »[1]، فقال لي والله لقد انشدته بالعراق ومصر و تاهرت و القيروان. فما فهمه أحد، وقد كسرته أنت فأصلحه، فقلت له: أفلا قلت: فأوتدها مع السبع الشداد قال: فقال لي: قد أصلحت ما أفسدت»[2].

خ2:« ومما يذكر من فصاحته و بلاغته ما ذكره بعض المؤلفين، قال: روينا أن عبد الله بن غانم- قبل أن يلي القضاء- دخل علي يزيد بن حاتم المهلبي فقال له: ما شيء بلغني عنك؟ فقال وما ذاك؟ أصلح الله الأمير فقال له: وقعت بنا عند يزيد بن أبي منصور الرعيني ابن عمك، وما بلاؤنا عندك وعند أهل بيتك؟ فقال: ما كان ذلك مني. كان المجلس الذي قرفت به عندك وأنا إذ ذاك ناقلة يوم كذا من شهر كذا، شاهدي عليك الرفقة بأسرها، وقد أهللنا هلال شهر رمضان، فتشيرناه بالأيدي، فقال له يزيد: لحنت يا ابن عم فقال له: ما هي لحنة، فقال له: فلم قلت تشيرناه؟ إنما هو تشاورناه فقال ابن غانم: تشاورنا من الشورى، وتشايرنا من الإشارة بالأيدي. قال: ما هو كذلك، فقال له ابن غانم: بيني و

[1]- سورة النبأ آية 12.

[2]- المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 508.

بينك أيها الأمير قتيبة النحوي، وكان إماما من أئمة أهل الكوفة، فبعث إليه يزيد. وكان في قتيبة غفلة، فقال له يزيد: إذ رأيت الهلال كيف تقول؟ وكيف يكون القول إذا أشرت إليه وأشار غيرك؟ قال: أقول ربي وربك الله! فقال له يزيد: ليس هذا أردنا فقال له ابن غانم: دعني، أصلحك الله، فإنه نحوي، آخذ له من طريق النحو فأفهمه فقال: لا تلقنه إذا، فقال له ابن غانم: إذا أشرت و أشار غيرك، فقلت تفاعلنا في الإشارة، كيف يكون قال: تشايرنا، فاستحي يزيد وقال ظلمناك يا ابن غانم و أنشد قتيبة لكثير عزة.

فقلت و في الأحشاء داء مخامر ألا حبذا يا عز ذاك التشاير

قال يزيد: فأين أنت يا قتيبة من التشاور فقال قتيبة : هيهات أيها الأمير، ليس هذا من عملك هذا من الشورى وذاك من الإشارة فضحك يزيد وعرف جفاء قتيبة فأعرض عنه»[1].

0-متعة التعرف:

أول ما يمكن أن نسجله على هذه العينة من الأخبار بالرغم من اختلافها في الشكل (موجز، ممتد) أن البؤرة المركزية تكشف عن نفسها منذ البداية من خلال ثنائية الاستخبار والإخبار التي تضعنا مباشرة في بؤرة القول الذي سيبنى عليه الحدث المركزي: متعة التعرف حيث سيبدأ الخبر الأول بالحديث عن المجلس الذي جمع شخصيتين أساسيتين (الفقيه أحمد بن داود، والشاعر بكر بن حماد) فينقلنا الحوار مباشرة إلى معنى ورد في أحد الأبيات الشعرية التي سيتوقف عندها الفقيه مستفسرا، فتتوالى الأحداث من خلال الاستخبار والإخبار لترتبط بالقول الشعري والتي ستضع ابن داود في موقف الذكاء الاختباري سينتهي بنجاحه في إظهار تفوقه العلمي، من خلال تمكنه من إصلاح معنى القول الشعري بؤرة الحدث، أما في الخبر الثاني فإن السارد يأتي بالقول في إطار المجلس

[1]- ن م، ص 219، ص 220.

الذي جمع بين الفقيه ابن غانم والأمير يزيد بن حاتم حيث ستتولى ثنائية الاستخبار والإخبار حكاية حدث إتهام الأمير الفقيه بالوقوع فيه بالسوء عند الخليفة العباسي، وهي التهمة التي سينكرها الفقيه فيحاول من خلال رده الدفاع عن نفسه و تقديم الدليل على براءته فيتوجه إليه الأمير فجأة باتهام جديد هو اللحن في الكلام فيتوقف السارد عند القول بؤرة الحدث الذي سيضيف شيئا للفحوى الموضوعاتي لحدث الاتهام حيث سيصبح مدلول خبره مرتبطا بحكاية معنى القول فتتناسل الأحداث التي ستضع الفقيه في موقع اختباري لذكائه و لكنه يقوم هنا على الاحتكاك فتظهر شخصية جديدة في الخبر هي قتيبة النحوي الذي يحكم بتفوق ابن غانم علميا مع الأمير.

في الخبرين معا تميزت عملية الحكي باعتماد صيغة إخبارية واحدة هي ثنائية السؤال والجواب التي سيعتمد فيها السارد على الخطاب المسرود لإنجاز البؤرة المركزية على مستوى بنيتين سرديتين مختلفتين: ففي الخبر الأول يكرس الخطاب بنية حكائية بسيطة أحادية المضمون الموضوعاتي جعلت الخبر يتميز بالإيجاز. أما في الخبر الثاني فالخطاب يكرس بنية خطابية أكثر تركيبا بظهور عناصر حدثية جديدة على مستوى الخطاب الحواري فتتنوع موضوعات الأحداث حيث سيراعي السارد أثناء عرضها تحديد العلائق بينها وبين الحدث البؤرة وهو ما سيجعل الحيز الخطابي يتميز بالاتساع في هذا الخبر.

وهكذا ونحن نتأمل البنيتين السرديتين السابقتين يمكن أن نصل إلى أن نسقيه الحدث الحكائي لفعل القول هي التي شكلت الجوهر الثابت الذي وحد بين البنيتين التي اتسم الحكي فيهما بالصدق والتزام حدود المرجعية التاريخية لتمكن القارئ من إدراك الحدث المركزي بتوجيه ذهنه مباشرة نحو متعة التعرف على شخصيات تاريخية اشتهرت بالاحتكام إلى منطق الكلام بما تختزنه ذاكرتها من ذكاء معرفي ستتولى البؤر الأساسية

توضيح معالمها خاصة في الخبر الثاني حيث سيزيد التركيب البؤرة المركزية أكثر نظاما و نسقية.

1- التعريف:

تنطلق بؤرة التعريف في الخبر الموجز بمؤشر مكاني « دخل علي » بعد أن ينسب الكلام فورا إلى « أحمد » صاحب الخبر الذي سيعتمد على السرد الأحادي ليفصل مرة واحدة حدثا أشار إليه هو مجلس المحادثة التي ستكشف عن القول الشعري أساس عقدة المعنى التي سيتوقف عندها صاحب الخبر متعجبا لينبثق منها مسار قصصي سيكون قوامه تحويل اهتمام الحكي نحو معنى القول إلى نهاية الخبر يقول « وقال أحمد: دخل علي بكر بن حماد فتحدث عندي ساعة فقلت له: أيش قلت فقال: قلت هذه الأبيات:1...5: فيا سبحان من أرسى الرواسي وأوتدها على السبع الشداد قال أحمد بن أبي سليمان فلما انتهى إلى هذا البيت قلت له أمسك رفعت الجبال فوق السموات وأنزلت السموات تحت الجبال!»[1]، يهتم السارد في هذه البؤرة بإظهار الأسماء الكاملة لشخصيات المحادثة و التي أدت وظيفة إشارية أضاءت التعريف بالكشف عن ملامح هويتها فمنذ البداية ارتبط الفعل الأول (دخل) باسم صاحبه بكر بن حماد و هو اسم لشاعر الدولة الرستمية الذي اشتهر بقصائد الزهد والمواعظ والرثاء، و قد عاش متنقلا بين الحواضر العلمية المغربية و المشرقية[2] ثم نقل الراوي في آخر البؤرة ليكشف عن اسم صاحب الخبر الذي لم تكن ملامح نسبه واضحة في الصيغة الاستهلالية وهو اسم الفقيه القيرواني المشهور صاحب الترجمة التي تضمنت الخبر وقد عاش زمن الأغالبة و اشتهر بأشعار الحكمة و الزهد[3]،

[1]- المالكي، رياض النفوس، ج1، ص507، ص508.

[2]- اسمه الكامل بكر بن حماد التهرتي الزناتي أنظر عنه كل من المالكي، ج2، ص21 إلى 25، الدباغ، معالم الإيمان،ج2، ص281 إلى ص 285.

[3]- أنظر ترجمته كاملة في المالكي، ج1، ص 505 إلى 513.

وهكذا بفضل الإحالة التي تضمنتها الأسماء نتعرف على الإطار المكاني و الزماني للحدث وهو القيروان في الفترة الزمنية التي أقام فيها الشاعر الرستمي.

ونلاحظ أن الخبر الممتد يستهل بجملة قصيرة تنسب إلى راوي نكرة يعتمد على السرد الإعادي ليعرفنا بصفة اشتهر بها صاحب الخبر « و مما يذكر من فصاحته و بلاغته ما ذكره بعض المؤلفين»[1] نستشف منذ البداية ما يدل على ذكاء السارد لأنه يعرف أن مقدمة الخبر مهمة لقيامها بـــ « الوظيفة الاستدراجية الإغرائية»[2]، لذا فهو يحرص منذ المستهل ربط انتباه القارئ مباشرة بموضوع البؤرة المركزية بهدف تشويقه و إثارة فضوله لاكتشاف تفاصيل الموضوع فيجعله أسيرا في شباك بؤرة الخبر و لا يفلته حتى يتابع الأحداث إلى نهايتها، و من المعروف أن هذه المقدمة التي تفتتح بها بعض الأخبار ترتبط بوظيفة الإقناع التي بنى عليها السرد في خطاب الأجناس السردية التي تضمنت الخبر، فهي بمثابة البؤرة الكبرى التي يتوالد على أساسها حكي الخبر الذي يأتي كشاهد لإقناع المتلقي بصحة ما جاء فيها « فهي منطلق الاتصال الحقيقي بين النص ومؤلفه من جهة وقارئه من جهة أخرى »[3] وكلما كانت مقدمة الخبر مثيرة ومختصرة اهتاجت لها نفس القارئ وملكته ليتابع الاستمتاع بمتن الخبر الذي يدشنه الراوي الثاني وهو المؤلف بصيغة استهلالية " روينا " تشكل وضع البداية لبؤرة التعريف التي تنطلق بمؤشر زماني ومكاني يؤطر حدثا بعينه هو المجلس يقول: « روينا أن عبد الله بن غانم - قبل أن يلي القضاء – دخل على يزيد بن حاتم المهلبي »[4] يقدم السارد إحالة مرجعية تعين محيط الحدث وقد حدد الفعل (دخل) المكان وهو مجلس ارتبط بشخصية تاريخية أشار اسمها الدقيق إلى زمن الخبر (أمير من أمراء الدولة العباسية) أما الإحالة المرجعية التي

[1]- ن م، ص 219.

[2]- محمد القاضي، معجم السرديات، ص 304.

[3]- ن م، ص 302.

[4]- المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 219.

تضمنها المؤشر الزمني فتستبعد الفترة التي اشتهر فيها ابن غانم بالقضاء لتحضر زمن الخبر وتوجز الشهرة في الصفة التي عرفتها المقدمة، وتختصر مضمون الخبر الذي سينشطر شطرين: الشطر الأول الحدث السبب بواسطة الحوار الذي يندرج نحو القول الذي ستتولد منه تهمة اللحن: « فقال له: ما شيء بلغني عنك؟ فقال: وما ذاك أصلح الله الأمير فقال له: وقعت بنا عند يزيد بن أبي منصور الرعيني ابن عمك، وما بلاؤنا عندك وعند أهل بيتك؟ فقال: ما كان ذلك مني كان المجلس الذي قرفت به عندك وأنا إذ ذاك ناقلة يوم كذا من شهر كذا شاهدي عليك الرفقة بأسرها وقد أهللنا هلال شهر رمضان فتشايرناه بالأيدي فقال له يزيد لحنت يا ابن عم»[1]، لقد وظف السارد في هذا الحوار أسئلة محددة من طرف الأمير كان لها دور فاعل في إغناء بؤرة التعريف حيث مثلت المدخل للتعرف على زمان ومكان ونسب شخصيات الحدث السبب بدقة، فذكر اسم الشخصية الهامشية في السؤال الثاني دلنا على زمن الحادثة الذي يعود إلى فترة ولاية يزيد بن أبي منصور الرعيني لإفريقيا[2] وفي ارتباط اسم الخليفة بكلمة " ابن عمك " إشارة تحيلناعلى صلة القرابة بينه وبين صاحب الخبر والتي تعرف ماكان مجهولا من نسبهما: الانتماء القبلي المشترك ويحيل بالتالي إلى عودة نسب ابن غانم إلى العرب المشارقة[3] وبعد ذلك سيأتي السؤال في آخر الحوار لينص بصفة ضمنية على نفس الإشارة "ابن عم"

[1]- ن م، ص 219.

[2]- ذكر الاسم في مصادر أخرى، يزيد بن منصور خلاف ما ذكره الخبر: وهو خال المهدي ومن جاء بعده من خلفاء بني العباس من رجالات إفريقية وانتقل عنها لما آلت الخلافة إلى أصهاره من بني العباس فعلا نجمه وولي الولايات الجليلة، أنظر رياض النفوس،هامش رقم 36، ن ص.

[3]- جاء في ترجمة ابن غانم، التي تضمنت الخبر: كان أبوه مذكورا في العرب الذين كانوا بإفريقية أيام بني أمية، أنظر المالكي، ص 215.

لتحيلنا هذه المرة على صلة القرابة التي تجمع بين قبيلتي الأمير وابن غانم فتتسع بذلك دائرة النسب المشرقي لتشمل يزيد بن حاتم المهلبي[1].

التعرف على علاقة النسب بين الشخصيتين الفاعليتين يؤذن ببداية الشطر الثاني بحوار جديد يحول مسار الحكي في الحدث نحو معنى القول ينطلق من جواب ابن غانم: « فقال له: ماهي لحنة، فقال له: فلم قلت تشيرناه؟ وإنما هو تشاورناه فقال ابن غانم: تشاورنا من الشورى، و تشايرنا من الإشارة بالأيدي، قال ما هو كذلك فقال له ابن غانم: بيني وبينك أيها الأمير قتيبة النحوي »[2] يحاول السارد في هذا الشطر من خلال الحوار الاقتراب أكثر من رسم معالم صفة البلاغة و الفصاحة التي اشتهر بها ابن غانم بإبراز قدرته على الشرح والتمثيل لإقناع ابن عمه بفصاحة قوله ولكنه فشل و يعزى في ذلك إلى الممانعة المتعنتة التي أبداها يزيد وهي ما جعله يلجأ إلى إنهاء الحوار بطلب الاحتكام إلى شخصية جديدة "قتيبة النحوي" ليؤدي ذلك إلى تدخل السارد بتعريف يكشف هوية الاسم « وكان قتيبة من أئمة أهل الكوفة، فبعث إليه يزيد، و كان في قتيبة غفلة »[3]، إنه تعريف بسيط سنرصد في ضوئه مفاصل السرد فيما تبقى من البؤر الأساسية التي ستسرد حدث الاحتكام.

ونستنتج أن بؤرة التعريف تقدم في الخبرين (الموجز والممتد) قولا يتعلق بشخصية علمية فليس هناك توازن واختلال بل إبراز تمركز البؤرة و اهتمامها بإظهار السبب في ارتباطه بحدث القول، ولكننا لاحظنا اختلافا في حجم الوحدة الحكائية لبؤرة التعريف فالخبر البسيط يقوم على وحدة سردية واحدة تتميز بالإيجاز وتتجه مباشرة نحو التعريف بسبب الحدث المركزي بؤرة الخبر، في حين تزداد الوحدة الحكائية في الخبر الثاني

[1]- المعروف أن الرعينين قوم ابن غانم و الأزد قوم يزيد بن حاتم يرجعون إلى القحطانية من اليمن، أنظر المالكي، هامش رقم 39، ص 219.

[2]- ن م ، ن ص .

[3]- ن م، ن ص.

اتساعا بتقديم توطئة توجز صفة الشخصية التي سيرتبط بها الحدث المركزي الذي سينشطر إلى مجموعة من الأحداث المتوالدة من القول و التي استدعت بعضها بعضا، فتتحول الوحدة الحكائية من وضع الإيجاز في الخبر الأول إلى صورة تتحول نحو الامتداد الذي تعززه بلاغة الإطناب، أما حضور الشخصيات والزمان والمكان فقد كان باهتا في هذه البؤرة اعتمد في النموذجين على المؤشرات التي ارتبطت بها، مع إدماج مؤشر صلة القرابة في الخبر الثاني حيث لم يكن حضورها حافزا على التفصيل في الحدث وتمديده بل جاءت فقط لتحيل على جوانب غامضة في التعريف سمحت بتثبيت بعض الملامح السردية المتعلقة بتأطير البنية الزمنية والمكانية للحدث وتحديد هوية شخصياته والتي جعلت التعريف أكثر وضوحا، فحركا المسار السردي نحو بنية المجالسة العلمية و التي ستظهر في البؤرة الثانية.

2- الكشف:

لهذه البؤرة حيز مخصوص في مسار عقدة القول فهي ترد بعد تحول الحدث نحو السؤال الذي مهدت له البؤرة السابقة فتتشكل بذلك بنية المجالسة العلمية التي تقوم على طلب العلم والبيان و الهدف من ذلك لم يكن في الخبر الموجز إلا الكشف عن علو المدارك المعرفية للشخصية صاحبة الخبر حيث ستنتهي البؤرة بفعل يحكم بتحويل معنى القول: « فقال لي: وكيف ذلك؟ فقلت له: اقرأ سورة عم يتساءلون، فقرأها حتى انتهى إلى قوله تعالى: «و بنينا فوقكم سبعا شدادا » فقال لي: والله لقد أنشدته بالعراق و مصر و تاهرت و القيروان فما فهمه أحد، وقد كسرته أنت فأصلحه، فقلت له: أفلا قلت: فأوتدها مع السبع الشداد »[1]، فيكون الجواب هنا مدخلا للاستشهاد بالآية القرآنية التي تشرح و تفسر و تحدد المعنى الصحيح الذي لم يغب عن صاحب القول فقط بل عن كل من سمعه في مختلف العواصم العلمية التي كان ينتقل فيها الشاعر فيأتي الطلب الذي توجه به للفقيه

[1]- المالكي، رياض النفوس، ج1،ص 508.

بإصلاح معنى البيت الذي كسره هو الفعل التحويلي الذي سيكشف عن قوة ذكاء الفقيه في توظيف معارفه العلمية فيظهر في الأخير قول جديد يحدد المعنى الصحيح و يمهد لنهاية الأحداث.

وعلى العكس من ذلك نلاحظ في الخبر الممتد أن بنية المجالسة العلمية تأتي لتطلعنا بوصول الشخصية إلى هدفها بظهور شخصية علمية تكون إلى جانبها لتقدم لها دعما معرفيا ينتهي بإقناع الأمير بفصاحة قولها الذي لم تتمكن من الوصول إليه بمفردها و هكذا ستسرد البؤرة حدثا يجسم التحول الأخير لمسار الحكي في الخبر« فقال له يزيد: إذا رأيت الهلال كيف تقول؟ وكيف يكون القول إذا أشرت إليه وأشار غيرك ؟ قال: أقول ربي وربك الله فقال له يزيد: ليس هذا أردنا فقال له ابن غانم دعني أصلحك الله فإنه نحوي، آخذ له من طريق النحو فأفهمه فقال لا تلقنه إذا فقال له ابن غانم: إذا أشرت وأشار غيرك فقلت تفاعلنا في الإشارة، كيف يكون ؟ قال: تشايرنا»[1]، وهكذا فقد بدا مشهد الاحتكام مناصرة لابن غانم دفعت عنه تهمة اللحن من جهة كما يمكن اعتباره من جهة أخرى الدليل الذي أكد قوة فطنته و ذكائه أثناء توظيف معارفه اللغوية، فلحظة تدخله في الحوار هي التي شكلت بؤرة الكشف عن ذلك فقد دفعته قوة فطنته إلى توظيف بلاغة تقوم على التلطف و التلميح خوفا من أن تتحول المجالسة مع الأمير إلى مواجهة تنتهي بالنقمة فيتمكن بفضل ذلك من الحصول على موافقته ليتولى هو طريق أهل النحو لإفهام الإمام بحشد المعنى البليغ والاستشهاد الواضح، وهو طريق لم يؤت للأمير وسنجد دليلا آخر على ذلك في بؤرة النهاية.

لقد ساهمت بنية المجالسة العلمية في النموذجين بالكشف عن بؤرة الفعل الذي دفع بالأحداث نحو الكشف عن صفة الشخصية المركزية وبالرغم من اعتماد الطابع التفصيلي للأحداث الذي استدعى حضور شخصية ثالثة تفصل في الحدث وتحولاته فإن ذلك لم

[1]- المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 219، ص 220

يساهم في توسيع المساحة السردية للخبر الممتد بشكل كبير مقارنة بحجمها في الخبر الموجز ويعود ذلك إلى اتكاء الحوار على الإيجاز بحشد الأمثلة الدالة في جمل قصيرة مكنت البؤرة من إحراز الكثافة القصصية حيث شكلت صورة لواقع ثقافي ازدهر فيه الفقه والأدب كان يعيشه المجتمع المغربي و تمثل شخصية كل من ابن داود و ابن غانم أنموذجا أحرزته تلك الحياة و بهذا تضفي على البنية القصصية العامة للبؤرة المركزية نوعا من النسقية تزيد من إمكانية تلقيها و تفاعلها لدى القارئ والتي سترسم الإثارة معالمها في البؤرة الأخيرة.

3- النهاية:

يقتصر وضع النهاية في الخبر الموجز الذي يسدل به السارد الستار عن بنية المجالسة التي اعتمد عليها لتقديم الحدث السبب على هذه العبارة الجوابية لبكر بن حماد: « قال: قد أصلحت ما أفسدت»[1] بيد أنها عبارة مكثفة غنية بالإيحاءات فهي تعكس اعتراف الشاعر بتفوق الفقيه عليه في صناعة معاني الشعر ومن خلاله يتجه مباشرة إلى إجلاء صفة التفوق العلمي التي أعدت إلى تشكيل عقدة القول بؤرة الخبر، لأن الشاعر لمح في نهاية الكشف إلى ذلك ولكنه لم يصرح فضل الأمر معقودا بالخاتمة فالمتأمل في خفايا الجملة الآتية: «والله قد أنشدته بالعراق ومصر وتاهرت والقيروان فما فهمه أحد »[2].يدرك أن النهاية تتميز بالتركيز العالي الذي يتجه نحو بؤرة معينة هي الاعتراف الذي يكشف عن الإيحاء الذي يتجه من خلاله السارد للإبانة عن سلوك محدد بصورة بالغة التكثيف تشكل الإطار الذي تنتهي عنده خيوط الحدث كله.

وبالانتقال إلى وضع النهاية في الخبر الممتد نلاحظ أن السارد سار فيه نفس اتجاه الخبر الموجز عندما تعلق الأمر بإنهاء حدث الاحتكام حيث اختتم بجملة مباغتة وشديدة

[1]- المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 508.

[2]- ن م، ن ص.

التركيز للراوي « فاستحي يزيد وقال: ظلمناك يا ابن غانم»[1]فالمتمعن فيها يدرك أن الفعل "استحي" الذي وصف به الراوي ردة فعل الأمير من حكم الإمام ليس سوى تلميح إلى اعترافه بتفوق الفقيه عليه في الفصاحة ثم يأتي الفعل المنسوب إليه ليمثل الاعتراف الصريح الذي يؤكد صفة التفوق العلمي التي أثبت من خلالها الفقيه براءته من كل التهم المنسوبة إليه، وهكذا تنتهي بنية المجالسة بتكثيف ايحائي أحرز السارد من خلاله التكامل في تقديم نهاية لغلق مختلف التوالدات الحدثية التي قدمتها البؤر السابقة، ولكننا لاحظنا أن السارد لكي يحقق التماسك بين البداية و البؤر الأساسية لا يكتفي بتوقيف السردية عندما انتهت حكاية معنى القول، بل سيستمر التعليق بإدراج قول شعري لكثير عزة أنشده قتيبة لإثبات صحة حكمه ليتجه السارد من خلاله لسرد حوار جديد يمثل لحظة التنوير لرسم فضاء النهاية على النحو الآتي:« قال يزيد: فأين أنت يا قتيبة من التشاور؟ فقال قتيبة: هيهات أيها الأمير، ليس هذا من عملك. هذا من الشورى وذاك من الإشارة، فضحك يزيد وعرف جفاء قتيبة فأعرض عنه»[2]، فلحظة التنوير في هذه النوعية من النهاية تكتسب أهمية خاصة، إذ هي النقطة التي تتجمع فيها خيوط الحدث حول بذرة الصفة غفلة التي اختتمت بها البؤرة الثانية وهي صفة تميز بها قتيبة وقد أشار إليها السرد في بؤرة الكشف لتمتد إلى الطبع الغليظ الذي سينغلق عليه الخبر، فيكتسب الحدث معناه الذي يريد السارد إبرازه وهو قصور الأمير عن الإفصاح البليغ – هنا أيضا – فيتحقق بذلك التماسك بين البداية و البؤر الأساسية وهو ما يؤكد صحة الفعل السلوكي (البلاغة والفصاحة) الذي اشتهرت به الشخصية المركزية ومثل بؤرة الحكي في الخبر.

إن صفة التفوق العلمي التي أسهمت الأفعال السردية والأوصاف المكثفة التي ظهرت في بؤرة النهاية في المثالين السابقين في جعلها أكثر معقولية وتأثيرا لدى القارئ

[1]- المالكي، رياض النفوس، ج1،ص 220.

[2]- ن م، ن ص .

وتزويده بمعارف لغوية جديدة وبناء عليه فهي تؤدي إلى إمتاع الذات الإنسانية المتلقية للسرد بتجارب الآخرين و تعميق معارفها فهي تمثل نموذجا للصفة الأخلاقية " الذكاء" التي يعمل مضمون الخبر على إثباتها حيث تعمد إلى شرح و تفسير خطاب التراجم و هو المقصد الأساس للغاية الحجاجية لخطاب التراجم الذي بنى عليه المالكي مصنفه يقول: «وقد كان بمغربنا منهم فقهاء وعلماء و متعبدون أهل فضل كامل و برهان شامل تواترت الأخبار بالصفات الجليلة عنهم»[1]، فهو يرسم بواسطة الصفة الجليلة (التفوق العلمي) صورة للسلوك الحسن الذي ينبغي للمتلقي أن يتصف به، كما تضمر هذه النهاية على رسالة خفية تروم البؤرة المركزية توصيلها حيث يسعى السارد من خلف أقنعة السرد التي يرتديها الخبر إلى خلق خطاب تواصلي يحض المتلقي على إدراك الصورة المثالية لشخصيات الخبر المركزية حيث اتسمت شخصية ابن داود في الخبر الموجز بالذكاء الشديد في تدبر معاني الشعر فاستطاع بذلك التفوق على الشاعر بكر بن حماد الذي اتسمت شخصيته بمحدودية معارفه اللغوية على عكس الصورة التي قدمتها لنا كتب التراجم و التي تصوره شخصية اشتهرت بقوة الحفظ و شدة ذكائها مع ما كانت مشهورة به من الشعر و الفصاحة و البيان، أما شخصية ابن غانم في الخبر الممتد فقد اتسمت بالذكاء الشديد في تدبر معاني الكلام و بالبلاغة و الفصاحة في الإفهام فاستطاع بذلك التفوق على يزيد بن حاتم الذي اتسمت شخصيته بقصوره عن الفصاحة و البلاغة في الإفهام على عكس صورتها التي قدمتها لنا كتب التراجم و التاريخ المغربية فهي تصوره شخصية تتمتع بجانب كبير من الذكاء في إدارة الحكم، و كان من فصحاء العرب و خطبائهم، و لكن المالكي لا يكتفي بهذه النهاية المكثفة بل يورد تعليقا لشخصية الشيخ النحوي يتوالد منه حدثا جديدا يقوم بالتفصيل في جزئيات الأحداث التي ظهرت في البؤر الأساسية فينتج عن ذلك اتساع في البنية الخطابية السردية للخاتمة حيث يستطيع الحدث

[1]- المالكي، رياض النفوس، ج1، ص9.

الجديد أن يرسم لنا صورة واضحة لشخصية قتيبة التي اتسمت بالغفلة والطبع الغليظ الذي كشفت عنه إجابته التي أثارت ضحكة الأمير كما تثير ضحك الراوي و المتلقي على حد سواء فيتبين بوضوح أن توسيع البنية السردية للنهاية هو علامة تبرز قدرة السارد على توصيل أشياء جديدة للقارئ تزيد من تأكيد صفة قصور الأمير عن الإفهام من جهة كما يحيلنا ذلك على حقيقة أخرى و هي لجوء قتيبة إلى مواجهة غضب الأمير بالتغافل عكس ما رأيناه عند ابن غانم في البؤرة السابقة حيث استطاع بشدة ذكائه اللجوء إلى توظيف الملاطفة لمواجهة ذلك، و هكذا فالامتداد يؤدي إلى إضاءة الصفة المثالية للشخصية المركزية وهو ما يجعل بؤرة النهاية في الخبر الممتد أكثر نسقية ووضوحا و تثبيتا مقارنة بالخبر الموجز.

ونلاحظ أن السارد يلجأ أحيانا في مثل هذه النوعية من الأخبار إلى تمديد البنية السردية للخبر الواحد باعتماد روايتين مختلفتين تمثل كل واحدة بالنسبة للأخرى مسارا موازيا يعمل السارد من خلاله على جعل الحدث البؤرة أكثر وضوحا فتتعالق المكونات الأساسية للخطاب السردي (الزمان، والفضاء، والشخصيات، والسرد...) للروايتين على مستوى البؤر الأساسية لتسهم في تطوير الحدث ليقدم للقارئ صورة لبؤرة مركزية يظهر الامتداد بنيتها الحكائية أكثر نظاما و نسقية، و يمكن أن نتتبع ذلك من خلال النموذج الآتي:

- الرواية الأولى: « قال صاحب الترجمة [يقصد محمد بن مرزوق الحفيد[1]] في بعض فتاويه حضرت مجلس شيخنا العلامة تحفة الزمان ابن عرفة[2]رحمه الله تعالى أول مجلس

[1]- من أعلام تلمسان في القرن الثامن، تفنن في ضروب المعرفة الفقه اللغة اشتهر بالفتوى سمي بالحفيد تميزا له عن جده محمد الذي اشتهر بالخطيب، أنظر ترجمته كاملة في ابن مريم، البستان، من ص 201 إلى ص 219.

[2]- محمد بن عرفة من أعلام تونس في القرن الثامن (العهد الحفصي) اشتهر بالفقه و إمام جامع الزيتونة و خطيبه، أنظر ترجمته كاملة في ن م، من ص 190 إلى ص 201.

حضرته فقرأ ومن يعش عن ذكر الرحمان[1] فجرت بيننا مذكرات رائقة و أبحاث حسنة فائقة منها أنه قال قرئ يعشو بالرفع و نقيض بالجزم ووجههما أبو حيان[2] بكلام ما فهمته و أظن في النسخة تصحيفا و ذكر ذلك الكلام فاهتديت إلى تمامه فقلت يا سيدي معنى ما ذكر أن جزم نقيض بمن الموصولة لشبهها بالشرطية لما تضمنت من معنى الشرط و إذا كانوا يعاملون الموصول الذي لا يشبه لفظه لفظ الشرط بالمشبه أولى بتلك المعاملة فوافق رحمه الله و فرح لأن كمال الإنصاف كان طبعه، و عند ذلك أنكر علي جماعة من أهل المجلس و طالبوني بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط فقلت نصهم على ذلك دخول الفاء في خبر الموصول في نحو الذي يأتيني فله درهم من ذلك فنازعوني في ذلك و كنت حديث عهد بالتسهيل فقلت قال ابن مالك فيما يشبه المسألة و قد يجزم مسبب عن صلة الذي تشبيها بجواب الشرط و أنشدت من شواهد المسألة قول الشاعر:

كذاك الذي يبغي على الناس ظالما تصبه على رغم عواقب ما صنع.

فجاء الشاهد موافقا للحال انتهى بنقل تلميذه المازوني[3]

-الرواية الثانية « و قد ذكر الشيخ ابن غازي[4] الحكاية في ترجمة شيخه الأستاذ الصغير وفيها بعض مخالفة لما تقدم فلنسقه قال: حدثني أنه بلغه عن ابن عرفة أنه كان يدرس من صلاة الغداة إلى الزوال يقرئ فنونا يبتدئ بالتفسير و أن الإمام ابن مرزوق أول ما دخل عليه و جده يفسر هذه الآية فكان أول ما فاتحه أن قال له هل يصح كون من هنا

[1]- الآية 36 من سورة الزخرف «و من يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين ».

[2]- أبو حيان الغرناطي من أعلام الأندلس مطلع القرن الثامن اشتهر بالفقه و اللغة له تفسير مشهور هو البحر المحيط ويعد من قمة التفاسير التي عنيت بالنحو و أظنه المقصود في نص الخبر أنظر ترجمته في محمد مخلوف، شجرة النورالزكية، ج1، ص 304.

[3]- ابن مريم، البستان، ص 212، ص 213.

[4]- ابن غازي المكناسي من أعلام المغرب في القرن الثامن تفنن في ضروب عدة من العلم، اشتهر بالفقه و الفتوى أنظر ترجمته كاملة في محمد مخلوف، ن م، ص 398-399.

موصولة فقال ابن عرفة إنما يقدم على هذا بنص من إمام أو شاهد من كلام العرب فقال ابن مرزوق أما النص يقول التسهيل كذا و أما الشاهد فقول الشاعر:

فلا تحفــرن بئــر تريد أخا بهــا فإنــك أنت من دونــه تقـــــع

كذاك الذي يبغي على الناس ظالما تصبه على رغم عواقب ما صنع

فقال ابن عرفة فأنت إذا ابن مرزوق قال نعم فرحب بهانتهى و هو خلاف ما تقدم و رأيت في بعض المجاميع زيادة و هي أن ابن عرفة اشتغل بضيافته لما انتهى المجلس »[1]

0 التعرف:

تقدم الروايتين نفس الخبر الموجز، و نسميه فيها موجزا جميعا لأن المساحة الخطابية النصية لا تتعدى أسطرا، و بقراءة الخبر في الروايتين يتبين أن الحدث فيها احتفظ ببنيته السردية البسيطة التي تميزت على مستوى البؤرة المركزية بوحدة الحدث (الخبر الواحد) الذي تجلى في التعرف على شدة الذكاء الذي تميز به الفقيه التلمساني ابن مرزوق الحفيد وهو ما جعله يتفوق على الفقيه التونسي محمد ابن عرفة و لكننا نلاحظ أن السارد اعتمد في تقديم البنية السردية للخبر الواحد على صيغتين خطابيتين مختلفتين الخطاب المعروض في الرواية الأولى مقابل الخطاب المسرود في الرواية الثانية، فالبؤرة المركزية و هي تعتمد الصيغة الأولى التي ترتبط بضمير المتكلم المفرد (أنا) فيضعنا صاحب الخبر(ابن مرزوق) منذ البداية في بؤرة القول الذي سينبني عليه الحدث المركزي متعة التعرف حيث سيسمح الحوار للذات الفاعلة في الخبر أن تعبر عن آرائها داخل مسار الحدث فيتمكن القارئ من إدراك مدى شدة و قوة صفة الذكاء التي ميزتها، وهو نفس المسار السردي الذي حافظت عليه البؤرة المركزية في الرواية الثانية و هي تحول الضمير من المتكلم إلى ضمير الغائب المفرد (هو) ليقدم الحدث في تواليه و تناميه فيسمح

[1]- محمد مخلوف، شجرة النورالزكية، ص 213.

للسارد نقل حوار الشخصيات الفاعلة حيث سيضعنا – هنا أيضا – في بؤرة القول الذي سينبني عليه الحدث في كشفه عن صفة الذكاء التي ميزت الشخصية المركزية للخبر، و يؤكد بذلك إمكانية عرض الخبر الواحد بصيغ مختلفة.

نقرأ الخبر في الرواية الثانية فندرك أننا أمام بنية سردية جديدة تخالف في مكوناتها وطبيعتها بنية الخبر في الرواية الأولى فعلى الرغم من احتفاظ الخبر ببنيته السردية البسيطة فإنه يوحي في مضمونه العام بامتداد الحدث و اتساعه، وقد أشار السارد إلى ذلك في السند الذي استهل به الخبر الثاني: «و قد ذكر الشيخ ابن غازي الحكاية في فهرسته في ترجمة شيخه الأستاذ الصغير و فيها بعض مخالفة لما تقدم فلنسقه قال: ...»[1]حين ننظر في هذا التصريح بالاختلاف بين الروايتين الذي تضمنه السند ندرك أن الرواية الثانية جاءت لتحقيق بعض عناصر السرد التي ظهرت في الرواية الأولى موجزة حيث ستلحق بها تفاصيل تشرح غوامضه أو تضيف إليها جزئيات لم تكن فيها أصلا[2]، فالسارد بعمله هذا يعيد تركيب الخبر ليقدمه بصورة جديدة من خلال الربط بين عناصر بعض البؤر الأساسية للروايتين « فيعمد إلى ما قد يرد في صورة موجزة في إحدى الروايات فيغنيه بما يعثر عليه في غيرها، وللمؤلف دور هام في هذا التركيب النهائي الذي يحصل عليه القارئ »[3]؛ فتتحول البنية السردية في ذهنه من البساطة إلى التركيب فتتضخم البؤر الأساسية و تظهر بشكل واضح وهو ما سيؤدي إلى جعل البؤرة المركزية للخبر في صورته المضخمة أكثر نظاما و نسقية مقارنة لبنيتها في صورته البسيطة التي قدمتها قراءة الرواية الأولى منفصلة عن الثانية، وهو ما سيتضح على مستوى البؤر الأساسية

[1]- ابن مريم، البستان، ص 213.

[2]- محمد القاضي، الخبر في الأــدب العربي، ص 503.

[3]- ن م، ص 498.

1- التعريف:

جاءت بؤرة التعريف في الخبر الأول موجزة إيجازا شديدا، اقتصر فيه الراوي المتماهي بمرويه على تقديم حدث حضوره الأول لمجلس الدرس لابن عرفة يقول: «حضرت مجلس شيخنا تحفة الزمان ابن عرفة أول مجلس حضرته فقرأ و من يعش عن ذكر الرحمان »[1]، غير أن بؤرة التعريف في الخبر الثاني صورة من الأولى قدم فيها الراوي المفارق لمرويه نفس الحدث ولكنه أضاف إليها جزئيات لم تكن فيها أصلا :«قال حدثني أنه بلغه عن ابن عرفة أنه كان يدرس من صلاة الغداة إلى الزوال يقرئ فنونا يبتدئ بالتفسير وأن الإمام ابن مرزوق أول ما دخل عليه وجده يفسر هذه الآية»[2]، فالرواية الثانية تميزت بأنها أخرجت المجلس من الإجمال إلى التفصيل بظهور مكون الزمن الذي يضبط إطاره الزماني بدقة فحدد أن ابن عرفة يقعد للتدريس من بعد صلاة الصبح إلى منتصف النهار ثم أضاف إلى ذلك تفاصيل جديدة فذكر أن الفقيه كان يدرس فيه أنواعا من العلوم يبتدئ بالتفسير ليصل إلى ذكر الحدث المشترك بين الروايتين و هو أن ابن مرزوق أول ما دخل عليه و جده يفسر نفس القول القرآني في الخبر الأول و لكنه لم يكرره و اكتفى بالإشارة إليه بعبارة " هذه الآية " في نهاية البؤرة ليؤكد الاتفاق في القول بين الروايتين.

ولو نظرنا في كتاب الفهرست[3]، لابن غازي لوجدنا الرواية ذاتها للخبر، ولكن ابن مريم نقلها مع شيء من التغيير في بؤرة التعريف، حيث قام بحذف اسم المكان الذي حدد إطار الخبر، وبعض الإشارات التي ارتبطت بأسماء الشخصيات يقول ابن غازي في الرواية الأصلية:« وحدثني أنه بلغه أنه كان يقعد للتدريس بمدرسته بتونس من بعد صلاة

[1]- محمد القاضي، الخبر في الأــدب العربي ، ص 212.

[2]- ن م، ص213.

[3]- محمد بن غازي، الفهرست، تحق: محمد الزاهي، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع تونس، ط1، 1984م.

الغداة إلى الزوال وكان يقرر فنونا يبتدئها بالتفسير وأن الإمام عبد الله بن مرزوق أول ما دخل عليه وجده يفسر هذه الآية:« ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين»»[1]، نلاحظ أن البؤرة تنتهي بذكر نص الآية الكامل، ولكن ابن مريم قام بحذفه و أبقى على العبارة الإشارية كمركز لفكرة التأليف بين نهاية البؤرتين في قول واحد لتبرز البؤرة عنده بصورة مغايرة لما ظهرت عليه في كتاب الفهرست. لذا نؤكد أن ابن مريم هو الصوت الأعلى الذي يعلو على كل من سبقه ممن نقل هذا الخبر حيث قام بتكثيف الحدث في البؤرة التي انتهت عنده بإحالة رواية ابن غازي في الخبر الثاني على رواية المازوني في الخبر الأول ليؤلف بين وحداتهما في خبر واحد.

ومن بنية التأليف، ولكن بأسلوب الإحالة تتصهر البؤرتين في كتاب البستان حيث قام السارد بتمديد الحكي في الرواية الثانية فضبط إطارا زمنيا للخبر فتخرج البؤرة في ذهن القارئ عن المسار الأصلي الذي تميز بالإيجاز في الرواية الأولى فتتحول نحو بعض الامتداد فإذا اتمه ذكر ما يشعر القارئ أنه خرق نظام النقل بإيجاده القول مركز الحدث رابطا لبداية التضخيم الذي سيقتصر دور الراوي فيه على ذكر ما تبقى من وحدات الرواية الثانية التي تحوي تفاصيل وجزئيات تعمل على تدقيق المحكي في الرواية الأولىبهدف تمديده ومضاعفته فيذهن القارئ وهذا ما سيظهر في البؤر القادمة .

1- الكشف:

تشكل هذه البؤرة في الروايتين الخطوة الأولى التي تدفع المسار السردي نحو حكاية القول لتتشكل بذلك بنية السؤال والجواب الذي سيقتصر الخبر فيها على الكشف عن علو المعارف النحوية لابن مرزوق وقد جاءت في النص الأول مفصلة استثمر فيها السارد الآليات البلاغية المناسبة للإطناب السرد المباشر والحوار الطويل الموغل في

[1]- محمد بن غازي، الفهرست، ص 61، ص62.

التفصيل لأجل أن يجعلها تختص بسرد وحدتين تفتتح الأولى بمقدمة تبين الموقف الذي جعل ابن عرفة يقدم قراءة للقول القرآني فيها ما يجهله مما دفع ابن مرزوق لإثارة مسألة نحوية في بداية البؤرة ليفسر له بها غموض القراءة يقول:« فجرت بيننا مذاكرات رائقة وأبحاث حسنة فائقة منها أنه قال قرئ يعشو بالرفع و نقيض بالجزم ووجههما أبو حيان بكلام ما فهمته وأظن في نسخة تصحيفا وذكر بعض ذلك الكلام فاهتديت إلى تمامه فقلت يا سيدي معنى ما ذكر ابن حزم أن جزم نقيض بمن الموصولة لشبهها بالشرطية لما تضمنت من معنى الشرط وإذا كانوا يعاملون الموصول الذي لا يشبه لفظه لفظ الشرط بالمشبه أولى بتلك المعاملة فوافق رحمه الله وفرح لأن كمال الإنصاف كان طبعه»[1]، وباعتراف ابن عرفة بتفوق ابن مرزوق عليه ينشئ راوي الخبر الوحدة الثانية باستحضار شخصيات جديدة هم جماعة من أهل المجلس أنكروا المسألة النحوية على ابن مرزوق وطالبوه بالدليل لتنتهي البؤرة بتفوقه يقول:« وعند ذلك أنكر علي جماعة من أهل المجلس و طالبوني بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط فقلت نصهم على ذلك دخول الفاء في خبر الموصول في نحو الذي يأتيني فله درهم من ذلك فنازعوني في ذلك وكنت حديث عهد بالتسهيل فقلت له قال ابن مالك فيما يشبه المسألة و أنشدت من شواهد المسألة قول الشاعر:

كذاك الذي يبغي على الناس ظالما تصبه على رغم عواقب ما صنع»[2].

وإذا ما انتقلنا إلى بؤرة الكشف في النص الثاني نجدها مختزلة استثمر فيها السارد الآليات البلاغية المناسبة للإيجاز الحوار المقتضب المحدود الوظيفة ليلخص لنا خبر تفوق ابن مرزوق على ابن عرفة يقول: « فكان أول ما فاتحه هل يصح كون من هنا موصولة فقال ابن عرفة كيف وقد جزمت فقال له تشبيها لها بالشرط فقال ابن عرفة إنما

[1]- ابن مريم، البستان، ص 212، 213.

[2]- ن م، ص213.

يقدم على هذا بنص من إمام أو شاهد من كلام العرب فقال ابن مرزوق أما النص فيقول التسهيل كذا وأما الشاهد فقول الشاعر:

فلا تحفرن بئرا تريد أخا بهـــــــا فإنك فيها أنت من دونه تقـــــع

كذاك الذي يبغي على الناس ظالما تصبه على رغم عواقب ما صنع»[1]

ومن خلال المقارنة بين البؤرتين نلاحظ أن جوهرالخبر في الروايتين واحد هو نقل محادثة الإمامين حيث سيتولى الحوار الذي يجسد ثنائية متكررة في هذه النوعية من الأخبار هي السؤال والجواب التي أظهرت تفوق إمام تلمسان ابن مرزوق نحويا على إمام تونس ابن عرفة المشهور بالفقه بإيجاده مصوغا نحويا يشرح غموض قراءة القول بؤرة الحدث في الخبر، ولقد اعتمد الخبر الأول التفصيل في البؤرة حيث طعم الراوي الداخلي الحوار المفصل بالسرد الذي أنهى المحادثة باستدعاء شخصيات جديدة أدت إلى توالد وحدة جديدة تولت فيها هذه الشخصيات محاورة ابن مرزوق حيث تناسل فيها حدث القول نحو ضرورة البرهنة على صحة المسألة النحوية التي انغلقت عليها المحادثة الأولى لتنتهي بتفوق إمام تلمسان في إيجاده الشاهد النحوي الذي أكد صحة مسألته أما الخبر الثاني فقد انحصر في الحوار المقتضب الذي اختصر من خلاله الراوي الخارجي البؤرة الأولى في وحدة واحدة فجردها من الجزئيات حيث تخلى عن الشخصيات الثانوية وقام بدمج جوهر خبرها في حوار الشخصيتين الفاعلتين في الخبر، وإذا كان تلخيص الحوار يوهم بتقلص دور الراوي الخارجي فإنه في الحقيقة يلم على امتداد سلطانه فعلى الرغم من خفوت صوته وعلو صوت ابن عرفة وابن مرزوق فهو يتكلم بدلا عنهما، بإيجاده التدقيق أســلوبا من أساليب التضخيم فيضيف ما يريد أن يظهر في الرواية الثانية وهو البيت الشعري الذي نسيه ابن مرزوق في الرواية الأولى.

[1]- ابن مريم، البستان ، ص213.

إن هذا الأسلوب من التضخيم يمثل درجة من الإبداع الذي أظهره ابن مريم في التأليف بين البؤرتين لأنه يريد أن يفهم المتلقي أنه مدرك تمام الإدراك لعمله في تضخيم البؤرة فهو يلجأ للتدقيق الصريح لكلام الشخصية الفاعلة في الخبر بهدف إغنائه بقول لم يرد أصلا في الرواية الأولى ومن هنا يتضح لنا دور الراوي العليم الذي يجوز له أن يعرف القارئ بالقول إن كان جاهلا له أو يذكره به إن كان قد نسيه وهو ما سيجعل البؤرة أكثر امتدادا ووضوحا في ذهنه، ويمكننا أن نجد لهذا التدقيق الصريح علة أخرى لعلها تكون مرتبطة بالإحالة التي يمكن أن يفهمها القارئ للإثارة العقلية التي تشكل هيكل النهاية في البؤرة الأخيرة.

3- النهاية:

تعد هذه البؤرة الختامية في الوحدة الثانية من الرواية الأولى المقابل الطبيعي لنهاية الوحدة الأولى منها، حيث يتفق الوضع الأخير فيهما على جعل مدار الحدث هو إبراز التفوق العلمي الذي حققه ابن مرزوق في مجلس ابن عرفة، والجامع بين هذا الالتقاء الذي تؤول إليه الخاتمة هو القول بؤرة الحوار المشترك بين شخصيات الخبر، فلا يتصور أن إمام تلمسان تفوق على شيخ تونس المشهور ولم يتفوق على أهل مجلسه من العلماء. وإذا كان السارد قد أنهى الوحدة الأولى بالتصريح باعتراف ابن عرفة بتفوق ابن مرزوق عليه قائلا:« فوافق رحمه الله وفرح لأن كمال الإنصاف كان طبعه »[1]، فقد كان لهذه العبارة المقتضبة الغنية بالإيجاز الذي لخص لنا صفة الإنصاف التي اتصف بها الشيخ ابن عرفة واستطاعت أن تبرر لنا الاعتراف، وتساهم من جهة أخرى في اتساع البنية السردية للخبر بظهور جماعة من أهل المجلس أنكرت الاعتراف لتنبني بذلك وحدة خطابية جديدة اهتمت بنقل حوار الجماعة مع ابن مرزوق لينتهي الخبر بعبارة موجزة هنا أيضا اكتفى فيها السارد بالتلميح إلى اعتراف ابن مرزوق بالتفوق على محاوريه قائلا:« فجاء الشاهد

[1]- ابن مريم، البستان ، ص213.

موافقا للحال»[1]، فالمتأمل في ثنايا هذا التعليق شديد التركيز الذي رسم لنا من خلاله الراوي صفة الذكاء التي اتصف بها إمام تلمسان وتمثلت تحديدا في قوة حفظه التي مكنته من تذكر قول الشاعر الذي يشرح المسألة وإنشاده يدرك أن التلميح في هذه العبارة شديدة التكثيف يحيلنا مباشرة نحو بؤرة معينة هي التفوق العلمي الذي انتهت به الوحدة مركز الخبر حيث يتجه الحكي من خلاله للإبانة عن سلوك اتصفت به الشخصية المركزية هو الذكاء ليتشكل بذلك الإطار المشترك الذي تنتهي عنده خيوط الحدث التي تجعل الروابط قوية بين الحدث بؤرة الخبر في الوحدتين، ولكننا لاحظنا أن السارد لا يكتفي بتوقيف السردية عند انتهاء التعليق بل سيستمر بإدراج تعريف بالراوي الذي نقل عنه الرواية ولم يرد اسمه في السند الافتتاحي لينغلق الخبر بالشكل الآتي:« انتهى بنقل تلميذه المازوني»[2]، فيكون التعريف قد أعلمنا أن الرواية التي نقلها مؤلف البستان عن تلميذ ابن مرزوق انتهت.

ولعل في هذا الربط المخصوص الذي أدخله ابن مريم على نهاية الرواية الأولى هو من العوامل التي تزيد حظ روايته من الفن فالسبب الحقيقي لإلغاء سلسة السند الأساسية من البداية وذكرها في الخاتمة هو وسيلة فنية تحيل القارئ مباشرة نحو خاتمة الرواية الثانية التي تأتي مكملة للأولى عن طريق إدماج حدث لا يوجد فيها يقول: « فقال ابن عرفة: فأنت إذن ابن مرزوق قال: نعم، فرحب به انتهى وهو خلاف ما تقدم »[3]، تضع هذه النهاية بين يدي القارئ صورة موجزة وإيحائية لتمديد المسار القصصي للنهاية الأولى حيث تحيل القارئ على حدث يشرح سبب الاعتراف الصريح لابن عرفة بتفوق ابن مرزوق ليرتبط بالشهرة العلمية التي حققها ابن مرزوق في المغرب وجعلت الشيخ يتعرف عليه مباشرة ويرحب به، ونلاحظ أن السارد يعمد بعد ذلك إلى أخذ مقطع وجده

[1]- ن م، ص 213.

[2]- ابن مريم، البستان ، ص213.

[3]- ن م، ن ص.

في بعض المجاميع وأضافه إلى النهاية لإضاءتها بحدث جديد يقول: « ورأيت في بعض المجاميع زيادة وهي أن ابن عرفة اشتغل بضيافته لما انتهى المجلس ».[1]

ولكننا نلاحظ أن السارد لكي يحقق بداية التركيب بين الروايتين لا يكتفي بتوقيف الخاتمة عند التعليق بل سيستمر في سرد تعريف بالراوي الذي نقل عنه الرواية، ولم يرد اسمه في السند الافتتاحي لينغلق الخبر بالشكل الآتي : « انتهى بنقل تلميذه المازوني»[2]، فيكون التعريف قد أعلمنا أن الرواية التي نقلها مؤلف البستان عن تلميذ ابن مرزوق انتهت.

وهكذا فإن هذا التعريف الذي ألغاه " ابن مريم من السند الأساسي و أدخله على نهاية الرواية الأولى هو ما سيشكل الأساس لظهور الرواية الثانية أصلا حيث ستنطلق بسند افتتاحي بمثابة بيان يعقد اتفاقا بين السارد والقارئ أن البؤر الأساسية تتسم بالامتداد وكما هو معلوم من البؤرتين السابقتين أن أي فعل سردي تركيبي سيزودنا بشيء من التأليف و التدقيق، وهو ما سيجعل بؤرة النهاية في الخبر الثاني تسير في نفس الاتجاه الموجز لبؤرة الكشف لتقتصر الخاتمة على حوار شديد التركيز أضاف إلى نهاية الوحدة الأولى من الخبر الأول تفاصيل جاءت لتؤكد الاعتراف الصريح للفقيه التونسي بتفوق الإمام التلمساني عليه لغويا « يقول ابن مريم:« فقال ابن عرفة : أنت ابن مرزوق قال: نعم فرحب به. انتهى وهو خلاف ما تقدم»»[3] ، بيد أن السارد اختار أن ينهي الحوار المكثف بعبارة هيئة المتلقي لتقبل تفوق السارد العليم على السارد الداخلي في الرواية الأولى حيث أتاح له موقعه أن يقدم صفة أخرى اتصف بها الإمام التلمساني هي الشهرة العلمية التي جعلت الشيخ التونسي يتعرف عليه فورا و يرحب به، فيكتسب الامتداد بذلك معناه الذي

[1]- ن م، ن ص.

[2]- ابن مريم، البستان، ص213.

[3]- ن م، ن ص.

يريد السارد إبرازه فيتجه التركيب نحو إضاءة بؤرة معينة هي" التفوق العلمي " الذي يشكل الإطار الذي تنتهي عنده خيوط الحدث في الروايتين.

وقد أتاحت العبارة النهائية للراوي العليم أن يزيد حظ نهايته من الإضافات بتقديم مقطعا آخر ظهر في بعض الكتب جاء كدليل لتأكيد صحة التفوق يقول: « ورأيت في بعض المجاميع زيادة وهي أن ابن عرفة اشتغل بضيافته لما انتهى المجلس»[1] ، و يتضح من هذه الزيادات التي تكمل الخبر السردي دور ابن مريم في إبراز السلوك الأخلاقي الأساس " الذكاء " وهو ما يؤدي إلى التنسيق بين نهاية الخبرين ليساعد ذلك السارد في إيجاد سبب يفسر ظهور الخبر الثاني مجرد من الوحدة الثانية حيث اكتفى السارد فيها بكلام الشخصية صاحبة الخبر فيحلنا ذلك على العلة الحقيقية التي جعلته يعتمد أسلوب التدقيق الصريح في الكشف و الذي يهدف من ورائه إلى إحالة ذهن القارئ على صفة " الشهرة العلمية " التي حققها ابن مرزوق في الفضاء المغربي لجعلها أكثر معقولية و تأثيرا . فالسارد يسعى عبر تزاوج ثنائي بين التخيل و الخبر لبناء موقف تواصلي ينسجم مع الغاية المعرفية التي تهدف البؤرة المركزية لخبر النادرة توصيلها للمتلقي وهي متعة التعرف على معارف لغوية جديدة كما يتضمن هذا الموقف التواصلي رسالة خفية بمثابة حجة تاريخية تعمد إلى شرح و تفسير خطاب التراجم الذي انبنى عند ابن مريم في مؤلفه على الاهتمام برسم صورة مثالية عن " الذكاء العلمي" الذي اشتهر به أهل بلده تلمسان و شكل خبر ابن مرزوق نموذج منه وهو ما يضفي على البنية السردية العامة نوعا من الامتداد الذي يزيد من إمكانية التأثير في القارئ التلمساني حيث سيغدو خبر النادرة حجة على ثنائية الذكاء / التفوق و مثالا يحتذى في السلوك الإنساني اليومي.

[1]- ابن مريم، البستان ، ص213.

2- البؤر في البنية الحكائية لأخبار نوادر الطرف:

استنادا على الخطاطة التمثيلية لخبر نادرة الطرف التي تتبني على بؤرة مركزية: متعة التفكه حيث تقوم على الطرفة التي تعني « الخبر الطريف أو القصة المستملحة، التي تثير في السامع أو القارئ ابتسامة أو ضحكا، وغايتها التسلية والاستمتاع بما يحكى أو النقد والسخرية»[1]، وقد وجدنا أثناء متابعتنا لأخبار الطرف في المدونة المغربية- في الفصل الأول- أن الطرف تكون في الغالب أخبارا موجزة تضمنت نكتة أو طرفة موجزة تأتي لغاية التفكه أو الترفيه عن القارئ « فالفكاهة المزاح ما يتمتع به من طرف الكلام، والفكه أو الفاكه: هو طيب النفس الذي يكثر من الدعابة. والفكيه: الفاكهة، والفكيهان: الضحاك اللعوب، والأفكوهة: الأعجوبة، والملحة أو القصة الفكهة جمع أفاكيه»[2]، فالمزاح عادة ما يعبر عن السرور والضحك بأنواعه وحالاته كلها فالمزاح هو الموضوع المحوري المشكل لفعل الطرف الذي تتبني عليه بؤرة التفكه في إمتاعها المتلقي حيث تعمل الكثير من أخبار الطرف على إبراز صفة الدعابة التي نجدها مرتبطة بالخاصة من العلماء وسنحاول متابعة ذلك في أخبار الطرف من خلال النماذج التمثيلية الآتية:

خ1« ذكر أنه حضر جنازة (يعني الفقيه محمد بن زرزر)، وحضرها معه أبو المنهال[3]وكان عظيم الجاه رفيع القدر فسأله ابن زرزر عن مسألة فأخطأ ثم ثانية فأخطأ فقام ابن زرزر قائما على قدميه ثم كبر وصلى عليه كما يصلى على الميت، وقال له: أنت أولى أن يصلى عليك من هذا الذي حضرنا جنازته »[4] .

---

[1]- إبراهيم بن صالح، هند الشويخ، النادرة في بخلاء الجاحظ، دار محمد علي الحامي صفاقس، د ط، 2004م، ص 48.

[2]- المعجم الوسيط، ج1، ص167.

[3]- من أعلام الفقهاء العراقيين. عرف به الخشني في طبقاته، ص 191، وعده في مقدمي رجالهم. رياض النفوس، ج1، هامش رقم 4، ص 514.

[4]- ن م، ن ص.

خ2:« وذكر عنه (يعني الفقيه أحمد بن داود) أنه كان قوم أندلسيون يسمعون على أحمد، وكانوا يؤملون الحج، فحضرهم وقت الحج وبقيت عليهم كتب، فسألوه أن يصبر عليهم ويجلس لهم حتى يتموا ما بقي عليهم في هذه الأيام اليسيرة، فقعد لهم يوما فضاق، وقعد لهم يوما ثانيا فضاق فقال في اليوم الثالث:

سألبس للصبر ثوبا جميلا وأفتل للضجر حبلا طويلا

وأصبر بالرغم لا بالرضا أخلص نفســـــي قليلا قليلا»[1]

خ3:« وبلغنا أن مهدي[2]، خطب امرأة بجبل نفوسة، فمضت المرأة إلى شيخ من شيوخ نفوسة مستشيرة في أمرها فقال لها الشيخ إن مهدي رجل له عبادة وورع ورغبة في الآخرة وهو من أهل الصلاح له ثلمة في فدادينه لها سد فوق سد قد انهدمت جسورها فلا يقدر على سدها وإصلاحها إلا قليل من الناس فإن زوجته فأظن أنها لا تسد إلا بتراب تنقلينه على رأسك. فرجعت المرأة وتزوجها مهدي فمكث الشيخ زمانا ثم أتاها زائرا في منزلها فوجدها ليست فيه فسأل عنها فأخبر بموضعها فتوجه نحوها فوجدها تنقل التراب على رأسها للثلمة فتذكر قوله لها »[3]

0- متعة التفكه:

يستند الحكي داخل البؤرة المركزية في هذه النماذج الخبرية الموجزة إلى موضوع مشترك هو متعة التفكه، التي تتولى الشخصية المحورية إنجازها (الفقيه محمد بن زرزر، والفقيه أحمد بن داود، والشيخ النفوسي) والتي تأتي مختزلة لعلاقة الاستلزام الضمني القائمة بين سلوك الشخصيات الثانوية المتجسد في أفعالها (غباء الفقيه أبي

[1]- رياض النفوس، ج1، ص505.

[2]- الإمام مهدي الإباضي، اشتهر بعلمه بجبل نفوسة، ساعد الإمام عبد الوهاب بن رستم في محاربة المعتزلة. السيرة وأخبار الأئمة، هامش رقم 8، ص 105.

[3]- ن م، ن ص.

المنهال، وغباء الطلاب الأندلسيين، وطاعة المرأة لزوجها) فلا نستطيع أن نفصل بين هذا السلوك الخاص للوصول إلى ذلك السوك العام الزاخر بالقيم والمعايير الاجتماعية حيث يرتبط الابتسام و الضحك بالاستمتاع مع الآخرين وبوجودهم، وقد يضحك الناس من هؤلاء اللذين يخرجون عن معايير الجماعة وقيمها رغبة أن يعيدوهم إلى نطاق القيم بإثارة التسلية التي تهدف إلى التعليم والإرشاد[1].

ورغم طابع الجد الشامل لطبيعة الشخصيات المحورية التي اتسمت بالرتبة العلمية، إلا أنها استطاعت أن تخفف من جدية سلوكها بتفعيلها للحدث الطريف المولد للبرنامج السردي الذي سيتولى نقل سلوك الشخصيات المسؤول عن تشكيل بنية القول النادر للطرفة اللطيفة التي تقدم موقفا قصصيا مركزا هو أشبه باللمحة القصصية وذلك يعود لكونها خبرا نادرا يتسم بالمرح ويتكون من وحدة سردية مستقلة بذاتها تقوم على الإيجاز محدودة الخاصيات نمطية الشخصيات وتتكون من عناصر يدور موضوعها حول وقائع الحياة اليومية وتجارب نموذج قصصي واحد[2]، وهو ما سنقوم بتتبعه على مستوى البؤر الأساسية.

1- التعريف:

يبدأ الحكي على مستوى التعريف بصيغتين استهلاليتين غامضتين (ذكر، بلغنا) تشيران إلى شخصية الراوي المجهول الأصل الذي اكتفى السارد بأن يكون الوسيط الناقل لروايته حيث سينقل لنا في الخبر الأول وصف لحال الفقيه العراقي أثناء حضوره لجنازة أحدهم مع الفقيه المغربي يقول:« ذكر أنه حضر جنازة (يعني الفقيه محمد بن زرزر)

[1]- هنري برجسون، الضحك، تر: سامي الدروبي، وعبد الله عبد الدايم، عن سلسلة الألف كتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط ، 1998م، ص 216.

[2]- محمد رجب النجار، التراث القصصي في الأدب العربي، مقاربة سوسيو سردية، ط1، 1995م، ص 704.

وحضرها أبو المنهال وكان عظيم الجاه رفيع القدر) [1]. ويرسم لنا في الخبر الثاني صورة الفقيه المدرس في مجلس سماعه مع الطلبة الوافدين من الأندلس يقول: « وذكر عنه (يعني الفقيه أحمد بن داود) أنه كان قوم أندلسيون يسمعون على أحمد »[2]، أما في الخبر الثالث فيقدم لنا وصف لحال المرأة التي جاءت تستشير الشيخ النفوسي في أمر زواجها يقول: «وبلغنا أن مهدي خطب امرأة بجبل نفوسة فمضت المرأة إلى شيخ من شيوخ نفوسة مستشيرة في أمرها»[3] .

وهكذا بدت لنا هذه الصورة الموجزة للتعريف بأحوال شخصيات الخبر باهتة تعتمد على الإحالة التي تنطوي عليها أسماء الشخصيات المركزية وتعيننا في تحديد الإطار المكاني والزماني للحدث كما توضح لنا الهوية المشتركة المتمثلة في السمة العلمية التي تجمع بين الرتبة الاعتبارية المسؤولة عن جعلها شخصية نموذجية خرجت عن عادتها بممارستها لفعل التفكه بالدعابة القائمة على التكثيف والإيجاز مما جعل الحكي برقيا وهو ما ستتضح بعض ملامحه في البؤرة الثانية .

2- الكشف:

يتم التعبير عن تفاصيل الحدث الطريف داخل هذه البؤرة باستخدام الأسلوب المباشر في الكشف بصورة صريحة تأخذ شكلا طريفا نادرا بالتعبير عن السلوك الذي لا يحقق المعنى المألوف، داخل المواقف التي نقلها الحكي ففي الخبر الأول نجد أن السارد ينقل سلوك الشيخ الغريب الذي أبداه في مراسيم تشييع الرجل الميت يقول:« فسأله ابن زرزر عن مسألة فأخطأ ثم ثانية فأخطأ فقام ابن زرزر قائما على قدميه ثم كبر وصلى عليه كما

[1]- رياض النفوس، ج1، ص 514.

[2]- ن م، ص 505.

[3]- السيرة وأخبار الائمة، ص 114.

يصلى على الميت»[1]، أما في الخبر الثاني فيكشف عن موقف الجلوس المتكرر الذي تخلله قول مقتضب مولد لسمة الصبر التي واجه بها الشيخ طلابه الأغبياء يقول:« وكانوا يؤملون الحج فحضرهم وقت الحج وبقيت عليهم كتب فسألوه أن يصبر عليهم ويجلس لهم حتى يتموا ما بقي عليهم في هذه الايام اليسيرة، فقعد لهم يوما فضاق وقعد لهم يوما ثانيا فضاق»[2]، وفي الخبر الأخير يمتد الحكي ليكشف لنا عن النصيحة المباشرة التي حملت طابع تحذير الشيخ للمرأة من الزواج بالعالم المتعبد ليتطور الحدث بانتقال الشيخ لمعاينة حال المرأة بعد الزواج « فقال لها الشيخ: إن مهدي رجل له عبادة وورع ورغبة في الآخرة وهو من أهل الصلاح له ثلمة في فدادينه لها سد فوق سد قد انهدمت جسورها فلا يقدر على سدها وإصلاحها إلا قليل من الناس فإن زوجته فأظن أنها لا تسد إلا بتراب تنقلينه على رأسك فرجعت المرأة وتزوجها مهدي فمكث الشيخ زمانا ثم أتاها زائرا في منزلها فوجدها ليست فيه فسأل عنها فأخبر بموضعها فتوجه نحوها »[3].

وهكذا بالاعتماد على الكشف يستطيع القارئ أن يتبين سخرية الموقف النادر التي تولت البؤرة نقله من منطق المقلوب الذي يعكسه سلوك هذه الشخصيات من أول عبارة فيه وعلى امتداد الحكي في النماذج الثلاثة ذلك أن السارد يتحدث عن موقف يتخذه وسيلة لإبراز المفارقات السلوكية بين الجد والهزل التي تسعى لتنقل لنا تجارب الحياة تتقاطع فيها الدلالة على«الإضحاك والضحك باعتبارهما لحظتان حاسمتان بالنسبة لنص الطرفة الأول هو إرادة المؤلف في إنشاء أثر ما والثاني هو الأثر الناتج عن نشاط تلك الإرادة

[1]- رياض النفوس، ج1، ص 514.

[2]- ن م، ص 505.

[3]- السيرة واخبار الأئمة، ص 114.

الإضحاك مرتبط بالباث والضحك بالمتقبل »[1]، ليتقاطع مفهوم الضحك ليركب الدعابة التي يمتزج فيها السرد بالإرشاد في البؤرة الأخيرة

3- النهاية:

يفعل الحكي الاختزالي الذي بنى عليه السارد بنية الموقف الطريف الدال لتشييد البؤرتين السابقتين لتأتي النهاية لتكثف وتركز الشعور بمفارقة السلوك البالغ التأثير في الإضحاك ففي الخبر الأول تنقل سلوكا يثير السخرية والتهكم « وقال له: أنت أولى أن يصلى عليك من هذا الذي حضرنا جنازته»[2]وهكذا يتضح في سياق هذا المنظور الساخر من قصور الفقيه عن الإجابة إدراك الناس لسلوكه المتناقض مع حالة الجاه التي يعيشها. أما في الخبر الثاني فالفقيه استطاع أن يجد في الشعر وسيلته لنظم الأبيات لما له من مكانة في النفوس وما يكفل له الوزن من سهولة الحفظ والتذكر ولاسيما أن رواية الطرفة شفوية بالأساس ولذلك فهو الرسالة التي تنقل الحكمة لتصحح أخلاق المجتمع. وبانتقال النهاية في الخبر الثالث إلى الكشف عن تحقق حدس الشيخ يتأكد الموقف الساخر من واقع طريف يعيشه العلماء يثير الاستغراب يقول:« فوجدها تنقل التراب على رأسها للثلمة فتذكر قوله لها »[3].

ونخلص من خلال تتبعنا لدلالة هذه البؤرة أنه أيا كان المجال الأساس للحكي داخلها فإنه يعكس بعد التفكه وذلك لسبب بسيط يتصل بطبيعة النفس البشرية ودور الطرفة لإثارة الضحك في حياتنا، دور كان الحصري قد وضحه حين حدد ارتباط الملح بالضحك يقول: «ترتاح إليه الأرواح وتطيب له القلوب وتتفق فيه الأذان وتشحذ به الأذهان ويطلق النفس من رباطها ويعيد إليها عادة نشاطها إذا انقبضت بعد انبساطها فقد قيل إن القلب إذا كره

[1]- عبد الوهاب الرقيق، هند بن صالح، أدبية الرحية ، ص 109.

[2]- رياض النفوس، ج1، ص 514.

[3]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 114.

عمي والخاطر إذا مل كل»[1]، فمتلقي الخبر بحاجة إلى الطرفة التي تحقق المتعة الحسية لتثير الضحك وفي الوقت نفسه تأثر على العقل لتقويم القيمة الخلقية التي يحملها السلوك الطريف داخل هذه الأخبار النادرة الحدوث.

5- البؤر في البنية الحكائية لخبر المنقبة:

إن أخبار المناقب ارتبطت في نطاق الحضارة المغربية الإسلامية بمختلف مراحلها بالحديث عن محاسن ومآثر وفضائل الأعلام من العلماء والخلفاء والسلاطين والمتعبدين والصلحاء، وقد تميزت المناقب في كونها سياقات حكائية، ذات صبغة تمجيدية تعمل على نقل الأخلاق، التي تتسم بصلاح السلوك « والشائع فيها (المناقب)، أن تدل على كرم الفعل ومفاخر الأعمال والخلق الحسن؛ كونها تنسب عادة إلى صالح العبادة »[2]، وتهدف إلى تأصيل الموعظة التي ترشد الفرد إلى الاقتداء بها ومن أهمها فعل الخير، والجرأة وحفظ الأمانة، وتغيير المنكر والإيثار، والرفق بالحيوان، والتصدق، والإخلاص، وغيرها من نماذج الخصال، التي تمثل القدوة القيمية والسلوكية التي يسعى الإنسان المغربي القديم دوما إلى اتخاذها مثلا عليا يهتدي بها في حياته.

وتنطوي هذه الأخبار على خصائص حكائية سنحاول من خلال الخطاطة البنيوية لخبر المنقبة التي تتبني على بؤرة مركزية متعة التدبر في الفعل الغريب، الذي ينقل تجربة الشخصية التي تتسم بالصلاح، حيث تتعدد السمات الخلقية التي تتشكل منها المنقبة، وتتولى البؤر الأساسية (التعريف، والكشف، والنهاية) حكيها وسنحاول تتبعها من خلال سياقات حكائية مأخوذة من أهم أخبار المناقب حضورا في مدونة البحث على النحو الآتي:

[1]- الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر، ص 12.

[2]- سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص 196.

خ1:« وذكر ثقة أن قاضي قسنطينة حسن بن باديس وضع عنده أمانة في قرطاس، فأخذها منه ووضعها في بيته فلما طلبه صاحب الأمانة أخرجها فوجد مكتوبا على ظاهر القرطاس مائة ذهب فحله وعدها فوجد خمسة وسبعين ذهب فتوهم أنها كانت مائة فزاد فيها خمسة وعشرين دينارا فأعطاه لصاحبها فمكثت عنده يومين فرجع إليه وقال: يا سيدي وجدت في الأمانة زيادة خمسة وعشرين فقال إنما لم أعدها عند أخذها منك فلما وقع بصري على الخط اختبرتها فلم أجد العدد فكملتها ظنا أنها ضاعت عندي، فقال يا سيدي لم أعط إلا خمسة وسبعين ورد الزيادة وشكره وحمد الله على وجود مثله»[1].

خ2:« وبلغنا أن أبا زكريا[2]استودع عنده رجل من الحضر وديعة، وهو من أهل إسفاقس، وتلك الوديعة من الدنانير فأبى أن يضعها عنده فألح الحضري عليه، ورغب في ذلك، فأنعم به وطلبه أن يعطيها له فأعطاها له وخرج السفاقسي ومضى لسبيله، فلما كان عند حضور وقت الزكاة زكاها من ماله، وكان ذلك زمانا فطالت غيبة صاحب المال عنه. فأطال الشيخ البحث عن أخباره فسمع بالمجاعة في بلد الحضري وهو صفاقسي، وكان ذلك في الحين الذي يتعذر فيه ركوب البحر، فركب أبو زكريا البحر فلما خرج من البحر إلى مدينة إسفاقس، فسأل عن الرجل فأخبره بداره، استأذن عليه فدخل عليه فوجده لما به من الجوع على حال شديد فخرج إلى السوق فاستسلف من أهل السوق حوالي أربعة دنانير فاشترى له بها طعاما. فرآه على شفا هلاك فصار يطعمه حتى أنقذه من الهلاك فلما أفاق مما به وتفتحت عيناه قال للشيخ أبي زكريا ما أقدمك في هذه الحال يا شيخ قال

[1]- ابن مريم، البستان، ص 176.

[2]- هو أبو زكريا فصيل بن أبي مسور يسجا بن يوجين اليهراسني من شيوخ الإباضية بجزيرة جربة، عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، انظر: السيرة وأخبار الأئمة ، من ص 240 إلى ص 242.

أقدمتني وديعتك ها هي هذه خذها قال فطلبه السفاقسي أن يقاسمه فيها فأبى أبو زكريا ورجع إلى جربة وقد قال له : سنح بخاطري أن أدفع الزكاة فدفعتها منها»[1].

0- متعة التدبر:

إن العنصر الذي يوحد بين البؤرة المركزية في الخبرين (موجز، وممتد)، هو بروز سلوك يكسر منطق الواقع، هذا التكسير يأخذ طابعا إيجابيا هو منقبة حفظ الأمانة التي ستشكل بؤرة الحكي حيث سيقوم السارد من خلاله بتفعيل سمة الشخصية الدالة على الحرص الشديد، في الحفاظ على المال الذي استأمنت عليه، ففي الخبر الأول نجد الإمام الحسني يقوم بزيادة المال في القرطاس من ماله الخاص، وفي الخبر الثاني تطالعنا صورته من خلال سلوك الشيخ بتزكية الوديعة، من ماله الخاص، وهو حرص سيتجه في مراحل متقدمة من النص لينزاح أكثر نحو الغرابة حين يضطر إلى التدين من أجل شراء الطعام لصاحبها دون المساس بمالها.

بهذا التكامل بين الشخصيتين تتجلى سمة المنقبة المشتركة التي تتلاءم تمظهراتها المشروطة بغاية خلقية دينية سامية ذات معنى يحتضنها المقام الروحي الحاضن للمنقبة حيث يكرس الخبر الأول بنية موجزة تعرف بعض التفرعات على مستوى مضمون الحدث، بينما سيعرف الحدث في الخبر الثاني امتدادا على مستوى الحكي لتكوين سمات موضوعاتية متعالقة مع سمة البؤرة: الحفاظ على الأمانة، وهو ما سيحيل القارئ على مضمون أعمق يمنح لسمة الشيخ هوية غير عادية لأنه يوحي بالحرص الشديد للمحافظة على السلوك الديني الاجتماعي المتعارف عليه وقد اتسم الحكي فيهما بالانزياح مع التزام حدود المرجعية الدينية حيث لا نكاد نلاحظ فيه انحرافا عن الواقع الذي ارتبط بسلوك العلماء والشيوخ، وهو ما سيوجه ذهن القارئ مباشرة نحو متعة التدبر لاستخلاص صورة

[1] - السيرة وأخبار الأئمة ، ص 247.

أعمق عن سمة السلوك الغريب الذي ستتولى البؤر الأساسية توضيحه حيث سيزيد التركيب في خبر الشيخ الإباضي البؤرة أكثر نظاما ونسقية وهو ما سنحاول معاينته بداية من البؤرة الأولى.

1- التعريف:

يستهل في الخبر الموجز بإشارة سريعة إلى الراوي المجهول (وذكر ثقة)، الذي سيتولى تقديم صورة دالة عن حدث تسليم الأمانة للشيخ الحسني يقول:« وذكر ثقة أن قاضي قسنطينة حسن بن باديس وضع عنده أمانة في قرطاس فأخذها منه، ووضعها في بيته[1]»، ليكون هذا التقديم الموجز منطلقا لذكرالاسم الكامل للقاضي صاحب الأمانة الذي ارتبط باسم مدينة (قسنطينة)، أدت وسيلة إشارية أحالتنا علىالمكان الذي يفترض أن أحداث الخبر وقعت فيه، وكشف لنا عن أهمية السفر في حياة علماء مدينة تلمسان الذين عاشوا في تنقل مستمر بين مختلف مدن المغرب القديم ونلاحظ أن الخبر الممتد ينطلق فيه الراوي المفارق لمرويه بالحديث عن ظروف تسليم الرجل الصفاقصي الوديعة للشيخ أبي زكريا يقول:« وبلغنا أن أبا زكريا استودع عنده رجل من الحضر وديعة، وهو من أهل إسفاقس، وتلك الوديعة من الدنانير، فأبى أن يضعها عنده، فألح الحضري عليه ورغب في ذلك، فأنعم به وطلبه أن يعطيها له، وخرج السفاقسي ومضى لسبيله »[2]، يظهر السارد منذ البداية مواصفات الرجل العامة ليصل من خلال التركيز على "اسم المدينة" وسمة "الحضر" التي اتصف بهما الرجل، ليحيلنا على أن مدينة صفاقص فضاء واسع للتحضر، انتشر فيه الإباضية في إطارالعلاقة القائمة بين إباضية الحضر والبدو، كما توحي العبارة« فألح الحضري عليه، ورغب في ذلك فأنعم به »[3] على سمة الأمانة التي اشتهر

[1]- ابن مريم، البستان، ص 176.

[2]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 247.

[3]-ن م، ن ص.

بها الشيخ بين أصحابه من الإباضية وتعكس علاقة الثقة الروحية التي ربطت عامة الإباضية بشيوخهم المشهورين بفضائل الأخلاق.

نستنتج أن بؤرة التعريف تقوم في الخبرين على التركيز حيث تهتم بتقديم سمات الشخصيات المحورية التي ارتبطت بأحداث تسليم الأمانة مما سمح بالكشف عن سمة الإخلاص التي اتصفت به الشخصية المركزية حيث اعتمد السارد على الإشارة ليحيلنا على بعض ملامح المكان الذي تأطرت فيه الأحداث مما جعل التعريف ينحو نحو التجريد حيث ستحاول بؤرة الكشف توضيح بعض معالمه.

2- الكشف:

تقدم لنا هذه البؤرة في النموذجين تطور سمة السلوك السليم" الأمانة"، وذلك من خلال ظهور أحداث غريبة، تبين التزام الشخصية المحورية، بالفضائل الأخلاقية والمجاهدة النفسية التي تتجلى في حرصها الشديد على تطبيق قواعد الأخلاق الدينية وفق المعايير التي تعتقدها وتعمل على إنجازها لتحقيق السعادة والطمأنينة لبلوغ مرضاة الله بالمحافظة على المال المؤتمن عليه إلى حين رده لصاحبه حيث سيكشف لنا الحكي في خبر الشيخ الحسيني ارتباط الأمانة بسمة الورع الذي تولد عنه حرصه على تعويض نقص المال قبل تسليمه لصاحبه دفعا لشبهة ضياعه ببيته يقول: « فلما طلبه صاحب الأمانة أخرجها فوجد مكتوبا على ظاهر القرطاس مائة ذهب فحله وعدها فوجد خمسة وسبعين ذهب فتوهم أنها كانت مائة فزاد فيها خمسة وعشرين دينارا فأعطاها لصاحبها»[1]،ويستمر الحكي ليعلمنا بأن سمة الأمانة والورع لا تقتصر على الشيخ فقط بل يتصف بها القاضي القسنطيني أيضا حيث ستدفعه إلى مراجعة الشيخ بمجرد اكتشافه لزيادة مال الأمانة يقول: « فمكث عنده يومين خرج إليه وقال يا سيدي وجدت في الأمانة

[1]- البستان، ص 176.

زيادة خمسة وعشرين فقال إنما لم أعدها عند أخذها منك فلما وقع بصري على الخط اختبرتها فلم أجد العدد فكملتها ظنا أنها ضاعت عندي»[1]، أما إذا انتقلنا إلى خبر الشيخ الإباضي نلاحظ أن بؤرة الكشف تصور لنا تجذر سمة الأمانة في شخصيته حيث يدفعه ورعه الشديد إلى الارتقاء بالسمة من المعقول إلى الغريب، الذي تظهر أول صوره في إخلاص أبي زكريا في المحافظة على الوديعة من خلال الالتزام بأداء الزكاة المفروضة عليها من حر ماله، وهو ما يكشف لنا عن صدق عبادته التي يلتزم فيها بأداء أركان الدين على أكمل وجه يقول: « فلما كان وقت الزكاة زكاها من ماله وكان ذلك زمانا»[2]، وهذا الترقي سيبلغ غاية الكمال الذي ينشده حيث يظهر العجب العجاب من خلال مجاهدته النفسية في الوصول إلى صاحب الوديعة الذي طال غيابه حيث ألزم نفسه بسلوك الشجاعة والعفة والصدق ليحقق راحة ضميره التي منحته الالتزام بتسليم الأمانة إلى صاحبها حين تأكد أنه في أمس الحاجة إليها، وقد عبر عن ذلك قائلا: «فطالت غيبة صاحب المال عنه، فأطال الشيخ البحث عن أخباره فسمع بالمجاعة في بلد الحضري...، وكان ذلك في الحين الذي يتعذر فيه ركوب البحر، فركب البحر إلى مدينة إسفاقس فسأل عن الرجل فأخبره بداره فدخل عليه فوجده لما به من الجوع على حال شديد فخرج إلى السوق، فاستلف حوالي أربعة دنانير فاشترى له بها طعاما... فصار يطعمه حتى أفاق قال الشيخ ما أقدمك في هذه الحال قال أقدمتني وديعتك هاهي خذها»[3].

ومن ثم فإن ما يلفت الانتباه في بؤرة الكشف هو التحليل الذي ينتهي به الخبران حيث تتولى فيه الشخصية المحورية تقديم تفسير مكثف يجعل السمة الغريبة تتعلق بالعلماء والشيوخ في إطار السلوك السليم الذي متى اتصل بالتمسك الشديد بالمثل العليا اتجه نحو

[1]- ن م، ن ص.

[2]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 247.

[3]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 247.

سمة الإغراب الذي يتولد عنه حالة خاصة من السلوك غير المألوف (المناقب)، حيث ينساق ذلك كله في سياق من الأخلاق العملية المهذبة القائمة على القيم الدينية التي تقدم البؤرة تفاصيل أحداثها بشيء من التمديد فالحكي يقوم فيها من خلال التركيز على إبراز الفعل، الذي يكشف على مجموعة من الأعمال تجاوز الصيغ القديمة من أجل الإتيان بصيغ مبتكرة بعيدة عن المنطق والعادة تثبت قرب هؤلاء بفعل التربية والدين من نقاوة الإيمان، الذي ينطوي على قدرة إنجازية هائلة، لا يحظى بها إلا الخلصاء ممن يرون الغرابة سمة تتعلق بهم، لأنهم في حالة من اليقين والقدرة على الحسم أو التحديد فكان سلوكهم الغريب دليلا على ذلك، فتغدو الغرابة حينها انفعالا نفسيا تعمل على إحداث الإعجاب لدى القارئ بما تثيره من انفعالات شعورية تقويها الحركة التخيلية، التي تمنح للمدركات السلوكية للمناقب أبعادا تعبر عن المعاني الدينية (العفة، والشجاعة، والصدق، والإخلاص)، المتفرعة عن سمة الأمانة التي اتصفت بها الشخصية المحورية وهي ما يمهد لانصراف الذهن نحو الإثارة بما تحتضنه من انفعالات الموعظة والتذكر التي ستظهر على مستوى البؤرة الأخيرة .

3- النهاية:

يتحقق في وضع النهاية للخبرين انفعال الإثارة الذي يتجه إلى تمثيل المفارقة التي جسدتها خاتمة البؤرة السابقة، حيث تأتي الصيغة الجوابية للقاضي لتكشف عن الفعل السلوكي الذي تتنامى فيه الغرابة والإعجاب « فقال يا سيدي لم أعط إلا خمسة وسبعين ورد الزيادة وشكره وحمد الله على وجود مثله»[1]، وهكذا فالعبارة النهائية تتميز بالتركيز العالي الذي يتجه للإبانة عن حالة الإعجاب، التي تنتاب الشيخ الحسيني أمام سلوك القاضي، وهو يؤدي إلى تشكيل حالة خاصة من التدبر عند القارئ تجمع بين الموعظة والتذكر تنتهي عندها خيوط الإثارة للحدث كله، حالة يصعب تعريفها أو تحديدها على نحو

[1]- البستان، ص 176.

دقيق إنه تأثير يعيدنا إلى شعور كنا قد ألفناه يجمع المثل العليا التي تنبني على الفضائل والأخلاق الدينية بحيث يجعل المناقب تتراوح بين الإعجاب والاستغراب، بين السلوك المألوف والسلوك غير المألوف وبذلك فهي حيرة ذهنية تثير التعجب في الفهم والتدبر « فالاستغراب والتعجب هما حركة النفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها»[1]، كدليل على حسن التخييل والمحكاة التي نقل بها السارد معاني شتى من المفارقات التي تشمل سلوك الشخصية المحورية ويتأكد كل ذلك عندما ننتقل إلى وضع النهاية في الخبر الثاني حيث تأتي الصيغة الجوابية للشيخ الإباضي لتحيلنا على المفارقة التي تظهر بين ما هو مألوف وما هو غير مألوف على النحو الآتي « قال فطلبه الصفاقسي أن يقاسمه فيها فأبى أبو زكريا، ورجع إلى جربة وقد قال له سنح بخاطري قبل أن أدفع عنها الزكاة فدفعتها منها»[2]، فالمتمعن في القول الذي أوهم فيه الشيخ صاحب الوديعة بأن مال الزكاة التي أداها مأخوذ منها، يدرك أن تصوير سلوك الأمانة بمختلف سماته التي تولدت عنه وحملتها أفعال الشيخ الإباضي هي حديث عن نفس السارد، وتصوير للمشاعر التي لا يبوح بها صراحة للقارئ، فالشخصية بسلوكها الذي اتسم بالأمانة تمثل المفارقة الموصولة بأحداث الحياة وبالتفاعلات البشرية والسلوك الإنساني الذي شكل الغرابة التي لا تظهر بهذا الاعتبار « إلا في إطار ما هو مألوف، الشيء الغريب هو ما يأتي من منطقة خارج منطقة الألفة، ويستدعي النظر بوجوده خارج مقره، هناك إذن علاقة جدلية بين الألفة والغرابة، وفي هذه العلاقة يكمن سر التأثير الذي يحدثه خطاب»[3]، النهاية أن مناحي الغرابة في المناقب مهما تفرعت فإنها تشترك في خطوط عريضة يحيل بعضها على بعض بما يجعل فضائلها موصولة بقديمها وأساسها متعة التدبر التي تحمل دعوة صريحة للاقتداء بسلوك الشخصية الذي يتسم بالصلاح على سبيل

[1]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحق : محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، 1966م، ص 71.

[2]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 247.

[3]- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، ص 69.

المعجزة والتفاعل تقديسا وإعجابا وبهذا التحديد يبدو خبر المنقبة مرآة لأحداث الحياة تزخر بتفاعلات سلوكية ووجدانية وإيمانية جمة.

6- البؤر في البنية الحكائية لخبر الكرامة:

لقد شكلت أخبار الكرامة نوعا من الإنتاج السردي، أنتجته جل التيارات المذهبية في المغرب الإسلامي وتشترك الكرامات على اختلاف منتجيها وحيثيات إنجازها في كونها « أمر خارق غير مقرون بالتحدي، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح، ملتزم لمتابعة نبي من الأنبياء عليهم السلام مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح»[1]، فهي قوة خفية لا يملكها إلا أشخاص معينون، هم أولياء الله، و الأصل في الكرامة الإخفاء، وإذا ظهرت كراماتهم بين الناس وعرفوهم وسموهم أهل الكشف ولذلك فهم يعملون على كتمانها حتى لا يتعرف عليها عامة الناس، وغالبا ما يخبر بها تلامذتهم ومريدوهم بعد مماتهم.

ولقد عدت الكرامة ظاهرة مهمة في تاريخ الفكر العربي المغربي الإسلامي، وظهورها كان بدافع من الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية، فليس من قبيل الصدفة أن نلاحظ انتشار الكرامات بشكل واسع في المدونة المغربية لفترة البحث[2]، إذ« قدمت البديل الخيالي – الضروري للمحافظة على تقدير الذات لذاتها وللاستقرار مع حقلها- على الظروف المجتمعية القاسية والأوضاع السياسية التي قمعت الشخصية العربية وقهرتها... وظهرت الكرامة نتاجا يجسد آمالا فردية، ورغبات خاصة في تحقيق الذات»[3]، ولقد تناولت أخبار الكرامة المغربية موضوعات عديدة من أهمها (الرؤيا،

---

[1]- النبهاني، جامع كرامات الأولياء، تحق : محمد المسوتي ، دار التقوى للطباعة والنشر و التوزيع، شبرا الخيمة، القاهرة، ط1، 2009م، ص 28.

[2]- ابراهيم القادري بودشيش، المغرب و الأندلس في عهد المرابطين- المجتمع، الذهنيات – الأولياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993م، ص 155.

[3]- علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، القطاع اللاوعي في الذات العربية، ط2، دار الأندلس للنشر، بيروت، 1984م، ص 8.

والدعاء، وإدراك الغيب، وقدرة التحول، وجلب الرزق بأنواعه المختلفة، الخوارق منها:(الطيران في الهواء، وإبراء المرضى الرقى من بعد، وتكليم الحيوان، والعناية الإلهية في الممات والحياة... إلخ).

وتمتاز أخبار الكرامة بأبعاد حكائية سنحاول الكشف عنها من خلال خطاطة: بنية الحيلة حيث تعمل البؤرة المركزية: متعة الحيلة على إبراز الحيلة الخارقة للولي ويرتبط موضوعها بموضوع معين من موضوعاتها المختلفة لتتولى حكيها عبر بؤرها الأساسية (التعرف، والإثارة، والكشف، والنهاية).

وحتى تكتمل الصورة سنقارب البؤر من خلال عينات خبرية مأخوذة من أكثر أنواع الكرامة المغربية حضورا في المدونة المغربية ومن أهمها أخبار كرامة الرؤيا على النحو الآتي:

خ1:« ومن ذلك ما حكاه الشيخ الوزير أحمد بن يعقوب قال لما رفعني السلطان أبو فارس أنا والسلطان محمد بن أبي تاشفين وسجننا في الدواميس كنت أستغيث بالشيخ سيدي الحسن والشيخ سيدي علي المديوني فبينما أنا نائم ليلة من الليالي فإذا بالشيخ سيدي الحسن قد دخل علي وأخرجني حتى دخل بي على السلطان أبي فارس ووجدت معه فلانا وفلانا جالسين معه أعرفهم فقال الشيخ للسلطان أبي فارس مالك ولهذا يعنى أطلقه فقال له نعم فلما استيقظت من نومي قلت للسلطان محمد أنا اليوم منطلق قال لي من أين لك بذلك قلت له الشيخ سيدي الحسن أطلقني فذكرت له الرؤيا فقال لي نفعتك استغاثتك به دوني، فلم يتعالى النهار إلا والنداء علي أين الوزير فلان العبدوادي فخرجت ورفعت إلى السلطان أبي فارس فوجدته جالسا على الحالة التي رأيته عليها في النوم ومعه الجماعة الذين

رأيتهم معه في الرؤيا فقال الشيخ سيدي الحسن قد أطلقك فاذهب بسلام رأيته البارحة وقد ساقك لي على هذه الصفة »[1].

خ2:« المعز: ورأيت فلانا – يعني بعض الأولياء – كان له تخليط ثم حسنت حاله وغناؤه وجهاده، واختصه المنصور بالله ثم مات بعده قال المعز لدين الله فرأيته بعد أن مات بليلة وقد مر بي فدعوته فنظر إلي، وكأنه في غمرة وشدة فقال لما دعوت به: دعني، أما ترى ما أنا فيه، فأصبحت وقد غمني له ما رأيت من ذلك، فلما كانت الليلة الثانية رأيته في أحسن حال وأقبل إلي ضاحكا فقلت ما حالك وماذا صرت إليه؟ فقال: إلى خير والحمد لله! ما خلق الله في الخلق مثل أبيك والله مازال بي حتى خلصني قسرا من شدة شديدة وأمر عظيم، قلت: إن في رؤيا أمير المؤمنين لبرهانا عظيما وقل من يرى في منامه إلا التخليط والأضغاث »[2].

خ3« والشيخ الصالح أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي البكاء من أهل الحديث والدين والورع ،زاهد كثير البكاء حتى شهر به، لا يرفع طرفه إلى السماء من خشية الله تعالى ، ذو مواعظ حسنة وتدريس للعلم وعبادة ومكاشفات، بلغني أنه حج بحمار لا يركبه إلا عند الإعياء ورعا، وأن رجلا يعرف بابن الغريب، ممن جاور بالمدينة سنين ورأى قبيل انصرافه في منامه رسول الله (صلع)، فقال له: أبلغ أبا محمد المجاصي السلام وقل له إن لنسمع تلاوتك القرآن من قبرنا »[3].

0- متعة الحيلة:

نلاحظ أن البؤرة المركزية التي تتولى هذه النماذج الخبرية نقلها هي متعة الحيلة، التي تكشف عن قصة الحدث المتفجر " الكرامة " حيث يتعلق موضوعها بالرؤيا التي

[1]- ابن مريم، البستان، ص 76، ص 77.

[2]- المجالس والمسايرات، ص 81.

[3]- بغية الرواد، ج1، ص 141، والبستان، ص 121.

تراها في الخبر الأول والثاني شخصيات سياسية (الوزير الزياني، والإمام المعز)، وشخصية المتعبد التلمساني (ابن الغريب)، في الخبر الثالث حيث حاول السارد من خلالها أن يقدم لنا بعض خصوصيات العالم الآخر فهي وسيلة من وسائل تحصيل المعرفة الغيبية بوصفها «مدركا يقع في عالم الغيب»[1] ويتجسد ذلك في الشخصيات التي يراها الرائي وهي في هذه النماذج تتجسد في شخصيات انتقلت إلى العالم الآخر (المنصور، وبعض الأتباع، والرسول صلى الله عليه وسلم)، وفي النموذج الثاني والثالث، وشخصية الولي أبركان الذي مازال على قيد الحياة، وكل ذلك تهدف من ورائه البؤرة المركزية إلى ربط العالم الآخر بعالم الأحياء، وتفريج الهم، وشفاعة الأولياء، وتميز قراءة البكاء)، وبهذا فكرامة الرؤيا أساسها نواة من الواقع وما على الحيلة إلا أن تتوزع على تفاصيل أخرى تتعلق بظروف الرائي التي أدت إلى تشكيل الرؤيا (عدم استقامة بعض أولياء الأئمة الفاطميين، والاستغاثة بالأولياء عند المحن، واشتهر البكاء بالورع والزهد) وهو ما يؤدي إلى إبراز الرؤيا كقوة خارقة ونافذة تنظم خطية الأحداث مع التلميح ما أمكن إلى الثغرة التي سيسعها الولي بكرامته التي يظهرها الموضوع الذي نهضت عليه قصتها.

وقد تميزت عملية الحكي في الخبرين الأول والثاني بالاعتماد على الشخصية المحورية التي تولت نقل الخبر الذي سيعتمد فيها على الخطاب المسرود لإنجاز البؤرة المركزية على مستوى بنيتين سرديتين متشابهتين حيث يكرس الخطاب بنية سردية موجزة متعددة المضامين، التي تتعلق بتقديم تفاصيل إيجاد الرؤيا حيث يهتم الخبر الأول بتحديد العلاقة بين شخصية الخبر المحورية والشخصيات المشاركة في الحدث داخل السجن وفي مجلس السلطان المريني، أما في الخبر الثاني فإن الخطاب يكرس بنية خطابية شديدة الإيجاز حيث لا تتعدى المساحة النصية أسطر قليلة، يتولى فيها السارد

[1]- عبد الستار الراوي، التصوف والباراسايكلوجي، مقدمة أولى في الكرامات الصوفية والظواهر النفسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1994م، ص 123.

العليم تقديم تفاصيل الحدث الموجز الذي يركز على رؤيا الرجل التلمساني مع إهمال تفاصيل تهتم بالإطار الزماني والمكاني لهذا الخبر.

وهكذا ونحن نتأمل البنيات السردية السابقة، يمكن أن نصل إلى أن الحيلة هي التي شكلت نسقية الحدث المبهر لفعل الرؤيا الذي ارتبط بخوارق إنجازية ينصهر فيها خيال السارد كقدرة سحرية مبدعة تخلع الحياة على الأموات وتحضر الصورة في الأذهان بروح من المفارقة الكاذبة بين عالمين متناقضين (الموت، والحياة)، وهو ما يجعل الرؤيا تكسر قيود العادة والألفة والمنطق وسمت على الكثير من الاعتبارات حيث تنصهر جميع تفاصيلها لترسم صورة كرامية للولي، ذات أبعاد تستمد مفاهيمها من الاعتقاد المذهبي الديني للسارد يصل فيها الكذب إلى أقصى درجات اللامعقول في الخبرين الأول والثاني ترقى به إلى مصاف الأنبياء « بحكم أنها قائمة بالأساس على فعل خارق لحدود العقل ونواميس الطبيعة على السواء فإنها لا تعدو أن تكون إعادة إنتاج للمعجزة النبوية وبمفعول تحويلات عديدة أهمها حلول شخص الولي محل شخص النبي»[1]، وكل ذلك يجعل الأفعال التي يأتيها الأولياء تبحث جميعها في نهاية الحكي على الدهش فتبدو صور الكذب التي تتجلى في الأحداث كيانات محسوسة كما تبدو الصور الكائنة في العالم الخيالي ذات وجود عيني، يقوم على ضرب من الشفافية واللطافة يحقق في الرؤيا وظيفة إدهاشية، فإذا تم تجاوز العالم الحقيقي الذي انطلق منه الرائي إلى العالم الذي ترومه الرؤيا حققت الكرامة غايتها المتمثلة في متعة الحيلة، التي تنتزع المتلقي « من الزمن الطبيعي وترقى به إلى مستوى زمن الحكاية التي تستثمر كل عناصر العجائبي والغريب والمدهش

[1]- فرج بن رمضان، الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس، ص 90.

والأسطوري أيضا»[1]، التي سينبني عليها الحكي على مستوى البؤر الأساسية بداية من التعريف

1- التعريف:

إن متدبر التعريف في هذه النماذج من الأخبار ليلحظ منذ البداية حرص الرواة على استحداث الغريب كوسيلة للتعريف بشخصيات الخبر المحورية، حيث سيطلعنا الحكي مباشرة عن الظروف التي أدت إلى ظهور المحنة فجأة في حياة الوزير الرائي وصاحبه بعد سقوط حكمه في يد السلطان المريني يقول:« الشيخ الوزير أحمد بن يعقوب قال لما رفعني السلطان أبو فارس أنا والسلطان محمد بن أبي تاشفين وسجننا في الدواميس كنت أستغيث بالشيخ سيدي الحسن والشيخ علي المديوني»[2] فظلمة سجن الدواميس، هي التي دفعت الشيخ للاستغاثة بأشهر أولياء تلمسان (أبركان، والمديوني)، رجاء الانتفاع ببركتهما لفك محنته، أما في الخبر الثاني سينقل لنا التعريف المكثف الصفات السيئة والحسنة لأحد أتباع الإمام الفاطمي المنصور كما نقلها الرائي ابنه المعز للقاضي النعمان في إحدى المسايرات يقول: « رأيت فلانا يعني بعض الأولياء كان له تخليط ثم حسنت حاله وغناؤه وجهاده، واختصه المنصور بالله ثم مات بعده»[3]، وانتقلت معه صفاته إلى عالم الآخرة لتشكل محور حياته الجديدة، أما في الخبر الأخير فسيقدم لنا التعريف الموجز صورة عن الشيخ الزاهد« هو الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي البكاء، من أهل الحديث والدين والورع والزهد كثير البكاء حتى شهر به، لا يرفع طرفه إلى السماء من خشية الله تعالى، ذو مواعظ حسنة وتدريس للعلم وعبادة ومكاشفات»[4]، وهي صفات

[1]- عبد الحق منصف، أبعاد التجربة الصوفية، الحب الإنصات الحكاية افريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2007م، ص 294.

[2]- ابن مريم، البستان، ص 76.

[3]- المجالس والمسايرات ، ص 81.

[4]- بغية الرواد، ص 141، والبستان، ص 121.

يتمتع بها المتصف بالولاية في ظل مذهب التصوف الذي يسلكه الشيخ البكاء في حياته بتلمسان.

وهكذا يسهم التعريف في تقديم التجربة الغريبة التي تكشف عن سمة التصوف تتعلق مباشرة بالولي كما جاء في الخبر الأخير، أو بسمات شخصيات (الصاحب، والمستغيث) يتحقق فيها نوع من الوصال مع شخصية الولي كما رأينا في المثالين الأول والثاني، حيث سجلنا أن نظام البناء في هذه البؤرة موسوم على مبدأ تنامي الأوصاف سريعا للوصول إلى هذه السمة التي تبعث على الغرابة التي تنساق بفضل الحيلة نحو العجيب (الكرامة) التي سيعمل الكشف على إظهارها، وهي البؤرة التي تتبلور داخلها تمفصلات إضافية لفعل الحيلة .

2- الكشف:

يبدأ الراوي في الكشف عن الحدث الرئيس للرؤيا الذي يقوم على استشراف حدث مستقبلي يتولى فيه فعل الحيلة نقل سمات الشخصيات الغريبة من العالم الواقعي للبؤرة السابقة إلى العالم الغيبي للكشف حيث سترتبط الرؤيا بحيثيات أحداثه التي تؤدي إلى ظهور العجيب الذي تقوم عليه كرامة الولي، فالرؤيا في الخبر الأول تظهر كمشهد استشرافي تراءى للمسجون في سجنه الذي شهد مواظبته على فعل الاستغاثة بالشيخين حيث يستجيب أحدهما لندائه وهو الولي أبركان حيث يحضر في عالم النوم ويقوم بإخراجه من السجن ويصطحبه إلى مجلس سجانه ويأمره أن يطلقه فيستجيب يقول: « فبينما أنا نائم ليلة من الليالي فإذا بالشيخ سيدي الحسن فدخل علي وأخرجني حتى دخل بي على السلطان أبي فارس ووجدت معه فلانا وفلانا جالسين معه أعرفهم فقال الشيخ للسلطان أبي فارس مالك ولهذا يعنى أطلقه فقال له نعم »[1]، وهكذا تعكس الرؤيا منطق

[1]- البستان، ص76.

الواقع من أجل خلق منطق جديد ممكن التحقق تتحكم فيه مفاهيم الرؤيا التي تسير وفق المعتقد الديني السائد في ذهنية الإنسان التلمساني الذي يرى في الأولياء وسيلة نجاة تخلصه من محنه، وهو ما تواصل البؤرة الكشف عنه عبر الحيلة حيث يستيقظ الوزير وهو على يقين تام بأن محنته ستنتهي وفق ما نصت عليه أحداث الرؤيا في عالم النوم يقول: « فلما استيقظت من نومي قلت للسلطان محمد أنا اليوم منطلق قال لي من أين لك بذلك فقلت له الشيخ سيدي الحسن أطلقني فذكرت له الرؤيا فقال لي نفعتك استغاثتك به دوني »[1]، أما إذا انتقلنا إلى بؤرة الكشف في الخبر الثاني فإننا نجدها تتبني على مشهد حواري ينقل لنا حدث استشرافي مستقبلي عبر المعز الرائي الذي يصعد إلى العالم الآخر ليرى الجزاء الذي ناله صاحب والده بعد موته يقول:« فرأيته بعد أن مات بليلة وقد مر بي فدعوته فنظر إلي وكأنه في غمرة وشدة، فلما دعوت به: دعني، أما ترى ما أنا فيه»[2]، فالمعز استطاع الانتقال إلى العالم الآخر عبر قانون الرؤيا الذي يخرق مبادئ الواقع حيث تواصل بؤرة الكشف عبر الحيلة خرقه مرة أخرى حين يسمح السارد للمعز الذي سيستيقظ متأثرا بحال الرجل أن يكرر الرؤيا بالصعود مرة أخرى إلى عالمها ليستكشف حال الرجل وموقف إمامه المنصور منه فيقول:« فأصبحت وقد غمني له ما رأيت من ذلك، فلما كانت الليلة الثانية رأيته في أحسن حال وأقبل إلي ضاحكا فقلت ما حالك وماذا صرت إليه؟ فقال: إلى خير والحمد لله! ما خلق الله في الخلق مثل أبيك والله مازال بي حتى خلصني قسرا من شدة شديدة وأمر عظيم»[3]، فالصورة توضح تبدل حال الرجل إلى الراحة سببه المنصور الذي خلصه بشفاعته نتيجة للصحبة التي كانت بينهما.

وعلى العكس من ذلك نلاحظ أن بؤرة الكشف في الخبر الأخير تؤشر على الرؤيا كموضوعة من خلال الإخبار المباشر عن الحدث الاستشرافي، الذي توصل إليه الرجل

[1]- البستان، ص76.

[2]- المجالس والمسايرات، ص 81.

[3]- ن م، ن ص.

التلمساني وهو يزاول عبادته بالحرم المكي حيث يبقى في عالم الأحياء والرسول (صلع) ينزل إلى عالمه ويخبره عن بعض أحواله في قبره تكشف عن حقيقة تتعلق بالبكاء يقول:« وأن رجلا يعرف بابن الغريب، ممن جاور بالمدينة سنين ورأى قبيل انصرافه، في منامه الرسول (صلع) فقال له: أبلغ أبا محمد المجاصي السلام وقل له إنا لنسمع تلاوتك القرآن من قبرنا»[1]، فالرائي يلج من خلال الرؤيا عالم قبر الرسول (صلع)، الذي يأتيه ويكشف له من خلال وصيته عن بعض أحواله فيه المتعلقة بسماعه القرآن بصوت البكاء.

لقد ساهمت بنية الرؤيا التي انبنت عليها بؤرة الكشف في النماذج الثلاثة في إظهار التمفصلات الخطابية لفعل الحيلة الذي دفع بسمات الشخصية الغريبة بالتحول نحو العجيب عبرالحيلة التي استثمرت عالم الرؤيا الممكن بأبعاده الثلاثة (المتوقع، والمتجاوز، والمستحيل) من خلال سعيها بالحكي نحو متعة الحيلة حيث يعرف الحدث الاستشرافي في المثالين الأول والثاني بعض الامتداد الذي يظهر عبر تقنيتي الوصف والحوار التي كشف من خلالها الرائي عن قيام الحدث على إظهار سمة الولي باعتبارها مدار كرامة الرؤيا وهو ما يضفي على البنية القصصية نوعا من الوضوح، في حين أشار الخبر الأخير إلى هذه السمة بشكل مكثف، وكل ذلك يكشف عن سلطة السارد التي يمارسها على المتلقي بفعل امتلاكه جزيئات المسرود والتصرف فيها كما وكيفا بطريقة تصل به إلى تحقيق زمن عجائبي للرؤيا يتلقاه القارئ بالإدهاش الذي ينتهي به بالتصديق وقد يتماهى في بعض الأحيان معه وهي الإثارة التي سيجسد الحكي صورتها في البؤرة الأخيرة.

3- النهاية:

يبني الراوي (الرائي) في الخبر الأول وضع النهاية بتحويل العالم الممكن الذي أفصح عنه لصديقه إلى العالم الحقيقي وهذا عن طريق تحقيق الرؤيا وفق التفاصيل التي

[1]- بغية الرواد، ص 141، البستان، ص 121..

عاشها مع الولي في عالم النوم يقول:« فلم يتعال النهار إلا والنداء علي أين فلان الوزير العبدوادي فخرجت ورفعت إلى السلطان أبي فارس فوجدته جالسا على الحالة التي رأيته عليها في النوم ومعه الجماعة الذين رأيتهم معه في الرؤيا»[1]، وهنا يدرك السارد أن عالم تحقيق الرؤيا هو الواقع ولذلك سيعتمد على مبادئ الكرامة مرة أخرى ليربط السياق بالواقع ليؤكد للقارئ أن عالم الرؤيا الممكن الذي حققته كرامة الولي حقيقة عاشها السلطان أيضا وهذا ما أفصح عنه السلطان معقبا في خاتمة الخبر يقول: « فقال لي الشيخ سيدي الحسن قد أطلقك فاذهب بسلام رأيته البارحة وقد ساقك لي على هذه الصفة »[2]، أما النهاية في الخبر الثاني فتقتصر على عبارة للنعمان تثني على رؤيا المعز يقول:« قلت إن في رؤيا أمير المؤمنين لبرهانا عظيما وقل من يرى في منامه إلا التخليط والأضغاث »[3]، وهكذا فمضمون العبارة ينطوي على معنى يميز بين الحلم والرؤيا في إشارة إلى الحديث النبوي الذي ميز بينهما (الرؤيا من الله والحلم من الشيطان)، ليؤكد أن الخليفة بمذهبه الفاطمي الذي يسعى لنشر الدين أقام اتصالا وثيقا مع ربه، ولذلك لن يكون في يقظته ولا في منامه عرضة للنزوات الشيطانية وما يراوده في نومه ليس أضغاث أحلام بقدر ما هو إلهام إلهي يزيد الصلة وثوقا بينهما، وبالانتقال إلى الخبر الثالث نلاحظ أن النهاية تغيب فيه لأن السارد سكت عن الحكي فترك ذلك للمتلقي ليستنتج ما إذا كان ابن الغريب بعد عودته إلى تلمسان التقى بالبكاء وأبلغه السلام أو أنه لم يلتق به وأخبر غيره وهو الاحتمال المرجح الذي نستشفه من الفعل الذي افتتح به السارد البؤرة الثانية " بلغني "، مما يشير إلى انتشار الخبر في تلمسان وأن أحدهم أخبر السارد .

يظهر من خلال هذا التحليل أن النهاية في قصة الكرامة ترتبط أيضا بالحيلة التي قد يكشف عنها مباشرة من خلال تصوير عالم تحقيق الرؤيا أو بطرح ديني يقدم تفسيرا

[1]- البستان، ص 77.

[2]- ن م، ن ص.

[3]- المجالس والمسايرات، ص 81.

لأحداثها الخيالية المميزة حيث يسعى السارد في خاتمة الخبرين الثاني والثالث إلى شد السامعين والقارئين موهما إياهم بأن ما جرى لم يتجاوز المحتمل والممكن ليتمكن من بث العبرة التي تؤطر حضور الرؤيا في الكرامة حيث يكرسها السارد لخدمة معتقده المذهبي فهي تأتي في الخبر الأول لتدفع القارئ من خلال مفهوم الاستغاثة بالولي في التصوف لسلوك الطريق باعتباره المنهج الديني الصحيح في الحياة أما في الخبر الثاني فتأتي لتعزز رؤيا المعز الروحية التي تحقق المعراج النبوي كنوع من التخويف يمارسه النعمان لنشر آرائه المذهبية التي تهدف إلى إرشاد أولياء المذهب بضرورة التمسك بطاعة الخلفاء وحبهم لأن الله عزوجل خول لهم دور يتقاطع مع دور الأنبياء هو الشفاعة لمن أحبهم وما قام به المنصور هو خير دليل على ذلك وهو ما يعكس قدرة السارد على المراوغة و الإقناع التي تجعل القارئ لا يشعر بالخيال، وبذلك تحقق البؤرة المركزية المتعة مقصدها الحيلة التي انبنى عليها الحكي عبر مختلف البؤر الأساسية لخبر كرامة الرؤيا.

ونخلص من خلال تحليلنا لهذه البؤر الأساسية الثلاث المتحكمة في المتن الحكائي داخل سياق النماذج الخبرية المختارة أن بنيتها الحكائية قائمة على صورة عامة تتبني على بؤرة مركزية تشترك في النواة المتعة بموضوعاتها المتنوعة (النادرة، المنقبة، الكرامة) التي ينقلها الحكي حيث لا يمكن تحقيق أي بؤرة دون تحقيق الأخرى وهو ما حاولنا التركيز عليه ونحن نحاول أن نحدد العلاقة بين الموجز والممتد أثناء تتبعنا لمقاصدها الحكائية (التعرف، والتفكه، والتدبر، والحيلة) وهو ما جعل المتعة تتسم على مستوى البؤر الأساسية بمميزات تعكس ذلك الترابط للعناصر القصصية التي تسهم في خلق غنى وتنوع في العناصر السردية التي تفتح الحكي على مسارات أخرى أكثر خصوصية و جمالية على مستوى البنية السردية.

الفصل الثالث:

التشكيل السردي

للخبر

3- التشكيل السردي للخبر

إذا كان ارتباط الخبر بالحكي يقدم صورة عن بنيته الحكائية، فإن هذه البنية لا يمكن تحليل خصوصياتها إلا من داخل السرد ذاته، ومن خلال العناصر السردية التي يقوم عليها الحدث الخبري، وهي كما سبقت الإشارة إلى ذلك: الزمان، والشخصيات، والمكان التي تشكل الجوهر الذي ينبني عليه السرد، مكونا موازيا لنص الخبر، فهو الذي يقدم أحداثه ومن ثم انتسابه إلى الخطاب أو المبنى بما هو صياغة فنية وفق قواعد النص، وأشكاله المتباينة، وهكذا ينطلق السرد من القصة ليعيد تشكيلها عبر عناصر داخلية تشكل بنيته التي تنفرد بوظائفها وخصائصها.

ومنه ستتجه الدراسة في هذا الفصل للبحث عن الهيكل البنائي لعناصر الحدث الخبري (الزمن، والشخصية، والمكان) للوقوف عن خصائصها التي تقوم عليها البنية السردية لنصوص الخبر المغربي.

1- بنية الزمن:

يمثل الزمن عنصرا فاعلا ومحددا للعناصر الأساسية التي تشكل السرد ويسهم في منحه خطابه المتميز، لأنه يتسرب جوانب النص السردي كلها بحيث لا يمكن الاستغناء عنه[1]، ومعنى ذلك أنه يقوم بالارتباط بالمكان لتشكيل الإطار الزماني والمكاني، الذي تتحرك فيه الشخصيات وهي تنجز أفعالها، وبهذه الحركة يكتسب الزمان بعده الحقيقي لكونه إطار الفعل وموضوعا للتجربة الإنسانية[2]، وبإنجاز الشخصيات لوظائفها تتشكل

[1]- عبد الحميد بورايو، منطق السرد دراسات في القصة الجزائرية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، 1994م، ص 150.

[2]- سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دت، 1984م، ص 26.

منظومة الأحداث السردية التي وقعت في زمن محدد، ومن هنا يمكن القول إن الحدث لا بد أن يرتبط بزمن وقوعه الذي يكمله .

وبهذه المميزات يلعب الزمن دورا مركزيا داخل منظومة السرد « والزمن ضابط الفعل وبه يتم، وعلى نبضاته يسجل الحدث وقائعه، ونحن إن كنا لا نستطيع أن نفصل بين الحدث والزمن إلا أننا نتبين أثر الزمن عاملا فعالا في كثير من القصص الطويلة و الروايات»[1]، وعنصر الزمن في الخبر نقصد به الزمن الفني، وهو ما نبتغي متابعته في النص الخبري أي القيمة الفنية لهذا العنصر حيث سنحاول الوقوف على بنية حركته القصصية وفق نسق الترتيب الزمني للأحداث حيث سنعتمد على (جيرار جينيت) في كتابه (خطاب الحكاية).

أ- الترتيب الزمني:

ليس من الضروري أن يتطابق تتابع الأحداث في النص السردي مع الترتيب الطبيعي لأحداثها فحتى بالنسبة للخبر الذي يحترم هذا الترتيب فإن الوقائع التي تحدث في زمن واحد لا بد أن ترتب في بناء الرواية تتابعيا، لأن طبيعة الكتابة تفرض ذلك[2].

إلا أنه في الغالب نجد أن معظم المؤلفين المغاربة يلجؤون إلى توليد مفارقات سردية عندما لا يتطابق نظام السرد مع نظام القصة التي يحملها الخبر، ذلك أن زمن القصة يخضع بالضرورة إلى تتابع منطقي للأحداث، بينما لا يتقيد زمن السرد بهذا التتابع المنطقي، حيث أن التعرجات الزمنية ظاهرة في كل وحدة من وحدات النص الخبري، من

[1]-شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، مكتبة الدراسات دار المعارف، القاهرة، د ط، د ت، ص 11.
[2]- حميد لحميداوي، بنية النص السردي، ص 73.

أصغرها حجما إلى أكبرها اتساعا ذلك أن النص الخبري يتذبذب في كل لحظة من لحظاته من الحاضر إلى الماضي إلى المستقبل[1].

ويميز جينيت بين نوعين من المفارقة الدائمة بين ترتيب الأحداث في الحكاية وترتيبها في الخطاب السردي، وهما الاسترجاع والاستباق وقد تميزت الأخبار المغربية بالعديد من المفارقات الزمنية التي تحمل دلالاتها داخل بنيته السردية

1-الشكل الخارجي للخبر وعلاقته بالماضي:

إن النص الخبري من أهم النصوص السردية القديمة التي تميل أكثر من غيرها، إلى الاحتفاء بالماضي، و العودة إليه بتوظيفه؛ حيث تسوده حالة استرجاع دائمة، فرضتها بنية شكله الخارجي، التي تستهل بمقدمة تتضمن السند الذي هو في الحقيقة استذكار الراوي الأخير للخبر – الراوي المباشر- لحدث مر سابقا تستجمع أزمنته في الفعل المنتج الذي تعد الافتتاحية المتنية نقطة انطلاقه فيطغى الفعل الماضي على سرد الحدث و لكنه يحافظ على مسافة واضحة تفصله عن تلك الأحداث لأن الراوي في وضعه السردي القائم يروي أحداثا جرت في الزمن السابق على حكيه، و لكنها أعيدت في سياق ما يروى بمعنى: أنه يعيد خلق تلك الأحداث حيث تشكل هذه العملية نوعا من الذاكرة القصصية التي تربط الحاضر بالماضي وتفسره وتعلله وتضيء جوانب مظلمة من أحداثه مع أنها مجرد خدعة سردية تروم وضع المتلقي في زمن التجربة الإنسانية التي تتناولها قصة الخبر فيدخل في آنية زمنية مصطنعة هي وهم سردي متعمد قائمة على:

أولا- الاسترجاع:

يمكن الإقرار أنه « في السرد القصصي لا شيء موجود في الزمن الحاضر»[2] وهو الأمر الذي يجعلنا ننظر إلى الخبر بوصفه متنا استعاديا يقوم أساسا على استرجاع

[1]- ن م، ص 73، ص 74.

[2]- هيثم الحاج، الزمن وإشكاليات النوع السردي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، ط1، 2008م ، ص 59.

مجموعة من الأحداث، هذا الاسترجاع الذي يؤديه سارد أيا كان مظهر سرده في نصه، فهو يؤدي دوره المهم في رواية هذه الأحداث بصورة تتعدى شكلها المتتابع كرونولوجيا فتبدأ مؤشرات الزمن الطبيعي بالانكسار « حيث يؤدي ذلك إلى اعتبار آلية الاسترجاع أساسا «رؤياويا» في عملية السرد، و لنا أن نتصور- دائما – وجود السارد في نقطة حاضر مواز لحاضر المتلقي، أو للحظة الكتابة وأن نظرة هذا السارد إلى الأحداث التي يتصدى لسردها تكون بوصفها جزءا من ماض يكون وعيه الافتراضي وحيث إنه لا شيء في السرد موجود في الحاضر فإن استحضار الماضي لا يعني جلبه للحاضر بل إنه يعني العودة إلى ذلك الماضي »[1] لخلق زمن خاص بالحكي يسهم في بناء السرد و زمنه الداخلي و بهذا يصبح جزءا لا يتجزأ من نسيجه لأن « كل عودة للماضي تشكل بالنسبة للسرد استذكارا يقوم به لماضيه الخاص، و يحيلنا من خلاله إلى أحداث سابقة عن النقطة التي وصلتها القصة»[2]، وبذلك ينتقل دور الاسترجاع من كونه واحدا من آليات الكتابة السردية إلى كونه مكونا للسرد حيث يمكن تعريفه بأنه « مفارقة زمنية تعيدنا إلى الماضي بالنسبة للحظة الراهنة، أو اللحظة التي يتوقف فيها القص الزمني لمسافة من الأحداث ليدع النطاق لعملية الاسترجاع»[3]، التي تظهر بمستويات مختلفة من ماض بعيد و قريب و لذلك فإن كل استرجاع يتوفر على المدى الزمني الذي يشكل المسافة الزمنية التي تستغرقها المقاطع الاستذكارية أثناء العودة إلى الماضي ويقاس بالسنوات والشهور والأيام، وكذلك يتوفر على السعة التي لا تخطئها العين لأنها تكون بارزة في النص من

[1]- هيثم الحاج، الزمن وإشكاليات النوع السردي، ص 59.

[2]- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء ، والزمن، والشخصية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان، ط2، 2009م، ص 121.

[3]- جيرالد برنس، المصطلح السردي، ص 25.

خلال المساحة التي يحتلها الاسترجاع ضمن زمن السرد وتقاس بعدد الأسطر والصفحات التي يغطيها من مجمل مساحة النص[1]

وهكذا فإن كل استذكار يؤدي إلى الامتداد النصي للخبر فيتشكل بالنسبة للسرد نوعا من التفسير الإرادي التحليلي للأحداث والذي يحقق بالضرورة غايات فنية وجمالية للبنية السردية للخبر لذلك يرى جيرار جينيت أن كل استرجاع يشكل بالقياس إلى الحكي الذي يندرج فيه أو يضاف إليه حكيا ثانيا، و تابعا للحكي الأول، و بفصل زمن المحكي الأول يمكن تحديد الاسترجاعات المتموضعة في مسار زمن المحكي[2]، والسبب عائد إلى كون السارد عندما يتوقف ليسترجع حدثا مضى من حياته أو من عمر الأحداث فإنه يعطل تواتر الأحداث الزمنية وتناميها ليحقق عددا من المقاصد الحكائية أهمها: سد ثغرات النص، أو تقديم شخصية جديدة أو التذكير بأحداث ماضية، أو تفسير حدث ما، أو إضاءة مرحلة ما، أو تغير دلالات بعض الأحداث وتفسيرها تفسيرا جديدا، أو أن منطق الأحداث في الخبر يفرض عليه العودة إلى الوراء[3]، وقد قسم الاسترجاعات السردية إلى ثلاثة أصناف يمكن الاستناد عليها للنظر إلى الطرق التي يظهر بها الاسترجاع داخل المتن الخبري المغربي وما يختص به دون غيره من الأشكال السردية القديمة في تعامله مع المفارقة الزمنية بالنظر إلى نماذج من الأنواع الخبرية المغربية.

[1]- حسن بحراوي، بنيه الشكل الروائي، ص122، 125. وكذلك ناصر عبد الرزاق الموافي ، القصة العربية... عصر الابداع (دراسة للسرد القصصي في القرن الرابع الهجري)، دار النشر للجامعات مصر، ط3 ، 1997 م ، ص 155.

[2]- جيرار جينيت ، خطاب الحكاية بحث في المنهج، تر: محمد معتصم عبد الجليل الأزدي، عمر حلي، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1 ، 1996م، ص 60.

[3]- ناصر عبد الرزاق، القصة العربية، ص 155.

1-الاسترجاع الخارجي: الدور الديني وعلاقته بتوظيفه الواسع في الخبر

يحدد الاسترجاع الخارجي بأنه استرجاع لأحداث ماضية تنتظم في متتالية سردية تبدأ وتنتهي قبل بدأ الحاضر السردي، فتتشكل بذلك حكاية ثانية « تتناول حادثة أسبق طبعا من المنطلق الزمني للحكاية الأولى، ومن ثمة يمكن أن ننعت بالخارجي ذلك الاسترجاع الذي تظل سعته كلها خارج سعة الحكاية الأولى»[1]، ومعنى ذلك : أن هذه الاسترجاعات « بمجرد أنها خارجية لا توشك في أي لحظة أن تتداخل مع المحكي الأول لأن وظيفتها الوحيدة هي إكمال الحكاية الأولى عن طريق تنوير القارئ بخصوص هذه السابقة أو تلك »[2]، وغالبا ما يلجأ إليها السارد لملأ فراغات زمنية قفز عليها السرد و التي تساعد في استكمال صورة الشخصية و الحدث وفهم مسارهما[3].

ولمعرفة كيفية توظيف هذا الصنف من الاسترجاعات في المدونة الخبرية المغربية يمكن الاستئناس بعدد من السياقات الحكائية على النحو الآتي:

- التعريف بماضي الشخصيات الذي يظهر على شكل مقاطع استرجاعية تأتي على شكل تعليقات بعد نهاية الخبر حيث تستحضر ذاكرة السارد رواية أخرى قادرة أن تكون حكاية مستقلة تتميز بقدرتها على الاندماج داخل متن الخبر لتؤدي وظيفة السرد الاستكمالي الذي يعمل على إثراء المتن ببعض سوابق الشخصية الرئيسة التي قفز عليها السرد مما يسهم في تفسير وفهم صورتها داخل مسار الحدث الذي تناوله الخبر ومن أمثلة ذلك ما نقرأه في نهاية الخبر الممتد لكرامة الولي الحلوي[4]، فالسارد قدم مقطعين استرجاعيين: أحدهما داخلي لخص لنا ملامح الولي كما نقلها له أحد سكان مدينة تلمسان يقول: « وأخبرني

---

[1]- جنيت، خطاب الحكاية، ص60.

[2]- ن م ، ص61.

[3]- سيزا قاسم، بناء الرواية، ص 40.

[4]- الخبر أورده ابن خلدون ثم نقله عنه ابن مريم و أعاد روايته في البستان، أنظر تحليلنا للخبر في الفصل السابق.

بعض طلبة تلمسان، قال: كان الشيخ يبيع الحلواء و يتصدق بالثمن وربما ساح سنة ثم يعود وما أكل في نهار قط. [ولم ير إلا صائما قائما]. ومما ينسب إليه من النظم رضي الله عنه قوله: 3أبيات »[1]، نلاحظ أنهذه الرواية الاسترجاعية انتقلت عبر الجملة الافتتاحية التي اصطبغت بالتكرار الذي أكد للقارئ أن صفة "بيع الحلوى و التصدق بثمنها" هو السلوك الغريب الذي اشتهر الولي بممارسته بين عامة أهل تلمسان ثم تأتي العبارة الأخيرة لتحيل المتلقي على ملامح إضافية لم يذكرها السرد في بداية الخبر ليقطع السارد بعدها مباشرة الرواية لينقل ثلاث أبيات منسوبة للشيخ في شعر التصوف وهنا يتفطن فجأة أنه بالرغم من التأكيد والتفاصيل الإضافية التي قدمها الاسترجاع الداخلي فإنه لم يتمكن من كشف المفارقة بين ملامح الشخصية التي قدمها الخبر لينطلق مجددا من خلال المقطع الاسترجاعي الختامي في سرد جزء من حياة الشيخ قبل مجيئه إلى تلمسان« وقيل إنه ولي القضاء بإشبيلية آخر دولة بني عبد المؤمن، ثم فر بنفسه منه، وأوى إلى تلمسان في زي المجانين »[2]، فهذا الاستذكار بعيد المدى وهومسند إلى راو مجهول يتميز بسعة مكثفة وشديدة التركيز يتجه مباشرة نحو فترة معينة من ماضي الولي ليكشف عن اللحظة الغائبة من حياته في مدينة إشبيلية محددا أبرز ملامحها بدءا من توليه منصب القضاء في أواخر زمن دولة المرابطين و الذي فر منه إلى تلمسان في زي المجانين و دلالة هذا الاسترجاع تكمن في أنه جعل القارئ يعرف سبب المفارقة التي يعيشها القاضي في حاضر السرد، فهروبه من رتبة القضاء هو الدافع إلى التنكر و تغيير الفضاء إلى تلمسان التي عاش فيها بشخصية مزدوجة حيث يظهر في بداية السرد أثناء تواجده بين عامة الناس في صورة شيخ مجنون يبيع الحلوى يقول راوي الخبر: ابن المرأة: « فرأيت هذا الشيخ يبيع من طبق عود في يده حلواء للصبيان الصغار... فإذا من يمر به من الصبيان ينقرون له فيدور و يشطح، وربما أنشد مقطعات...ثم أخذ في ثمن شيء من حلوائه كسرة خبز

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 166، ابن مريم ،ص 70.

[2]- بغية الرواد، ج1، ص 167، و البستان ، ص71.

سميد فتصدق بها على يتيم ذي أطمار»[1]، ولكنها صورة سرعان ما تتحول إلى صورة الولي المختص بمقام جلب الحلوى في منتصف السرد أثناء لقائه بالراوي بعيدا عن أعين الناس يقول « فقمت معه إلى خارج الشريعة، فأخرج من تحته صحفة مغطاة بمنديل نظيف و كشطه فإذا مشهدة لم ير مثلها الراءون إحكام طبخ وجودة صنعة وكثرة إدام فأكلنا » [2]، و يستمر التحول حيث يظهر السرد في الوحدة الأخيرة أثناء اختلاء ابن المرأة بالحلوى في أحد المساجد خارج مدينة تلمسان صورة الشيخ المقرئ العارف بفنون العلم « قال لي: بماذا تحترف؟ قلت: بالقراءة قال: أتريد أن تقرأ؟ قلت نعم قال: ايتني غدا إن شاء الله بالمسجد الذي بخندق عين الكسور من المنية التي بخارج باب القرمدين ونقرأ ما تريد فخرجت إليه من الغد، فوجدته جالسا بالمسجد لوعدي فسلمت و جلست فقال: ما الذي تريد قراءته؟ فقلت: ما ألهمك الله »[3]، وهكذا فإن الكاتب استخدم العبارة الأخيرة كمسوغ لاسترجاع الماضي القريب لتثبيت و إضاءةصورة الولي المتنكر ثم استرجاع الماضي البعيد ليكشف عن السبب الذي جعل الولي يلجأ إلى التنكر لإخفاء ملامح شخصيته الحقيقية (الولي العارف) التي يجري عليها القص داخل متن الخبر عن عامة الناس، فالحكي الاستعادي يؤشر على استمرار السرد الذي سيعتمد على تداعي ذاكرة الكاتب في استحضار روايتين ربط من خلالهما حاضر السرد بماضيه حيث عكست دلالة هذا الربط قيمة الزمن الاستذكاري في تحقيق التواصل بين الماضي والحاضر الذي أكد على مستوى هذا السياق الحكائي أن صفة الهروب لم تكن إلا مظهرا من مظاهر الولاية التي تحدى بها الشيخ الحاضر و استطاع التغلب عليه بالتخفي والتمسك بحياة الزهد و التصوف.

من هنا ستبدو الرواية الاسترجاعية استراتجية تساعدنا على تأكيد ما قلناه سابقا عن الكرامة من حيث هي نص يسعى إلى إثبات حيلته، فهي لا تسترجع هذا الماضي البعيد

[1]-ن م ، 165، ن م، ص 68.

[2]- ن م، 166 ، ن م ، ص 69.

[3]- بغية الرواد، ص166، البستان ص 69.

من أجل الدفاع عن حقائق خارج نصية، و إنما تستعيد منه ما يساعدها على تفسير لحظة زمنية حكائية متوترة في حاضر السرد وإعادة بناء تشخيصها وهو: التوتر الزمني الذي نجده في كثير من أخبار الكرامة الصوفية... التوتر الذي يكون مصدر استغراب و دهشة من بعض السمات التي تطال الشخصية في الزمن الحاضر كالجنون و بيع الحلوى و التصدق بثمنها، وهي ملامح الرواية التي قام الاسترجاع الداخلي بتأكيدها و إضاءتها بملامح جديدة وهو ما يوحي بخرق بعض قوانين الزمن الطبيعي والسلوك الاجتماعي المتعارف عليه و يوحي بالتناقض و ما هو بالتناقض[1].

وعلى هذا النحو يقدم " ابن خلدون " الاسترجاع الخارجي في الخبر الموجز، و لكننا لاحظنا أن دور الرواية الاستذكارية الختامية يقتصر فقط على إضاءة صفة من صفات الشخصية صاحبة الخبر و التي أشار إليها الحكي خلال مراحل سرد الحدث و لكنه لم يتسع المقام لعرضها و تقديمها و من أمثلة ذلك ما وجدناه في الخبر الذي يحكي منقبة للعالم التلمساني " محمد بن الحجام " فالسارد يفتتح الخبر بمقدمة شديدة التكثيف لخصت صفات الثناء والتمجيد التي اشتهر بها في عصره، لينتقل بعدها ليهتم في المتن بتتبع حركة ابن الحجام في اللحظة الآنية شديدة الإيجاز من حياته أثناء إقامته بمدينة مراكش عاصمة دولة المرابطين حيث كشف السرد عن المنقبة التي اشتهر بها و هي إنفاق كل أمواله التي كان يجمعها من أمراء الدولة الذين تعاقبوا على الحكم في الصدقة يقول الخبر « وكان فاضلا صالحا زاهدا ذا حظ في الأدب و الشعر نبيل، واعظ أهل زمانه، حسن صوت و غزارة حفظ، يحفظ من سمعة واحدة كلما يطرق أذنه. استقدمه المنصور يعقوب بن يوسف العسري ابن عبد المؤمن بن علي إلى مراكش فاستوطنها و حظي عند ملوكها المنصور والناصر والمستنصر و كان يتصدق بما يحسنون به إليه و يجهز منه ضعيفات

[1]- محمد مفتاح، الواقع والعالم الممكن في المناقب الصوفية، ص34. التاريخ و أدب المناقب ، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، 1988م.

البنات »[1]، يقدم متن الخبر صورة مركزة عن شخصية العالم الذي اشتهر بمنقبة ارتبطت بسلوك فريد: التصدق بالمال لتجهيز الفتيات الفقيرات وهو ما كشف عن حسن تدينه الذي أثنى عليه السارد في بداية المقدمة عبر صفات الفضل، والصلاح والزهد، وقد تضمنت المقدمة سمات أخرى ميزت ابن الحجام ومن أهمها الوعظ حيث تحيلنا عبارة « واعظ أهل زمانه » وما تلاها من إشارات للمكانة التي احتلها بين أهل زمانه وهي الواعظ القوي الحفظ حسن الصوت، ولكننا لاحظنا أن حاضر السرد قام بحذفها ولم يتطرق إليها إلا في التعليق الذي انتهى به الخبر حيث تكررت الإشارة إلى صفة الواعظ على لسان السارد الذي قدمه هنا في صورة المؤلف الذي اشتهر بمصنفه الضخم في مجال الوعظ و بشعره الذي ألفه في التصوف اختار لنا منه بعض الابيات انغلق عليها الخبر يقول « وله في الوعظ كتاب أسماه حجة الحافظين ومحجة الواعظين، اختصره بعده أبو زكرياء يحي بن محمد بن طفيل في سفر واحد أسماه مجالس الأذكار وأبكار عرائس الأفكار، ومما يؤثر من نظمه في التصوف قوله: 5أبيات»[2].

إن هذه الصفة الخفية من حياة الشخصية التي قدمها الخبر عبر الإحالة لم يمنحها السرد فرصة الظهور و التجلي لانشغاله باستقراء الصفة المتفردة للشخصية داخل الحاضر السردي الذي تعيشه وهو السبب الذي جعل السارد يلجأ إلى توظيف العبارة الختامية التي ربطت الحاضر بالماضي بإحالة القارئ على موضوع الاسترجاع الذي سيواصل فيه السرد مهمة الحكي من جديد عن جانب من جوانب شخصية الواعظ يرتبط بقوة تأثير وعظه في النفوس حيث سيذكر المؤلف رواية للشيخ البلوي تتكفل باستحضار الماضي البعيد ليقدم لنا صورة لمجلس الوعظ المتميز لابن الحجام الذي كان يثير فيه القضايا التي يعاني منها المجتمع الإسلامي بالأندلس خلال تلك الفترة وكان قد حضره

[1]- بغية الرواد، ج 1، ص 137.

[2]- بغية الرواد، ج1، ص 137، ص 138.

أثناء وجوده بمدينة إشبيلية يقول «وكان كثيرا ما تنفعل لوعظه القلوب حكى الشيخ أبو القاسم البلوي قال: حضرته يعظ الناس فوق منبر في الجامع الأعظم من إشبيلية ويندبهم لفداء أسرى فرأيت الثياب تنثال لديه حتى لكادت تحجبه عن الأبصار »[1]، فدلالة هذه الرواية الاسترجاعية التي تمتاز بطول المدى وبسعة قصيرة لا تزيد عن ثلاثة أسطر تعكس قيمة الزمن الماضي في إضاءة بعض الفراغ الذي ظهر في الزمن الحاضر حول شخصية الواعظ لأهل زمانه التي تتضح من خلال مجلس الوعظ الذي كان يقيمه بالجامع الأعظم وما يأتي فيه من كلام شديد التأثير في مشاعر ووجدان الجمهور الذي تفاعل معه بشكل غريب حيث انتهى المجلس بتدفق الثياب على الواعظ حتى كادت تحجبه عن الأنظار، وهو ما يجعلنا نستنتج أن كتابه الضخم في هذا المجال كان تجميعا لما يقدمه من مواعظ في هذا المجلس المتميز .

تتوحد هذه المدلولات الجديدة جميعا لتقدم لنا صورة واضحة المعالم لشخصية ابن الحجام أزالت الغموض عن ذهن القارئ، وهكذا فابن خلدون يستثمر وفق هذا التصور الدلالي الزمن الاسترجاعي كوسيلة من وسائل السرد الاستكمالي حيث يهدف لخدمة خطاب الترجمة الذي يسعى لتثبيته ضمن هذا الخبر الموجز، ويتكرر - مرة أخرى – بصورة مختلفة عند ابن مريم توظيف المقطع الاسترجاعي الختامي حيث يرمي استدعاء ماضي الشخصية لتزويدنا بمعلومات و تفاصيل تعمل على إضاءة مميزات ترتبط بمكان خاص بها أشار إليها مضمون الخبر بشكل موجز، و هذا ما يمكن ملاحظته في الخبر الذي روى لنا فيه الكرامة التي ميزت بستان والد الشيخ الحسن بن مخلوف الشهير بأبركان يقول: « و كان يعد من كرامات أبيه سيدي مخلوف رحمه الله تعالى ورضي عنه أنه كان له روض وكان لا يقدر سارق أن يأخذ منه شيئا لا ليلا ولا نهارا إذا دخله سارق خرج له ثعبان عظيم لا يستطيع مدافعته فيهرب السارق لينجو بنفسه قبل أن ينال منه

[1]- ن م ، ص138.

شيئا، وإذا دخل الروض الشيخ سيدي مخلوف أو أهله أو أولاده استكن الثعبان و لم يتعرض لأحد منهم»[1]، وتقوم العبارة الختامية التي كشفت عن علاقة الألفة التي ربطت الثعبان بالشيخ وأهله بمثابة العامل المفجر لرواية استرجاعية طويلة مكملة للأولى جاءت لتفسيرها حيث يسترجع فيها الشيخ أهم أبناء الولي مرحلة من طفولته البعيدة تبدأ بتوضيح هذه العلاقة فقد « حكى الشيخ أنه كان في يوم جمعة مع أبيه سيدي مخلوف بالروض المذكور قال: وكنت صغير السن فلما قربت صلاة الجمعة و أراد أبي أن يذهب إلى الصلاة أمرني أن أمكث في الروض حتى يقضي الصلاة ويرجع فلما ذهب أبي و بقيت في الروض وحدي دخل علي إنسان من غنادر البادية وهياجهم قاصدا الخيانة و الثعبان قد استكن لإحساسه أولا بسيدي مخلوف وولده بالروض»[2]،فاستخدام الراوي للمؤشر الزمني في المحكي المسترجع يسهم في ترسيخ البعد التاريخي للحكي ويساعد على خلق أثر الواقع داخل وظيفته المعتمدة على إنارة المناطق المظلمة للعلاقة المشابهة التي ظهرت في حاضر السرد حيث أضافت إليها ميزة أدهشت القارئ فالثعبان لا يهاجم السارق لإحساسه الأول بوجود الولي سيدي مخلوف و طفله غير أن الاسترجاع المستمر لا يتوقف عند هذا الحد، حيث يتخلله صوت السارد من لحظة الحاضر ليمنح للراوي فرصة تمديد الحكي بسرد حدث خارق يثري المكان بسمة أخرى يفاجئ القارئ أكثر « قال الشيخ سيدي الحسن فلما دخل ذلك السارق صحت عليه ازجره على الخيانة مع صغر سني جدا، فلما أحس بي جاء إلي ورفعني إلى السماء قاصدا أن يضرب بي الأرض فإذا هو سقط تحتي و جلست أنا فوقه و قام ثانية بشدة غضب و رفعني أيضا إلى السماء ليضرب بي الأرض فإذا هو أيضا قد سقط تحتي و جلست أيضا فوقه ثم كل منا لا كسب له في ذلك ثم قام أيضا و رفعني الثالثة ففعل به أيضا من ضربه هو بالأرض و صعودي فوقه ما فعل به في المرتين فلما رأى ذلك عرف أن هذا الأمر إلاهي خارق للعادة فأدركه خوف عظيم

[1]- البستان، ص 83، ص 84.

[2]- البستان، ص 84.

فرفع ثوبه و سعى يريد الخروج و النجاة بنفسه فتعرض له الثعبان و هرب إلى جهة أخرى و لم يتخلص منه إلا بمشقة شديدة »[1]

إن هذا الاسترجاع المفصل، الذي يقوم على تمطيط الحدث يبين أن وظيفته لا تقف عند الحد الضيق، الذي يتكفل بملء البياض فقط؛ بل تتعداه إلى صنع معادل جمالي ماضوي، لا يحاول استعادة الزمن، فذلك غير ممكن، إنما يحاول تحريره ليرتبط بالحاضر ويساعد على تفسيره، فظهور القوة الخفية، ثم الثعبان يلفت انتباه القارئ على أن المكان مخصوص بسمات ترتبط بالولي، جعلت الكرامة تمتد لتشمل ابنه، حيث ستحيله عبارة « هذا الأمر إلاهي خارق للعادة » على أن السبب في ظهور الكرامة، و انتقالها هي: العناية الإلهية، التي تحرس الأولياء، وهو التفسير، الذي يؤكده تحول الاسترجاع في الحدث المفاجئ بالتبئير على شخصية الراوي، الذي اختص بالاختيار الالهي منذ صغر سنه، ليرث سر أبيه (الولاية). وهنا يظهر دور المكان في إظهار صفات الكرامة التي تعكس الخصوصية الصوفية، التي تنبع من الولاية لتصب فيها من جديد، وهكذا فإن تمديد الحدث، وتحويله نحو الشخصية المحورية، على مستوى الرواية الاسترجاعية، يهدف إلى ترسيخ الحيلة في ذهن المتلقي. بدفع الشكوك و الشبهات عن الصفات الغريبة، لروض الولي سيدي مخلوف، التي تضمنها الخبر الأول، وهو الأمر الذي يجعل من الاستذكار الخارجي، وسيلة يستغلها ابن مريم، لإثبات حالة القدسية التي اختص بها نسب الولي الحسن بن مخلوف (أبركان) داخل خطاب الترجمة.

وقد يلجأ السارد لتوظيف الاسترجاع الخارجي لماضي الشخصيات داخل الخبر لملء الفجوات الزمنية التي تظهر داخل الخبر الموجز، لإنارة لحظة قصصية مكثفة ظهرت في الحوار تثير الاستغراب أو التعجب ومن نماذج ذلك ما جاء في خبر النادرة للفقيه ابن

[1]- ن م، ن ص.

فروخ الذي أورده المالكي[1] مسند إلى راو خارجي – أبو زكرياء القصير- نقل إلينا ما حدثه الفقيه حيث سيفتتح الحكي بضمير المتكلم ليسرد لنا الموقف الطريف الذي صادفه عند وصوله إلى الكوفة وحرمه من تحقيق الهدف الأكبر الذي دفعه للرحلة وهو السماع من محدثها الأعمش « قال أتيت الكوفة و أكبر أملي السماع من سليمان بن مهران الأعمش، فسألت عنه فقيل لي إنه غضب على أصحاب الحديث، فحلف أنه لا يسمعهم إلى وقت ذكروه »[2]

ويستمر الحكي متناسبا مع الموقف الطريف ليكشف لنا الراوي عن حالة الفشل التي آل إليها وقد اجتمعت عليه الغربة و الخيبة « قال: فكنت أختلف إلى داره طمعا أن أصل إليه، فلم أقدر على ذلك، فجلست يوما على بابه وأنا مفكر في غربتي وما حرمته من السماع منه»[3]، وهنا تظهر فجأة شخصية الجارية يقول « إلى أن انفتح الباب فخرجت جارية »[4] ليكون سؤالها بداية الحوار الذي يسعى من خلاله ابن فروخ التنفيس عن ذاته « فقالت: ما بالك على بابنا؟ فقلت: أنا رجل غريب وأعلمتها بخبري فقالت: وأين بلدك؟ فقلت: إفريقية فانشرحت لي وقالت: أتعرف القيروان؟ قلت لها : ومن أهلها أنا! قالت: لعلك تعرف دار ابن فروخ؟ ثم تأملتني وقالت: عبد الله؟ قلت: نعم! »[5]، وهنا شعر الراوي بفجوة تثير تعجب القارئ أراد أن يوضحها فقطع الحوار وعاد بذاكرته إلى ماضي الجارية ليسترجع جزءا من تلك الفترة البعيدة من حياتها بإفريقية قبل أن تنتقل إلى الكوفة « فإذا هي جارية كانت ببلادنا أو قال من بلادنا، وأظنه قال: كنت رضيعا لها فأبعناها

[1]- الخبر أورده كذلك الدباغ في المعالم، ج1، ص 241،ص 242 ولكننا اعتمدنا على رواية المالكي لأن توظيف الاسترجاع الحواري فيها كان أكثر وضوحا .

[2]- رياض النفوس، ج1، ص 180.

[3]- رياض النفوس، ج1، ص 180.

[4]- ن م ، ن ص .

[5]- ن م، ن ص.

وهي صغيرة فصارت إلى الأعمش»[1]، ويكشف الاسترجاع ما خفي، ويخفف حزن الفقيه، ثم ينتقل صوت الراوي الخارجي الذي ظهر فيه لتدعيم الحوار باسترجاعين داخليين حيث أسهمت الدلالة التي أشار إليها الأخير وهي سمة التميز الذي ظهر على ابن فروخ منذ الصغر وكانت الجارية تخبر به الأعمش في تحويل موقفه الذي كان السبب وراء الاستذكار الخارجي لينتهي الخبر بتشكل المفارقة التي حققت رغبة الفقيه يقول: « وكانت لها دالة عليه فدخلت عليه فقالت له: ابن مولاي الذي كنت أخبرك بخبره بالباب، فأمرها بإدخالي وأسكنني في بيت قبالته، فكنت أسمع منه وحدي، وقد حرم سائر الناس إلى أن قضيت أربي منه »[2].

ينتهي الخبر إذا على حدث الصدفة النادرة التي انطلق منها القارئ في البداية، ورغم المفارقة بين الصدفتين فإنهما موصولتان بتحقيق الاسترجاع البعيد: فالعلاقة بين ابن فروخ و الجارية هي الأساس النادر الذي قام عليه الخبر، حيث يقودنا صوت الراوي الخارجي على أسلوب الراوي الطريف الذي أتقنه في بناء الحوار على الصدفة الغريبة، وما توظيف الماضي القريب فيه إلا حيلة فنية تأتي لتدعيم الماضي البعيد بدلالة تعكس قدرة الاسترجاع على الارتباط بالحاضر دون أن يشعر المتلقي و بذلك يتسنى للسارد تحقيق هدفه بإمتاعه وفق ما يقتضيه سياق سمة الشهرة داخل خطاب الترجمة[3] التي تضمنت هذا الخبر.

ويشبه الدور الذي قام به الاسترجاع الخارجي لماضي الشخصيات داخل النموذج السابق ما كرره المالكي في سياق الخبر شديد الإيجاز لمنقبة الفقيه محمد بن اللباد [4] يقول

[1]- ن م، ن ص.

[2]- ن م ، ن ص.

[3]- جاء في ترجمته كان حافظا للحديث و الفقه وكان مالك يكرمه و يرى له فضلا و يقول لأصحابه: « هذا فقيه أهل المغرب »، أنظر المالكي، ص 175، ص 176.

[4]- الخبر موجود باختلاف طفيف في المعالم ، ج3، ص 25.

نصه: «كانت له امرأة سليطة تؤذيه بلسانها و يقاسي منها أمرا عظيما، فقال له الطلبة طلقها ونحن نؤدي عنك صداقها فقال لهم : حفظتها في والدها وذلك أني خطبت إلى جماعة من الناس فردوني وقالوا: لا نزوج صاحب محبرة وقلم فخطبت إلى هذا الرجل فلم يردني وزوجني ابنته وكان يفعل معي جميلا كثيرا و يرفقني بما يقدر عليه أفتكون مكافأتي لهذا الرجل طلاق ابنته؟ وكان يقول: لكل مؤمن محنة وهذه محنتي»[1].

نلاحظ أن السارد عمد إلى توظيف الاسترجاع البعيد المدى ذي السعة المكثفة التي أخذت من أسطر الخبر جزءا مختزلا لم يشغل من زمن الحكي إلا بعض الدقائق داخل الحوار لأنه شعر أن القارئ وقت قراءته له سيستغرب من رد الفقيه كما استغرب محاوروه من الطلبة، أي أن رده يتضمن غموضا يحتاج إلى توضيح، ولذلك سيظهر صوت الراوي الداخلي فجأة ليتولى مهمة الاستذكار بالعودة إلى فترة من حياته قبل الزواج ليكشف عن سلوك غريب اتسمت به شخصيته، فحفظه لزوجته سببه حرصه الشديد في الوفاء و الإخلاص لوالدها الذي خصه بالجميل حيث قبل خطبته بعد أن رفضه جماعة من الناس نتيجة لمهنته البسيطة وقرر تزويجه ابنته لوجه الله وقد أفادنا الاسترجاع الداخلي الذي انتقل الراوي لسرده أن جميل صهره لم يتوقف بعد الزواج فقد كان يعينه ماديا بما يقدر عليه وهنا يقطع هذا المحكي ليعود إلى الزمن الحاضر بتساؤل يتوجه به إلى طلبته يؤكد عدم استجابته لطلبهم بتطليق زوجته، ويبرر من خلاله استمرار معاناته للحفاظ عليها لينتهي الخبر بموعظة دينية تلخص قوة صبره.

ينتهي الخبر باستمرار الوضع غير المألوف الذي يعيشه الفقيه في حاضر السرد، وتأتي الموعظة الدينية الموصولة بتحقيق الاستذكار لتفسر ذلك فسمة الوفاء والإخلاص التي أضاءت شخصية ابن اللباد هي المنقبة التي شكلت السلوك الأساس الذي قام من أجله السارد بتأليف الخبر وما الحوار وما جاء فيه من ماضي قريب إلا حيلة فنية تأتي لتدعيم

[1]- رياض النفوس، ج2، ص 285.

الدلالات الإيجابية للاستذكار الأساس ليتمكن من الارتباط مع الزمن الحاضر و التوافق معه وفق ما يقتضيه سياق سمة الصبر التي عرفتها الترجمة قبل بداية الخبر « وكان كثير الصبر »[1] ليتسنى للسارد التأثير في القارئ لتحقيق هدفه بنشر الخطاب الوعظي الإرشادي الذي جاء في خاتمة الخبر.

- وقد يأتي الاسترجاع الخارجي داخل الحوار، للرد عن سؤال مباشر يجيب عليه المسؤول، لتوضيح أو تفسير حدث وقع لشخصيات أو أمر يظهر فجأة في السرد مرتبطا بها، وهو في أغلب أحواله يرد مؤطرا بخبر إطار يشكل الإطار أو الأصل في ظهوره، ويحكى دفعة واحدة ومن أمثلته ما جاء في الخبر الممتد لعمر رضي الله عنه حول كرامة للبربر[2]، رواه لنا أبو زكرياء يحي : فالسرد في الخبر الإطار يبدأ من لحظة ورود جماعة من البربر من لواتة، (عددهم اثنى عشر)[3]، على عمر بن العاص (رضى)، أرسلهم (وترجمانا)[4] إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، و أثناء حواره معهم قصد التعرف يظهر نسبهم المغربي كأمر غامض لديه، مما استوجب ظهور سؤاله المباشر الذي توجه به لجلسائه لتوضيحه يقول: « وبلغنا أن عمر رضي الله عنه حين قدم عليه قوم من البربر من لواتة أرسلهم إليه عمرو بن العاص، وهم محلقوا الرؤوس و اللحى قال لهم: ممن أنتم فقالوا من البربر من لواتة، فقال عمر لجلسائه: هل منكم من يعرف هذا القبيل في شيء من قبائل العرب والعجم؟ قالوا ليس لنا من قبيلهم من علم »[5]، فجوابهم

[1]- رياض النفوس، ج2، ص 285.

[2]- الخبر موجود أيضا عند ابن خلدون في بغية الرواد، ج1، ص 121، ولكن بشكل موجز خاصة في توظيف الاسترجاع، ولذلك فإننا اعتمدنا على رواية أبي زكرياء، مع توضيح بعض التفاصيل التي تتوافق مع روايته من هذا الخبر الموجز.

[3]- بغية الرواد، ج1، ص 121.

[4]- ن م، ن ص، وقد ذكر أبو زكرياء ذلك بعد الخبر الاسترجاعي الأول وسوف نتحدث عن سبب ذلك أثناء تطرقنا للاسترجاع الداخلي في صفحات البحث القادمة.

[5]- السيرة و أخبار الأئمة ، ص 53، ص 54.

بالنفي، حفز الصحابي" عباس بن مرداس السلمي " ليتدخل في سياقه قائلا: « إن عندي فيهم علما يا أمير المؤمنين»[1] ليعلن بذلك عن بداية مهمته، التي سيتولى فيها رواية الخبر الاستذكاري الأول[2]، الذي يكشف حقيقة نسبهم يقول: « هؤلاء من أولاد بر ابن قيس، وكان لقيس عدة ولد: أحدهم يسمى بر بن قيس وفي خلقه بعض الرعونة: يعني ضيقا. فقاتل إخوته ذات يوم فخرج إلى البراري فكثر بها نسله وولده. وكانت العرب تقول : تبربروا أي كثروا »[3]، فالصحابي يعود بنا من خلال ذاكرته، إلى فترة موغلة، من الزمن البعيد (الجاهلية)، ليحكي لنا قصة خروج الأب الأول لقبيلة لواتة من المشرق إلى المغرب هروبا من إخوته وبذلك يتضح لعمر وجلسائه أن أصل النسب لقبيلة هؤلاء البربر عربي ينتهي عند جدهم قيس. وبعد ذلك يقطع السارد هذا الحكي الاستذكاري، ليعود إلى الزمن الحاضر، ليكمل سرد تفاصيل الخبر الرئيس، بالتركيز من جديد على شخصية عمر الذي سيواصل التعرف أكثر على البربر حيث سيتولى الحوار نقل بعض التفاصيل عن أحوال معيشتهم في المغرب يقول: « فنظر إليهم عمر رضي الله عنه... فقال لهم: ما لكم محلقوا الرؤوس واللحى؟ فقالوا: شعر نبت على الكفر فأحببنا أن نبدل شعرا في الإسلام فقال لهم عمر هل لكم مدائن تسكنونها ؟ قالوا: لا فقال لهم هل لكم أسواق تتبايعون فيها؟ قالوا : لا [فقال عمر رضي الله عنه: الحمد لله الذي من علي برؤية هؤلاء قبل الممات]»[4]؛ فيتوقف عمر عن السؤال فجأة، ويشرع في البكاء! فسأله الجلساء عن سر

[1]- ن م ، ص 54.

[2]- جاءت رواية ابن خلدون خالية من هذا الخبر الاسترجاعي.

[3]- السيرة و أخبار الأئمة، ص 54.

[4]- بغية الرواد، ج1، ص 121.

[5]- السيرة، ص 54.

ذلك، لينطلق في كشفه بحكي الخبر الاسترجاعي الأخير[1]يقول: « أبكاني حديث سمعته من رسول الله (صلع) يوم حنين حين انهزم المسلمون نظر إلي رسول الله (صلع)، أبكي فقال: ما يبكيك يا عمر؟ فقلت: أبكاني يا رسول الله قلة هذه العصابة من المسلمين و اجتماع أمم الكفر عليها فقال رسول الله (صلع) لا تبك يا عمر فإن الله سيفتح للإسلام بابا من المغرب قوم يعز الله بهم الإسلام [...يأتونكم من المغرب لطلبه][2]، ويذل بهم الكفر، أهل خشية وبصائر، يموتون على ما أبصروا ليست لهم مدائن يسكنونها ولا حصون يتحصنون فيها ولا أسواق يتبايعون فيها»[3]

وعمر رضي الله عنه استرجع من خلال هذا النص الاستذكاري، لحظة زمنية بعيدة، عاشها مع الرسول (صلع) ، يوم انهزام المسلمين بحنين، حيث انتابته حالة من البكاء، لينطلق مشهدهم الحواري، ليبين فيه للرسول (صلع) ، أن سبب تأثره، هو الألم الذي شعر به عند رؤيته قلة عدد المسلمين أمام الكفار، وبعد ذلك يضطر السارد لتغير وتيرة الزمن فينتقل إلى الزمن الحاضر، ليسرد لنا حدث الاستباق بتكوينه الديني، الذي ينبني على بشرى للرسول (صلع)، تنبأ فيها بظهور شخصيات من المغرب، يخرجون منه طلبا للدين الإسلامي، وقد تولى وصف أحواله ليخفف من حزن عمر (رضي)، و يستمر السارد الصعود بالزمن عبر الحالة الشعورية المتكررة البكاء التي تتخلل السرد كاللازمة ليربط بين الماضي و الحاضر، دون أن يشعر القارئ بالتوتر، فيعود بالحدث، ليستقر من جديد، في لحظة الحاضر السردي، التي انطلق منها الاستذكار ليمنح فرصة الحكي مرة أخرى لعمر (رضي) ليبرر بكاءه بتحقيق البشرى وقد أشار إلى ذلك قائلا « ولذلك بكيت

[1]- جاء الاستذكار في رواية ابن خلدون بشكل ملخص « فقال حضرت مع رسول الله غزاة، فرأيت كثرة الكفار و قلة المسلمين فبكيت، فقال لي رسول الله (ص) سيعز الله هذا الدين بأقوام يأتونكم من المغرب لطلبه » بغية الرواد، ن ص.

[2]- ن م، ن ص.

[3]- السيرة، ص 54، ص 55.

حين ذكرت حديث رسول الله (صلع) وما ذكر لي عليهم من الفضل»[1]، وهكذا فبفصل هذا التبرير، الذي يحقق الوظيفة الترابطية، بين الحاضر و الاسترجاع الاستباقي، التي تضفي على الجماعة البربرية هالة من القداسة، لتتحول إلى شخصيات ذات مرجعية دينية، تحمل الكثير من الصفات الكرامية، تأتي لحظة التنوير ، لتشرع أخيرا في سرد الخبر الإطار ، فمجمل ما جاء في الأخبار الفرعية من دلالات كان جزءا منه لينتهي الخير بتقدير خاص حظيت به الجماعة البربرية عند عمر (رضي) حيث أمر عمر بن العاص[2] برفع مكانتها يقول: « فردهم عمر إلى عمرو بن العاص، و أمره أن يجعلهم في مقدمة العسكر، وأحسن إليهم، و أكرمهم. وكانوا مع عمرو بن العاص حتى قتل عثمان بن عفان »[3]

يبدو الاسترجاع هنا – إذن – خارجا بوظيفته التضمينية الجمالية، عن مجرد تنوير المناطق المظلمة ، فالتكوين التاريخي، و الديني لتلك الأخبار الاسترجاعية، لا ينير تلك المناطق، بقدر ما يؤكد الوظيفة الإيديولوجية التي يسعى أبو زكرياء، ترسيخ فكرتها وهي فضل البربر في نشر الدعوة الإباضية، فهو ينطلق من الخبر الإطار ببنيته الموجزة الذي نكاد نجزم بأنه اطلع عليه من خلال كتب التاريخ المغربية، ومن أهمها بغية الرواد، حيث سيعمل على توسيعه؛ بتكسير بنيته الزمنية، بتضمين البنية السردية الخبر الاسترجاعي الأول، حول قصة النسب العربي للبربر، كما رواها نسابة البربر[4]، ولكنه لجأ من أجل

---

[1]- السيرة ، ص55.

[2]- جاءت نهاية الخبر عند ابن خلدون « ثم أكرمهم و صرفهم عند عمر بن العاص، وأمر بضمهم إلى الجند » أنظر بغية الرواد، ج1، ص 121.

[3]- السيرة، ص 55.

[4]- لقد تبنى الرواية أبرز نسابة البربر ومنهم سابق المطماطي، وهاني الضريسي، و أيوب بن أبي يزيد، وغيرهم، وهو أيضا رأي بعض المؤرخين العرب منهم الطبري و البكري وقد اتفقوا حول انتهاء النسب في شخصية بر بن قيس عيلان الذي انتقل إلى المغرب لسبب مختلف فيه نقل الخبر الاطار أحدها وقد تبعهم يحي ابن خلدون لأنه كان يهدف بذلك إلى إثبات النسب العربي لأمراء الدولة الزيانية، مع ضرورة الإشارة إلى أن ابن حزم قد خالفهم جميعا حيث يرى أن الخبر أسطورة لا أساس لها من الصحة، أنظر كل ذلك في بغية الرواد ، ن م ، ص 203، ص 204، و كذلك عبد الرحمان بن خلدون التاريخ، ج 11، ص 186، ص 187، ص 191.

إقناع القارئ بصدق ما جاء فيه و إبعاد الشبهة عنه إلى الحيلة حيث أسند الرواية إلى الصحابي عباس بن مرداس بعد أن ربط ظروف حكيها بالشخصية المحورية، الخليفة عمر (رضى) في الخبر الأساس، وهي خدعة مرر من خلالها رسالته المذهبية التي يتبناها، وهي أن النسب العربي للبربر دعاة الإباضية حقيقة تاريخية، ولم يتوقف توظيف السارد للحيلة عند هذا الحد، حيث لجأ إليها – أيضا – في الخبر الاسترجاعي الأخير فقد أسند روايته مباشرة للخليفة عمر (رضي)، وابتعد في سرده عن الإيجاز فقد قام بتمديد بنيته السردية بتحديد الإطار الزمني بدقة، و توسيع حديث عمر مع الرسول (صلع) في المشهد الحواري، والهدف من كل ذلك تشويق القارئ ومراوغته للسيطرة على ذهنه لإيهامه بصدق وواقعية الموقف المذهبي المتعصب للسارد، فهو يرى أن تبني البربر نشر الدين الإسلامي وفق تعاليم الدعوة الإباضية، فضل ديني بشر به حديث الرسول (صلع) داخل الاستباق الذي قدمه الاستذكار.

إن أهمية الاسترجاع الخارجي في هذا الخبر الإطار تكمن في تقديم الموقف الإيديولوجي، الذي يكشف عن تزاوج جدلي بين الحيلة / والتضمين حيث تقوم الأخبار الفرعية الاسترجاعية بتوظيف النص التاريخي والديني لتهيئة المتلقي لتقبل الثقل السردي الذي ستنوء عنه أخبار أبي زكرياء عن أهل الدعوة حاملي المذهب الإباضي داخل نص السيرة، فالاستذكارات لا ترد فيها بريئة. وقصدية المؤلف في توظيفها لخدمة الآراء المذهبية واضحة بداية من هذا الخبر الإطار، وقد أحالنا تعليق السارد الذي جاء في نهايته صراحة على الدلالة الإيديولوجية التي عكسها الاسترجاع داخله يقول: « فلما كان هذا الحديث في عصابة من أهل المغرب عن عمر عن رسول الله (صلع) رجونا أن يكونوا أهل دعوتنا وأنهم يستوجبوا فضل هذا الحديث»

- ومما جاء أيضا من توظيف الاسترجاع الخارجي للرد عن سؤال داخل الحوار الذي ينبني عليه الخبر الإطار، ما قرأناه عند المالكي في الأخبار الموجزة: قال في منقبة

للبهلول بن راشد: « لقد أخبرني يحي بن زكرياء عن أبيه قال: قلت للبهلول .. أرأيت هذه القراءة التي تقرأ عندك أشيء رويته عن السلف فنرويه عنك، أم شيء رأيته؟ فقال لي: ما أخذته عن أحد إلا أنني كنت أخيط عند معلمي فكنت أمر على مسافر بن سنان في المسجد وهو يذكر الناس، وقوم من القراء يقرؤون فأقف عليه و أستحلى سماع ذلك...»[1]، أو قوله على لسان ربيع القطان في كرامة للعبسي « حدثنا المرجي قال: مضيت أنا و أبو بكر بن اللباد.. إلى شيخ كبير بالسدرة فدخلنا إليه فقال له بن اللباد: جئناك في شيء بلغنا عنك في سبب المر الحديد قال: نعم بينما أنا ذات يوم جالس في بيتي و بين يدي المصحف أتلوا فيه- وأنا إذ ذاك بصير – فلما أن فتحت صورة طه قرأت حتى...»[2]، أو قال في كرامة الإمام المتعبد عمر الصدفي: « ورئي في النوم فقيل له: ما فعل الله عزوجل بك ؟ قال خيرا انتفعنا بفروج كان عندنا. قال فسألت امرأته ما سبب الفروج الذي كان عندك وما قصته؟ قالت: كان خصيا سمناه في عيد فطر قرب منا، فلما كانت ليلة الفطر ذبحناه...»[3]

نلاحظ أن الاسترجاعات تأتي في هذه النماذج لتنير الثغرات التي حددتها الأسئلة في بداية الخبر الإطار (أشئ رويته ...، أم رأيته ...، وسبب المر الحديد...، وما سبب الفروج...، وما قصته...)، ويظل لهذه الاستذكارات وظيفة فنية أهم تتكرر عند المالكي – هنا أيضا ، تتمثل في تقديم معلومات مهمة؛ تخص ماضي الشخصيات تعمل على تمديد الخبر الإطار، ليتسنى للقارئ استيعاب أفكار الشخصيات، التي قفز عليها السرد داخله، وبذلك تظهر دلالة الزمن الماضي في قدرته على الارتباط بالحاضر للتأثير فيه، ليعيد تفسير أفعال شخصيات الخبر المحورية، لتتوافق مع سماتها، داخل التراجم التي حددتها،

[1]- رياض النفوس، ج1، ص 199.، ص 200.

[2]- ن م ، ج2، ص 314، ص 315.

[3]- ن م ، ص 457.

ليتسنى للسارد التأثير في القارئ بهدف نشر الخطاب الديني الوعظي والإرشادي، الذي قد يظهر صراحة في خاتمة الخبر الأساس.

- ويمكن أن يأتي توظيفماضي الشخصية المحورية، داخل الخبر الإطار، كاستدعاء مرتبط بوسيلة تمتلكها، ليعمل الاستذكار على كشف سرها، لإضاءة نص الخبر بمعلومات تكميلية تسهم في فهم ما جرى وما يجري من أحداث حولها، و يتضحهذا في خبر كرامة لواصل المتعبد. أورده المالكي ، حيث ينطلق فيه من تقديم مشهد سردي، يبين من خلاله الحدث الذي أدى إلى بروز العصا، التي يملكها واصل كبطل للسرد داخل الخبر الأساس يقول راوي الخبر ربيع بن سليمان الكانشي : « كنت كثير الاختلاف إليه، فبصر يوما برجل ممن كان يختلف معنا ليس معه عصا، وكان اسمه إبراهيمفقال: يا إبراهيم مالك بلا عصا؟ فقال: ليس عندي عصا، فقال لبعض [من] كان جالسا: اذهب إلى الركن وأشار إلى أحد أركان البيت فائتني بالعصا التي فيه. فذهب الرجل فأتاه بعصا فأخذها ونظر إليها ثم دفعها إلى إبراهيم وقال له: هي عندك بأمانة الله عز وجل فأحفظها، قال: فأخذها الرجل وانصرفنا»[1]، فوصية المتعبد كانت مسبوقة برجائه الذي تمنى تحققه حتى يتمكن إبراهيم من المحافظة على العصا، ولذلك سيشكل مظهرها محور اهتمامه أثناء لقائه بأتباعه مجددا يقول: « فلما كان في الجمعة الأخرى أتيناه فلم يكن له هم إلا النظر إلى العصا فرأى عليها خيطا ملفوفا»[2]، فمشاهدته لمنظر العصا يجعله يشرع في استجواب الرجل لمعرفة السبب وراء عدم تمكنه من المحافظة عليها، و يقوده ذلك إلى التأكد من عدم تحقق رجائه: « فقال له: يا سيدي كنت أعاني أمر ثور فاعتاص علي فضربته بها فتصدعت فقال له: و إنما أعطيتها لك لرعي البقر، هاتها و أخذها منه »[3]، وبعد انتزاعها

[1]- المالكي، ج1، ص 16.

[2]- رياض النفوس، ج1، ص 16.

[3]- ن م ، ن ص .

منه يلتفت إلى مريديه ليسألهم عنها: « وقال أتدرون شأن هذه العصا، قلنا: لا »[1] ، و يشكل جوابهم بالنفي، العامل الذي دفع الشيخ ليقطع الخبر الأصلي، ليعود إلى ماضي حياته أيام سياحته ليسترجع خبر لقائه بالرجل الناسك الذي سيكشف من خلاله سر العصا، حيث سيشرع في سرد الوحدة الأولى منه بوصف دقيق للحظة رؤيته له، على حافة بئر، ماؤه مرتفع . قبل أن يصل إليه وقد أضناه العطش في هذا الفضاء المقفر الذي يجوبه: «فقال: كنت أكثر السياحة منفردا عن الناس فبينما أنا يوما سائر في بعض الفلوات إذ بصرت برجل جالس على شفير بئر وقد ركب طوق البئر و إحدى رجليه خارج البئر و الأخرى يلعب بها في مائه فقصدت نحوه وقد أضناني العطش»[2]، وبمجرد وصوله إلى البئر ينخفض ماؤه إلى الأسفل و عبثا حاول الوصول إليه بإنائه ولم يقدر يقول : «فوصلت إلى البئر من ناحية ظهر الرجل، فنظرت فإذا ماؤه قد عاد في أسفله، وكانت معي ركوة فيها خيط فألقيتها في البئر فلم أدرك الماء فلم أزل أحل الخيط شيئا بعد شيء حتى فنى الخيط من يدي و لم أصل إلى الماء »[3]، فشعر الرجل بوجوده، وهنا يحدث العجب الأول، في هذا اللقاء، الذي تجسده، قدرة الناسك على استخراج ماء البئر يقول: «و سمع الرجل حسي من خلفه فالتفت إلي ثم سلم بعضنا على بعض و قال لي: ما حاجتك؟ قلت: الماء، قال: اطو حبلك، فطويته ثم قال لي: هلم ركوتك فسلمتها إليه فمد يده في البئر فأخرجها مملوءة ماء، فناولينها ثم قال: أشرب فشربت حتى رويت»[4]، و ينتقل الشيخ، ليخبرنا عن قدرة الرجل، على جلب الطعام، ليكشف عن العجب الثاني في هذا اللقاء « ثم قال لي: هل لك في طعام قلت: نعم، فقال: امض إلى خلف الرابية فكل ما تجد هناك، ولا تدخر منه شيئا، فمضيت فإذا بتمر برني و برازق تفوز حرارة ما كنت أقدر

[1]- ن م ، ص 16.

[2]- ن م ، ص 16، ص 17.

[3]- ن م، ج2، ص17.

[4]- رياض النفوس، ج2، ص17

على أكلها من شدة حرارتها فسميت الله عز وجل و أكلت حتى أخذت حاجتي »[1]، ثم يصل الراوي، إلى نهاية الوحدة، ليؤكد من خلال حدث تخلص الرجل، من ماء الإناء صفة العجيب، التي اتسمت بها شخصيته، حيث يأتي جوابه الوعظي الأخير، الموجه للراوي ردا عن سؤاله المستنكر لفعله، ليحيلنا على طريق التصوف الذي يسلكه في معيشته، مما يؤدي إلى كشف المعتقد الديني للسارد، الذي يفسر سبب ظهور العجيب بالكرامة، التي تظهر في حياة النساك، المنقطعين إلى الله عز وجل، كما يتضح ذلك في قوله: « ثم قمت و في ركوتي فضل ماء فأخذها من يدي وأراق ما كان فيها من الماء، قلت له: لعلنا نحتاج إليه؟ فقال أطعمك و سقاك و أنت تدخر عليه إذا احتجنا إلى شيء أتانا الله به»[2]، فصوت المتصوف الناطق بالحكمة، هو صوت السارد الذي لا يريد الانتقال إلى الوحدة الثانية دون أن يقف ليشير إلى ارتباط كرامة جلب الرزق التي اختص بها الولي بسمة أساسية تتعلق « بإسقاطهم الرزق من قلبه لأنه لا يرى العطاء إلا من الله عز وجل و بذلك منح مقام القناعة و التوكل »[3]، و بذلك فهو في عقيدة الصوفية القطب[4]الذي يعني سيد الجماعة الذي لا يشغله كسب لسبب و لا يزعجه سلب لطلب لأنه محفوظ بحفظ الله مؤيدا بنصر الله لا خوف عليه ولا يحزن[5]

في الوحدة الثانية يقرر الراوي، تتبع أثر الولي القطب أثناء سيره، دون أن يشعر به، ليعترف على شخصيته أكثر، حيث سيتوصل من خلال المشاهدة، ليكشف عن حضور

---

[1]-ن م، ن ص.

[2]- ن م، ن ص.

[3]- محمد بن عباد، شرح الحكم العطائية، ج2، دار البيروتي دمشق، مركز الراية جدة، ط1، 2007م، ص 461.

[4]- عند القوم السالكين طريق الحق القطب عبارة عن رجل واحد موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان و يسمى بالغوث أيضا باعتبار التجاء الملهوف إليه... ويسمون قطبا كل من دار عليه مقام من المقامات و انفرد به في زمانه... وقد يسمى شيخ الجماعة قطب الجماعة، فلا بد في كل قرية من ولي لله تعالى به يحفظ الله تلك القرية، أنظر كل ذلك، محمد الإدريسي، معجم مصطلحات التصوف الفلسفي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2002م، ص 173، ص 174.

[5]- نوفل عبد الرزاق، التصوف و الطريق إليه، دار الكتاب العربي، د ط، د ت، ص 117.

" العصا " كوسيلة عجيبة، في حياته يعتمد عليها في سياحته لحماية نفسه من أثر المطر «ثم سار الرجل أمامي و أنا أتبع أثره، و كان برد شديد، وعلي أطمار رثة، فأخذنا مطر، فنظرت إليه، وقد عوذ نفسه وأشار بعصاه يمينا وشمالا، وأمامه وخلفه، فكان المطر يقع حوله، وهو معافى منه لا تصل إليه قطرة واحدة »[1]وليس من العجب! أن يمتلك الولي العصا العجب! هو أن يخرق استخدام العصا عنده، قانون المنفعة الطبيعية، لتتحول إلى وسيلة عجيبة، حققت له منفعة خارقة للعادة (الكرامة)، وهو استخدام نادر، يرتبط دينيا: بالنبي موسى عليه السلام، الذي كان يملك عصا، حققت له منافع عجيبة شكلت معجزاته، أما في سياق التصوف فيرتبط ببعض الأولياء، الذين سبقوه زمنيا باستخدام مماثل لكرامة العصا.

إن ما حدث عند الناسك ، من استخدام لكرامة العصا، مبني إذن على تكرار ما حدث سابقا من معجزة (للنبي موسى)، وكرامات مماثلة للأولياء، وهو ما جعله ملزما بالاندماج في سلك من سبقوه من الأنبياء، والأولياء، لأن هذا الاندماج، هو الذي سيمنحه بعدا دينيا، ضمن مذهب التصوف، يؤكد من خلاله السارد، جدارته، واستحقاقه لصفة الولي القطب، التي أشار إليها في الوحدة السابقة -، فالعناية الإلهية، جعلته ينفرد في هذه الوحدة، عن أولياء عصره، بمقام الاستخدام العجيب للعصا، وهو ما يفسر مبادرته السريعة لإغاثة الشيخ، بمجرد احساسه به يرتعد من البرد، حيث سيأتي تحقق كرامة العصا في جسده، مسبوقا بكرامة اللمس والدعاء، لتضفي عليها إضاءة ، تجعلها أكثر منطقية، في ذهن القارئ ويتضح ذلك في وصف الراوي: « قال و نالني من البرد و أذى المطر مالا أصفه. قال: فما شعر إلا بتقعقع أسناني من شدة البرد، فالتفت إلي وقال: ها هنا أنت؟ قلت نعم قال أدن مني فدنوت منه، فنظر إلى بللي وشدة قري فوضع يده على رأسي وأمرها على ظهري، ثم قال: اللهم دفئ جسده وجفف ثوبه. فجف ثوبي قال: ثم

[1]- رياض النفوس، ج2، ص 18.

عوذني وأشار بالعصا حولي كما فعل على نفسه. فكنا نمشي و المطر يقع على كل جانب من جوانبنا، ولا تصل إلينا منه قطرة فما فوقها، إلى أن كف المطر»،[1] وبعد مسايرة دامت يومين، انتهت بهما في موضع قريب من العمران، وقف القطب ليودع واصل لأنه قرر مفارقته، فعرض عليه رغبته في استمرار صحبتهما، ولكنه واجهها بالرفض المقترن بالحكمة الصوفية، لأنه يعلم أنها تجد طريقها بسهولة، إلى وجدانه المتشبع بتعاليم الزهد والتصوف، التي يسلكها في تعبده، الذي قاده للسياحة، بهدف التعرف على بعض النساك، و التزود بعلمهم وقد ظهرت كل هذه المعاني في قوله: « ثم صحبته بعد ذلك يومين حتى انتهينا إلى موضع من الأرض فقال: سر في ودائع الله، فهذا العمران قد قرب منا...، فقلت له: إني أريد صحبتك؟ فقال لي : لا تقدر على ذلك ومن تحلى بغير ما هو فيه استحق من الله عز وجل المقت عليه ولكني أرجو لك خيرا إن شاء الله تعالى »[2]، فالنصيحة التي تحكم الحكمة كلها، جاءت لتفسر القصد، من فعل الوداع، الذي قرر القطب، فجأة إنجازه، ليوضح للولي بأن الإشارة الإلهية، باستمرار صحبتهما، لم تتجل له خلال المسايرة، فهو يدعوه إلى ضرورة التمسك بمقام الولاية، الذي أدخله الله تعالى، في أسبابه، حتى لا يناله غضبه، فالمدخل الصدق، أن يدخل بالله لا بنفسه، و المخرج الصدق، أن يخرج منه بالله لا بنفسه، فهو ملزم بالمكوث أين أقامها الله حتى يخرجه منه بهاتف من عنده[3]، وقد جاء رجاء القطب في نهاية الحكمة الله تعالى لواصل، ليعينه تحقيق الخير في مقامه ليؤكد له مرة أخرى نهاية الصحبة بينهما.

ويترتب عن ذلك اقتناع واصل بانتهاء الصحبة التي جمعته بالناسك، فيطلب منه شيئا ما، من أشيائه، ليذكره به، فيمنحه عصاه العجيبة بعد أن يرجو له الله للانتفاع ببركة خيرها الكثير، الذي بثه فيها، حيث اختاره ليكون ثالث الأشخاص المستفيدين من كرامتها

[1]- رياض النفوس، ج2، ص 18.

[2]- ن م، ن ص.

[3]- أحمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، تحق: محمد نصار، دار جوامع الحكم القاهرة، د ط، د ت . ص 90.

وقد كشف الحوار الذي دار بينهما عن ذلك: « فقلت له: يا سيدي أحب شيئا أذكرك به، فقال لي: أمن الدنيا تريد؟ فقلت : لا، قال : ما معي غير عصاي هذه فخذها بأمانة الله، فقد جعل الله تعالى لنا فيها خيرا لي وللذي أعطانيها وللذي أعطاه إياها، نحن ثلاثة قد جعل الله تعالى لنا فيها خيرا كثيرا، فاحتفظ بها فأخذتها منه وهي عندي من ذلك الوقت»[1]، وينتهي الخبر الاسترجاعي بانكشاف سر العصا، فيستلم الراوي زمام الحكي ليعود إلى الزمن الحاضر، لإثراء الحوار بسمات جديدة اتسمت بها العصا، حيث سيتوجه فيه الشيخ بالحديث مباشرة، إلى الرجل ليفسر لأتباعه أن سبب أخذه العصا منه هو غضبه عليه لأنه لم يهتد إلى استخدامها بأمور العبادة، ليتمكن من تحقيق رجائه بالانتفاع ببركة كرامتها، وقد أدى به استخدامه لها لرعي البقر إلى الفشل في المحافظة عليها، ولذلك ينتهي الخبر بأمر الشيخ للمريد بإعادتها إلى مكانها المعتاد يقول:« ثم عطف واصل على الذي أعطاه العصا فقال له: وأنا رجوت الله تعالى أن يجري لك من بركتها شيئا، بانتفاعك بها فجعلتها لرعاية البقر، ثم قال للرجل أعدها في الموضع الذي كانت فيه فأعادها»[2]، وهكذا فالعودة إلى ماضي الولي، دعم الفعل القصصي، بسمات دلالية جديدة، أعاد السارد في إطارها تفسير علاقة الرجل/ بالعصا، وفق علاقة العابد/ بالعصا ولهذا فقد ارتبط سر الاسترجاع، بمظهر العصا، وفي إطاره كشف السارد عن العلاقة الدينية التي فسرت اندفاع الشيخ لرؤية العصا واستعادتها.

إن تكسير الخطية الزمنية بذلك الاسترجاع بعيد المدى ، الذي تعدى الصفحتين يؤدي إلى تمديد البنية السردية للحدث الأول (الاستهلالي)، وهذا يحيلنا على قدرة الزمن الماضي على إفراز دلالات لفظية، يعتمد عليها السارد كجسور لفظية ترتبط بالزمن الحاضر، حتى يتسنى له الاستمرار في سرد الحدث الأخير (النهائي)، الذي تم فيه

[1]- رياض النفوس، ج2، ص18.

[2]- ن م، ص 19.

تكسير الخطية الدلالية على مستوى المسار الدلالي لحدث استخدام العصا الذي قام بالكشف عن السمة العجيبة (كرامة العصا) التي كانت السبب في إيجاد النهاية الوعظية كحيلة، تدفع القارئ للاقتناع بالعجيب الذي يرشده إلى ضرورة الالتزام بالعبادة، لأنها الجوهر الذي تقوم عليه الكرامة التي تعبر عن عالم التصوف، بكل تفاصيله، فهي قوة خفية لا يمتلكها إلا الأصفياء ومن اختارهم الله إنهم أولياء الله الصالحين، وهكذا فالمالكي ينجح وفق هذا الاستثمار الدلالي للاسترجاع في التأكيد أن وظيفته لا تقف عند إضاءة المناطق المظلمة، بل تتعداها لترسيخ البعد الديني للسرد الكرامي، الذي يضع العبرة أمام القارئ، من أجل سمة " التعبد " التي اشتهر بها الولي في مجتمعه كما عرفتها الترجمة التي تضمنت هذا الخبر شديد الامتداد.

ويمكن أن يظهر في حيز السرد للخبر الإطار، موضوع أو عنصر جديد، يقوم الاسترجاع بالتعريف به توطئة لإدخاله في السرد على أساس ما يقدمه ماضي الشخصية من معلومات ذات علاقة مباشرة بمضمون الخبر ومن نماذج ذلك ما قرأناه عند ابن مريم في الأخبار: قال في إطار الخبر الممتد الذي يحكي منقبة ابتعاد الشيخ أحمد بن مرزوق عن أذية الناس: «فقال السلطان للفقيه التنسي لمثل هذا ينبغي أن تزوج ابنة سيدي أبي إسحاق أخيك؟ فقال له نصرك الله قد سبق مني معهم في هذا حديث ... وانعقد النكاح، ولهذا النكاح قصة : حدثني شيخنا الفقيه أبو العباس القطان قال: دخلت مع أبيك وعمك، وأبوك في سن نحو سبع سنين، وعمك بالغ على سيدي أبي إسحاق التنسي نزوره في مرضه، قال فلما سلمنا عليه أقبل علينا وقال مرحبا بأولاد الحبيب ثم مرحبا بولدي وحبيبي لأبيك فقربه إليه وقبل رأسه، وقال له: كن أنت نسيبي ... »[1]، وقال في إطار الخبر الموجز الذي يحكي منقبة اهتمام العالم عبد الله المجاصي الشهير بالبكاء برواية الحديث: « ودخلت عليه يوما مع الفقيه أبي عبد الله السطي، في أيام عيد، فقدم لنا طعاما

[1]- ابن مريم، البستان، ص 29.

فقلت له: تأكل معنا نرجو بذلك ما يذكر من حديث من أكل مع مغفور له غفر له فتبسم وقال لي دخلت على سيدي علي الفاسي بالإسكندرية، فقدم لي طعاما فسألته عن هذا الحديث فقال لي: دخلت على شرف الدين الدمياطي فقدم لي طعاما فسألته عن الحديث...»[1].

نلاحظ أن ظهور ثغرات في حاضر السرد، حول قصة الزواج وصحة الحديث، في الخبر الأصل للنماذج السابقة، هو العامل المفجر لتضمين ماضي الشخصية الخارجي، الذي سيتكفل بتقديم معلومات تضيئ مضمونها، ففي المثال الأول سيكشف الاسترجاع أن رغبة السلطان تزويج ابنة الشيخ التنسي للشخصية المحورية هي نفس رغبة والدها التي عرفتها على الأخ الأكبر لابن مرزوق أيام طفولته البعيدة عندما قاموا بزيارته وعمره لم يتجاوز السابعة، أما في المثال الثاني فقد جاء توظيف الاسترجاع في شكل لقطات حكائية حيث شكلت رواية ماضي الشيخ علي الفاسي التي جاءت داخل رواية ماضي الشيخ البكاء، الخبر الذي سيتولى تقديم رؤية الشيخ الدمياطي، للرسول (صلع)، ينكر فيها قوله لهذا الحديث، وهكذا فالاستذكار بما يقوم به من وظيفة فنية هنا، يقوم بتقديم تفاصيل مهمة تأتي لتأكيد صفة الشخصية الرئيسة، التي قدمها الخبر الإطار، حيث تعمل على تمديده حتى يتمكن من السير بالحدث نحو الحاضر ، ليسهم في بناء ما يتلو الخبر الضمني من سرد للأحداث تقوم بإيجاد النهاية الحاسمة، التي سيعتمد عليها السارد لإرشاد القارئ، وتوجيهه نحو الاقتداء بأفعال الشخصية، وفق ما يقتضيه سياق هذه السمة داخل الترجمة التي تضمنت هذه النماذج .

وقد يأتي الاسترجاع الخارجي لماضي الشخصية في بداية الخبر الموجز لإعادة رواية حادثة ماضية، من خلال الإجابة عن سؤال، أو الحديث عن حالة، أو كشف عن أمر ما، وهنا يمكن للراوي أن يعمل عليه، عملية القص سواء كان راويا عليما أو متزامنا

[1]- ن م ، ص 121.

مصاحبا لأنه جزء من مخزون ذاكرة الراوي عن شخصياته ومن أمثلته قوله في الأخبار الموجزة: «وذكر الشيخ الصالح أبو عبد الله القصار قال: حضرت مع السيدين العالمين أبي زكرياء الزواوي و أبي الحسن بن أبي نصر ..، في عام خمسة و ستمائة مجلسا سأل فيه الشيخ أبو زكرياء الشيخ أبا الحسن عن رحلته إلى المشرق، وما رأى من الغرائب، وما شاهد من العجائب. فقال له: حضرت بعض دروس العلم في اثنين وستمائة مع حفيد..، الشيخ الطاهر عمار المعمر بما سبق له من بركة دعاء النبي (صلع)، ورغبت منه يرينيه لأتبرك به ففعل ودخلت عليه ...»[1] و« قال عبد الله بن نصر الصواف، اغتممت يوما فأتيت إلى أبي عبد الله مروان لأتسلى برؤيته، فجرت عنده حكايات فقلت له: أحب أن تخبرني بما رأيته من براهين الأولياء فقال نعم: كنت ليلة نازلا عند عمرون الحامي، فإني لجالس معه على سطح القصر، إذ جرى بيني وبينه كلام في مثل هذا المعنى فقلت له:... »[2] أو « وذكر لي أخي سيدي علي أن الشيخ ذكر أن أباءه و أجداده أهل صلاح وولاية وأن سيدي سعيدا منهم صاحب حظوة. وقال الشيخ: كنت صغيرا ألعب مع الصبيان وربما أتجرد من ثوبي وأبقى عريانا كما يفعل الصبيانفإذا مررت على تلك الحالة بقبر جدي سعيد أسمع زجرا لي...»[3].

في هذه النماذج استرجاع واضح لأحداث ماضية تتعلق بشخصياتها المحورية (الفقيه علي بن نصر، والمتعبد عمرون الحامي، وجد الشيخ أبركان)، حيث يبدأ الراوي بحكي قصصها، ليكشف سر السؤال، الذي ظهر في الخبر الأول و الثاني (ما رأى من الغرائب...، وما شاهد من العجائب...، وبما رأيته من براهين الأولياء...) ويتولى في الخبر الثالث الحديث عن حالة الكرامة التي ظهرت عند الجد سعيد. وليس غرض الاسترجاع في هذه الأخبار فنيا أو جماليا وحسب إنما غرضه إعادة ملء الفراغ بما

[1]- عنوان الدراية، ص 68.

[2]- رياض النفوس، ج2، ص 380.

[3]- البستان، ص 83.

يتوافق مع أخذ العبرة من الأحداث الماضية فتسليط الضوء على حياة الفقيه أو الولي يهدف هنا أيضا إلى النصح و الإرشاد، الذي يسعى السارد من خلاله لدعوة القارئ إلى الالتزام بالسلوك الديني (منقبة علو سند ابن نصر في رواية الحديث، وكرامة تحريك عمرون للثور من سطح القصر ، وكرامة سماع الشيخ لصوت جده من القبر)، للوصول إلى تحقيق شهرة مماثلة لتلك التي حققتها هذه الذوات في مجتمعاتنا كما عرفتها التراجم التي تضمنت هذه النماذج الخبرية.

ومما سبق يلاحظ إسهام هذه المقاطع الاسترجاعية، التي ظهرت داخل الحكي أو في نهايته، على مستوى الاشتغال البنائي، في تقديم معلومات تخص ماضي الشخصية المحورية، عملت على تمديد الخبر الأول، الذي تميز بقصر المساحة النصية، و ضيق المدى الزمني. ويترتب على ذلك ظهور الدور الفعال للاسترجاع الخارجي، كوسيلة للسرد التكميلي على مستوى الاشتغال الدلالي، حيث تمت إنارة الحاضر بواسطة دلالاته، التي شاركت بالخروج بوظيفته الجمالية عن مجرد تنوير المناطق المظلمة – كما أشار جينيت– حيث اشتغلت المحكيات الاستذكارية، بإعادة تفسير أفعال الشخصيات، في إطار العلاقة التركيبية بين زمني المحكيين، وهو ما جعل سياقاتها الحكائية مترابطة مع المواقف الدينية والمذهبية، التي وظفت لخدمة الخطاب الوعظي، وفق ما يتوافق مع سمات الشخصيةالتي أظهرتها النصوص الموازية (التراجم، والسير)، التي تضمنت هذه الأخبار وكل ذلك يكشف عن قدرة السارد، على التوغل في عمق مدى الزمن الماضي، واستعادة ما يختزن فيه من أحداث ذات قيمة في تشكيل الخبر ومنحه جماليته الخاصة.

وهكذا فقد شكل هذا التوظيف الجمالي للماضي الخارجي بأشكاله المختلفة، الدافع الذي جعلنا ننتقل لنتتبع كيفية اعتماد السارد، على الاسترجاع الداخلي، كوسيلة للسرد التكميلي لتشكيل نسيج الحكي، في هذه النصوص الخبرية .

2- الاسترجاع الداخلي: الدور الجمالي وعلاقته بتوظيفه المكثف في الخبر

يتعلق هذا النوع من الاسترجاع، باستعادة الأحداث الماضية، التي تقع في صلب الحاضر السردي « فحقله الزمني متضمن في الحقل الزمني للحكاية الأولى»[1]، وبعبارة أدق هو العودة إلى ماضي لاحق لنقطة انطلاق القص الأول، قد تأخر تقديمه في النص[2]، فهو وجه من أوجه الترتيب يعالج به السارد الأحداث المتزامنة حيث يلجأ الراوي إلى التغطية المتناوبة لأن تتابع النص يستلزم أن يترك الشخصية الأولى، ويعود إلى الوراء ليصاحب الشخصية الثانية[3]، من أجل استدراك الأحداث المؤجلة بحكيها وبهذه الحركة المتواترة يمكن النظر إلى الاسترجاع الداخلي بوصفه آلية زمنية تهدف إلى إعادة ترتيب أحداث يفترض ترابطها زمنيا في صورة تمنح الحكي الخبري خصوصية وجمالية واضحة الهدف والوظائف وهو ما سنحاول تتبعه انطلاقا من شكله الذي يظهر به داخل نصوص الأخبار.

[1]- جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص61.

[2]- مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 2004م، ص 199.

[3]- سيزا قاسم، بناء الرواية، ص41.

-الاسترجاع الداخلي الخارج حكائي:

وهو ذلك النوع من الاسترجاع الداخلي الغيري، الذي يتناول خطا قصصيا، وبذلك مضمونا قصصيا مختلفا، عن مضمون الحكاية الأولى[1]، ومن مميزاته أنه يظهر للوهلة الأولى، كأنه استرجاع خارجي (حكاية جديدة)، لأن المحكي الأول، بوصفه الأساس البنائي لنص الخبر، يبقى محافظا على استقلاليته، ولا يسمح له بالتداخل معه، وهو ما يمكن أن تمثله أوجه توظيفه في منظومة الحكي للسياقات الخبرية الآتية:

- تعد إنارة ماضي الشخصية المحورية الجديدة، التي يقوم السارد بإقدامها، إلى نص الخبر الوجه الأول منه[2]، حيث سيهتم بتقديم الجزء اليسير من سوابقها التي تخدم استراتيجية السارد في التأثير على دينامية القص وحركته نحو الأمام، وهو ما يمكن ملاحظته عند أبي زكرياء في الخبر الموجز الذي يحكي نادرة للإمام محمد بن أفلح يقول:« ثم إن الإمام أفلح بن عبد الوهاب، مكث في إمامته ستين سنة واليا إماما، حسن السجية رؤوفا بالرعية لا يخاف في الله لومة لائم، ثم توفي وولي الأمر من بعده ابنه أبو بكر، وكان محمد بن أفلح غائبا في أرض المشرق، فدل بها عليه فأخذ وحبس حتى أطلقوه وأحسنوا جائزته، فتوجه نحو بلاده، فلما ابتعد عنهم حسبوا له فوجدوا أنه ستكون له دولة، لا محال فأخذوا في أثره يريدونه. وكان محمد ممن بلغ الغاية والنهاية في علم النجامة، فحسب في الوقت الذي يحسبون فيه فعلمه فلما كانت تلك الساعة أخذ قصعة كبيرة فملأها ماء، فدخل فيها وحسبوا في الوقت الذي يحسب فيه فوجدوه في الماء فظنوا أنه قد دخل البحر وقالوا: إنه قد دخل البحر ولا نقدر له على شيء فرجعوا عنه، فتوجه إلى تاهرت»[3]، وهكذا فالاسترجاع يقوم بكشف القناع عن شخصية محمد بن أفلح الذي أدخلها

[1]- جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص 61.

[2]- ن م، ن ص.

[3]- السيرة، ص 142، ص 143.

السارد مباشرة في سياق الحكي عن تولي أخيه الحكم بعد وفاة والديهما، حيث أمدنا بتفاصيل مختصرة عن جانب من جوانب التفوق العلمي، الذي حققه في مجال علم النجامة، وشكل له مصدرا للذكاء الذي استخدمه لخداع المشارقة ليتخلص من مطاردتهم ويعود إلى المغرب بسلام، فالسارد بتوظيفه الماضي الداخلي غيري الحكي يرمي إلى حشد معلومات قصصية باستخدام إشارات ورموز تسهم في تقديم صورة مركزة لهذه الشخصية الجديدة، تقوم بتوسيع الحكي بما يتفق مع طبيعة مدى الزمن الداخلي، الضيق الذي يعالجه الخبر الموجز، وكل ذلك سيؤدي للتمهيد لما يحدث مستقبلا في نهاية الخبر من تحول لمسار الحدث نحو التبئير على محمد بن أفلح الذي سيتولى الإمامة بعد عزل الإباضية لأخيه: « وكان من أخيه أبي بكر ما كان من أمر ابن عرفة فاعتزل محمد الفريقين ولم يكن مع أخيه ولا مع غيره، فلما زالت إمامة أبي بكر، ولي محمد »[1].

إن هذا الاسترجاع بوظيفته الجمالية، التي أداها في هذه المنطقة من النص الخبري، قد أسهم في رسم صورة متكاملة، عن شخصية محمد بن أفلح، مفعمة بالإشارات والرموز، التي تحيلنا على ذلك التقاطع، الحاصل في صفاته مع شخصية والده أفلح بن عبد الوهاب، مما يجعله يتفوق على المشارقة في علم التنجيم، وهكذا فقد عمل المحكي المسترجع على المستوى الدلالي، بالكشف عن المكون الأخلاقي النادر، الذي استخدمه السارد، كوسيلة للعب على وجدان المتلقي المغربي بهدف إثارة أحاسيس النسب، والانتماء المذهبي، التي تربطه بشخصيات الخبر المحورية، تمهيدا لتهيئة ذهنه، ليتقبل تحول مجرى المسار النهائي للبنية الدلالية نحو إظهار رأيه المؤيد لتغير الحكم، وقد تم كل ذلك وفق ما يخدم وظيفته الإيديولوجية التي يسعى -أبو زكرياء- لترسيخها من خلال إضاءة الصفات الاعتبارية النادرة، التي اشتهر بها أئمة المذهب الإباضي، والابتعاد عن الخوض بحكي أي صفة من شأنها الطعن في شخصية البعض منهم، وهو ما يفسر قفزه السريع من

[1]- السيرة ، ص 143.

لحظة تولي الإمام المعزول للحكم إلى الماضي الخارجي للإمام الجديد الذي قطعه بماض داخلي موجز اكتفىفيه بالإشارة إلى سبب العزل، وهذا ما يوحي بأن سرد أحداث الماضي الداخلي الغيري، تقنية ضرورية جدا لشرح الحاضر، وكيفية نشوئه. وتطوره المستقبلي، حيث يبدو الأثر الفاعل له واضحا في تحديد الاتجاه الذي سيؤول إليه الحكي، وكذا دوره في توضيح المنحنى الدلالي للهدف النهائي الذي يسعى إليه السارد، فالبنية الزمنية ليست مجرد عرض سلسلة من الحوادث ولكنها حوادث تحكم القاص في ترتيب عرضها بحيث تبرز فكرة معينة أو موضوعا معينا.

وقد يظهر هذا النوع من الاسترجاع الغيري، في نهاية الخبر ليهتم بإنارة ماضي شخصية ثانوية، أهمل المحكي الأول، توضيح بعض جوانبها، لأن عملية السرد فيه منشغلة بتقديم الشخصية المحورية، ولذلك فهي تكتفي بذكر صفاتها المختصرة، التي تساعدها على إنجاز ذلك حيث المدى الزمني الذي يحوي بين جوانبه هذه التفاصيل ضيق جدا، وهو الأمر الذي يؤدي إلى ظهور الخبر الجديد ليتكفل بإزالة الغموض عن سماتها بما يخدم تفسير أفعالها التي عالجها حاضر السرد، ومن أمثلة ذلك ما وجدناه في الخبر الممتد الذي يحكي منقبة للشيخ أحمد السبائي الذي يستهله المالكي، بسرد قصير لا يتعدى سطرا هو بمثابة تقديم مكثف يصف فيه سلوك مألوف في ذلك العصر اعتاد الشيخ أحمد السبائي ممارسته يقول: « وكان يحب سماع القرآن ممن له صوت حسن »[1]، وبعدها مباشرة يترك المالكي مكانه لإحدى الشخصيات المشاركة في الخبر لتضطلع برواية تفاصيل الحدث الذي ينطلق من لحظة معاتبة الراوي (الشيخ أبو الحسن) للمقرئ أبي القاسم على قلة دخوله لجاره السبائي لينتهي العتاب بتوجههما معا لزيارته « قال الشيخ أبو الحسن فعاتبت أبا القاسم ابن أخت الغساني في قلة دخوله إليه، وأخذت بيده، ومضيت به إلى دار أبي إسحاق، فدخلنا عليه فوجدنا عنده أبا القاسم الفزاري الشاعر، قال: فسلمنا

[1]- رياض النفوس، ج2، ص475.

على الشيخ »[1]، وبعد هذه التحية سينفتح النص على الحوار الذي سيساهم في تنامي الحدث، ليتحول السرد نحو التبئير حول الشخصية المحورية، واصفا المنقبة التي تصور الموقف الفريد، المتمثل في التأثر الغريب الذي أبداه الشيخ عند سماعه القرآن بصوت المقرئ يقول الراوي« وقلت له: هذا أبو القاسم جارك ثم قلت له: يا أبا القاسم اقرأ فقال: هيبة الشيخ تمنعني أن أقرأ، ولكن اقرأ معي قال الشيخ أبو الحسن فابتدأ في سورة الواقعة قال وابتدأت معه بصوت منخفض، حتى انتهى إلى قوله عز وجل «وكنتم أزواجا ثلاثة»، فرفع بها صوته وغلق عينيه، وسكتت أنا، ورجع فابتدأ من أول السورة، فعهدي بالشيخ أبي اسحاق، وقد انضم بعضه إلى بعض وهو يتنهد ويتأوه وكأني أحس أن أضلاعه تجتلف»[2]، فخرج بهذا السلوك عن مألوف العادة لتنتابه غيبة تثير ندم الراوي على الزيارة، لينتهي الحدث في المحكي الأول بمغادرة الحضور لمنزل الشيخ تاركين إياه متماديا في حالته النفسية تلك: « فقلت الساعة يموت وندمت في مجيئ إليه، وطال علي تمام السورة فما فرغ منها إلا وأناآمن على الشيخ، فقمنا وتركناه في غيبته تلك »[3] فالسارد حين أدخل المقرئ إلى منظومة الحكي، كشخصية ثانوية، اتصفت بصوت حسن في قراءة القرآن، كان يهدف من وراء ذلك إلى التركيز على دور صوته في التأثير على شخصية الخبر المحورية (الشيخ السبائي)، ليكشف لنا عن الحالة النفسية التي اتصف بها واستطاعت الخروج بعادة السماع عنده عن المألوف الذي اعتاده المقرئ أثناء قراءته فتكونت في نفسيته هيبة كبيرة للشيخ تثير خوفه الشديد، الكامن في تصوره المسبق لمجرى حدث السماع وتوجسه، من تكرار الحالة النفسية وبالتالي الابتعاد عن زيارته.

وردت صفة الضعف التي تميزت بها شخصية المقرئ تحيطها هالة من الغموض، ولكي لا يبقى القارئ متسائلا حول ذلك الضعف، يستعيد السارد زمان السرد بالتبئير على

[1]- ن م ، ن ص..

[2]-رياض النفوس، ج2، ص 475.

[3]-ن م، ن ص.

شخصية المقرئ، ليحيل القارئ على الجانب الذي سيحاول من خلاله إضاءة ماضي الشخصية لتوضيح ذلك الغموض يقول: «وكان ابن أخت الغساني هذا قويا في الدين قليل المبالاة بمن خالف الشريعة »[1]، وبظهور هذه الصفة الجديدة ينطلق السارد في الخبر الاسترجاعي، الذي يستعيد فيه السارد الماضي القريب الذي يعيشه المقرئ بمعتقده السني المالكي، بالقيروان تحت الحكم الفاطمي، ليصف لنا شجاعته القوية التي واجه بها قاضي الدولة النعمان الذي يخالفه في المعتقد المذهبي، حين دخل عليه جامع المدينة وهو جالس بين طلبته في مجلس إقرائه يقول: « لقد دخل النعمان إلى الجامع وهو جالس في حلقته، وإنسان يقرأ عليه فقالوا له النعمان دخل من الباب فقال للذي يقرأ بين يديه: ارجع، ورفع صوته وهو يقول:« ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » فتخيل النعمان في مشيته »[2]، فردت فعل القاضي كانت بمثابة الحافز، على تحريض المقرئ للطالب على قراءة آية تحدد موقفه المذهبي من النعمان بدقه بهدف إخافته، ليؤدي ذلك إلى دهشة القاضي وسقوطه يقول «فدهش النعمان وعثر في حصير من حصر الجامع ووقع على وجهه، وقام من سقطته وهو مدهوش »[3]، وبذلك ينجح المقرئ في التفوق على القاضي الذي يخالفه في المذهب، بفضل شخصيته الدينية القوية، التي يستمدها من مذهبه الديني،وهي صفة تحمل في طياتها عنصرا مهما للمفارقة القائمة على الفرق بين الصفتين التي يظهر بهما المقرئ في حاضر السرد وماضيه فيتلاشى الغموض الذي أحاط بشخصيته في المحكي الأول، حيث نستنتج أن صفة الخوف، التي اتسم بها طارئة تظهر فقط أمام الشيخ السبائي، حيث يفترض فيه التفوق في العلم والعبادة بين أهل مذهبهم السني المشترك وهو التفسير الذي يتضافر مع استمرار مواجهته لقاضي الشيعة بقراءة القرآن من داخل سجنه لينتهي الخبر بإطلاق سراحه وفراره إلى الأندلس يقول:« وحقد عليه

[1]-رياض النفوس،ج2، ص 475.

[2]- ن م، ص 476.

[3]- ن م ، ن ص.

النعمان، فأمر بطلبه، وسجنه في حبس الزيادية مدة، فكان إذا قرأ في السجن اجتمع الناس في الأزقة خارج السجن، فخاف النعمان فأخرجه فخرج أبو القاسم إلى الأندلس فوصل إلى الحكم، فرحب به، وأدناه»[1].

إن ما يميز هذا الاسترجاع هو اعتماده على وعي سارد عليم بالإضافة إلى استخدامه للوظيفة الجمالية، التي عملت على تمديد المساحة، النصية للمحكي الأول، بإعادة تفسير أفعال الشخصية الثانوية بالاعتماد على ما جاء فيه من دلالات حول أفعالها، حيث نلاحظ أن هذا التمديد لا يهدف إلى تكوين تفسير بقدر ما يكون هدفه هو تقديم مضامين مذهبية وسياسية، واضحة تكشف عن الصراع المذهبي بين الشيعة و السنة، وكل ذلك يسهم على مستوى الاشتغال الدلالي على التأثير في ذهن القارئ بهدف حثه على الاقتداء بالشخصية الثانوية وفق ما يتوافق مع الخطاب الوعظي الإرشادي الذي يسعى السارد لبثه من خلال دلالة المفارقة بين صفاتها داخل المحكيين التي تمنح الخبر الممتد خصوصيته وجماليته.

3- الاسترجاع المزجي:

هي استرجاعات تجمع بين النوعين السابقين (داخلي وخارجي)، وتتميز في كونها «استرجاعات محدودة لا يلجأ إليها إلا نادرا وفيها تمتزج الاسترجاعات الداخلية وهي تقوم على استرجاعات خارجية تمتد حتى تنضم إلى منطلق المحكي الأول، وتتعداه[2]، أي أن نقطة مداه سابقة لبداية المحكي الأول ونقطة سعتها لاحقة له[3].

ولمعرفة مظهر اشتغال الاسترجاع المختلط يمكن الاعتماد على السياقات الحكائية الآتية: قال الغبريني في الخبر الموجز لكرامة الشيخ حسن المسيلي:« وحكى أن الفقيه

[1]- رياض النفوس،ج2، ص 476، ص 477.

[2]- جينيت، خطاب الحكاية، ص 70.

[3]- ن م، ص60.

الوغليسي كان جالسا بإزاء قبر الشيخ علي متبركا به فإذا بفارس وهو يتفصد عرقا فقال لي: أين قبر الشيخ أبي علي؟ قلت هذا فنزل عن دابته وتضرع وبكى ثم نظر إلي فقال: أنا من موحدي إفريقية كان لي صاحب ببجاية وكان واليها توفي فرأيته على حالة لا تسرني... ثم رأيته بعد مدة طويلة فسألته فقال لي توفي أبو علي...»[1]، أو قول المالكي في الخبر الممتد لكرامة لسفيان الليثي « وكنت جالسا عند مالك فإذا بسفيان بن عينة يستأذن بالباب، فقال مالك رجل صاحب سنة أدخلوه... فقال: ما عم جعفرا يعمنا إذا كنا صالحين وما يخصه يخصنا أفتأذن لي أن أحدث في مجلسك قال نعم فقال سفيان:... لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة اعتنقه رسول الله (صلع) فيما بين عينيه... ثم قال سفيان: يا أبا عبد الله قدمت لأصلي في مسجد الرسول وأبشرك برؤيا رأيتها لك...، فاتق الله يا أبا عبد الله فيما أعطاك السلام عليكم...»[2]، أو قول القاضي النعمان في خبر النادرة الممتد للمعز:«... دفع إلي المنصور كتابا بخط المهدي فيه حروفالمعجم بخط كان الإمام قبله... ثم قال لما أزمع القائم الخروج إلى المغرب جمع ولده وأنا فيهم...وهو عندي إلى اليوم، قال المعز فأخذته فنسخته كما أمر...»[3].

بهذه الاسترجاعات المختلطة يتجلى الاسترجاع الخارجي في الأحداث التالية(وفاة والي بجاية صديق الرجل الإفريقي. وحدث معانقة الرسول(صلع) لجعفر(رضي). وحدث خروج القائم للمغرب)، وهي محكي يسبق زمنيا زمن المنطلق السردي للمحكي الأول (وقوف الشيخ الوغسيلي عند القبر للتبرك، وتسليم المنصور الكتاب للمعز، وزيارة ابن عينة لمجلس مالك) أما الاسترجاع الداخلي الذي يمتزج معها فيتمثل في (ثم رأيته بعد مدة طويلة، وأبشرك برؤيا رأيتها لك، وهو عندي إلى اليوم)، أما بالنسبة للوظيفة التي يؤديها فإنها تكميلية لأنه ينضم إلى المحكي الأول من النقطة التي توقف عندها المحكي

[1]- عنوان الدراية، ص18.

[2]- رياض النفوس، ج1، ص 292، ص 293، ص 294.

[3]- المجالس والمسايرات، ص 120.

الأول ليفسح المجال لكي يمتد الخبر بسرد معلومات تأخذ حيزها في النص فتقوم بإضاءة مساحة الحكي خدمة للوظيفة الدينية والإيديولوجية التي يسعى السارد إرشاد القارئ إليها من خلال إبراز صفات الشخصيات داخل هذه الأخبار.

ثانيا- الاستباق:

وتسمى هذه التقنية كذلك بالاستشراف، وتأتي لتعبر عن مفارقة زمنية سردية، تتجه نحو الأمام، فهي تمثل تصويرا مستقبليا لحدث سردي يأتي تفصيل القول فيه لاحقا، حيث تتناول أحداثا سابقة عن أوانها يمكن التنبؤ بحدوثها، وهذا ما يجعلها بمثابة تمهيدا أو توطئة لأحداث لاحقة يجري الإعداد لسردها من طرف الراوي، فتكون غايتها إثارة القارئ على توقع حادثة ما، أو التكهن لمستقبل إحدى الشخصيات كما أنها قد تأتي على شكل إعلان عما ستؤول إليه مصائر الشخصيات، مثل الإشارة إلى موت بعض الشخوص[1]، وتأتي هذه الاستشرافات لتحطيم الترتيب الزمني، وتشويق القارئ، وسد ثغرة يمكن أن تحصل في الخبر أي يأتي لتكملة وتتمة الخبر، أو خلق حالة من الانتظار لدى القارئ، وقد يعمل على ترتيب الأحداث وعرضها في الخبر على نحو يهيأ القارئ للأحداث اللاحقة، ومن خلال إضفاء جو معين على حدث معين وتهيئة القارئ نفسيا للأحداث اللاحقة، أي وضع حدث خارق للمألوف كما يتجسد في قصص الخيال العلمي[2] ويقسم الاستباق إلى قسمين الاستباقات الداخلية والخارجية.

[1]- محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، دراسة في نقد النقد، د د، د ط، د ت، ص 134.

[2]- جميل شاكروسمير المرزوقي، مدخل إلى نظرية القصة، الدار التونسية للنشر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،ط1، 1985م، ص 80.

1- الاستباق الخارجي:

هي مجموعة من الحوادث الخبرية التي يحكيها السارد بهدف إطلاع المتلقي عما سيحدث في المستقبل ويقع نطاق الاستباق خارج الحد الزمني للمحكي الأول بحيث يتوقف المحكي فاسحا المجال أمام المحكي المستبق كي يصل إلى نهايته المنطقية لأنها لا تتصل بالمحكي الأول ومستقلة زمنيا عنه[1]، ولمعرفة المنحى الذي تشتغل به الاستباقات الخارجية، يمكن معاينة السياقات الحكائية التي حكاها « أبو زكرياء في الخبر الممتد لكرامة للرسول (صلع) حول البربر قال: «... قال النبي إنما تردد بصري عليك بالأمس من أجل جبريل جاءني فقال: يا محمد أوصيك بتقوى الله والبربر وقلت لجبريل وأي البربر قال قوم هذا...، قال: قلت لجبريل وما شأنهم قال قوم يحيون دين الله بعد إذ يموت ويجددونه بعد إذ يبلى قال جبريل: يا محمد دين الله نشأ بالحجاز وأصله بالمدينة، خلقه ضعيفا ثم ينميه حتى يعلو ويعظم... ثم يقع وإنما يقع رأس دين الله بالمغرب و الشيء إذا وقع...إنما يرفع من عند رأسه»[2].

أو قال: ابن خلدون في الخبر الموجز لفاطمة (رضي) حول كرامة للبربر«... قالت سمعت رسول (صلع) يقول: إن لي بالمدينة أنصارا، ولولدي بالمغرب الأقصى أنصارا يافاطمة سيقتل الحسن والحسين ولا تجد ذريتهما أنصارا إلا بربر المغرب الأقصى فيا شقاء من قاتلهم وياسعادة من أحبهم، قد جعل الله في قلوب البربر لذريتي رحمة، وسيكون قوم من البربر بالمغرب على اليقين والدين الصحيح إلى يوم الدين»[3].

أو قول القاضي النعمان في الخبر الموجز لكرامة للمهدي «... يذكر عنه أنه كان يرمز بمحنة تكون وفتنة تظهر ونفاق يشتمل... ومن أجل ذلك ابتنى المهدية... يقول كل

[1]-جينيت، خطاب الحكاية، ص70.

[2]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 53.

[3]- بغية الرواد، ج1، ص 122.

ذلك إنما أعددناه لمقام ساعة فلم نكن ندري ما معنى قوله حتى ظهر الدجال مخلد بن كداد...وجاء بمن كان معه حتى وقف بباب المهدية...»[1]

نلاحظ في الاستباقات التي ظهرت في النموذجين الأول والثاني أنها تقوم على الرؤيا حيث تتعلق بالرسول (صلع) وبزمنه في حياته وانتهى النص قبل تحققها ولكنها تحققت الأحداث بعد زمنه (الفتح الإسلامي للمغرب بداية من عهد عثمان (رضي)، ومقتل الحسن والحسين، وظهور الدولة الفاطمية بالمغرب)، وقد تحققت بعد وفاته بفارق زمني كبير وكذلك الخبر فإن التنبأ وقع في زمن المهدي وظهور مخلد ووقوفه بالمهدية كان زمن المنصور، وبذلك شكلت هذه النماذج استباقات خارجية وقعت خارج المدى الزمني للمحكي الأول أدت وظيفة تكميلية في الخبر الأول والثاني ارتبطت بنهاية المحكي وبذلك أسهمت في إضاءة الثغرة التي جاءت داخله، أما في الخبر الأخير فإن ظهوره قطع المسار السردي لتتابع الأحداث وتحققه أضاء ما رمز إليه.

ب- الاستباق الداخلي:

هي عبارة عن تطلعات يتكئ عليها السارد داخل الحكي وهي بخلاف الاستباقات الخارجية من حيث وقوع مداها الزمني داخل نطاق المحكي الأول من دون تجاوزه ومن أمثلتها ما جاء في السياقات الحكائية التي حكاها كل من « قول ابن مريم في الخبر شديد الإيجاز لكرامة لأحد مدرسي دمشق « نزل بي مغربي فمرض حتى طال علي أمره...رأيت النبي (صلع) في المنام فقال لي أطعمه الكسكسون فصنعته له فكأنما جعلت له فيه الشفاء»»[2]، أو قول القاضي النعمان في الخبر الممتد لمنقبة للمعز«... قال (المنصور) متى؟ فعرفته الخبر على وجهه وجئته بالكتاب وقرأته عليه، فضمني إليه وحل أزراري وقبل صفحة عنقي وبكى وقال: قد كنت أحببت أن أعيش لك أكثر مما عشت

[1]- المجالس والمسايرات، ص 499، ص 500.

[2]- البستان، ص 158.

لأفديك وأزيدك ولكن لا رد لأمر اللهو ما سبق في علمه فكأنما ضربني بسهم في قلبي، ولم أدر معنى ذلك حتى كانت المصيبة به عن قريب»[1].

أو قال المالكي في الخبر الموجز لكرامة لعمر الجزري «... كان عبد الله بن الأغلب من أجمل الناس وكان قد جعل على كل زوج تحرث ثمانية دنانير فضاق الأمر بالناس... فقال له عمر اتق الله وخفف على الناس... فقال له: لست أفعل... فقال لهم تصلون ركعتين تخلصون فيها الدعاء ونضرع إلى الله تعالى لعله يكفيناه ففعلوا... فما لبث أبو العباس إلا خمسة أيام، ثم خرجت له قرحة عظيمة تحت أذنه مات منها في اليوم السابع من دعائهم»[2].

وكذلك قول ابن مريم في الخبر الموجز لكرامة لابن النحوي«... فسأل القاضي عن الحلقة فأخبر فأمر بإبطال الدرس فقال أبو الفضل اللهم كما تسبب في إماتة مجلسنا فأرنا فيه العلامة... فقال للولد ارجع إلى والدك لتواريه الترابفرجع الولد فوجد أباه قتل صبرا قد قتله بعض أعدائه»[3].

إن الاسترجاعات الداخلية في النماذج السابقة جاءت كإعلانات قدمها الحكي من خلال(الرؤيا، والدعاء) باستثناء الخبر الثاني الذي جاء الإعلان عن طريق القول الذي أعلن فيه المنصور حدث وفاته القريب وقد جاء واضح العبارة (أطعمه الكسكسون، وأن أعيش لك أكثر مما عشت، ونضرع إلى الله يكفيناه، فأرنا فيه العلامة)، وتحقق في فارق زمني بسيط واقع داخل نطاق الزمان الأول وقد اعتمد السارد عليها داخل القص ليشكل تحققه نهاية الخبر الذي يسعى إلى إثارة ذهن القارئ وتحفيزه ليتدبر الخطاب الوعظي

[1]- المجالس والمسايرات، ص121.
[2]- رياض النفوس، ج1، ص 332.
[3]- البستان، ص300.

الإرشادي الذي يتضمنه الاستباق من أجل التأثير فيه بدافع الإرشاد للاقتداء بسلوك الشخصيات لينشر الآراء المذهبية والدينية التي تحملها هذه النصوص الخبرية.

2-بنية المكان:

تولي جل الدراسات السردية الحديثة أهمية فائقة للمكان، باعتباره عنصرا سرديا مهما، من عناصر البنية السردية لا يمكن أن يؤدي وظيفته المرجوة، إلا من خلال العلاقات، التي يبنيها مع سائر المكونات السردية الأخرى، مؤثرا فيها أو متأثرا بها على حد سواء، ولذلك فهو يرتقي عن كونه مجرد إطار تتنزل فيه الأحداث، ليقترن بوظائف يضطلع بها في نسيج السرد، وفي علاقته المتشابكة مع عناصر القص الأخرى، كالوصف، والزمان، والأشخاص، والأشياء وغيرها...، ومن ثمة فهو يقوم بدور مركزي داخل منظومة الحكي، لأن الحدث لا يمكن أن يتم في الفراغ، بل لابد من مكان يقع فيه، كي يأخذ مصداقيته، وتتم عملية تبليغه بنوع من الموضوعية إلى المتلقي، ولكون النص الخبري يتسم بتنوع الأحداث وتغيرها، يقتضي هذا الأمر تعدد الأماكن، وتنوع تجلياتها، حسب التيمات التي تتوالى في نصوصه، فالمكان هو المدى الحقيقي للإنسان وشرطه الأول الذي يحتويه منذ اللحظة الأولى وحتى اللحظة الأخيرة مرتبطا به، غير منفك عنه.

ولهذا أمسى المكان، شرطا لازما للسارد، كي يبني عليه عالمه، ويحي فيه المجتمع السردي، الذي تعيش فيه مجموعة من الشخصيات، إنه روح تعج بالحياة من خلال ارتباطه الوثيق بها، في شتى حالاتها من فرح وحزن، ولذلك فهو « لا يمثل صورا مرسومة ككلمات، بل إن المكان ما كان مؤثرا في مخيلتنا وأحاسيسنا »[1]، التي ترتبط فيما بينها بعلاقات محددة، ونظم اجتماعية متنوعة، قد يكون للمكان الدور الأكبر في صياغتها، كما أن هذا الترابط الوثيق الذي يحكم الشخصيات والمكان هو المسؤول عن تحديد

[1]- جاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هالسا، دار الحرية، بغداد، 1980م، ص189.

المواقف والرؤى التي تتأسس بدورها على الرؤية التي يجسدها السارد، فهو يترجم النص الأدبي إلى واقع فعلي معيش من خلال قدرته على رسم أبعاده ومدى ابداعه في ذلك.

وإضافة لذلك فالمكان أحد أشكال الوجود الذي له علاقة مع الزمان « فإذا كان الزمان يمثل الخط الذي تسير عليه الأحداث، فإن المكان يظهر على هذا الخط، ويصاحبه ويحتويه »[1]، فهو يرتبط بالزمن كونه قرينه الذي لا يفارقه، لأننا بطبيعة الحال لا يمكننا تصور أي لحظة من الوجود دون وضعها في سياقها المكاني، ولهذا يعد المكان العنصر الهام الذي يحوي الزمن مكثفا[2]، ويرتبط بالحدث لكونه المجال المادي لوقوعه حتى أن المكان لا تبدو له أهمية إلا عندما يحدث فيه شيء ما[3].

ولقد استبدل المكان بمصطلح أعم، وهو الفضاء، الذي يمثل في النص السردي مجموع الأمكنة، التي تقوم عليها الحركة السردية المتمثلة في سيرورة الحكي سواء تلك التي تم تصويرها بشكل مباشر أو تلك التي تدرك بالضرورة، وبطريقة ضمنية مع كل حركة حكائية، ثم إن الخط التطوري الزمني ضروري لإدراك فضائية النص السردي، بخلاف المكان المحدد، فإدراكه ليس مشروطا بالسيرورة الزمنية للقصة[4]، وبفضل سمة الاتساع هذه يشمل الفضاء الحكائي العلاقات القائمة بين الأماكن التي اندرجت في رحابه، والعلاقات بين الحوادث التي تجري فيه « إنه تخطيب لسلسة من الأماكن أسندت إليها مجموعة من المواصفات كي تتحول إلى فضاء »[5]، لذلك فالمكان يتضمن جزءا مما احتواه الفضاء الحكائي، فهو ليس مجرد وسط جغرافي، ولكنه عنصر شكلي تخيلي قائم

[1]- سيزا قاسم، بناء الرواية، ص76.

[2]- جاستون باشلار، ص64.

[3]- الطائع الحداوي، البنى السردية والتركيبية والرؤية للعالم في الغربة واليتيم لعبد الله العروي، مجلة الأقلام، العدد (6)، 1987م، ص101.

[4]- حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص64.

[5]- مرشد أحمد، البنية والدلالة، ص13.

بذاته يفقد كثيرا من صفاته الواقعية التي تمر بها الشخصيات حيث يتمكن من التغلغل في مستوياتها الذاتية بعمق، ليصبح جزءا صميميا منها، فيحتضن كحيز عمليات التفاعل بين الأنا والعالم.

من هنا يتجلى المكان من خلال علاقاته المندمجة بالشخصيات والحدث أو بجريان الزمن، كبؤرة مشعة وموجبة حاملة للمعنى والحقيقة أبعد من حقيقته الملموسة، يتمثل دوره في تصوير الحقائق المجردة، أي في تشكيل الفكر البشري، أو في تجسيد التصور العام للبشر لعالمهم، ومن الجدير بالذكر أن الإنسان يخضع العلاقات الإنسانية والنظم لإحداثيات المكان[1]، لذلك فالسارد يعتمد عليه داخل السرد ليقوم بوظيفة« تشكيل عالم من المحسوسات قد تطابق عالم الواقع، وقد تخالفه في صور ولوحات تستمد بعض أصولها من فن الرسم والتصوير»[2] بمختلف أنواعه التي يظهر فيها كتقنية متفاعلة مع مضمون النصوص السردية.

1- أنواع الأماكن:

قدمت الدراسات النقدية الحديثة، تصنيفات متناقضة متعددة للأماكن قائمة على الثنائيات والتفاعل، ومن أهمها من قسمها إلى أماكن الإقامة (المتسعة والضيقة)[3]، أو الأماكن (العامة والخاصة)[4]، أو الأماكن (الإجبارية والاختيارية)[5]، والمكان (المفتوح والمغلق)[6]، وهذه التقسيمات مع تنوعها، لا تمنع أحيانا أن تتداخل داخل الدراسة الواحدة، في سبيل تقديم تقسيم يناسب دلالات المكان داخل النص المدروس « لأن تغير الأحداث

[1]-سيزا قاسم، بناء الرواية، ص74، ص 75.

[2]-ن م، ص 75.

[3]- حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص72.

[4]- بشير الوسلاتي، مقاربات في الرواية والأقصوصة، منشورات سعيدان، سوسة تونس، ط1، 2001م، ص53.

[5]- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص40.

[6]- حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص72.

وتطورها يفرض تعدد الأمكنة واتساعها أو تقلصها...»[1]، لذا لا يمكننا التحدث عن مكان واحد لأن صورته تتنوع على وفق ما يتركه من انطباع في نفس الشخصية « فالإنسان بحركته وفعله هو الذي يشكل المكان ويقيم أعمدته»[2]

وفي ضوء ذلك ارتأينا أن نقسم المكان داخل نصوص الأخبار وفق ما وجدناه من تعدد واسع للأماكن المرجعية التي تحيل على الواقع المغربي... من خلال الاستعانة بمفهومي المكان المفتوح والمغلق وما ينجر عنهما من ثنائيات ممكنة العام والخاص، معادي، أليف... وهكذا نستطيع القبض على الدلالات المتاحة للمكان المغربي كما يعرفه الخطاب الخبري.

أ- الأماكن المفتوحة:

إن الأماكن المفتوحة عادة تحاول أن تعبر عن ذلك التفاعل المستمر مع الحياة، فهي تحمل في طياتها أبعادا مرجعية أكثر سعة، وانفتاحا للبحث في التحولات الحاصلة في المجتمع، وبيان مدى تفاعل العلاقات الإنسانية مع المكان الذي يحتضنها[3].

ويقصد بها تلك الأماكن العامة، التي يمتلك كل واحد منا حق الدخول إليها، من دون طلب الإذن، أي أنها لا تخضع لسلطة أحد، حيث يمكن لكل من اقترب منها أن يعاينها، ولذلك ميزنا داخلها بين أماكن مفتوحة ولكن لها حيز شبه مغلق (محظور) مثل (الجامع والمساجد، والمدارس، والحمامات العامة، والأسواق والحوانيت... إلخ)، وأماكن مفتوحة

[1]- ن م، ص63.

[2]- شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1994م، ص44.

[3]- مهدي عبيد، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا (حكاية-بحار العقل- المرفأ البعيد)، منشورات الهيئة العامة للكتاب وزارة الثقافة دمشق، سوريا، د ط، 2011م، ص95.

مباحة لا يحدها أي محظور ويجد فيها مرتادها هامشا من الحرية مثل (المدن، والقرى، والحدائق، والرياض، والبساتين العامة، والغابات، والأنهار، والجبال، والوديان... إلخ)[1]

وقد ارتبط المكان المفتوح بالحرية من حيث الدلالة حرية الحركة دون حواجز خارجية تحدها، فهو وسيلة للاتصال بالآخرين، يحدد إطار الحدث الذي يكشف عن كيفية تموضع المكان المفتوح بصورته المرجعية كعنصر فني يحمل دلالات التجارب الإنسانية الموجودة فيه.

1- المدينة:

المدينة هي البيئة التي يترعرع فيها الإنسان، فهي مسكنه الطبيعي الذي يقيم فيه[2]، وتعتبر من أهم الأمكنة العامة أو المفتوحة، أسسها الإنسان القديم من أجل تلبية حاجياته، فكانت رابطة اجتماعية تشد ساكنيها إلى ساحتها بغرض مساعدتهم على العيش في طمأنينة وسلام وحمايتهم من العالم المعادي ومن أنفسهم، ومن الملاحظ أن لكل مدينة خصوصياتها من حيث المكان الجغرافي والعادات والتقاليد واللغات... إلخ، سواء كانت مفتوحة مثل المدن الموجودة على البحر، أم منغلقة مثل المدن الموجودة في البقع المنعزلة في أعالي الجبال أو منتشرة في الصحراء الشاسعة[3]، ويتواتر ذكر أسماء المدن في الأخبار المغربية باعتبارها مواقع للأحداث بشكل لافت للنظر إلى درجة اعتبارها أخبار المدن المفصحة عن تجارب الشخصيات التي تنتمي إليها بشكل عام ومن أمثلتها ما جاء في الأخبار: « ابن المرأة: أتيت من مدينة إشبيلية زائرا عمة لي بتلمسان »[4]، « الشيخ قطب العارفين أبو مدين من قرى إشبيلية وأجاز البحر إلى المغرب، فأخذ العلم بفاسه

[1]-ن م، ص96.

[2]- قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر (دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، د ط، 2001م، ص22.

[3]- مهدي عبيد، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، ص96.

[4]- البستان، ص68، وكذلك بغية الرواد، ج1، ص165.

واستوطن بجاية فاشتهر خبره وعلا في مقام الولاية صيته »[1]، « وحدث الإمام عبد الرحمان بن رستم ولي تاهرت سنة 160ه»[2]، «... أن الإمام لما أراد التولية إلى تاهرت اجتمع عليه جموع أهل طرابلس »[3]، « وذكر عن الشيخ سعيد بن يخلف أنه قدم وارجلان زائرا »[4]، « وذكر أن موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلى القيروان قعد يوما في مجلسه»[5]، «... أن يزيد بن حاتم وهو يومئذ أمير إفريقية بعث إلى والي تونس»[6]، « وكان المعز أقطع بالمنصورة المباركة »[7]، «لما خرج المنصور إلى ناحية تونس حين إخراجه الأساطيل إلى غزو الروم نزل خربة قرطاجنة»[8].

تبدو المدينة في النماذج السابقة بالنسبة للشخصيات حيزا جغرافيا، ولذلك فهي بالنسبة لها سند يأتي في بداية الأخبار وداخلها من أجل إيهام المتلقي أن ما يسرد عليه من أحداث حقيقي من صميم الواقع الذي تعيشه الشخصيات داخل هذه المدن المغربية التاريخية، فالسارد لم يول عناية كبيرة لوصف هذه المدن، بالرغم من أهميتها كمكان للسكن واكتفى بذكر أسمائها، التي تأتي لترتبط بأوصاف الشخصيات لتقديمها بشكل موجز بلغ فيه وصف المكان أقصى درجات الإيجاز داخل هذه المقدمات التي تؤطر الأخبار.

إن هذا التحديد الذي يقتصر على ذكر أسماء المدن المغربية – فقط –أضفى على ملامح المدينة صيغة من التجريد، تجعل القارئ لا يكاد يمسك بملامحها التي ميزتها، باعتبارها عالما يحتضن أسلوب الحياة المعقدة، التي يعيشها الإنسان، في البيئة المغربية،

[1]- بغية الرواد، ج، ص164.
[2]- السيرة وأخبار الأئمة، ص85.
[3]- ن م، ص119.
[4]- السيرة وأخبار الأئمة، ص301.
[5]- رياض النفوس، ج1، ص119.
[6]- ن م، ص168.
[7]- المجالس والمسايرات، ص504.
[8]- ن م، ص185.

بكل تناقضاتها، في ظل عدم الاستقرار السياسي، الذي عرفته هذه المدن، وقد حاول النعمان من خلال الخبر الموجز لكرامة للمهدي أن ينقل لنا جانبا منه عاشته مدينة المهدية، من خلال أوصاف جماليتها المعمارية حيث حرص المنصور على تشيد هندستها المنيعة لتكون الملجأ الآمن، لأهل مملكته من فتنة تنبأ بحدوثها، وقد عبر المعز عن ذلك قائلا: «كان المهدي واحد الزمان وخيبئة آل محمد (صلع) وعالمهم، وكاشف جلباب المحنة عنهم، وذلك أنه كان يرمز بمحنة تكون وفتنة تظهر ونفاق يشتمل على أكثر الأمة، ومن أجل ذلك ابتنى المهدية، وحصنها وانتقل إليها »[1]، حيث شكلت حيزا حميميا بالنسبة للمهدي لما تمتلكه من معالم شكلت الحصن الصامد في وجه أعداء السياسة الفاطمية يقول: « وكان يؤثر عنه أنه إذا نظر إلى سورها العالي الحصين وأبوابها الحديد وتكلم على ذلك من يكون بين يديه، ووصفوه بالمنعة وأنه لم يبن مثلها، يقول: كل ذلك إنما أعددناه لمقام ساعة من النهار، فلم نكن ندري، ما معنى قوله ذلك، حتى ظهر الدجال مخلد بن كيداد وهاجت فتنته وجاء بمن كان معه حتى وقف بباب المهدية ساعة من النهار »[2]، وهكذا تتحقق نبوءة المهدي وتفك رموز كلامه، ويدرك أهله سر بناء المهدية، حيث شكلت ساعة وقوف أبي يزيد ببابها بداية النهاية لفتنته «وكان ذلك آخر ما انتهى إليه، ولم يزل بعد ذلك في نقص وانحطاط حتى أقدر الله عليه المنصور وأمكنه منه»[3]

إن الشعور بالخوف من المستقبل الذي تنبأ به المهدي هو المسؤول عن رسم الجماليات المعمارية، التي جعلت مدينة المهدية مفتوحة في وجه الفاطميين حيث مثلت لهم الملجأ الآمن الذي احتواهم أيام فتنة عدوهم المنتظر الذي كان السبب لتشييدها لينغلق بابها المنيع في وجهه لتكون وقفته تلك على ترابها بداية اللعنة التي طالته حتى تمكن المنصور من أسره وقتله، وبتجاور هذه العناصر الدينية تتشكل صورة المكان المعنوية التي تستند

[1]- المجالس والمسايرات ، ص499.

[2]- ن م ، ص 499، ص500 .

[3]- ن م، ص500.

أبعادها الجمالية عند النعمان على الإيديولوجية المذهبية، التي ترى أن حياة الانفتاح والأمان تتم في ظل المدن التي بناها الأئمة لأنها أماكن يطالها القدسي، الذي أفصحت عنه كرامة الإخبار بالغيب، التي شكلت الحماية الإلهية للدعوة الفاطمية من خطر الفتن، التي هددت استقرارها السياسي ونجد في أخبار كثيرة شواهد توضح مدى تعلق النعمان بهذه المدن الفاطمية، الذي بلغ إلى درجة التقديس يقول: « ولما استقضاني المنصور بالله بالمنصورية، وأقمت بها كنت إذا وقفت للسلام عليه قبلت الأرض تعظيما له وإجلالا لمكانه»[1]، ففعل تقبيله للمكان هو تقبيل للمنصور، الذي حول تراب المنصورة إلى مكان مفتوح يوفر له الحرية والراحة، أثناء ممارسته للقضاء بين شخصيات تربطه بهم علاقة ألفة تعكس القيمة الروحية لقدسية المكان التي تتبني على وجود الأئمة الذي يشكل جماليته، التي يشعر بها النعمان ويعبر عنها صراحة من خلال فعل تقديسه للمنصور.

وقد أدرك ابن مريم أن من يقوم بتشكيل المكان المدينة (تلمسان)، هو وجود الأولياء الذين تستمد منه قوتها للمحافظة على قيام منشآتها من خطر التخريب الذي يهددها جراء تغير السلطة السياسية، التي يعرفها المكان من زمن لآخر، ويجعلها تعيش حالة من التناقض المستمر (الأمن، والخوف)، وهو ما أفصح عنه الخبر الموجز لكرامة للولي أبركان حيث سيؤدي رفض سكانها لحكم السلطان المريني إلى غضبه وقراره تدمير المدينة يقول:« وحكى لي أخي سيدي علي أنه لما نزل السلطان أبو فارس بتلمسان وكان السلطان بها ابن أبي تاشفين قاتله مع أهل تلمسان، فغضب السلطان أبو فارس غضبا شديدا وضيق بأهلها، وحلف إن لم يفتحوا لي الباب بالغد لآمرن بالنهب فيها ثلاثة أيام»[2]، ويبدأ الشعور بالكره والحقد عند السلطان الذي يحفز بداية تدميره للمدينة لزرع الرعب بين أهلها يقول:« فلما جاء الغد لم يفتحوا له الباب فضيق بأهلها تضيقا عظيما ورماهم

[1]- المجالس والمسايرات، ص63.

[2]- البستان، ص79.

بالانفاط، وهدم المسافات حتى صارت الحجارة تصل إلى سوق منشار الجلد وكذلك السهام وسمع صوت حجر ضرب به تسالة...، أنه كان بمسجد درب مسوفة فلما رمى السلطان بحجر عظيم سمعنا صوته كالرعد القاصف فوقع بعض الناس على وجهه»[1]، فأيقن سكانها بالهلاك وطلبوا من مشايخهم وعلمائهم الخروج للسلطان وطلب العفو منه، فرفض الشيخ أبركان ذلك « جاؤوا إلى علمائهم ومشايخهم وطلبوا منهم أن يخرجوا مع الأولاد الصغار بألواحهم يطلبون من السلطان أبي فارس العفو عن أهل البلد فهبط السنوسي، وعبد العزيز للشيخ سيدي الحسن وطلبا منه أن يخرج معهما للشفاعة فأبى»[2]، وتنبأ بحدوث الفرج القريب الذي سيحدثه الله على يد أوليائها الأحياء والأموات يقول «رأى أبو فارس بمحلته أمرا عظيما، ورأى أولياء تلمسان قادمين عرف فيهم الشيخ أبا مدين رضي الله عنه شتت الثلثين من جيشه، والشيخ سيدي الحسن شتت الثلث ورأى الشيخ بيده سيف وهو صاعد نازل في مدارج البيت فلما رأى السلطان ذلك تاب إلى الله ورجع عما عزم عليه ومن تلك الليلة عرف مقام سيدي الحسن»[3]

إن استخدام الراوي لحاسة البصر لينقل لنا أوصاف المدينة تلمسان التي ينغلق بابها على منشآت منفتحة شكلت قوة وحرية سكانها حيث سيسعى السلطان لتخريبها لتتحول المدينة إلى موطن للخراب يفقد فيها سكانها الموطن الآمن ليتمكن من تقيد حريتهم، وهو الرعب الذي حاولت أوصاف المدينة أن تنقله للقارئ بدقة حيث تعمل على تمديد الخبر، ليتمكن السارد من توظيف العنصر الديني لتتحول المدينة إلى مكان مقدس بوجود أوليائه الذين يهبون للدفاع عنها والمحافظة على معمارها المنفتح في وجه سكانها، بفضل الولاية التي يستمد منها المكان جماله، وهو ما يكشف عن المعتقد الديني الذي يسعى ابن مريم

[1]- ن م، ن ص.

[2]- .البستان، ص79.

[3]- ن م، ص79، ص80.

لإضفائه على المكان كحيلة لإقناع القارئ بصدق الكرامة التي اختص بها أبرز أولياء مدينة تلمسان الشيخ أبركان.

2- المسجد:

إن المساجد من أهم أماكن العبادة العامة و المفتوحة أمام الناس، وهي رمز الإسلام وتعاليمه، وقيمه الأخلاقية، ويرتبط به المسلمون ارتباطا روحيا كونه يمثل مكانا يقربهم من الله، يفرغون فيه همومهم وذنوبهم، التي علقت بهم وأثقلت ظهرهم حيث يتوجهون فيه بالدعاء لله سبحانه بالخلاص منها وبالإضافة إلى هذا الدور فإن له وظيفة أخرى تتمثل في استخدامه كفضاء للتدريس يجتمع فيه الشيوخ و الطلبة لمذاكرة العلوم خاصة أمور العقيدة والدين.

ويرد ذكر المساجد كثيرا في الأخبار المغربية باعتبارها مكانا للعبادة ومن أمثلتها التي قدمت لنا صورة واضحة عن الألفة الروحية، التي تقوم داخلها بهدف تقرب شخصيات الخبر من الله عز وجل ما قرأناه في المثالين الآتيين: قال المالكي في الخبر الموجز لمنقبة للشيخ عبد الجبار« حدث هاشم بن مسرور قال: مضيت ليلة من ليالي رمضان إلى مسجد عبد الجبار لأصلي خلفه التراويح...، فقام الناس ودخل عبد الجبار المحراب فقرأ في الترويحة الأولى البقرة وآل عمران، و النساء، والمائدة، فلما قضاها انصرف أكثر الناس، ثم قام في الترويحة الثانية...، فلعهدي برؤوس الناس تتمايل يمينا وشمالا ثم تمادى في الصلاة...،حتى ختم وأتاه مؤذنه بقصعة ثريد فتسحر ثم أذن المؤذن فصلى بهم الصبح »[1] ،أو قول ابن مريم في خبر منقبة للولي المتعبد أحمد الغماري:«أخبرني أخي سيدي علي...، أني أدركت سيدي أحمد بن الحسن يأوي بالليل إلى جامع الخراطين ويقوم فيه الليل كله...، وهذا حاله في المساجد كلها التي كان يأوي

[1]- رياض النفوس، ج1، ص 464.

إليها...، فكان سيدي أحمد يمكث بدويرته بعد إغلاق المسجد مدة ثم يأتي إلى المقصورة فيتهجد بها الليل كله...، وكان يقوم كل ليلة بعشرين حزبا سوى أوراده من الذكر»[1].

حاول السارد في الخبرين، أن يرسم صورة فنية للمسجد حيث اهتم فيها بنقل الأوصاف الحسية التي استخدم فيها حاسة البصر والسمع، كوسيلة فنية يصور بها علاقة الألفة الروحية الغريبة، التي عبرت عنها الشخصيات المحورية في صلاتها، لتفتح بصورها المثيرة فضاء المسجد الذي تتحرك فيه بحرية لأداء شعائرها الدينية وهو ما يعكس جماليته التي تستند عليها قوة العبادة، التي ميزة هذه الذوات داخل المدينة تلمسان.

وتقدم لنا بعض الأخبار شواهد حاولنا من خلالها الوقوف على دور المجلس كفضاء مفتوح لإقامة مجالس العلم التي اهتم فيها العلماء المغاربة بالتدريس ومن أمثلتها: قال المالكي في الخبر الموجز لمنقبة لابن الطفيل القاضي« قدم إلى القيروان وزير الخليفة فدخل المسجد الأعظم، فرأى حلقة عظيمة وفيها شاب كلما اختلف اثنان ممن حضر الحلقة رجعا إليه وصدرا عن رأيه »[2]، وقال في الخبر الموجز لمنقبة للشيخ يحي بن عمر« كان ليحي بن عمر كرسي في الجامع للسماع فيجلس عليه ويسمع عليه الناس، وكان يسمع بجامع القيروان، فبينا هو جالس وحوله خلق كثير يسمعون عليه»[3]، وقول ابن مريم في خبر كرامة لابن النحوي « دخل قاضي الجماعة يوما في الجامع وأبو الفضل يقرئ الطلبة علم الكلام فأمر بإبطال الدرس»[4].

مثل المسجد في هذه النماذج مكانا نموذجيا لإقامة مجالس العلم (الإقراء، والسماع، والمذاكرة) حيث اكتفى الوصف باستعراض التفاصيل الموجزة، التي أظهرت لنا دوره

[1]- البستان، ص 33، ص 34.
[2]- رياض النفوس، ج1، ص 172.
[3]- ن م، ص 493.
[4]- البستان، ص 300.

كفضاء مفتوح أتاح للعلماء بث العلم، وهو دور تتدخل السلطة السياسية لإنهائه كما أشار إلى ذلك الخبر الأخير.

ويحرص المالكي في أحد أخباره على نقل صورة لمسجد السبت الذي ذاع صيته في القيروان، كمكان مفتوح لالتقاء الناس لسماع أشعار الزهد فينتشر فيه البكاء من شدة تأثر الناس بالوعظ الذي جاء فيها يقول: « حدث الأنصاري عن أبيه قال: حضرت مسجد السبت القديم وكان مبنيا بالطوب، فقال القوالون أشعارا في الزهد، فبكى الناس بكاء عظيما حتى امتلأ المسجد بالبكاء وارتفعت أصواتهم، فقال رجل جالس بجواري لقد طاب المسجد اليوم » فقال له رجل كبير السن شيخ : يا هذا حال المسجد عما كنا عهدناه قبل هذا الوقت »[1]، وهكذا يتولى الشيخ الحكي ليكشف لنا عن صفة أخرى لمسجد السبت حضرها الشيخ فيما مضى من حياته يقول:« أعرف أني حضرته يوما فقال ابن السامة فقرأ « أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة، اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير »[2] .

مثل المسجد في هذا الخبر بالرغم من بساطة معماره ساحة مفتوحة يلتقي فيها المتعبدون والصالحون لمذاكرة الأشعار التي تؤثر في قلوبهم فتنطلق نفوسهم بالبكاء ويظهر الحوار بين الرجل والشيخ ليكشف عن الصفة الخفية التي تحول مسجد السبت إلى فضاء مغلق، تنتهي فيه الحياة وهي دلالات تجد تفسيرا في الواقع الديني الذي تعيشه المدينة (القيروان) خلال هذه الفترة من الزمن المغربي القديم.

ونخلص في الأخير إلى أن المساجد في هذه النماذج من الأخبار المغربية تعكس أنماط الشخصيات التي ترتادها كفضاء مفتوح بين فقيه وعالم وصالح ومتعبد وصاحب صوت حيث وضحت الصفات التقريرية المفصلة سماتهم المقدسة التي جاءت منسجمة مع

[1]- رياض النفوس، ج1، ص 496.

[2]- ن م، ن ص.

أدوار الشخصيات التي مارستها (العبادة، والتدريس)، وقد يتحول إلى مكان للبكاء أو الموت كأقصى درجة للتأثير التي يمارسها المكان على النفوس المغربية التي اتصفت بالصلاح والعبادة.

ب - الأماكن المغلقة:

هي تلك الأماكن التي تشكل لأصحابها علبا مغلقة، محددة بواسطة أبعاد معلومة من حيث المساحة والمكونات، والانغلاق في مكان واحد يعبر عن الملكية الخاصة التي ترمز للعزلة إذ الانغلاق في مكان واحد تعبير عن العجز وعدم القدرة على الفعل أو التفاعل مع العالم الخارجي، وهو يوحي بالخصوصية إذ يحتضن المكان المغلق عددا محدودا من البشر ونوعا من العلاقات البشرية[1].

والأماكن المغلقة مصطنعة في أغلب الأحيان من قبل الإنسان بمحض إرادته لغايات وأغراض كثيرة، ومثال ذلك: البيت يبنيه ليسكن فيه وليحميه، فهو المأوى الاختياري والضرورة الاجتماعية، أو كالسجن فهو المكان الإجباري المؤقت فقد تكشف الأمكنة المغلقة عن مشاعر الألفة والأمان أو قد تكون مصدرا للخوف والمكان المغلق هو مكان العيش والسكن الذي يأوي الإنسان، ويبقى فيه فترات طويلة من الزمن سواء بإرادته أو بإرادة الآخرين، لهذا فهو المكان المؤطر بالحدود الهندسية والجغرافية، ويبرز الصراع الدائم القائم بين المكان كعنصر فني وبين الإنسان الساكن فيه، ولا يتوقف هذا الصراع إلا إذا بدأ التآلف يتضح أو يتحقق بين الإنسان و المكان الذي يقطنه[2] ولكون النصوص الخبرية تتسم بتنوع الأحداث و تغيرها، يقتضي هذا الأمر تعدد الأماكن المغلقة التي

[1]- عبد الحميد بو رايو، منطق السرد، دراسة في القصة الجزائرية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م، ص 146، ص 147.

[2]- مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، ص 43، ص 44.

تسكنها الشخصيات حيث تعمل على الكشف عن الحالة التي تعيشها وعن علاقتها مع الآخرين، ومن أهم هذه الأماكن الحاضرة في الأخبار المغربية

أ - البيت:

البيت هو عالم الإنسان الأول،الذي يعطي للوجود قيمة، ويوحي عند أكثر الناس بالدفء، والاستقرار والأمان والبساطة[1] وهو من الأماكن المغلقة الخاصة، التي لا يلجها الغريب إلا إذا كان صاحبها أو من المقربين من أصحابها، أو بعد استئذان « فهو المكان الذي يحمل صفة الألفة وانبعاث الدفء العاطفي ويسعى لإبراز الحماية والطمأنينة في فضائه، لهذا فالشخصية تسعى إليه بإرادتها من دون قيد أو ضغط يقع عليها»[2].

فالبيت « طاقة احتياطية كامنة داخل الإنسان يحتمي بها كلما شعر بخطر العالم الخارجي يهدده، فالبيت يغطي عريه، ويحافظ على صميم الشرط الإنساني لديه فيقوم بامتصاص مشاعر خوفه، إذ يطرح فرضية العجز الإنساني، عندما يصطدم بالمكان »[3]، والبيوت عديدة ومتنوعة في الشكل والفخامة أو التقليدية في بنائها، وكلها يدل على قاطنيها وتكون انعكاسا لشخصياتها لأنها مرآتها التي تظهر حقيقتها وهكذا فحياتها تفسرها طبيعة المكان الذي يرتبط بها وللبيت دور في وقوع بعض الأحداث، وذلك لأنه في العرف العربي القديم مكان يطلق على كل مساحة من الأرض المبنية يقيم فيها الإنسان ويولي الإخباريون المغاربة أهمية للمكان تتراوح بين الذكر السريع لتسمياته المتعددة(الدار، والبيت، والمنزل، والقصر)، وبعض التجريد في الوصف لبعض بيوت الشخصيات عندما يكون لها علاقة بالحدث المهم في حياتها وتقوم الأخبار بعرضه ومما جاء منها: يصور أبو زكرياء في الخبر الموجز لمنقبة للإمام عبد الوهاب دار الإمارة عندما قصده جماعة

[1]- جاستونباشلار، جماليات المكان، ص 44، ص 45.

[2]- مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، ص 47.

[3]- مرشد أحمد، البنية و الدلالة، ص 92.

من رسل إباضية البصرة أرسلت إليه لتدعيمه بالمال يقول: « فلما وصلت الرسل إلى تاهرت صاروا يسألون عن دار الإمارة، وقد كانوا خلفوا أحمالهم خارجا، فلما نعتت لهم الدار قصدوا نحوها فإذا الإمام فوق البيوت يعمل في السقوف، والعبد تحته يناوله الطين فسألوا العبد أن يأذن لهم فقال له أخرجهم قليلا فنزل عن الحائط وغسل الطين...، فأذن لهم فتناجوا فيما بينهم واتفقوا أن يدفعوا له المال...، شاور أصحابه فأشاروا عليه أن يأخذها ويبثها في فقراء المسلمين ففعل بمحضر أولئك الرسل»[1]، ويصور المالكي في الخبر شديد الإيجاز لمنقبة للفقيه سحنون بيته قائلا: « حدث عباس بن مسكين: قال سحنون لغلام له اذهب إلى البيت فافرش لي فلم يجد فيه شيئا يفرشه، فجاء سحنونا فقال له أفرشت لي؟ فقال الغلام لم أصب ما أفرش لك فأخذ سحنون برذعة الحمار ففرشها وجعل الشند عند رأسه وقال الغلام: هكذا كنت تفعل »[2].

إن البيت من خلال إشارات الوصف السريعة التي تخلو من التفصيل يشير إلى الزهد الشديد فهو فارغ بسيط لا يعبر عن المكانة الاجتماعية للشخصيات التي تعيش فيه، ولكن السارد أبدع في وصفه لأنه باعتباره الحجة التي أثبتت للرسل والغلام صدق صفة الزهد والورع، التي اشتهر بها (الإمام والفقيه) حيث كشف الخبر الأول أوصاف المكان البسيطة وكانت السبب وراء تعجيل الرسل تسليم المال للإمام الرستمي، وعليه فهو يشكل المكان الذي يحمل في داخلهم مشاعر الراحة والطمأنينة التي تعبر عن راحة الضمير التي حولت البيت من عرفها إلى جنة يستمد جماليته من المعتقد الديني الذي تطمع إلى تحقيقه في الدار الآخرة.

وفي خبر آخر للقاضي النعمان تتجلى صورة أخرى لمنزل من منازل الإمام المنصور يضمه أحد قصوره بوصفه مكانا يختلي فيه أثناء اشتغاله بالتأليف يقول: « كنت

[1]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 88.

[2]- رياض النفوس، ج1، ص 371.

مع المنصور في بعض أسفاره وقد نزل منزلا أقام فيه في قصر له بذلك المنزل وبستان قد أحاط به فيه ماء جار...أتيته بحسب العادة فوجدته تحت بعض تلك الأشجار في يوم صائف حار، حاسر الرأس وقد حلقه، وإن العرق ليرشح منه، وهو يؤلف كتابا يكتب نسخته فقلت... قال دعني فقد قطع علي كلامك شيئا كان اتصل عندي ولمثل هذا جلست وتحملت هذا الحر »[1].

لقد استطاع السارد من خلال الوصف المكاني تعريف القارئ بمستوى العيش العالي للأئمة الفاطميين، فقد تعددت المنازل داخل قصر المنصور، الذي قصد واحدا منها تميز بجمال بستانه الخلاب حيث شكل المكان المفضل لجلوسه أثناء التدوين يستمد من جماله الطبيعي المحسوس معاني (المسائل المستعصية) التي يعبر بها عن أفكاره التي تظهر في كتبه المذهبية.

ب- السجن:

هو المكان الذي تتم فيه سلب حرية الإنسان، فهو رمز للحجز أو الحبس الذي يبعد عنه صفة الانفتاح حيث يشكل المكان المغلق الذي يجبر الإنسان على الإقامة فيه ويتكون « من مكان محدد المساحة ويتصف بالضيق، وهو فضاء طارئ ومفارق للمعتاد مثل الإقامة في السجن، أو الإقامة الجبرية التي تفرض على المرء، فهذه الأمكنة هي أمكنة إقامة وثبات للقيد والحبس والإكراه، فالأمكنة الإجبارية معنية بالإقامة التي تبعد المرء عن العالم الخارجي وتعزله عنه »[2].

والسجن هو عالم مفارق للعالم الأليف الاختياري فهو يشكل المكان المعادي، الذي يصور صرامة الحد وأشكال التعذيب وتقيد الحرية والأفكار التي تجعل المسجون منعزلا

[1]- المجالس والمسايرات، ص 122.

[2]- مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، ص 46.

عن العالم الخارجي إلى حين الإفراج عنه، وتظهر ملامحه من خلال الأخبار المغربية بأنه مكان للإقامة الجبرية يتمركز بين جدران أربعة شيدت داخل المدن المغربية وتحمل أسماء معروفة لدى ساكنيها، والقاطن فيه قد وصل إليه بإرادة السلطة السياسية الرافضة لفعل قام به، أو يعتقد أنه قام به ومن صور العذاب الذي يتعرض له الشيوخ المغاربة داخل السجون ما ينقله ابن مريم في الخبر الممتد لكرامة للشيخ أبركان يقول: «ومن ذلك ما حكاه الشيخ الصالح الذاكر لله تعالى التالي لكتابه على الدوام سيدي أحمد الحصيني...، قال كنت في ابتداء أمري ذا مال كثير فبعث ورائي السلطان عبد الواحد ، وأمر بسجني في الدويرة من غير سبب ورمى علي ألف دينار...، ثم انحرف وأدركه الغضب الشديد وقال جميع الايمان تلزمني حتى يعطي خمسمائة دينار بعد أن يضرب بالسياط على عدد شعر رأسه لأنه شوه بي... فلما طلعت الشمس من الغد وقع النداء علي بالخروج إلى الضرب فشددت السراويل في وسطى وجعلت الحرز تحت الشد وقدموني متجردا وربطوني ووقفت للسياط...»[1].

إن سجن الدويرة يصور قسوة السلطة الحاكمة في تلمسان ضد كل من تحقد عليه، حيث يحرم الشيخ من أبسط حقوقه، إذ يزج فيه دون أدنى حق ويتعرض لشتى أنواع العذاب النفسي والجسدي ويمكن القول إن العلاقة بين الإنسان والمكان من هذا المنحى علاقة خوف، فهو حيز مغلق تستخدمه السلطة للترهيب لابتزاز أموال الشيخ الصالح الذي لا يملك في هذه الحالة إلا وسيلة للاستنجاد بالولي أبركان لينتهي عذابه بفضل ما خصه الله من كرامات يقول: « بعد أن شفع فيه ذلك الرجل الصالح، فحلفت لأطلقنه بنفس رجوعي من الصلاة ولا آخذ منه شيئا »[2].

[1]- البستان، ص 76، ص 77.

[2]- ن م، ص 78، ص 79.

ونلاحظ أن السارد ينقل لنا في بعض الأخبار صورة لتحول السجن من مكان للخوف والعذاب إلى فضاء للراحة يهتم فيه العلماء بأمور العلم ويتمثل ذلك في خبر المقرئ الغساني الذي حول السجن إلى مجلس لتجويد القرآن يقول: « وحقد عليه النعمان فأمر بطلبه وسجنه في حبس الزيادية مدة، فكان إذا قرأ في السجن اجتمع الناس في الأزقة خارج السجن فخاف النعمان فأخرجه »[1]، وفي خبر الفقيه ابن نعيم القرطبي الذي حول السجن إلى ساحة للإبداع حيث اهتم فيه بتخميس قصيدة المنفرجة لابن النحوي « ولما أخذت بجاية من يد ابن عمران وأخذت حاشيته فكان الفقيه أحد المأخوذين ومن جملة المعتقلين ولما كان بعد ليلتين من اعتقاله رأى (الأمير) النبي (صلى الله عليه وسلم) وأمره أن يسرح ابن نعيم فاستيقظ وبعث إليه في بقية ليله فارتاع كل من كان في الثقاف فاستدعى من بينهم وسيقت له بغلة وكسوة وسرح وأحسن إليه فسئل عن السبب في ذلك فقال: إنه لم يكن له سبب سوى أنه خمس القصيدة الجيمية عند دخوله السجن وهي المعروفة بالشيخ ابن النحوي »[2].

انتقل السجن في هذه النماذج انتقالة عجيبة من فضاء مغلق على الخوف إلى فضاء مفتوح للقراءة ونظم للشعر حيث كان ذلك السبب المباشر والمسؤول عن نهاية عذاب كل من(المقرئ والفقيه)، وهكذا استطاع تحول السجن أن يعبر على قوة الأقدار ومشيئة الله عز وجل في تغيرها والتغلب على مشيئة البشر (النعمان، والأمير)، وهو ما دلت عليه معاني قصيدة المنفرجة التي اعتبرها الفقهاء المغاربة من المنظومات المباركة التي تستروح بها النفوس في طلب تفريج الكروب وسموها الفرج بعد الشدة وطالما رددوها في الشدائد:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج.

[1]- رياض النفوس، ج2، ص 476، ص 477.

[2]- عنوان الدراية، ص 152، ص 153.

إن أهم حقيقة يمكن أن نستخلصها، من خلال ما ذكر حول بنية المكان أن دلالته في الأخبار المغربية أدت دورا أساسا في الكشف عن حياة الشخصيات التي تفسرها طبيعته المرتبطة بها، فهو الكيان الذي لا يحدث شيء من دونه لما يثير من إحساس بالزمن والمحلية المغربية حتى لتحسبه كيان الأخبار الذي لا يحدث شيء بدونه وهذا ما يؤكد قدرة الراوي المغربي على إسقاط رؤيته الفكرية على المكان مخضعا إياه لحركة الذات المبدعة فتجلى وفق مستويات دلالية عدة تحددها ثنائية (الانفتاح، والانغلاق)، التي عبرت عنها السياقات الحكائية لمختلف الأمكنة التي تشكلت صورها في الأخبار ولذلك يتوفر المكان الذي يقدمه النص على دلالة إيديولوجية تعكس مدى إحساس الإخباري المغربي بالمكان في بيئة اجتماعية محددة وفي لحظة تاريخية ترتبط بشخصية محددة أيضا.

3- بنية الشخصية:

تعد الشخصيات من بين أهم عناصر السرد، فهي المكون الذي تنتظم انطلاقا منه مختلف عناصر النص الخبري ويسعى الراوي إلى أن تكون شخصيات نصية متحركة ومعبرة في المواقف التي يموضعها في وضعية معينة تعبر عن أغراضه وأهدافه الخاصة، فشخصيات الخبر لا يضعها الراوي عبثا، و إنما هي دائما تقترب من الواقع الحقيقي، من أجل أن تعبر عنه و تكشف أغواره و تسبر خفاياه. فما هي الشخصية يا ترى؟ .

إن كثيرا من النقاد العرب المعاصرين يخلطون بين الشخص و الشخصية و لذلك تراهم يقولون الأشخاص طورا، والشخصيات طورا آخر، وكأن أحدهما مرادفا للآخر[1].

[1]- عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي_ معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية " زقاق المدق " ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، دط ، 1995م، ص 125.

ولقد كان التصور التقليدي للشخصية يعتمد أساسا على الصفات، مما جعله يخلط كثيرا بين الشخصية في الحكاية Personnage و الشخصية في الواقع العياني Personne وهذا ما جعل " ميشال زرافا " يميز بين الاثنين عندما اعتبر الشخصية الحكائية " علامة فقط" على الشخصية الحقيقية، أما التصور الحديث للشخصية فنجد " رولان بارت " يعرفها بأنها " نتاج عمل تأليفي "، حيث كان يقصد أن هويتها موزعة في النص عبر الأوصاف و الخصائص التي تستند إلى اسم " علم " يتكرر ظهوره في الحكي[1] .

ويختلف الشخص عن الشخصية بأنه إنسان، لا صورته التي تمثلها الشخصية في الأعمال السردية، والغربيون يميزون بسهولة بين (PersonnePerson,) وبين(Personage, Personnage) ومن وجهة ، وبين(Personage,Personnage) في حد ذاته و (Hero, Héros) من وجهة أخرى[2].

ويختلف البطل عن الشخصية التي عرفناها منذ قليل، بأنه كائن حركي حي ينهض في العمل الملحمي بوظيفة الشخص الخارق مثل " هرقل الإغريقي " و " صامصون " عند العبرانيين و " عنترة بن شداد " في الذهنية الشعبية العربية، و البطل بحكم مفهومه هذا لا ينبغي له أن يوجد إلا في الملاحم، وهو ثلاثة أصناف بطل ملحمي، وبطل تراجيدي، وبطل دراماتيكي[3].

وبذلك فالشخصية تعد من أهم مكونات العمل السردي، فقد حظيت بالأهمية لدى المشتغلين بالنقد الأدبي الحديث و المعاصر « فكما لا يمكن للواقع الاستغناء عن الشخص، لا يمكن للنصوص الخبرية الاستغناء عن الشخصية، فهي لا تمثل في العالم الروائي

[1]- حميد لحميداني ، بنية النص السردي _ من منظور النقد العربي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م، ص 50، ص 51.

[2]- عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ص 126.

[3]- ن م، ن ص.

وجودا واقعيا، بقدر ما هي مفهوم تحليلي تشير إليه التعابير المستعملة في الرواية، للدلالة على الشخص ذي الكينونة المحسوسة الفاعل»[1]، ومن هنا يرى " آرلوند فورستر ": « أن أساس النص السردي هو خلق الشخصيات، ولا شيء سوى ذلك، إن للأسلوب وزنه، و للحبكة وزنها ولكن ليس لشيء من هذا وزن بجانب كون الشخصيات مقنعة »[2]، ففي الأخبار المغربية، تمثل الشخصية دور الفاعل، الذي يقوم بتحريك الحدث، فهي إذا العمود الفقري الذي تعلق عليه كل عناصر البناء الأخرى، لذلك يقال إن الخبر قصة لحدث يرتبط بالشخصية[3] .

1- أنواع الشخصيات:

تعد الشخصية في الأخبار المغربية العماد الأول لها، فحولهم تدور الأحداث، وإليهم يتجه الحوار، وينطلق منهم، فليس للأحداث قيمة إلا بمدى تعبيرها، وعمق آدائها في نفسية الأشخاص الرواة[4]، ولذلك تتحدد صفات النماذج البشرية التي تصورها أخبارهم فقد تكون الشخصية في الخبر رئيسة، أو ثانوية، وقد يدور الخبر الموجز حول شخصية واحدة، وبالإمكان أن تتعدد الشخصيات في الخبر الممتد، ذلك أن كلمة خبر قصة لشخصية واقعية تقوم بدور رئيس، إلى جانب شخصيات أخرى ذات أدوار ثانوية، ولابد أن يكون بينهم جميعا رباط يوجه اتجاه القصة، ولابد أن يقوم بينهم رباط يوجه اتجاه الخبر، فهي في الواقع شخصيات مرجعية لها أسماؤها وماهيتها التاريخية، بمعنى أن لها وجودا حقيقيا في مسيرة التاريخ، وحاول السارد من خلال أخباره عنها الوقوف على حقيقة الواقع المغربي آنذاك، فهي الإطار الذي سيحمل دلالات العالم التخيلي الباعثة على

[1]- عبد القادر شرشار، خصائص الخطاب الأدبي في رواية الصراع العربي الصهيوني، دراسة تحليلية، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان، ط1، 2005م، ص 89.

[2]- ن م، ص 90.

[3]- طه وادي، الرواية السياسية، الشركة العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط1، 2003م، ص 1223.

[4]- إيليا الحاوي، في النقد والرواية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج4، ط1، 1980م، ص 136.

الكثير من الفهم و التأويل المرتبط بآليات أفعالها وكلامها ومقاصدها، التي تتضامن على دعم فكرة الحدث الجوهري الذي يقوم عليه الحكي.

وعليه يمكننا أن نصنف شخصيات الخبر بحسب دورها الذي تؤديه داخل الحكي إلى شخصيات رئيسة، وثانوية.

أ- الشخصيات الرئيسة:

هي تلك الشخصيات التي لا يمكن الاستغناء عنها في الخبر فهي تتواتر على طول النص و تضطلع فيه بدور مركزي[1] مما يجعلها المادة الأساسية لقيام البؤرة المركزية (المتعة) في النص حيث تستمد من مقاصد أفعالها (التدبر، والتعرف، والحيلة) مكوناتها الأساسية، فهي تلك الشخصيات التي تستحوذ على اهتمامنا تماما، ولو فهمناها حقا، فإننا نكون غالبا فهمنا جوهر التجربة الإنسانية المطروحة في الخبر، فالشخصيات تؤدي مهمة رئيسة تقودنا إلى طبيعة البناء القصصي فعليها نعتمد حين نبني توقعاتنا، التي من شأنها أن تحول، أو تدعم تقديراتنا و تقيمنا، ومن ثمة تنهض قيمة معظم الأخبار، وما تحدثه من التأثير الفعال، على مقدرة الشخصيات الرئيسة من تقديم المواقف والقضايا الإنسانية التي يطرحها الحدث تقديما حيويا[2].

فالشخصية الرئيسة هي الشخصية التي تسيطر على النص الخبري بقوة جاذبيتها، فتعمل على التأثير في القارئ، وتشويقه، من أجل تتبع الأحداث من أول النص إلى آخره فقد ظلت « الشخصيات الرئيسة توجد وتتحدد، لأنها فقط أعطيت من التميز و الاهتمام، ما يجعلها قادرة على تقديم التشخيص المقنع للمواقف أو القضايا الإنسانية، ولو حدث أن

[1]- سعيد يقطين، قال الراوي، ص 96.

[2]- روجر .ب. هينكل، قراءة الرواية، مدخل إلى تقنيات تفسير، تر: صلاح رزق، دار غريب، القاهرة، د ط، د ت ، ص 186.

فشلت في أداء هذا الدور فلسوف يسقط العمل تماما »[1]، فالنصوص الخبرية تتشكل من أحداث متنوعة، ذات فعالية مؤثرة في المتلقي، فهي محور الحكي التي تدور عليها الأحداث من البداية إلى النهاية ولذلك فالسارد يسند إلى كل منها اسما يرتبط بالمهنة التي تؤديها واستطاعت بفضلها أن تحتل رتبة اعتبارية اشتهرت بها داخل مجتمعاتنا في مجالات(الدين، والسياسة، والعلم)، وبالإضافة إلى هذه الرتبة التميزية، يقوم الاسم الوصفي « بتكثيف اقتصادي لأدوار سردية مقولبة »[2]، فحين ترد الرتب الوصفية في بداية الحكي الذي يستمر محافظا على الملامح العامة لتلك الرتبة، فلا يحتاج السارد إلى إعادتها مرة أخرى، فالهدف من تدوين أخبارها مرتبط بأدائها لسلوكات تحمل رسائل وعظية، تؤثر في القارئ وفق مقاصد صفاتها المرتبطة بشهرتها داخل رتبتها تلك، ولذلك فالسارد يعمد إلى الاختيار الحسن لتلك الشخصيات ويوظفها توظيفا حكائيا منسجما، وصفاتها داخل مجتمعاتها، ولذلك سأنطلق منها للكشف عن أقسام اشتغال الشخصيات الرئيسة في المدونة الخبرية المغربية.

1- الشخصيات الدينية:

إن توظيف السارد لهذا النمط من الشخصيات هو الأكثر تفشيا في أخبار الكرامة والمناقب، التي حملت الأحداث المهمة في حياة أعلام الدين الذين اشتهروا بالعبادة حيث لا يمكن لهذه الشخصيات أن تحمل صفات سلوكية سيئة، ولذلك جاءت رتبهم مرتبطة بصفات دينية اشتهروا بها في مجتمعاتهم فتأتي الأخبار لتركز على دلالة هذه الصفات لتوضح جانبا من جوانبها ومن أمثلة ذلك ما قرأناه في الأخبار الموجزة الآتية « قال بن خلدون في خبر المنقبة « الشيخ الولي أميرها يحي بن يوغان الصنهاجي تاب على يد

[1]- ن م، ص 188.

[2]- مرشد أحمد، البنية والدلالة، في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر المركز الرئيسي، بيروت لبنان، ط1، 2005م، ص 36.

الشيخ عبدالسلام التونسي، فأمره بقتل نفسه على طريقة القوم بأن يحمل الحطب على ظهره، ويخطر به على مواقف عزه وجماهير خدمه، ففعل وباعه وجاء الشيخ بثمنه، فقال له: أنت الآن أحق بالدعاء لي مني لك »[1]، وقال بن مريم في خبر كرامة للشيخ الحسن بن مخلوف (أبركان) « حكى لي أخي سيدي علي أن السلطان أحمد كان قد آذاه عمارة الزردالي، وكان يكثر الشكاية للشيخ به فزاره يوما فسأله الشيخ عن حاله وقال ما بلغكم خبر عن هذا الإنسان يعنى عمارة الزردالي فقال لا يا سيدي فأدخل الشيخ رأسه تحته وصار يقول أي يضعف حتىكأنه لميبق إلا ثيابه بالموضع فغاب كذلك ساعة والسلطان جالس ثم أخرج رأسه وقال له اذهب إلى موضعك فقد قضى الله الحاجة فطلع السلطان إلى موضعه فأتاه البشير من فوره برأس الشيخ»[2]، أو قال المالكي على لسان بن قطوية « سمعت أبي يقول: حضرت جنازة في باب تونس وحضرها عبد الخالق المتعبد، فذكر من حضر الآخرة وأهوالها قال:فصاح عبد الخالق ثم ولى نحو الفحص هاربا على وجهه، فمضينا في أثره فأصبناه جاثيا على ركبتيه خارا على وجهه، فحملناه على دابة، ثم أقمنا، بعد ذلك أياما نعوده حتى مات »[3]، نلاحظ أن السارد في الأمثلة السابقة يقدم أوصافا مكثفةاشتهرت بالولاية والعبادة ولجأ السارد إلى استعمال الوسيلة المباشرة للتعريف بصفات الشخصية الرئيسة (حمل الحطب والرعي، والدعاء على المعتدي، وتأثر عبد الخالق وموته) وهي صفات تأتي لتقوية الإيمان والوعظ والإرشاد.

2- الشخصيات السياسية:

هي شخصيات واقعية تحمل اسما يرتبط بوضع اعتباري سياسي يميزها « فهي تحيل إلى بعض الحقب التاريخية، والتي نجد العديد، من المصنفات تتناولها بطريقة

[1]- بغية الرواد، ج1، ص 135.

[2]- ابن مريم البستان، ص80.

[3]- المالكي، رياض النفوس، ج1، ص326.

أخرى، وهذا النوع من الشخصيات قابلة للإدراك »[1]، وتتمثل في شخصيات السلاطين والأئمة والوزراء، يوظفها السارد، في نسيج من العلاقات داخل أخباره، ليحكي قصة جانب من جوانب حياتها، حيث تصبح موضوعا لقصة متخيلة، لها علاقة بأحداث حياتها الحقيقية، وبالدور البارز، الذي كانت تمارسه في الماضي، واشتهرت به في التاريخ السياسي المغربي، ونجد أن المؤلف يلهث وراء هذه الشخصيات ذات الطبائع الخاصة كي يبلورها في عمله، فتكون بذلك صورة مصغرة للعالم الواقعي، الذي يريد إيصال صورته للمتلقي المغربي.

إن هذا الوجود التاريخي لهذه الشخصيات يجعل السارد يلجأ إلى إيجاد شخصيات تخيلية توازيها من جهة كونها تحمل ملامحها المأخوذة من واقع تجاربها، وهو بعمله هذا يحاول تجاوز تلك الشخصيات التاريخية التي تفرض ملامحها طوقا، يحد من حريته، ويقوده إلى رسم صورتها الحقيقية كما قدمها مؤلفوا التاريخ داخل مؤلفاتهم، ولعل الهدف من توظيف الشخصيات التخيلية السياسية هي « إعادة سرد تفاصيل الشخصية التاريخية، وتحليل نفسيتها، من خلال أقوالها وأفعالها، ومحاولة تفسير الغامض فيها...، أو يكون لمرجعيتها وحمولتها الدلالية »[2]، التي تتوافق وطبيعة الأفكار الدينية والإيديولوجية، والقضايا المذهبية، التي يريد الكاتب نقلها إلى المتلقي، ومن ثم فقد عكست طبيعة مرحلة من المراحل التاريخية، والحضارية، التي عاشتها الأمة المغربية، أو قد يرجع لكونها وسيلة يسعى من خلالها السارد إلى إيصال مقاصد الحكي، التي تهدف إلى تأصيل هذه الشخصيات في مخيلة القارئ بحيث تصبح بعد ذلك مثالا يحتذى به في الأفعال الجيدة، أو يتعظ منها في الأفعال السيئة،والأمثلة على هذه النوعية من الشخصيات الخبرية كثيرة فقد وردت جملة من الأخبار المتعلقة بأسماء الأئمة والسلاطين والوزراء، الذين عرف عنهم

[1]- جيرالد برانس، معجم السرديات، ص270.

[2]- محمد بنعزوز، معجم مصطلحات الأدب الإسلامي، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 2006م، ص110.

الذكاء والحكمة والصبر التي عبرت عن سياستهم المتبعة في إدارة أمور دولهم، مثل خبر النادرة الذي قرأناه عند أبي يحي زكرياء ونقل لنا من خلاله الحكمة والذكاء التي اتصف بها الإمام عبد الوهاب بن رستم في مواجهة المخالفين من أهل مذهبه مثل خبر النادرة شديد الامتداد، الذي قدم لنا من خلاله أبو زكرياء، صورة الشخصية الرئيسة، الإمام عبد الوهاب بن رستم، الذي استطاع بفضل ذكائه وحكمته، أن يفرض نفسه كعنصر فعال ومؤثر، في مسار الأحداث التي نقلتها قصة خبره مع جماعة يزيد بن فندين أكبر معارضيه حيث يفتتح الحكي في الوحدة الأولى منه بتقديم وصف موجز للخوف والحيرة اللذين سيطرا على تفكير الجماعة، وهي تحاول أن تجد طريقة لقتل الإمام يقول: « وبلغنا أن نفرا منهم اجتمعوا على غدر الإمام فأداروا الأمر بينهم، فقال قائلهم كيف لنا بالوصول إلى قتله، فلم يتوجه لهم ذلك »[1]، وهي حيرة طبيعية أمام هكذا شخصية سياسية دينية، تتصف بالذكاء و الشجاعة، و وبتأييد أغلبية الإباضية بتهرت، وكل ذلك شكل الدافع للجوء أحدهم إلى خدعة الصندوق، التي اقترحها على أصحابه، لإخفاء مكيدتهم على الإمام من أجل الوصول إلى تنفيذ جريمتهم يقول: « ثم إن رجلا منهم أشار عليهم قال لهم: هل بكم من رأي أن تأخذوا تابوتا و تجعلوني فيه... فعمدوا إلى تابوت وأدخلوا فيه الرجل ومعه سيفه... وكان غلق التابوت من داخله، فأقبلوا به إلى الإمام... فقال قائلهم: يا أمير المؤمنين أفصل بين هؤلاء القوم وانزع التابوت من أيديهم جميعا حتى تصلح بينهم... فقال المختصمون لسنا نثق بأمانة أحد إلا أن يكون أمير المؤمنين. فتوخى مرضاتهم وساعدهم وقال احملوا تابوتكم إلى حيث أمركم »[2]، وبمجرد حملهم للصندوق يتمظهر ذكاء الشخصية حيث استطاعت أن تميز بقوة بصرها تثاقلهم في حمل الصندوق، وبذلك يتولد الشك الذي حفزه للتمعن فيه و التفطن لمكيدتهم ويظهر ذلك في قوله: « فلما حملوه نظر إليهم الإمام مثقلين بحمل التابوت، فاسترابهم ثم إن الإمام تأمل التابوت فوجد مغلقه

[1]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 96.

[2]- السيرة وأخبار الأئمة ، ص 96، ص 97.

من الداخل، فكان ذلك مما زاده ريبة فيهم، وظن أنهم أرادوا المكر والغدر »[1]، وهنا يتوقف أبو زكرياء عن السرد ليكشف لنا عن مشاعر الكره الذي يكنه للمكر الذي اتصفت به الجماعة وبذلك تنتهي الوحدة.

ويعود السارد من جديد لاستئناف الحكي، حيث يستدرك ليخبرنا عن الاتفاق المبرم بين الجماعة ومنفذ الجريمة في حال نجاحه في تحقيقها يقول: « وبلغنا أنهم اتفقوا مع صاحبهم أنه إذا قتل الإمام يؤذن لصلاة الصبح، عند طلوع الفجر، فإذا سمعوا أذانه –وهم يعرفون صوته- فيبتدروا إلى دار الإمام، فإن لم يؤذن، يعلمون أن صاحبهم لم يظفر بحاجته»[2]، ثم ينتقل السارد ليكشف لنا الصفة المذهلة لشخصية الإمام، وتتمثل في ذلك الهدوء، الذي أظهره في تعامله مع الأمر حيث استمر في الاشتغال بأمور بيته وعبادته، بشكل عادي، ليبث الطمأنينة في نفسية الرجل داخل الصندوق، لكي يتمكن من تمرير خطته التي أعدها للإطاحة بغدره يقول:« فلما جاء الليل اشتغل الإمام في صلاته وحوائج أهل بيته، وكان إذا فرغ من حاجته أن يأخذ كتابا فيقرأ فيه، فلما كانت تلك الليلة عمد الإمام إلى زق منفوخ فوضعه على فراشه، ووضع عليه ملحفة بيضاء فلما قضى حاجته من قراءة كتابه وجاء الوقت الذي يرقد فيه أخذ المصباح فأوقده فأكفأ عليه غطاء يستره وانتحى إلى جانب البيت وأقبل على الصلاة حتى لا يسمع به ولا يراه من كان في التابوت»[3]، وهكذا تمكن الإمام، بفضل خطته المحكمة، أن يخدع الرجل ليخرج من الصندوق لمواجهة مصيره المحتوم يقول: « فلما هدأ صوت الإمام... فتح التابوت وخرج منه فنظر في البيت، فلم يرى شيئا إلا بياضا فظن أنه الإمام... فلما وصل الفراش ضرب بالسيف على الزق فظن أنه ضرب الإمام...، فلما سمع الإمام الضربة بالسيف نزع الغطاء نحو المصباح واستضاء البيت فقصده وقده نصفين، ثم أخذه ولفه في ثيابه ورده

[1]- ن م ، ص 97.

[2]- ن م، ص 98.

[3]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 98.

في تابوته »[1] ويستمر الإمام في التعامل مع الوضع، بحكمة حيث أخفى الأمر على الرعية خوفا من انتشار الفتنة، وسلم الصندوق لأصحابه بهدوء تام، وباكتشافهم لسر صاحبهم في الصندوق يتملكهم الرعب، لينتهي الخبر بفرار جماعة النكار من المدينة، ويصف كل ذلك قائلا: « فأقبلوا إلى الإمام، فقالوا له: أعطينا تابوتنا قد اتفقنا، فقال لهم امضوا إلى الموضع الذي وضعتم فيه تابوتكم فخذوه فمضوا حتى دخلوا البيت، فوجدوا تابوتهم في الموضع الذي تركوه فيه فحملوه فلما وصلوا إلى مأمنهم وجدوا صاحبهم قتيلا... فخرجوا من المدينة خوفا من صنيعهم بالمسلمين»[2]

من خلال هذا الوصف، الذي قدمه السارد الخارجي، للشخصية الرئيسة، وهو يحاول الكشف عن سمة الذكاء، التي واجهت بها معارضيها من النكار، حيث تمكن من خلال العلاقة التصويرية التي اهتمت بوصف الأفعال ونقلها والعلاقة التحليليةالتي كشفت عن تفكير الإمام، أن يسند له صفة الحكمة وقد اتسمت بالثبات حيث قدمها في سياقات متعددة عبر مختلف مراحل تطور الحدث، وبترابط هذه الأوصاف الدقيقة التي بناها على المفاجأة والتشويق، حيث عملت على تمديد الخبر، ليتمكن القارئ من فهم نمط الشخصية السياسية التخيلية، وتلمس الأوصاف الداخلية التي تمتاز بها (الصبر، والحكمة، والهدوء، والقوة)، وبخاصة في الموقف النهائي الذي يتفاجأ به بالحكمة السياسية التي واجه بها الإمام معارضيه، كما أن هذه الأفعال و الأفكار التي قدمها الوصف بالإضافة إلى إنجازها دورا بنائيا هو تقديم الشخصية الرئيسة، أنجزت من خلال تواترها دورا تيميا دالا على الموقف الإيديولوجي لأبي زكرياء الذي ينبني على الخطاب الوعظي حيث يسعى عن طريقه إلى تمجيد الحكمة التي اتصف بها الإمام للحفاظ على سياسة الدولة المبنية على نشر المذهب الإباضي في ظل الهدوء و التسامح و الابتعاد عن الفتن وهي دعوة للمتلقي للتدبر في

[1]-ن م، ن ص.

[2]- ن م، ص 99.

صفات الإمام للاقتداء به ودعوة له للاتعاظمن صفات المكر والخداع التي أظهرها المخالفين وعبر المؤلف عن رفضها صراحة من خلال الجمل التي ضمنها نهاية الوحدات يقول:«وظنوا أنهم يظفرون بحاجتهم، فخيبهم الله وكانوا أهل مكر وخداع وخبث في النفوس...فخيب الله سعيهم وأظهر بغضهم وبغيهم وأخاب ظنهم »[1]، مؤكدا أن جوهر الإمامة هو الحكمة والذكاء الذي تمكن من خلاله عبد الوهاب من الصمود في وجه مخالفيه وإرساء دولته.

ونلاحظ أن القاضي النعمان، يستخدم الطريقة نفسها، لتقديم هذه النوعية من الشخصيات الرئيسة، حيث حرص على تقديم الجانب الإيجابي لشخصياته السياسية في معظم أخباره، ومن أبرزها الإمام المعز، وهذا ما جاء في الخبر الموجز لنادرة تتناول الحكي عن الذكاء، الذي تميز به المعز منذ صغره، وقد حرص السارد على وضع القارئ منذ البداية في إطار علاقة المحبة المفرطة التي ربطت بين المعز وجده الإمام المهدي يقول: « المعز قال: إني لا أذكر يوما كنت حملت فيه إليه، وأنا يومئذ فطيم أعقل الكلام، وأحفظ ما يكون فتناولني، وقبلني ، وأدخلني تحت ثوبه وكشف عن بطني، وألصقها ببطنه، ثم أخرجني، وبارك علي، وسألني عن حالي، وأجلسني في حجره، ودعا لي بمأكل، فأتيت بطبق من فضة مذهب فيه موز وتفاح خريفي وعنب »[2]، وبمجرد أن وضع بين يديه، تتكشف لنا صفة الذكاء النادر، الذي ظهر على المعز منذ الصغر يقول:« فوضع بين يدي، فلم أتناول منه شيئا، فأخذه بيده وناولنيه، فأخذته بيدي، فقال امضي به فكل أنت ما فيه وأعطي الطبق فلانة، وذكر بعض البنات وهي يومئذ في مثل سني، فقلت

[1]- السيرة، ص 98، ص 99.

[2]- المجالس و المسايرات، ص 499.

له لا بل آخذ أنا الطبق، وأعطيها ما فيه، فضحك وتعجب من انتباهي لذلك ودعا لي بخير، وقال للخادم احمله، فحملت وحمل معي الطبق بين يدي، وقال سيكون له نبأ »[1].

إن السارد، وهو يقدم شخصية المعز، ركز على تقديم الملمح العام للشخصية، من خلال وصف العلاقة المتميزة التي تربطه بجده المهدي، ثم انتقل لوصف الملمح الداخلي لها، والقاضي النعمان لجأ إلى عرض الشخصية الرئيسة بواسطة السارد المتماثل حكائيا، ليوهم القارئ بالموضوعية، ليتمكن من تمرير الوظيفة الإيديولوجية التي يسعى لبثها من خلال الوصف الموجز حيث تعمل دلالته على منح شخصية المهدي مدى واسع من التميز خدمة للخطاب الوعظي الذي يسعى لتمجيد ذكاء المعز لإثبات أحقيته بالإمامة، وهذا ما أكدته عبارة جده النهائية« سيكون له نبأ »، لأنه توسم فيه التميز منذ الصغر وتأكد أنه سيكون له تأثير كبير في الحكم الفاطمي وهذا ما برر تركيز السرد على وصف علاقة المحبة في بداية الخبر.

ب- الشخصيات الثانوية:

هي تلك الشخصيات التي تقوم بدورها في توضيح معالم الخبر، فهي تقود القارئ إلى متعة العمل القصصي كي تلقي ضوءا كاشفا على الشخصيات الرئيسة « فإذا كانت الشخصيات ذات الأدوار الثانوية أقل في تفاصيل شؤونها، فليست أقل حيوية وعناية من القاص، وكل شخصية في القصة ذات رسالة تؤديها كما يريد القاص»[2]، ولعل أبرز دور أو وظيفة تؤديها الشخصيات الثانوية تتمثل في أنها هي التي تعمر عالم الخبر[3]، وعن طريقها تتكشف ملامح المجتمع المغربي عبر مختلف العصور.

---

[1]-ن م، ن ص.

[2]- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث دار العودة بيروت، ط1، 1982م، ص 569.

[3]- روجر.ب. هينكل، قراره في الرواية، ص 190.

فالشخصيات الثانوية إذن شخصيات مساعدة، تقوم بمرافقة الشخصيات الرئيسة من أجل الكشف عن سماتها الجوهرية والفعالة وذلك من خلال تأدية دورها الثانوي الذي يسهم في ترابط الحكي وإتمامه.

ونلاحظ أن توظيف هذه الشخصيات الثانوية، داخل الأخبار يأتي في الكثير منها، من أجل القيام بدور أساسي يتكامل مع الدور المركزي للشخصية الرئيسة، ومن أمثلتها ما جاء في الخبر الموجز لمنقبة الشيخ الإباضي مهدي من توظيف السارد لشخصية أصحابه المقيمين معه في تهرت، حيث سيتغيب عنهم فجأة يقول السارد« وبلغنا أن مهدي حين كان بتهرت، خرج ذات يوم عن أصحابه فتغيب عنهم، ولم يدروا أين توجه، فلما جنهم الليل وقرب عشاؤهم ، انتظروه حتى أيسوا منه فأكلوا حاجتهم (وأفضلوا) له عشاءه »[1]، وبعودته واستفسارهم له، يتضح أن سبب الغياب هو الخروج لمناظرة المخالفين من المعتزلة: « فكانوا كذلك إذ أقبل إليهم مهدي، فقالوا له: أين تغيبت ومن أين جئت وقد برد عشاؤك فقال لهم: إني قد رددت اليوم تسعين عالما من أهل الخلاف في غيبتي عنكم»[2]وفي أثناء العشاء يشرع في الحوار مع أصحابه ليوضح لهم صفاته الثلاث الغريبة يقول:« فتقدم إلى عشاءه فصادف عجينا عجنوه لغدائهم، فكشف عنهم، فصار يأكل منه فلما كاد أن يشبع قال لأصحابه، كأن عشاءكم الليلة لم يطبخ، ولم يطب، وقد وجدت فيه العجين فقال بعضهم: ولعلك إنما صادفت عجين غدائنا؟ قال: ففتشوا فوجدوا أنه صادف العجين فقال لهم مهدي: حمدت الله على ثلاث أما واحدة فإنه إذا قدم إلي طعام لا أبالي أي طعام كان، فإني أقضي منه حاجتي، والثانية إذا أخذت غفوة من الليل اجتزيت بها، ولا

[1]- أبرز شيوخ الإباضية، من جبل نفوسة عالم بفنون التفسير، وفنون الرد على المخالفين، استعان به الإمام عبد الوهاب للرد عن مخالفيه من المعتزلة، انظر أبو زكرياء، السيرة، ص 104إلى110.

[2]- ن م، ص 108.

أبالي به بعد ذلك، والثالثة لست أتخوف مخالفنا على نفسي أن يغلبني في الحجة إلا إذا ركنت في دين الله»[1].

يوظف أبو زكرياء إلى جانب الشخصية الرئيسة (الشيخ مهدي)، شخصيات ثانوية تمثلت في الأصحاب أو مجموعة الأتباع من الإباضية، حيث قدمها بواسطة السارد الداخلي الذي اعتمد على الوصف التصويري الذي نقل لنا صورة عن حرصها الشديد لتناول العشاء مع الشيخ ليظهر الحوار، الذي انبنى عليه الخبر حيث نستنتج أن السارد قام بتوظيف الشخصيات الثانوية، لتقوم بدور استنطاق الشيخ لتدفع مسار الحوار نحو التطور ليكشف لنا عن الجوانب الخفية لشخصيته التي تأتي لتؤكد للقارئ صدق الصورة التي قدمها عن قدرة الشيخ في المناظرة و التفوق عن خصومه مهما كثر عددهم الذي يفوق تصور القارئ.

وقد يأتي توظيف الشخصية الثانوية، لتقوم بدور أساس يأتي ليساند الدور المركزي للشخصية الرئيسة، ومن أمثلتها ما قرأناه عند القاضي النعمان الذي يحضر في الكثير من أخباره مع المعز كشخصية ثانوية ومنها الخبر الموجز لكرامة للمعز يفتتحه بالحديث عن طلب المعز منه تأليف كتاب بسط له معانيه وطريقة البداية في تأليفه يقول: « وأمرني الإمام المعز بتأليف شيء من العلم، وقفني على جميع معانيه، وأصل لي أصوله، وألقى إلي جملة من القول فيه ولم أكن قبل ذلك تقدمت في تأليف شيء منه، ولا اتسع علمي فيه اتساعا يوجب ان أتقدم في تصنيفه فلما فتق لي المعنى فيه ولخصه لي، وأوضح لي معانيه، وأمرني بتأليفه وبسطه»[2]، وبمجرد استيعابه لموضوعه يبدأ في تأليفه، وبالرغم مما واجهه من صعوبات يتوصل إلى إنجاز جزء منه يعرضه على المعز لتقيمه يقول:« تقدمت في ذلك تقدم واثق بعون الله به إذا كان عن أمره، وتهيبت أمره ولم أرني أبالغ

[1]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 109.

[2]- المجالس والمسايرات، ص503.

فيه، ولا أنتهي منه إلا عن مشقة شديدة وأنا أرى أني مقصر فيما وليت منه، ورفعت معه رقعة وصفت فيها بعض ما اعتراني فيه، فوقع إلي في أسفلها يا نعمان وقفت على الكتاب الذي عملته... على عملك فيه أحسن الله عونك وأجزل أجرك!»[1]، فتلقى النعمان توقيع المعز باستحسان كتابه، بفرح كبير دفعه إلى تقبيله، ووضعه على صدره، وهو أدى إلى تسهيل إتمامه، وقد أرجع الفضل في ذلك إلى سرعة استجابة الله عز وجل لدعاء المعز الذي خصه به ونفاذه بتسهيل إتمام ما تبقى منه يقول:« فوالله ما هو إلا أن قرأت توقيعه هذا بخطه ووضعته على صدري فكأن الله أوصل إلى قلبي في ذلك مادة من المعونة، التي دعا لي بها ففتحت ما كان انغلق علي من معاني ما بدأت به، وقدرت أنه يأتي قليلا، فانفتح لي من معانيه، ووجوه أجناسه، ما جاءني من فوق ما أملته، وأضعاف ما توهمته، وبدأت في الذي يلي منه، ما رفعته فكان أيسر شيء علي وأسهله، فرأيت تعجيل إجابة دعوته بحسن المعونة فيه»[2].

يحضر النعمان في هذا الخبر كشخصية ثانوية تتولى السرد الذي تقوم فيه بدور مركزي وأساس، إلى جانب الشخصية الرئيسة، حيث اعتمد السارد الداخلي على الوصف التصويري الدقيق الذي نقل لنا تبحر المعز في العلم، وقوة ذكائه في الإفهام، وعلى الوصف التحليلي، المرتبط بتجسيد مشاعر كلا الشخصيتين، والهدف من كل ذلك تمديد دلالة الوصف داخل الخبر، بهدف إدهاش القارئ وتشويقه ليتمكن من خداعه للسيطرة على ذهنه لإقناعه بصدق رأيه المذهبي الذي عبر عنه صراحة في خاتمة الخبر حول كرامة الدعاء التي اختص بها الإمام المعتز.

ويتكرر مثل هذا التوظيف للشخصية الثانوية عند المؤلفين المغاربة حيث يأتي دورها لشد أزر الشخصية الرئيسة إلى نهاية الحكي ومنها قولهم في الأخبار الآتية: « شخصية

[1]- المجالس والمسايرات، ص503.

[2]- ن م ، ص503، ص504.

الشيخ التي وظفها ابن مريم في الخبر الموجز لكرامة لأبي مدين شعيب يقول:« وأخبار سيدي أبي يعزي ترد علي... فملأ قلبي حبه فقصدته مع جماعة من الفقراء فلما وصلنا إليها أقبل على الجماعة دوني وإذا حضر الطعام منعني من الأكل... فلما أقبل الصباح دعاني وقربني...»»[1]، أو شخصية الخادم وظفها المالكي في الخبر الموجز لمنقبة لواصل المتعبد يقول: « سعدون الخولاني وكان يخدم واصلا قال: كنت أخدمه إلى أن تزوجت ابنة عمي وأنا ابن ثماني عشرة سنة وقال لي يوما يا سعدون...فإذا مضيت إلى قرية... فمضيت بالغد»[2]، أو قوله في خبر منقبة لسحنون بن سعيد: « عبد الجبار بن خالد السرتي قال:«كنا نسمع على سحنون في بيت قبلي... فما جسر أحد منا أن يسأله... و لما فرغ من القراءة قلنا له: دخلت علينا وعليك كآبة...»[3]

ونخلص من خلال هذه النماذج التي قامت بحشد شخصيات ثانوية داخل أخبارها وفقا للعلاقة التي تربطها بالشخصية الرئيسة وقد تتباين في طبيعتها (الأصحاب، وطلاب الشيخ والوزير، والخادم... إلخ)، ولكنها تشترك في دورها الذي يتكفل بأداء وظيفة أساسية ثانوية لدفع مسار الحكي نحو الكشف عن مدلول صفات الشخصية الرئيسة التي شكلت الحدث المتميز في تجربتها اليومية.

وقد يلجأ السارد لتوظيف الشخصيات الثانوية داخل الأخبار للقيام بمهمة معينة « فهي تظهر وتختفي ويكون دورها في مجرى الحكي أقل من غيرها »[4]، فهي شخصيات ذات دور عادي أقل أهمية من الدور الذي قامت به الشخصيات الثانوية السابقة، ولكنها مع ذلك تعطي دفعا للحدث ليتمكن من كشف الملامح الأساسية للشخصية الرئيسة ومن أمثلة ذلك ما وجدناه في الأخبار « دحيون قال: كنت بالمدينة فإذا برجل يسأل ويقول: أهاهنا رجل

[1]- البستان، ص 109.

[2]- رياض النفوس، ج1، ص437.

[3]- ن م، ص365، ص366.

[4]- سعيد يقطين، قال الراوي، ص94.

من إفريقية فقلت له: أنا... قال: أتعرف البهلول... فدفع إلي كتابا وقال أوصله إليه، فدفعت إليه الكتاب ففضه فإذا فيه: من امرأة من أهل سمرقند خراسان...»[1]، أو قول ابن خلدون« البكاء من أهل الحديث والدين... بلغني أنه حج بحمار لا يركبه إلا عند الإعياء ورعا، وأن رجلا من أهل تلمسان يعرف بابن الغريب ممن جاور بالمدينة...»[2]، وقول أبو زكرياء « وبلغنا أنه اختصم إليه (عبد الوهاب) رجلان بجبل نفوسة فاسترد المدعي عليه الجواب وامتنع وأبى من رد الجواب... فقال الإمام لجلسائه هل هنا ابن مغطير...، وكان ابن مغطيرمستغشيا ثيابه فلم يتم الإمام قوله حتى وثب على الرجل فوطئه »[3]

نلاحظ أن هذه الشخصيات بالرغم من دورها العادي الذي يظهر ويختفي في الحكي، إلا أن النص لا يمكنه الاستغناء عنها إذا أردنا للأحداث أن تسير وفق ما يرسمه سارد الخبر، فهو لا يطيل الوقوف عندها بل يتعرض فقط للدور الذي يتضافر مع شخصيات الخبر بهدف إيصال مقاصد الخبر التي يسعى الخطاب الوعظي نشرها.

مما سبق عرضه يمكن القول إجمالا أن أنساق بنية الشخصية تقوم بحشد هذه الأنواع من الشخصيات من أجل إضاءة الشخصية الرئيسة، لإحاطتها بكل الجوانب التي يمكن أن تشكل بنية الحدث في علاقته بتجربة الشخصية ويتم تقديمها للمتلقي محققة مشروعية انبنائها وتموضعها في النسيج الدلالي للحكي لأنها « تحيل كلها على معنى ممتلئ وثابت، حددته ثقافة ما وباندماج الشخصيات داخل محكي معين فإنها ستشتغل أساسا كإرساء مرجعي يحيل النص »[4]، على الدلالة الكامنة في قصة الخبر وبذلك تسهم بنية الشخصية

[1]- رياض النفوس، ج1، ص 204، ص205.

[2]- بغية الرواد، ج1، ص141.

[3]- السيرة، ص117، ص 118.

[4]- سويرتي محمد، النقد البنيوي والنص الروائي، ج1، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991م، ص 116.

في تحويل محتوى النص إلى شيء قابل للإدراك من خلال الوقوف على الكيفية التي تتجلى فيها صورة المكان داخل نصوص الخبر في المدونة المغربية.

ونخلص في الأخير إلى القول: إن بنية العناصر السردية (الزمن، والمكان، والشخصية) كشفت على أنها آليات لها علاقة بالمضمون حيث تتجلى فيها قدرة المؤلف المغربي على تجسيد البؤر الحكائية التي ينبنى عليها نص الخبر لتعبر عن ذاته وتنقل المحتوى وتدل عليه محققة جماليات لغته التي شكلت بنيته السردية المنفردة.

الفصل الرابع:

البنية اللغوية للخبر

البنية اللغوية:

إن عنصر اللغة في العمل السردي، هو الأساس الذي يمكن المؤلف من بناء نصه السردي ويلونه بأسلوبه، فهو يحتوي على خطاب، ويضم هذا الخطاب المسرود الذي هو « مجموعة المواقف والأحداث المروية في الحكي»[1]، يعمد السارد إلى سردها بصيغ متعددة، فالكتابة الفنية ليست صورة ذهنية آلية جامدة، بل هي تكمن أساسا في البنية اللغوية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالسارد، وجامعة لأحاسيسه ومشاعره وأحواله النفسية وتجاربه الشخصية: «فالكتابة الحية هي تلك المعبرة عن أفعال النفس ومواقفها الخاضعة لمختلف تحولاتها على المستوى الانفعالي »[2]، حيث تقوم صياغتها التركيبية على مقدرة السارد في التصرف باللغة بشكل غير مألوف، يقوم على تفاعله مع ما أنتجته من أقوال باستخدام أسلوب السرد الفني الذي يبرز من خلاله تطور الأحداث وتصاعدها، فضلا على أنه أداة أوجد من خلالها علاقات بين مختلف العناصر السردية التي استطاعت أن تخرج باللغة عن ضوابط العقل والمنطق، فحفلت بالمعاني التخيلية التي يتعذر وجودها خارج نطاق الخيال فقد انتزع من الأسلوب السردي خصائصه التي يتميز باستخدامها في التعبير عن الموضوعات الإنسانية الكبرى كالإطناب والدقة والإيجاز البليغ.

وهكذا خاض الإخباري المغربي الميدان السردي في صياغة خطاباته السردية، بوصفها جسدا لغويا منتجا للأخبار الأدبية التي احتلت مساحة شاسعة من الأشكال التراثية القصصية القديمة، حيث تجاوبت بشكل أساس وفاعل مع الواقع المغربي، وذلك لأن نصوصها تعبر في معناها العميق عن رؤية العالم من ناحية أن هذه الرؤية تحمل دلالات نفسية واجتماعية تكونت في رحم المجتمع المغربي، فهي بحد ذاتها قيمة كبرى تنعكس في مرآتها الحياة الاجتماعية لطبقة معينة في تفاعلها مع الواقع الموضوعي وصراعها مع

[1]- جيرالد برنس، قاموس السرديات، ص 120.

[2] - عساف ساسين ، الكتابة الفنية، منشورات جروس برس طرابلس لبنان، د ط، 1985م، ص 46.

غيرها وتضم في ظلالها الخيوط المتشابكة لعملية الحكي التي تمكن من خلالها الإخباري السارد من المزج بين الذات والموضوع حين عبر بأسلوبه عن واقع الإنسان المغربي وفق رؤيته الخاصة التي تم استخلاصها من تكوينه الفكري والنفسي في عملية إبداعية تزاوج بين الإفادة والمتعة، لينحو بفعل الحكي نحو معنى تجتمع في بؤرته الحكائية مختلف التجارب الإنسانية التي تهدف إلى إنجاز مقاصد المؤلف المضمنة في النص، وتربط بين محوري الإثارة والجمال .

وانطلاقا من تجربة الصياغة الفنية لنصوص الأخبار عند المؤلفين المغاربة، وأسلوبها الخاص يتناول الكشف عن بنيتها اللغوية من خلال السارد وعلاقته بالمسرود باعتماد ضمير الغائب ثم من خلال توظيفه للأساليب اللغوية المباشرة وغير المباشرة على مستوى التقنيات السردية المشكلة للإيقاع السردي.

أ-السارد بضمير الغائب وعلاقته بالمسرود:

تنطلق النظريات السردية الحديثة من حقيقة واضحة، وهي أنه قد يكون من المستحيل قيام عمل سردي بما هو قصة وخطاب دون أن يكون هناك حضور للسارد. إذ من البديهي أنه لا يتم إيصال القصة إلى القارئ إلا عبر سارد يمثل قناع المؤلف الذي يختفي وراءه، ليسردها له، باعتباره الفاعل في كل عملية البناء؛ فالسارد" الراوي " هو ذلك الشخص الذي يسرد النص بحيث يشكل الأنا الثانية للكاتب التي خلقها وفوض إليها مهمة سرد الحكاية سواء كانت حقيقية أو متخيلة[1]. ومنه فالسارد يمثل دور الوسيط الفني الذي يقدم أحداث القصة من خلال وجهة نظره الخاصة، والتي ترتبط بكاتب يعيش في بيئة ثقافية وحضارية يتأثر بها، ويحاول من خلال فعل الكتابة أن يكون له فيها أثر. فالسارد وسيلة أو تقنية يستخدمها الكاتب ليكشف لنا عالم قصه ولقد أمكن للكتاب أن

[1]- جيرالد برنس، معجم السرديات، ص134، عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص 19.

يتفننوا في استخدام مفهوم السارد وكثيرا ما لجأوا إلى تنويع هذا السارد في العمل السردي الواحد[1]؛ أليس السارد في حضارتنا يتصرف أحيانا في المادة التي يتلقاها فلا يسلمها إلى الناس إلا وقد أضفى عليها في دهاء ماكر خفي الكثير من ذاته وذكائه وهذا تشريف له بمعنى ما[2]، لأن أهمية السرد تبعا لتلك النظريات تكمن في كونه الممسك بكل خيوط الخطاب في النص السردي وبكل خفايا اللعبة الفنية فيه.

وبما أن من حق أي خطاب قصصي لكي يصبح نصا جاهزا، أن ينهض بروايته سارد مهما كان شكل حضوره صريحا ظاهرا، أو متخفيا يسير دواليب القصة ويتحكم في تصاريفها من وراء حجاب، ولذلك فإن لهذا الحضور أشكالا مختلفة[3]، داخل نصوص الأخبار، تحدد بحكم موقعه من العالم القصصي الذي تسرد أحداثه، ورؤيته الفنية والأيديولوجية الذي يعتمد فيها على استخدام ضمير الغائب الذي يحدد علاقته بالمسرود على النحو الآتي:

1- السارد الخارجي:

وهو سارد له سيرة ذاتية مستقلة عن الحكاية التي يسرد أحداثها[4]، وهذا يعني أنه يعلم عنها كل شيء، ولكنه غير مشارك في أحداثها، التي يحتل فيها الموقع المحوري، لأنه منبع السرد، وركيزة الوقائع التي تربطه بها علاقة مفارقة، فهو لا يتماهى مع مرويه لذا يتميز حضوره بطابع الهيمنة، بل يكاد وجوده ومعرفته يكونان إلهيين بما يمتلك من قدرة غير محدودة تمكنه من الوقوف على الأبعاد الداخلية والخارجية للأشخاص، فيكشف لنا عن عوالمها السرية بحيث تختفي ذاته وصوته خلف الخطاب السردي، لأن الحكاية

[1]-يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، دار الفرابي، بيروت، ط2، 1999م، ص 89.

[2]-محمد نجيب العماني، الراوي في السرد العربي المعاصر، رواية الثمانينات بتونس، دار محمد علي الحامي صفاقس، ط1، 2001م، ص14.

[3]- محمد الخبو، الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، دار صامد صفاقس، ط1، 2003م، ص 247.

[4]- سمير المرزوقي، مدخل إلى نظرية القصة، ص 160.

التي يرويها والشخصيات التي يستخدمها لا تجسده « وإذا كانت لغة الحكاية ذات منطق شفوي، فإنها أيضا لغة ذات طابع غير شخصي، بمعنى أنها لا تحمل ملامح روايتها»[1]، فالسارد العليم يرصد من هذا الموقع المتعالي أحداثا لا يشارك فيها، وتقع في زمن ومكان غائب عنها يعتمد في سردها على استخدام ضمير الغائب وهو في السرد العربي القديم نوعان:

أ- السارد العليم المحايد:

هو مجرد سارد للحوادث، يرويها دون تدخل مباشر في المسرود، إذ يكتفي بالوصف أو النقل، فمهمته تقتصر على رصد الحوادث والأشخاص والمكان، وتتبع ما يجري فيه[2]. فهو يعرف كل شيء عنه، لكنه لا يفسر أو يشرح دلالة ما تقوم به الشخصيات من أفعال وإن علق فتعليقه محدود يكشف عن معرفته للمسرود وعجزه عن تفسيره[3]. ومن أمثلة ذلك ما نقله أبو زكريا في خبر الشيخ السدراتي[4]، فنجد السارد المحايد يكتفي برصد الحدث النادر كالتالي:« وبلغنا أن أبا مرداس اشتغل بأمر آخرته حتى ضيع أمر دنياه وكان فقيرا، فأرسل ذات مرة من يخطب عليه امرأة. فطاف الرجل في الجبل يخطب له. وطلب فلم يجد إلا امرأة مجنونة. فأخبرها أن أبا مرداس أرسله ليخطب عليه فأجابته لنفسها، فأخبره خبرها، وقال له أبو مرداس: أتزوجها على حين. قال

[1]- أحمد درويش، تقنيات الفن القصصي عبر الراوي والحاكي، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، ط1، 1998م، ص 270.

[2]- إبراهيم خليل، بنية النص الروائي، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2010م، ص 81.

[3]- إبراهيم عبد العزيز، السرد في التراث العربي: كتابات أبي حيان التوحيدي نموذجا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2009م، ص 145.

[4]- أبو مرداس مهاصر السدراتي، وهو عالم ورع من أشهر ثلاثة مع أبي زكريا يصلاتن التوكيتي والعباس وكان مقربا من الإمام الرستمي عبد الوهاب عاش أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة، السيرة وأخبار الأئمة، هامش 13، ص126.

فزوجها عليه الرجل. فمكث أبو مرداس معها زمنا طويلا وكانت بعد ذلك من أفضل نساء نفوسة وأرفعهن ذكرا ودفعا للحديث»[1].

نلاحظ أن المسرود يفتتح بصيغة الاستهلال (بلغنا)، التي تحيلنا على صوت الراوي المجهول، الذي يأتينا من ضمير الجمع (نحن)، وأخص خصائصه أنه يروي قصة الخبر. وقد تلقاها منه السارد المحايد ورواها لمسرود له خارج الحكاية، فيتحول إلى مجرد ناقل للمحكي من موقع بعيد زمانا ومكانا عن الحدث مستتيرا بضمير الغائب ليسرد له تفاصيل زواج الشيخ الإباضي أبي مرداس من المرأة المجنونة، حيث مهد لحكيها بمقطع وصفي حدد فيه أهم الملامح السلوكية التي اتصف بها الشيخ وهي (كثرة التعبد)، معتمدا في تجسدها على إبراز حالة الفقر التي لحقت به جراء كثرة اشتغاله بأمور الآخرة، ولأنه كلي العلم سيقوم بطرح معلومات موجزة ترتبط بمكان محدد (الجبل)، وبشخصيات ثانوية لم يطلعنا على أسمائها (الرجل، والمرأة)، ليحصل التقابل بين المنتظر من المواقف المرتبطة بالحدث النادر، وصفات الشيخ التي سيتوصل من خلالها المسرود له لإيجاد التبرير الذي يقسر من جهة أولى رفض نساء الجبل لخطبته، ومن جهة ثانية يوضح ردة فعله غير المألوفة الظاهرة في قوله الطريف « أتزوجها على حين اختارتني»، ومن هنا تظهر قدرة السارد على معالجة الخطاب بكلام الشخصية الطريف، الذي يدهش المتلقي بالتخيل، وكثافة الموقف النادر فتتولد لديه متعة الإضحاك،التي تحمله على تقبل الهدف الصريح الذي يبغي السارد توصيله له في نهاية الحكي حين يكشف عن قدرة الشيخ على التأثير في عقل المرأة المجنونة التي تحولت بفضل معاشرتها الطويلة للشيخ إلى أفضل نساء نفوسة، وأحسنهن حديثا. من هنا كان السرد الموضوعي وسيلة النقل التي توجد في متناول السارد الغريب ليكشف عن النوايا الخاصة للمؤلف بهدف التأثير في القراء.

[1]- السيرة، ص 127.

ويظهر أبو زكرياء في خبر آخر من أخبار نوادره. ساردا يعرف كل شيء ويمسك زمام القص فيه. فهو سارد محايد يمتلك رؤية شاملة عن الحدث أخذها عن الراوي الذي عرفه في السند حيث سيعتمد أسلوب السرد الموضوعي من خلال ممارسته لفعل الرواية، باستخدام ضمير الغائب الذي يمكنه من الوقوف في موقعه خارج النص ليتولى سرد تفاصيل الموقف النادر التي يفتتح بها الخبر الذي يدور حول ذكاء ابنة الإمام الرستمي يوسف بن محمد «وحدث بعض أصحابنا أن دوسرا بنت يوسف بن محمد بن أفلح بن عبد الوهاب، لما قتل أبوها، وغدره بنو اليقظان خرجت متوجهة مع أخ لها إلى الحجاني. فلما وصلت أخبرته بقصة أبيها وما انتهك من حرمتها، فلم يشتغل بها، فلما رأته كذلك أوعدته من نفسها »[1]، ويلحظ على السارد هنا أنه حريص على توظيف كل ما يلم به فعل الحيلة الذي تنبني عليه حبكة الحدث فتتشكل بذلك البنية الحكائية التي تسيطر فيها رؤية واحدة تسمح للسارد أن يطلق عنان الحكي دون حدود، فيقدم سردا محتويا لأدق تفاصيل خروج الحجاني إلى تهرت للأخذ بثأر دوسرا، فهو يعلم أسماء المذاهب المخالفة للإباضية التي ينتمي إليها أعيان مدينة تهرت الذين خرجوا للقائه بنية عرض مساعدتهم له للقضاء على حكم الرستميين يقول: « ثم إن الحجاني أخذ في طريقه إلى تاهرت فلما كان قريبا منها خرج إليه وجوه أهلها من المخالفين من المالكية والواصلية والشيعة، ومن بها من الصفرية ولاقوه وشكوا له إمارة الفرس ووعدوا له العون من أنفسهم على جميع الرستميين وأمروا باستئصال شافتهم وتهوين شوكتهم»[2]. في حين نجده يعلم بتفاصيل الحوار الذي دار بين الحجاني، واليقظان قبل مقتله يقول: « وأــرسل الحجاني رسله إلى يقظان وبنيه، خرج هو وبنوه فتلقوه على مسيرة أميال من تاهرت فلما قدموا عليه سأل الحجاني يقظان عن اسمه فقال له: اسمي يقظان » فقال له الحجاني: « بل اسمك حيران:

[1]- السيرة، ص 161، ص 162.

[2]- ن م، ص 162.

وكيف قتلتم أميركم وسلبتم لأنفسكم ملككم وأطفيتم نور الإسلام وألقيتم إلينا بأيديكم بغير قتال ولا حصار »[1].

فالسارد هنا التزم بنزعة التخفي وراء الشخصيات (الحجاني، ويقظان)، وهو إذ يفعل ذلك يوهم القارئ، بأن معرفته إلهية، لا تفوتها شاردة ولا واردة، والدليل أنه يتخذ موقع السارد المحايد الذي يسمع وينقل له الحوار الذي يزوده بمعلومات تمكنه من رسم صورة عن شخصية اليقظان والتي اتصفت بالغدر والجبن، وهو بذلك يمارس عملية الرواية بتسلط ومركزية واضحة لا تحاسبه على بث موقفه من اليقظان، والذي يدسه همسا في أذن الحجاني، وعلى هذا الأساس نجده الوحيد القادر على الإمساك بزمام الرواية وهو ما يجعله جاهز باستمرار لاستعادتها والانطلاق من جديد من أجل بلورة نهاية الخبر « وأمر به وبنيه فقتلوا عن آخرهم. فلما أيقنت دوسرا بنت يوسف بقتلهم تغيبت وهربت من الحجاني مخافة أن يتزوجها وطلبها حتى عيي ولم يقدر عليها »[2]، وهي رؤية عامة تثبت للقارئ بأنه مجرد وسيط ينقل للمسرود له آراء خالقه أبي زكرياء.

وقد يمارس السارد المحايد وجودا متميزا في الخطاب السردي، فهو لا يستخدم الكلام للتواصل مع شخصيات الخبر بل ليحدثنا عن تجاربها من خلال التركيز على تصرفاتها وأفعالها، فيتركها تقول ما تراه أو تحسه من أمور وأفكار تختلج نفوسها ليبرر للمتلقي سلوكها ومواقفها ومن ذلك ما جاء في خبر منقبة لأبي الأحوص المتعبد أورده المالكي خاليا من اسم الراوي الذي نقله عنه. ويبدأ في سرده بالفعل « كان »، ليشير إلى ماضي أحداث بداية تجربة إقامة المتعبد في مدينة سوسة مرابطا إلى حين نفاذ ماله وقراره العودة إلى وطنه؛ حيث اعتمد في عرضها على الوصف الخارجي المكثف « وكانت بداية أبي الأحوص ولزومه مدينة سوسة أتى إليها مرابطا فأقام بها مدة حتى نفذت

[1]- ن م، ن ص.

[2]- السيرة، ص 163.

نقته، وأراد الرجوع إلى بلده المغرب »[1]، يتجلى السارد في الحكي منذ البداية عبر صوته المتخفي الذي يروي أحداثا لم يكن مشاركا فيها بأي حال من الأحوال ينقلها بضمير الغائب المفرد كما يظهر في الأفعال التي استعان بها (أتى، وأراد، وأقام)، ويواصل حكيه دون أن يتدخل فيه حين يظهر إحساسه بغيابه صراحة عندما يجد نفسه في لحظة قد انطلقت الشخصية صاحبة التجربة (المتعبد)، وأفلتت من بين يديه وأخذت تصنع وجودها، فيتحول إلى سارد يتوارى خلفها ليخترق رؤيتها « فهو في هذه الحالة يكون عارفا أكثر مما تعرفه الشخصية الحكائية، حيث بإمكانه التطلع والوصول إلى كل المشاهد عبر جدران المنازل، وقادرا في ذات الوقت على إدراك ما يدور بخلد الأبطال، كما أن سلطته تتجلى في كونه يدرك رغبات هؤلاء الأبطال الخفية، والتي لا يعلمونها هم أنفسهم »[2]، ليرصد للقارئ جديدا لم يفكر في تفاصيله من قبل بدأ يتضح أمامه عبر عيني المتعبد الذي قصد مسجد المدينة مودعا: « فأتى إلى جامعها ليركع فيه وينصرف فبينما هو راكع إذ رأى عصفورا داخل الجامع وفي فمه شيء يطعمه فراخه، فسقط من فم العصفور ما كان فيه. فخرج من خلف الحصير فأر فأكل ما سقط من فم العصفور»[3]، وهنا تزداد درجة إحساس السارد بالتخفي قوة حيث يتمكن من الغوص في باطن شخصية المتعبد ليخرج مشاعر تأثره بمنظر الفأر الذي يلتقط رزقه إلى النور كما يأتي:« فخاطب نفسه بأن قال لها: فأر خلف الحصير قيض الله تعالى له من رزقه كما قد رأيت ولم يضيعه فكيف أضيع أنا؟ »[4]، وعن طريق تأثره يتوصل إلى استخلاص موعظة مفادها: أرزاق الخلائق مقسمة بيد الله. فيقرر عدم مغادرة المدينة مطلقا: « لله علي أن لا أدع مدينة الرباط أبدا »[5]،

[1]- رياض النفوس، ج1، ص 482.

[2]- عبد القادر بن سالم، بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013م، ص 197.

[3]- رياض النفوس، ج1، ص 482.

[4]- ن م، ص 482، ص 483.

[5]- ن م، ص 483.

فيتحول مسار الحكي لينغلق بتعليق السارد، الذي يؤكد استمرار تمسكه بقراره إلى غاية وفاته: « فأقام بمدينة سوسة واشتهر بها حتى مات رحمه الله تعالى»[1]. فالسارد رغم اختفائه يرفع صوته في نهاية سرده ليذكرنا بوجوده المتميز القادر على المعرفة الكاملة بأقدار شخصياته المحتومة، فهو بذلك يهدف إلى السيطرة على وجدان القارئ لينتقل به إلى عالم المنقبة لتدبر الموعظة التي تساير تخيلاته المرتبطة بقيمه الدينية ليحثه على الاقتداء بسلوك الشخصية صاحبة الخبر.

يتبين مما تقدم أن السارد المحايد أثناء تقديم شخصيات أخباره يتخذ لنفسه موقعا ساميا يعلو فوق مستوى إدراكها، فلا نسمع صوتا مع صوته، ولا نرى الأشياء إلا من خلال وجهة نظره، لأنه سارد يبأر الأمكنة والناس، ويتعالق مع الزمن بشكل مختلف. فيسترجعه من داخله لكنه يحاول لملمته، عن طريق تجارب الذوات التي يطل عليها. فيعتمد على وقائع حقيقية أحيانا وأحداث متخيلة، وفي هذا الحكي نلمس رغبة السارد في إيهامنا بصدق الأحداث وبواقعيتها. ومثال ذلك ما جاء في خبر منقبة للشيخ أبي مدين الذي تظهر فيه هيمنة السارد المحايد على السرد منذ العبارة الافتتاحية التي ترتبط بوصف الحدث بؤرة المكاشفة « ومن مكاشفاته ومناقبه العليا مسألة تلميذه الذي غاضته ليلا زوجته فكسر أواني داره ونوى فراقها »[2]، فالعبارة تحيلنا مباشرة على صفة الشيخ الدينية، فهو من الأولياء المشهورين بكرامة المكاشفة ومثل هذا التقديم لا يعدو أن يكون طعما يستخدمه السارد الخارجي لإغراء المسرود له بمتابعة القراءة وهو في ذلك يقنعه بصدقه فيما يسرده، ويمنعه أن يذهب مذهب الشك في سلوك الشيخ الولي، وهذا المعنى الإدراكي هو أساس تقديم الخبر بصيغة السارد المؤلف، الذي يدخل إلى سرده من دون الاستعانة براوي آخر يقوم بروايته، ولكنه استطاع أن يعتمد على صفة الشيخ التي وظفها

[1]- ن م، ن ص.

[2]- بغية الرواد، ج1، ص 164، البستان، ص 112.

كأداة أتاحت له تكثيف أوصاف مشاجرة المريد مع زوجته ليلا، وهو الوصف الذي وظف لخدمة الحدث حيث سينتقل السارد إلى مجلس الشيخ ليكشف لنا عن أسراره من خلال أقواله لتكون الدليل على بلوغه المرتبة العليا في مجال كرامة المكاشفة: «ثم غدا على مجلس الشيخ فلما انصرف الناس لزمه وقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله. فقال: يا سيدي والله ما حدثت بأمري أحد فقال له: إنك دخلت المسجد وهذه الآية مكررة الكتابة في برنسك فعلمت نيتك ثم قال له إيه وما بال أحد يحمله الضجر على كسر أواني بيته متلفا ماله اخلفها كفارة ولا تعد»[1]، وهكذا يستجمع السرد الموضوعي كل طاقته ليكشف لنا عن جوهر السلوك الديني الذي اتصف به الشيخ (المكاشفة) وأصبح يشكل استثناء في عالم التصوف و الولاية إذ لا يوجد مانع من استخدام صيغتي العرض و السرد. ولكن جهل السارد المفارق لمرويه بالتفاصيل يدفعه إلى التواري لإدراجها في الحوار، فتعلو أصوات شخصيات الخبر لعرض الحدث الخارق الذي يشتغل مضمونه على أبعاد غيبية فرضتها بنية كرامة المكاشفة، التي دفعت السارد إلى استخدام ألفاظ القرآن الكريم، كوسيلة للإحالة باعتبارها مقوما أساسيا من مقومات عالم الغيب، كما يظهر في قول الشيخ الذي بدأ به الحوار « أمسك عليك زوجك واتق الله »، ليحيلنا على المعنى الظاهر للعبارة التي تضمنتها الآية (37) من سورة الأحزاب[2]، وقد استخدمها الرسول (صـــلع) لمنع زيد بن حارثة (رضي) من تطليق ابنة عمته التي زوجه إياها.

ونلحظ أن الذي يحدد استخدام عبارات النص القرآني كوسيلة تلميحية هي الغاية التي تعبر عن تجاوز معين لما هو كائن إلى العجيب الذي يقوم عليه الإطار القصصي لكرامة المكاشفة، ويتدرج الشيخ في الإفصاح عنه لتلميذه حيث يبدأ بمكاشفته له بقراءة العبارة من

[1]- ن م، ن ص.

[2]- بسم الله الرحمان الرحيم « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا»صدق الله العظيم.

الآية التي نهاه من خلالها عن تطليق زوجته مكررة الكتابة في رداءه لتنتهي المحادثة باطلاعه عن فعله المشين (كسر الأواني)، ليأمره بالتكفير عنه وعدم العودة إليه مجددا وليس لنا أن نفهم ما يسوقه السارد في المشهد الحواري بغية إيهامنا بصدقه إلا في ضوء خلق نوع من التوازن بين عالم الرسل وعالم الأولياء. إذ أن وجود قوة إلهية خفية فوق قوة البشر منحت الولي أبي مدين كرامة العلم بأمور غيبية أعلم بها مريدهي نفسها القوة التي منحت للرسول (صلع) معجزة العلم بزواجه بابنة عمته قبل طلاقها من زوجها. كما أخبرنا عنها المعنى المجازي للآية القرآنية، التي انبنى عليها فعل المكاشفة، فالسارد المتخفي ينتقي من حديث شخصياته أي معنى يؤول إلى المجاز ليتمكن من إحكام حيلته في السيطرة على ذهن المتلقي ليحمله على تقبل الخارق بما يتطابق مع صوره الذهنية المستمدة من قناعته الدينية ليولد فيه الشعور بالطمأنينة بدل الشعور بالحيرة والتردد بهدف إقناعه بالتخييل وكثافته المفرزة لأحداث الكرامة التي تتسم بالعجيب، إذا نحن أمام سارد متواري يشكل شكلا من أشكال الوعي ، ولكنه وعي غير مؤنسن دوره سرد جوانب من حياة الشخصيات دون أن يتماهى بها، ولذلك نجده في مواطن كثيرة يتنازل عن مهمة الحكي الخطية فاسحا المجال لشخصيات الخبر لتجسيد المواقف المختلفة للمشهد القصصي العام؛ ذلك أن تفاصيل الحكي لا يمكن أن يسوقها السارد بمفرده بسبب تعقد الحدث وانحصاره بين المألوف والخارق. كون الخبر يصور التجارب الإنسانية الماضية وفق انزياح ما يحدد نظرة الكاتب لهذه التجارب الإنسانية داخل الواقع المحيط به، لذلك يقوم باختيار المواقف للشخصيات التي تتوزع على مدار الأحداث التي يصورها وفقا لرؤيته وغايته التي يهدف إليها عبر تقنية السارد الخارجي دون غيرها لأنه« كائن أدبي خالص يحتل من الأحداث، موقعا خارجيا يقدم الأفعال ويعرض الأقوال دون أن يكون طرفا فيها أو معنيا بها بصورة مباشرة وباختصار ليس من خصائصه ما يجعله شخصية

قصصية بل يحرص على أن يتخذ من الشخصيات والأحداث مسافة مادية مكتفيا بالنظر إليها في حدوثها من دون التدخل في مجراها أو أوجهتها»[1].

إن التزام السارد المحايد باستخدام الرؤية الشاملة التي يرغب بتوجيه المسرود له على هديها، فتظهر شخصيته عبر صوته الغائب عن الشخصيات يحكي القصة من خارج الحدث لكنه مركزي التأثر لا يسمح بمرور الأشياء إلا بتوجيه منه، فيقوم بالرؤية التدريجية التي تتمظهر في حركة مفاصل السرد لتربط بين المقدمة الاستهلالية وموضوع الحدث الذي سيتناوله سرد الخبر فتحدث له تحولات على مدار الحكي في وجهة النظر التي يشعر بها القارئ وكأنه أمام مسرح تتكشف فيه الأحداث واحدة تلوى الأخرى وهذه حيلة خطابية يستخدمها السارد ليوهمه بأنه صادق فيما يقوله عن طريق كثرة المعلومات التي يعرفها عن شخصيات أخباره. ومن ذلك ما يظهر في الخبر الذي يدور حول كرامة للولي محمد الفجيجي يبدأ فيه الاستهلال بصوت السارد المحايد العليم الذي يحدثنا باستخدام ضمير الغائب عن زاوية الشيخ وطباعه مع مريديه والتي حولته إلى قطب يقصده الزوار من مختلف بلدان المغرب يقول: « وله زاوية في وطنه المعروف بحدوش من تاسالة كان قد بنى مسجدا على عين وبيتا للفقراء المريدين ينفق عليهم ويمونهم وكان قد باع جميع ماله من الأرض وأنفقها على المريدين الذاكرين الله على الدوام لا يفترون عن القراءة والذكر حتى صار قطبا يأتيه الزوار من كل بلد»[2].

نلحظ أن السارد يركز في سرده الموضوعي على تقديم معرفة تاريخية تجسمت في تحديد مكان الزاوية المعروف (حدوش بتاسالة)، مع ذكر المنشآت التي تتشكل منها هندستها المعمارية (المسجد، والعين، والمنزل)، ومن ناحية أخرى تقديم معرفة تخيلية

[1]- عبد الوهاب الرقيق وهند بن صالح، أدبية الرحلة في رسالة الغفران، دار محمد علي الحامي صفاقس، ط1، 1999م، ص 39.

[2]- البستان، ص 287.

تخص العالم القصصي الذي سيتناوله فحوى الخبر، تتعلق بوصف سلوك الشخصية المحورية من خلال الإشارة إلى ما نشأ في نفسها من رغبات ومعتقدات دينية، أدت إلى بناء المكان الذي تقطنه شخصيات حدد صفتها المركزية بدقة (الذاكرين الله على الدوام). ويعكس هذا الأمر دلالة مهمة، وهي رغبة السارد تمجيد فضائل الولي من خلال ربط المتلقي هنا بصفاته، ليتمكن من تبرير أحداث الخبر، الذي سينتقل لسردها، وقد تلقاها من الراوي الثقة الظاهر في بداية السند الإحالي الذي افتتح به السرد، وهو وسيلة صالحة لأن يتوارى خلفها السارد فيمرر حكايته التي يأتي فحواها الموضوعاتي ليدعم ويضيف جانبا جديدا من الصفات الدينية التي اتسمت بها شخصية الولي الفجيجي يقول:« حدثني من يوثق به أنه جاءه الزوار من بلاد المغرب وذلك في عام مسغبة نزلوا عنده، ولم يجدوا عنده طعام والناس في أمر عظيم من الجوع فقالت له زوجته ما عندنا ما نطعم الضياف وهم ركب عظيم ما كان ما يغديهم فقال لها يأتيهم رزقهم فصلى بهم الظهر وجلس ينظر في الكتاب إلى العصر فصلى بهم العصر فإذا برجل بتليس قمح على حمار وقصعة سمن ومعزة فوقف على الخيمة وقال لهم يا أهل الخيمة عندكم تليس أفرغوه وادخلوا القصعة واربطوا المعزة تم أمر الشيخ بطحن القمح وذبح المعزة فقالت له زوجته ومن أين هذا قال هذا من فضل الله »[1]، نجد أن السارد يروي من خارج الحكاية وبضمير الغائب ليعلم القارئ بوقائع زيارة وفد من المغاربة لزاوية الشيخ، التي لم تكن عادية، فقد كانت في عام جفاف ومجاعة فوصلوا إليها على حالة كبيرة من الجوع ليجدوها خالية من الطعام، وهو الحدث الحاسم الذي سيولد الأحداث اللاحقة حيث سيتخلى فيها السارد عن مهمة حكي متن الخبر للحوار، فقد ارتأى أن يسند سرد جل تفاصيل السلوك الديني الذي واجه به الشيخ الأزمة التي مرت بها زاويته، إلى شخصية عاشرته (زوجته)، وإليه نفسه حتى يضمن تحقيق أمرين متلازمين في الحكي أولهما: تمتع الشخصيات باستقلالية نسبية حتى تتمكن

[1]- البستان، ص 287، ص 288.

من توظيف عباراتها العامية التي ظهرت في أقوالها (الضياف، ويغديهم التليس، والقصعة، والمعزة)، وهي لغة خاصة تتماشى مع معطياتها التي تعبر عن ثقافتها وبيئتها المغربية وثانيهما: الإمساك بخيوط الحكي، فلا تنطق الشخصيات إلا بما تستدعيه لحظة السرد، ونمو الأحداث، وفي اللحظة التي اختارها لها لتنطق، وهذا ما يفسر لجوء السارد إلى استخدام ملفوظات مختصرة، وواضحة حافظ فيها على اللغة الأصلية للشخصيات، وهي الحيلة الفنية التي أعطت دفعا للقص ليكشف عن سلوك الولي الغريب الذي سلكه لتخطي مشكلة نفاذ الطعام المتمثل في حسن ظنه بالله حيث أوكل إليه أسباب تسخير الرزق لمريديه، وهو ما يعكس قوة إيمانه، وصبره التي حثته على استمرار مواظبته في أداء أمور العبادة (الصلاة، وقراءة القرآن)، حتى جاءه الفرج بظهور كرامة جلب الرزق، التي انغلقت عليها أحداث الحكي، وبذلك يتوصل السارد إلى تحقيق المقصد الحكائي من سرده للخبر الذي لا يتعدى تأديته لدور الشهادة على ما قيل في الاستهلال حول الصفات الأخلاقية للشخصية المحورية ليقربها من المتلقي بهدف التأثير فيه ليتقبل العالم القصصي للكرامة وهو ما يعني أن السارد العليم سعى من خلال تنويع أساليب الحكي إلى الإيهام الفني الذي يظهر في قدرته بالسيطرة على فعل السرد وتوجيهه، عبر مختلف وحدات الحكي من استهلال وبداية ومتن، ليصل لإقناع القارئ بصدق مرويه فلن يقوم بأي محاولة للتدقيق في الخبر، فلا يهمه التلاعب في فعل الرواية، الذي ينتقل من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم، لأنه يصب في مجرى السرد الذي يظل يحتفظ مع ذلك بالانطباع الأول، وهو ما يقضي بأن السارد ليس جاهلا بما تعرفه الشخصية. إنه حاضر بالفعل عندما يتولى بنفسه عرض الوقائع، وحاضر بالقوة لما تقوم الشخصيات بالعمل السردي فهو يلتقط الحدث من زوايا مختلفة، وهنا تختفي التجربة الإنسانية، في ثنايا التجربة الحكائية، أي يتحول الواقع إلى مشروع قصصي يتعلق بزاوية الرؤية، وترتبط

تحديدا بلعبة الخفاء والتجلي التي يمارسها السارد المحايد وتسنح له بالتحول إلى " أنا " متعالية تفوق منزلتها " أنا " الشخصية من حيث الهوية الزمنية والهوية المعرفية[1].

ولعل نقل الحوادث بعد حدوثها، هو الذي فرض على السارد المحايد استخدام ضمير الغائب لسرد الخبر كنوع من الحيادية، التي تحميه من إثم الكذب بجعله ساردا يسرد على لسان راو، لا مؤلف يؤلف أو مبدع يبدع[2]. وهو ما يتيح له التواري خلف الراوي وتتبع ما يجري من حوادث التي يقوم برصدها للقارئ « شأنه في ذلك شأن آلة التصوير المثبتة على حامل تلتقط صورا للمشهد من زاوية معينة، من غير أن يكون لها أثر في ذلك المشهد الذي تصوره »[3]، ومن أمثلة ذلك ما وجدناه في بعض النماذج من الأخبار، ففي كرامة للشريف الإدريسي: « ذكر أن السراق دخلوا روضة يسرقونه فوجدوا السفرجل، فرفعوا منه شوامي على ظهورهم وأرادوا الخروج فلم يجدوا طريقا وأفرغوا السفرجل وآتوا الباب فوجدوه مفتوحا ورجعوا فحملوه وأرادوا الخروج فلم يجدوا طريقا وتكرر منهم ذلك وأتوا الشيخ فتابوا على يديه لأجل ما رأوا»[4]. أو خبر الكرامة للشيخ السالك محمد بن عيسى: «... من قدماء التلمسانين أحد العارفين المتصرفين المتطورين تارة تراه في زي الملوك ومرة في زي الرهبان مات فاحتفل الناس في جنازته، فلما وضع على شفير القبر تساقط الطير عليه كالذباب على الشهد، أكثرها الخطاطيف تختلف بين أرجل الناس حتى لكادت تمنع الحافرين من العمل»[5]. يتميز السارد الذي قام بالسرد في المثالين بعزوفه عن التدخل فيما يسرده من أحداث. ومواقف فهو مجرد وسيط أدبي يتميز بدوره المحايد يسرد للقارئ بضمير الغائب بصيغة المفرد والجمع تفاصيل مشاهد

[1]- عبد الوهاب الرقيق، أدبية الرحلة، ص 40.

[2]- إبراهيم خليل، بنية النص الروائي، ص 83.

[3]- ن م، ص 81، ص 82.

[4]- البستان، ص 26.

[5]- بغية الرواد، ج1، ص 154.

الحدث الغريب، الذي تعرض له كل من (اللصوص، والشيخ)، لا يستعمل ضمير المتكلم أبدا، ولا يقوم بالحدث أبدا. لذلك فإننا لا نجد في نص الخبرين قرينة واحدة تدل على أن له كيانا شخصانيا أي أنه مجرد من العنصر النفسي، والانتماء الاجتماعي[1]حيث لم يتمكن من أن يطلعنا على ملامح الشخصيات (اللصوص/ الناس)، بل بقي بعيدا عما يسرد تطغى عليه الرؤية الخارجية، التي ينقل من خلالها أحداث الحكي، لكنه لا يتدخل ليفسر المواقف التي واجهتها الشخصيات وإنما ليصفها وصفا محايدا كما علمها ليقدمها إلى القارئ بشكل مباشر ودون تدخل منه.

وعليه يبدو طبيعيا أن يكرس السارد المحايد ضمير الغائب في سرده لحوادث الأخبار لأنه التقنية الوحيدة القادرة على تمثيل الشخصية وهي تنهض بالفعل[2]. مما يتيح له أن يعرف عنها الكثير فيعبر عن مواقفها وآرائها داخل أحداث عمله السردي كما يشاء، دون أن يتحمل مسؤولية ذلك كما فعل في معظم أخباره ومنها خبر منقبة للمتعبد إسماعيل الجزري:« ويروي عنه أنه مر يوما على دار أبي محرز القاضي، فإذا على القناة التي تجري بين يدي داره قرطاس فيه اسم من أسماء الله تعالى فوق القناة لم يغرق فيها، فخاف إسماعيل إن حاول إخراجه بقصبة أن يغرق في القناة فيتلطخ بالنجاسة فألقى كساءه ونزل إلى القناة، فساخ فيها إلى الورك وأخذ القرطاس بيده وجعل يتخلل في القناة يلتمس موضعا يسهل عليه منه الخروج، فلم يزل كذلك حتى أمكنه الخروج فخرج وقد اجتمع الرجال والنساء والصبيان ينظرون إليه. ثم أخذ كساءه بيده ثم تمادى إلى باب أبي الربيع حتى انتهى إلى وادي القصارين فغسل مئزره وجسده حتى انصرف »[3]. والخبر النادر لعبد الوهاب بن رستم: «...وبلغنا أن عبد الوهاب سهر ذات ليلة مع أخته يتعلمان مسائل

[1]- عبد الوهاب الرقيق، أدبية الرحلة، ص 39.

[2]- جيرار جينيت، عودة إلى خطاب الحكاية، ص 138.

[3]- رياض النفوس، ج 1، ص 355.

الفرائض فلم يصبح عليهما إلا وهما يورثان أهل المشرق وأهل المغرب، وكانا في سهرهما يوقدان مصباحا يجعل له عبد الوهاب الفتائل من عمامته حتى أتى عليها »[1].

نلاحظ أن السارد في الخبرين يستتر خلف الراوي الذي لم يذكر اسمه بل أشار إليه من خلال صيغتين استهلاليتين (ويروى عنه، وبلغنا)، فيحكي بضمير الغائب بوصفه ساردا عليما محايدا، يستخدم السرد الموضوعي الذي يتيح له أن يقدم مسافة بين زمن النص والحكاية، ليعرض الأحداث والشخصيات ضمن إطار واضح من الزمان والمكان وهو ما يمنحه درجة من المعرفة بمشاعر الشخصيات، وطريقة تفكيرها لكنه لم يتدخل تدخلا مباشرا في السرد أو في تحليل الشخصيات المحورية تحليلا نفسيا فقد اعتمد على وصف أفعالها الخارجية حتى يتمكن من التغلغل في ذهنها فيطرح ما يريده من أفكار ممتزجا بأفكارها التي تبلورت في مواقفها كما يظهر في قوله: (فخاف إسماعيل إن حاول إخراجه بقصبة أن يغرق ويتلطخ بالنجاسة، وجعل يتغلغل في القناة يلتمس موضعا يسهل منه الخروج) / (فلم يصبح إلا وهما يورثان أهل المشرق وأهل المغرب، يوقدان مصباحا يجعل له عبد الوهاب الفتائل من عمامته حتى أتى عليها).

نحن إذن أمام سارد يرصد ما يسرده عن كثب رصدا محايدا فكأنه يعرف (إسماعيل / وعبد الوهاب) ويعرف ما يجول في خواطرهما وما يعتزمان فعله قبل أن يحدث كأنه يلقي بنظره إلى عالمهما الداخلي سابرا أغواره، فلحظة الحكي هي نفسها لحظة التجربة التخيلية، فيقص السارد المحايد تجاربها وهي تقع أمامه « إنه أشبه بمرآة تنعكس عليها الوقائع فيراها القارئ كما يرى العالم فينقله بالكلمة الأدبية عوضا عن الصورة الضوئية»[2].

[1]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 102.

[2]- عبد الوهاب الرقيق، أدبية الرحلة، ص 39.

وعلى هذا الأساس فإن استعمال ضمير الغائب يساعد عل الفصل بين النص السردي والسارد العليم المحايد ويترك القارئ تحت تأثير اللعبة الفنية التي أداتها اللغة فينتقل « بحرية مطلقة بين الأمكنة والأزمنة وينفذ إلى الدواخل، وقد يعلم عن الشخصيات ما لا تعلم عن نفسها، وبإمكانه أن ينقل الأحداث من وجهات نظر متعددة »[1]، مما يسمح له أن يتدخل تدخلا مباشرا في أحداث الخبر، فيؤدي ذلك إلى ظهور النوع الثاني من السارد الخارجي وهو:

ب- السارد العليم المنقح:

وهو السارد الذي لا يكتفي بنقل جوانب الحدث، بل يتخذ منها موقفا يظهر في تدخلاته الموجهة، التي يستخدمها في توجيه النص، بحسب رغبته وأفكاره[2]، فهو سارد يأتي إلى القصة من خارجها ويسهم في صياغة الحكاية على الرغم من أنه منفصل عنها بحيث تصبح الزاوية، التي ينطلق منها قريبة جدا من زاوية المؤلف إلى درجة أنه قد يمتزج به في بعض الأحيان مؤديا دور الوسيط، بينه وبين القارئ من جهة، والوسيط بين الشخوص والقارئ من جهة أخرى، لذلك يمثل هذا النوع من السارد العليم تجسيدا لزاوية النظر التي تبرز صوته معلقا وشارحا ومفسرا للمسرود، ومن مسافة تفصل بينه وبين الشخصيات[3].

إن علاقة السارد العليم المنقح بمجريات الأحداث خارجية لكنه يقود عملية السرد بضمير الغائب بشكل سردي يعكس علاقة توجيهية لا يتماهى فيها مع مرويه، تبدأ تدريجيا حين يربط أفكاره بالواقع، وتنتهي تجسيديا بتعليقه الصريح في آخر النص، الذي يتفاوت بين التفسير والتقويم وإصدار الأحكام ويظهر وجوده بشكل واضح في الأخبار

[1]- محمد القاضي، معجم السرديات، ص 196.

[2]- عبد الرزاق الموافي، القصة العربية عصر الإبداع، ص 107، ص 108.

[3]- إبراهيم خليل، بنية النص الروائي، ص 84.

التي يتشكل محورها المركزي على البنية الوعظية حيث لا يكتفي بنقل الحدث بأسلوبه الخاص بل يتدخل تدخلا مباشرا لينقح خبره بالمضمون الوعظي، ليدعو القارئ إلى الاعتبار والاتعاظ بما حدث لشخصياته سواء أكان هذا الذي حدث شيئا طيبا يدعو إلى الالتزام به، أم كان شيئا سيئا يحتم النفور منه ومخالفة خطته، ففي خبر المنقبة الذي يدور حول موعظة توجه بها الإمام المحدث " علي بن رباح اللخمي " للقائد موسى بن نصير. يسير السارد على هذا النمط حيث يفتتح السرد بلفظ « وذكر » الذي يشير إلى راوي مجهول الاسم. يأخذ على عاتقه مهمة رواية الخبر، ويكون السارد المنقح قد اخترع بذلك وسيلة فنية دون قصد يقدم بها الحكاية موهما بواقعيتها، وفاصلا بين شخصه وبين الراوي، الذي أصبح مسؤولا عن النص، ففي المقدمة يظهر القائد موسى بن نصير بمجلسه بمدينة القيروان، في صورة الشخص المفتخر بفتوحاته التي حققها بالأندلس أمام أهل القيروان من العرب المهنئين يقول:« وذكر أن موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلى القيروان قعد يوما في مجلسه، فجاءه العرب يسلمون عليه، فلما احتفل المجلس قال: قد صحبتني ثلاث نعم أما واحدة فإن أمير المؤمنين كتب لي يهنئني في كتابه، وأمر بقراءة كتاب أمير المؤمنين، فهنئ بذلك، وأما الثانية فإن كتاب ابني قدم علي بأنه فتح له بالأندلس فتح عظيم فأمر بكتاب ابنه فقرئ فهنئ بذلك»[1].

في ظل هذا الوصف التقريري المبسط لأفعال شخصيات المجلس، تظهر شخصية الإمام "علي بن رباح " التي تسمح للسارد بالتدخل المباشر في السرد، فيعطل حركته بمقطع حواري يدور بين الأمام والقائد حيث حرص على تنقيح أقوالهما لتستنطق الحكمة التي يضيق عليها المضمون الوعظي، الذي دار عليه الحكي في حدث التهنئة، فتنغلق نوافذ السرد ليرتبط المتن ببداية الخبر، فتظهر شخصية السارد ذات هيمنة على مجريات القص، التي تعكس وجهة نظره ضمنيا وصراحة وإن توارى صوته خلف لغة " الأنا "

[1]- رياض النفوس، ج 1، ص 119، ص 120.

لشخصيات الحوار يقول: « وعلي بن رباح اللخمي التابعي ساكت، وكان على رواية ابن عباس وأبي هريرة فقال له موسى مالك يا علي لا تتكلم؟ فقال: أصلح الله الأمير قد قال القوم فقال وقل أنت أيضا فقال أنا أقول وأنا أنصح القائلين لك إنه ما من دار امتلأت حبرة[1]، إلا امتلأت عبرة وما انتهى شيء إلا رجع، فارجع قبل أن يرجع بك »[2]، فرؤية السارد الغائب العليم تتطابق هنا مع رؤية الشخصيتين المتحاورتين (الراوي الداخلي للحكي) وهو ما أتاح له رغم موقعه الخارجي التدخل في آخر الحوار بشكل واضح ليتقمص دور الواعظ على لسان شخصية الإمام ليصرح بالموعظة « ما انتهى شيء إلا رجع » التي قام عليها مضمون نصيحته للمسرود له ليتمكن من توجيهه نحو الغاية من سرد القصة، فيستعيد رؤيته المجاوزة التي تعلم أكثر من الشخصيات ليتدخل بتعليقه النهائي حيث حرص على تنقيحه بفعل القول (قال) ليبين للمتلقي أن صوته هو صوت المؤلف الذي تنازل له على الكلمة ليصف ما هو انعكاس لمشاعر الأمير ليبدي له وجه العبرة التي يتوخى له استخلاصها من الموعظة يقول:« قال: فانكسر موسى بن نصير وخشع ثم التفت ففرق جواري عدة فكان موسى بعد ذلك إذا مر بخربة عادية أو مدينة من مدائن الأولين نزل وركع ركعتين ومشى فيها وفكر في معالمها وآثارها، ثم بكى بكاء كثيرا وركب »[3]، لينتهي الخبر بهذا الوصف الموضوعي، الذي تطغى عليه اللغة التقويمية، التي عملت على تحديد الجوانب الشعورية للشخصية الرئيسة (انكسر موسى وخشع، وفكر في معالمها ثم بكى بكاء كثيرا)، وهو ما يعكس رغبة السارد الكشف عن الجانب الوجداني الروحي لشعورها الذي اتسم به سلوكها ودفعها للاتعاظ، واستخلاص العبرة المتداخلة مع مضمون الموعظة، التي وجه بها الحكي نحو تغيب صفتها السلبية

[1] - الحبرة : النعمة وسعة العيش، النهاية في شرح غريب الحديث (حبر)، أنظر رياض النفوس، هامش رقم 10، ص 120.

[2] - ن م، ن ص.

[3] -رياض النفوس، ج1، ص 120.

(الفخر)، لتحل محلها صفتها الإيجابية (التواضع). وهو اعتراف ضمني وصريح من السارد المنقح أن العالم السردي للخبر يحدد دلالة نهاية الحدث في مطلع البداية.

لذلك كله نجد أن وظيفة النهاية، تكمن في صياغة الأهداف التأثيرية، وصولا إلى السر الإقناعي، الذي يحمله النص بكل تقنياته ووسائله ليسهم المسرود له في تأسيس هيكل السرد، فهو أحد العناصر المكونة للبنية السردية، ويدخل في تشكيلها بتحديد المعاني والدلالات، التي من المفترض أن تحملها، ولذلك فإن السارد المنقح ينتقل ليتخذ من مضمونها مجرد ذريعة لاستخدام تقنية التضمين التجاوري[1]، التي تسمح له بتنمية حبكتها الحكائية لتشكل الإطار الذي سينطلق منه الراوي المجهول لرواية خبر ضمني يأتي لتدعيم صورة السلوك الجديد الذي تبنته الشخصية المحورية، بشكل يؤدي إلى رفع وتيرة مستوى التأثير لدى القارئ، ويخضعها بقوة لمجال معاني الموعظة المولدة للموقف الذي اختتم به الخبر الأول لتتحول إلى دلالات أشد قدرة على إقناع المسرود له.

ويرتفع صوت السارد الممزوج بصوت الراوي، ليسرد لنا قصة الخبر، فتظهر شخصية الأمير في مستهل الحكاية في صورة الناصح الحريص على تقويم سلوك الرجل الذي بالغ في خطبته مدحه للخليفة الأموي مخالفا لأوامره يقول:« ذكر أن الناس قحطوا، فخرج موسى بالناس فاستسقى وأمر رجلا يصلي بالناس وخطب بهم ثم أخذ في الدعاء للوليد وأكثر فأرسل إليه موسى إنا لم نأت لذلك فأقبل على ما قصدنا إليه وجلسنا من أجله فلم يلتفت إلى كلامه وتمادى على حاله رجاء أن يبلغ ذلك الوليد فينال عنده منزلة»[2]،وعندها أدرك موسى أن تحذيره للخطيب لم يجد شيئا، فلجأ إلى التدخل

[1]- هو أحد صور تقنية التضمين، ويعد تدوروف أهم ناقد تناولها بالدراسة والتحليل في ألف ليلة وليلة، وتشترط هذه التقنية أن تكون حكاية أو مجموعة من الحكايات مضمنة داخل الحكاية الأصلية، ويهدف التضمين التجاوري إلى تعضيد رأي أو موقف سابق، محمد تنفو العجائبي مائة ليلة وليلة إنموذجا، دار كيوان للطباعة والنشر، سوريا، ط 1، ص 118.

[2]- رياض النفوس،ج1، ص 120.

واستخدام القوة، حيث أمر رجاله بسحبه ليتولى هو الدعاء والتوجه إلى الله طلبا للغيث، فاستجاب الله دعاءه بتحقيق كرامة جلب الاستسقاء يقول:« فأمر به موسى، فسحب حتى أخرج من بين الناس، ثم قام موسى فأخذ في الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل واللجأ إليه فما برح الناس حتى أمطرت السماء بماء كأفواه القرب »[1]،تبدو صورة الأمير في هذا المقطع السردي شخصية تمتلك خصالا غير مألوفة، لم تتوفر لغيرها، حيث عملت على تثبيت ملمحين جديدين في سلوكها الذي تبنته أولهما: ملمح الأمير الحريص على تقويم السلوك المعوج لأهل إمارته. وثانيهما: ملمح الفقيه الورع المتقمص لدور الخطيب، فلجأ إلى الدعاء لتحويل المقام من دنيوي إلى مقدس (الولاية)، التي عملت على خرق المألوف بظهور الكرامة وعملية التثبيت هذه هي التي جعلت السارد يعتمد على موقف اعتيادي لتحديد رغبته الحادة تحقيق انخراط القارئ وإيهامه بحقيقة ما يسرده، لذلك يتدخل بتعليقه الصريح الذي ينقح به خبره ليكشف له عن السلوك الغريب الذي تجسد برفض موسى ركوب دابته والخوض في الوحل برجليه كنوع من الإذلال لنفسه أمام قدرة الله عز وجل الذي اختصه بالدعاء، ثم يعمد السارد إلى المزيد من التجسيد يتجلى في تماهي جمهور الناس الحاضر معه في طاعته بتقليده ومشاركته فعل المشي وراءه في الطين وكأنه واقع تحت تأثير كرامته مسحورا: « قال فأتي موسى بدابته فقال لا والله لا أركب، ولكن أخوض في هذا الطين فانصرف ماشيا، ومشى الناس معه »[2].

إن السارد المنقح يتقن لعبة السرد، فهذا التماهي في التقليد الذي يدفع المسرود له للمزيد من الحيرة والاستفسار، هو ما يتيح له التدرج في تقديم أحداث النهاية التي يستمر فيها تمويهه للقارئ حيث يعلمه بأن المصير الذي لقيه موسى بن نصير كان منتظرا بكونه نتيجة حتمية لنفاذ دعائه:« قال: فسمع يومئذ وهو يقول: أسألك شهادة في سبيلك أو موتة

[1]- ن م، ن ص.

[2]- ن م، ن ص.

في بلد نبيك يردد ذلك فاستجاب الله تعالى دعاءه فتوفي بالمدينة متوجها إلى الحج واستجاب الله دعاءه ودفن بالمدينة»[1]، وفجأة يعود السارد إلى الخبر الإطار ليذكرناأن سبب نفاذ الدعاء هو انتفاع موسى بن نصير بموعظة عبد الله بن رباح مختتما الحكي بوصف بليغ: « ونفعه الله عز وجل بموعظة أبي عبد الله بن رباح، فصغرت عنده الدنيا، ونبذها، وانخلع مما كان فيه من الإمارة»[2].

وليس في مستطاع المتلقي، وهو ينهي القراءة دون أن يشحن بالتأثير الذي تكرسه العظة التي أشار إليها السارد في نهاية الخبر الأول خصوصا إذا فرض عليه السلوك غير الطبيعي، عدة مرات، وهو ما جعل مضمون الموعظة يعيد نفسه مرة أخرى حاملا معه عبرة جديدة، أكدت تخلي الأمير موسى بن نصير عن أمور الدنيا (الإمارة)، تواضعا لله، وبذلك يحقق السارد العليم ما يقدمه من وعظ على أساس روحي يستنهض القيم الدينية للقارئ، بهدف إقناعه بما يقدمه في الخبرين من نصائح.

وقد يلجأ السارد العليم المنقح إلى توظيف تقنية أكثر تعقيدا، باستخدام التضمين القائم على التعارض الموضوعاتي، الذي يركز في موضوع مشترك، ولا بد أن نعرف أن أساس هذه العملية التضمينية التي يعتمد عليها في تنقيح بعض النماذج من الأخبار، هو تكسير الزمن السردي، بتوظيف الاسترجاع الخارجي في نهايتها. ففي خبره الذي يدور حول كرامة إبراء المرضى بالدعاء، التي اختص بها المتعبد رباح بن يزيد اللخمي يتخذ السارد من السند الذي حدد فيه اسم الراوي المعلوم. وسيلة فنية لتوثيق الخبر أي الإيهام بالثقة فيسرد السارد باستخدام الوصف المكثف حكاية زوجته المقعدة التي تزوجها بنية الدعاء لإبرائها من إعاقتها: « قال سعيد بن الحداد: كان لرباح بن يزيد صديق كانت له بنت مقعدة سأله أن يزوجها له ففعل فلما دخل عليها أخذ بيدها، وقال لها: قومي بإذن الله

[1]- رياض النفوس، ج 1، ص 120.

[2]- ن م، ن ص.

فقامت صحيحة تمشي فمال إلى موضع في البيت فصلى فيه حتى أصبح وخرج وخلى سبيلها، وإنما كان به إلى النكاح الدعوة لها »[1].

أما في خبر المنقبة التي تميز بها القاضي جميل بن كريب المعافري، حيث يرويه السارد دون الاستعانة براوي وسيط فيقدم موقفه الغريب في النظر بين المتخاصمين، وطريقة ركوبه لحماره قائلا:« وكان رحمه الله، يركب حمارا بشند ورسنه حبل ليف ومر يوما بمدينة القيروان، ببئر أم عياض فعرض له خصمان، فنزل عن حماره وقعد إلى حائط ونظر بينهما فيما اختصم فيه، ثم قام ليركب فأراد أحدهما أن يمسك برسن الحمار حتى يركب فمنعه أبو كريب من ذلك، وأمسكه هو لنفسه، وهذا من محاسبته واجتهاده»[2].

إن التنقيح يبدأ في المثالين مع توقف السارد العليم عن سرده للخبر الأصلي لكل منهما، حيث ينتقل ليعلن من خلال الجمل الافتتاحية، التي تظهر في بداية الخبرين الفرعيين عن تدخله الصريح لتكسير نسق إطار الزمن السردي الداخلي لأحداث الحكي الابتدائي، ليعود إلى زمن خارجي، بتضمين مواقفها التي أبدت فيها سلوكات تتقاطع في سماتها مع السلوكات، التي انبنت عليها تجارب شخصيات الخبر الإطار، ففي المثال الأول تتناول قصة الخبر المضمن تجربة الشاب الذي كشف للزاهد المشرقي المشهور عبد الله بن المبارك كيف تعافى من إعاقته عن طريق الدعاء يقول:«ومما يقوي هذه الحكاية ما ذكر أن عبد الله بن المبارك مر برجل قد أقعد من ركبتيه، ثم مر به مرة أخرى وقد أطلق وهو يمشي صحيحا فقال له ابن المبارك أعرفك وقد أقعدت، وأراك صحيحا تمشي فكيف كان أمرك؟ فقال له الذي كان مقعدا مر بي شخص لا أعرفه، فسلم علي، وقال لي لما لا تدعو الله عز وجل وتسأله العافية؟ فقلت له كيف أقول في دعائي

[1]- رياض النفوس، ج 1، ص 304.

[2]- ن م، ص 170.

فقال لي قل دعاءك...؛ فدعوت بذلك فصرت إلى العافية بإذن الله عز وجل »[1].وفي المثال الثاني يستأنف السارد السرد بخبر ضمني يتولى فيه نقل تجربة القاضي المصري غوث بن سليمان في النظر بحوائج الناس: « ومثل هذه الحكاية: قال: أقبل غوث بن سليمان القاضي، وهو يريد المسجد فلما كان عند السراجين لقيته امرأة في محفتها كما قدمت من الريف فشكت مظلمة فنزل في حانوت من حوانيت السراجين، كما هو ولم يبلغ المسجد، وكتب لها بحاجتها، ثم ركب دابته إلى المسجد فانصرفت المرأة وهي تقول أصابت والله أمك حين سمتك غوث فأنت والله غوث عند اسمك»[2].

ونستنتج من خلال النموذجين أن تنقيح الأخبار باستخدام التضمين يتحقق بالإيهام الفني القائم على تكسير الزمن السردي لتضمين أحداث تحمل مضامين متشابهة لمضمون الخبر الأصلي يستخدمها السارد كحجة تؤدي في السرد وظيفة برهانية، ونلاحظ أنه يعتمد على المرجعية الثقافية الدينية والعرقية المشتركة بين المجتمع المغربي والمشرقي، ليستخدمها كوسيلة فنية لإثارة القيم الروحية الدينية لمستمعه، أو قرائه من المغاربة بهدف إقناعهم وطمأنتهم بأن الخبر الإطار واقع حقيقة باعتباره حدثا غريبا متداولا.

ويكمن التمثيل بنموذج آخر من علاقة السارد العليم المنقح بالمسرود باستخدام التضمين من خلال الخبر الطريف عن الخياط كاتم السر، حيث يبدأه السارد بالصيغة الافتتاحية (وحدثته)، ليشرع في سرد موضوع الخبر مباشرة لأنه من إنشائه حيث ينقل لناقصة الرجل الوجيه الذي عوتب على مصاحبته للخياط الغبي، مما يدفعه للبوح عن سر تلك الصداقة، وهو أمانته في حفظ أسرار أحاديثه، وهي ميزة نادرة التوفر عند معظم الناس يقول:« وحدثته يوما عن بعض من كانت له وجاهة وسيرة ورئاسة في العامة أنه كان يجلس إلى خياط في بعض الأسواق غبي الحال لا يكاد يرى إلا عنده يحدثه، وأنه

[1]- رياض النفوس،ج1، ص 304، ص 305.

[2]- ن م، ص 171.

عوتب في ذلك وقيل له أما وجدت لحديثك غير هذا؟ فقال لا والله، وإن فيه لخصلة ما وجدتها عند أحد من الناس فقيل له: وما ذلك؟ قال: يضيق ذرعي بالحديث وأحب أن أحدث به وأن ينشر عني، فأحدثه به فكأنما ألقيته في بئر لا والله ما سمعت عنه أعاد علي حديثا قط »[1]، وبعد أن يسرد لنا السارد المنقح الخبر الإطار، يتدخل ليعطي الكلمة للمسرود له (الإمام المعز) ليثني على صفة الخياط « قال المعز: صدق والله، وأحسن في اختياره، وإن من وجد فيه مثل ذلك لأهل لكل خير »[2]، ثم ينسحب تاركا المعز ينوب عنه في رواية الخبر المسترجع الذي ينضوي تحت التضمين التجاوري يسرده كمثال آخر ليثبت تحقق صفة حفظ السر عند بعض أولياء والده الإمام المنصور يقول:« ثم ذكر رجلا من الأولياء كان له به وبالمنصور اتصال قال: فكان المنصور ربما أخبر بالحديث يجري بينه وبين هذا الرجل ويقول لي سله عنه، فأسأله، فيأخذ لي في معاريض من القول يريد أن يقطع بها سؤالي، فإذا أعدته عليه وأخذته بالجواب عنه وعرفته أن المنصور بالله أخبرني به وأمرني أن أجاريه فيه، قال مولانا أصدق قولا، ولعلي أنا أنسيت هذا الذي قاله فأذكر ذلك للمنصور فيستحسنه وترحم المعز على الرجل وأثنى عليه ثناء حسنا »[3]، وهكذا تقع وظيفة التنقيح على عاتق السارد العليم الذي يتحد مع الراوي، ليوجه خيوط السرد إلى حيث يريد باستخدام التضمين، الذي يمنح له الفرصة لاستدعاء الخبر الفرعي كشاهد؛ حيث يعتمد على ما جاء في طياته من جوانب تضيء مضمون الخبر الإطار، قام بانتقائها لإيصال آراء وتوجهات عقائدية إلى قرائه من أنصار مذهبه، وهي ضرورة اتصاف الأولياء المتصلين بصحبة الأئمة، بصفة حفظ سر أحاديثها، ولا يتوارى السارد عند ذكر هذا القص بل يتعدى ذلك إلى تنقيح النهاية في الخبرين بإعجاب المعز وثنائه على الشخصيتين المحوريتين (الخياط، والولي)، وربما وجد من خلال ذلك سبيلا ليفصح

[1]- المجالس والمسايرات، ص 236.

[2]- ن م، ن ص.

[3]- ن م، ص 237.

عن صفته التي جعلته يكسب ثقة الأئمة ويحظى بصداقتهم، وهي الدلالة الضمنية التي تحمل في طياتها جوانب من النسق الفكري الإيديولوجي لحياة فئة من المجتمع المغربي، في ظل التعدد المذهبي، الذي عاشته في تلك الفترة الزمنية.

ونخلص من خلال تتبع دور السارد العليم المنقح داخل النماذج من الأخبار، التي تقوم بنيتها على الوعظ أن وجهة نظره ذات هيمنة أعلى على عملية السرد الموضوعي مقارنة بوجهة نظر السارد العليم المحايد فتظهر وجهة نظره صراحة حين يعرب في نهاية الحكي عن فك شفرة الموعظة، التي بني عليها النص والفكرة والشخصيات، وتتمظهر بشكل ضمني حين يلجأ إلى استخدام تقنية التضمين، التي تعمل على منح ذاكرته فرصة للتجلي والتعبير عن أفكاره، وهنا كانت وجهة النظر عند السارد العليم المنقح: «حيلة تقنية ووسيلة للوصول إلى أهداف أكثر طموحا، وهي الوسيلة التي توجد في متناول المبدع ليكشف عن نواياه الخاصة و للتأثير في الجمهور »[1]، فلولا هذا التنقيح الذي عاد به للنبش في الماضي البعيد لما فهم القارئ فكرة الخبر الأصلي من أصلها، إذ يؤدي الخبر الفرعي في الحكي، وظيفة برهانية تكشف عن الجانب الوعظي للسارد الغائب من المنظور الروحي، أو الإيديولوجي لتوجه القارئ نحو الاتجاه الفكري الذي يعبر عنه الخبر والاقتناع بمعانيه فللسارد شدة النصح والطرح والتوجيه، وعليه أن يتقبل ما يلقى إليه ولا يفرض مقاييسه على عمل السارد.

نتبين إذن أن صورة السارد الخارجي في السرد ليست واحدة وإنما تتوزع بين (العليم المحايد، والعليم المنقح) وهي تعكس مواقفه التي تعبر عن ذات المؤلف المغربي المتفاعلة أمام ضرورات الصياغة الفنية للآليات السردية التي يعتمدها في القص، وتتطلب منه ترتيبا للوعي المنهجي في عملية السرد، بما يخدم رؤيته للعالم الذي يروي عنه. وهذا

[1]- والاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، تر : حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع والتوزيع، القاهرة مصر، 1998م، ص 37.

العالم ليس عالمه الشخصي بالضرورة، بل هو ممارسة لعملية بناء لا ينقل فيها هكذا عن الواقع، وإن كان الواقع مرجعا له، ويجهد لمنحه طابعا حقيقيا[1]. فهو غائب عن عالم السرد والحكي ولكنه يخضع لمنطقهما فيوظف أساليب القص، التي ترتبط بوتيرة سرده للأحداث المتخيلة لعالم أخباره بما يسمح له بتحديد إجراءات وآليات تنظيم نسقها السردي وإيقاعه.

ب- السارد العليم: الأسلوب وبناء الإيقاع السردي

ينطلق السارد العليم، في بناء العالم القصصي، لنص الخبر، من حادثة أو موقف أو مشهد، ليصل إثر ذلك إلى تفعيل أسلوب السرد القصصي الذي ينبني على التمثيل أو التصوير ليتمكن من التعبير عن عاطفة وأفكار صانعه المؤلف؛ يعرضها بالوصف أو السرد أو في غضون الحوار وذلك لأن « لكل عاطفة درجتها من التأني أو الإسراع، ولكل فكرة مداها من الضيق أو الاتساع، ولكل صورة طبيعتها من الظهور أو الضمور، ومن القوة والضعف، والبيان التام هو الذي يوافق هذه الحالات ويعبر عنها بما يلائمها وتبدو ملائمته لها في تقطيعه إلى فقرات تقصر وتطول، وفقا لحالات النفس والفكر، فقد تكون عواطف النفس جياشة بالألم أو مضطربة باللذة وحينئذ تكون الفقر القصيرة أنسب للتعبير عنها، وقد تكون المعاني رزينة بطبيعة موضوعها لتوخيها الإقناع والإفادة أو الشرح والتعليم فتقضي الأسلوب المفصل »[2].

وقد أدى هذا التنوع في منابع القص إلى التنوع في أنماطه التي تتكفل بتصوير الحدث على مستوى البنيات الحكائية حيث لاحظنا أن السرد القصصي يوجز في مواطن ويطنب في مواطن، وتارة يأتي بالكلام بين بين ولذلك يسمى أداء السرد على هذا النحو مساواة وتكون فيها المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على

[1]- يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي، ص 93.

[2]- بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، 1984م، نقلا عن محمد طول، البنية السردية في القصص القرآني، د ط، د ت، ص 126.

بعض، وبذلك يعد الإطناب في أوسع معانيه المبالغة في الكلام، إفادة للمعنى فقد يكون غرضه التأكيد، أو الإيضاح بعد الإبهام. وبه يثبت المعنى في النفس بزيادة الألفاظ على معانيها وتوضيحا لما يعنيه المتكلم. وعليه يكون الإطناب عكس الإيجاز، فإيجاز غزارة للمعنى مع قلة االألفاظ بشرط أن تفي هذه بالمعنى المراد، أما الإطناب فهو زيادة اللفظ على المعنى المراد، وذلك بأن تأتي بجملة تؤكد معنى الجملة السابقة للإطناب أو تقرر معناه وتوضحه[1]. وقد اشترط "السكاكي" في الكلام أن يكون متعارف الأوساط: وهو المعروف لمجموع الناس واعتبره غير محمود، ولا مذموم في عالم البلاغة، وعلى هذا الأساس قال: « فالإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل عبارات متعارف الأوساط والإطناب: هو أداؤه بأكثر من عبارتهم، سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل »[2].

وبذلك تعد هذه الأنماط الثلاثة للتعبير، عملا من وظائف اللغة، ومن أهم أساليب علم البيان الذي يهتم « بتتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره»[3]، بل هي جوهر لغة التصوير القصصي وقلبها النابض والخاصية الأساسية المميزة لها، ويعود ذلك إلى عناصرها الفنية التي يوظفها السارد داخل الحكي « فهي إلى جانب كونها نظاما، تعد جهازا للتوصيل غير المباشر، يتأتى من خلال توظيفها بقدرتها التشكيلية، ويكون هذا التشكيل من خلال التصوير »[4]. على حسب ما يقتضه حال المتلقي، وتدعو إليه بؤرة الخطاب، ولذلك فإن القارئ يصبح موزعا بين وظيفتين يؤديهما هذا الخطاب في آن واحد: وظيفة سردية تذهب بالسامع إلى متعة الحكي والاسترسال بأزمنة

[1]- علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة (البيان والمعاني والبديع)، دار المعارف مصر، ط 1، 1989م، ص 239، ص 240، ص 242، ص 250.

[2]- محمد السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1987م، ص 277.

[3]- ن م، ص 161

[4]- بوشوشة بن جمعة، اتجاهات الرواية في المغرب العربي، المغاربة للطباعة والنشر، تونس، ط 1، 1999م، ص 601.

الحكاية التي تظم فضاءات وشخصيات متباينة، مع العلم أن السرد يقبل أن يكون منقولا بلسان السارد العليم أو حوار على لسان الشخصيات، ووظيفة الوصف المباشر أو الضمني الذي تشكله هذه اللغة، وهي تؤدي وظيفة السرد بالمقابل، فلا يخلو منه حوار.

وهكذا فإن مقتضيات تقديم المادة الحكائية تخول للسارد القيام داخل السرد القصصي، بثلاث مهام أدبية جوهرية منوطة به تسمى الأولى مهمة السرد (قصة الأفعال)، والثانية مهمة الوصف (قصة الأحوال)، والثالثة مهمة التنظيم (قصة الأقوال). وهو ما يتيح له الاعتماد على أسلوب الإيجاز أو الإطناب، فيضفي على وتيرة زمن السرد خصائص تجعله يتمطط إلى ما لا نهاية كما يمكن أن يكثف باختصار فترات زمنية طويلة في أسطر قليلة على اعتبار أن الأحداث المهمة، والمؤثرة في سير النص يتم التركيز عليها ووصفها بدقة، وأن الأحداث الثانوية يتم المرور عليها بسرعة أو حذفها وقد بين جيرار جينيت« أن أزمنة العمل القوية تزامن أكثر لحظات الحكاية حدة في حين أن الأزمنة الضعيفة تلخص خطوطها العريضة كما لو كانت مشاهدة من مسافة بعيدة »[1]، يختلف بعدها وقربها تبعا لأهمية الأحداث بالنسبة للهدف النهائي من السرد.

ولا يخفى على قارئ النص السردي فعالية الطابع الإيقاعي للأحداث، التي يمتلئ بها الزمن في الإحساس بطول هذا الزمن وقصره، وهو ما أجمع عليه الكثيرون من دراسي الزمن السردي بمستوياته، فالسارد يحمل التراكيب اللغوية معاني جديدة بتوظيفه لأسلوب الإيجاز والإطناب، داخل العناصر القصصية للسرد لينسج عن طريق الخيال، العقدة الزمنية المتفاوتة التشعب، والإثارة المتباينة، في صنع وجهاتها ونهايتها، فهو يمنح وتيرة السرد رؤية شبه حقيقية لينقل للمتلقي الأحداث وهي تستوعب دفقات الإحساس عند أي مبدع إلى لب التصورات الذهنية والتفاعلات النفسية، للرسالة الفنية « إن التخييل تحريك النفس...، وإثارة للقوة اللاواعية عند المتلقي على نحو يغلب اللاوعي على الوعي،

[1]- جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص 120.

ويغلب التخييل على التصديق، وجملة الأمر أن المتلقي ينفعل للتخييل انفعالا من غير روية إلى جهة الانبساط أو الانقباض فيميل إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده »[1]، حيث لا يمكن تصور بنية للإيقاع الزمني، في العمل السردي من دون قوة خارج السرد، تقوم بتحريكه واستخدامه في مكانه الخاص داخله، وهو الأمر الذي يستدعي تصور زمن خارجي بالسارد، على اعتبار أنه يمثل ذلك الوعي المنظم لخطاب السرد، وهو الوعي الذي يسخر نفسه من أجل تحقيق استراتيجيات السارد التي يتأسس عليها ذلك الاستخدام الخاص للزمن.

وعلى هذا الأساس، فإن كل نص سردي، يحتوي بنية زمنية مخصوصة سواء من حيث المدة التي يستغرقها، أو من حيث كيفية التعبير عنها، ويشتمل تحليل سرعة الحكي في معرفة كيفية توظيف السارد للتقنيات الأربعة التي ينظم بها النسق الزمني للسرد وهي (المشهد، والوقفة، والخلاصة، والحذف)، والتي يمكن الوقوف على كيفية اشتغالها عبر مظهرين أساسيين:

المظهر الأول- إبطاء السرد: ويتمثل في ذلك الإيقاع الذي يولد لدى القارئ إحساسا واضحا بتباطؤ زمن السرد، ويشمل تقنيتي المشهد والوقفة، ففي المشهد يوظف السارد الأسلوب اللغوي المساواة،، ليوقف السرد بضمير الغائب ويشرع في الحوار الذي يسند فيه السرد لضمير المتكلم فتظهر الشخصيات لتتكلم بلسانها وتتحاور فيما بينها، حيث وحدة من الخطاب تقابلها وحدة من زمن القصة، فتتحقق المساواة الزمنية بين السرد والخطاب ولكنها أقرب إلى البطء. أما الوقفة: فيلجأ السارد لتوظيف الأسلوب اللغوي الإطناب لتعليق السرد، حيث مقطع طويل من الخطاب يقابله وحدة قصيرة من زمن القصة فيتسع زمن السرد ويمتد الخطاب في مقابل تباطؤ زمن القصة، أو يكاد ينعدم.

[1]- حازم القرطاجني، المنهاج، ص 106.

المظهر الثاني- تسريع السرد: ويشمل تقنيتي الخلاصة والحذف ويستخدم فيها السارد الأسلوب اللغوي الإيجاز ففي الخلاصة يقوم بتقديم سرد موجز يعتمد فيه على تلخيص الأحداث دون التعرض لتفاصيلها حيث وحدة قصيرة من الخطاب تقابل وحدة طويلة من زمن القصة وتعمل على تسريع السرد حيث يختصر السارد زمن الأحداث الحكائية الممتدة لفترات زمنية طويلة في مقاطع سردية صغيرة عبر مساحة الخطاب. أما الحذف فيحدث عندما يسكت السرد عن جزء من القصة أو يشير إليه فقط بعبارات زمنية تدل على موضع الحذف حيث وحدة طويلة أو قصيرة من زمن القصة لا تقابلها وحدة من الخطاب. ففيه يتسارع زمن السرد بصورة كبيرة نتيجة للقفز الزمني السردي.

وإذا كان الخبر يعد داخل مجال السرد العربي القديم هو النوع الأشد ارتباطا بتجارب الذات الفريدة في تفاعلها مع المجتمع فإنه من المتوقع أن تفرز هذه السمة إيقاعا نصيا متميزا يمكننا تحليله من خلال البدء بالنظر في كيفية استخدام السارد العليم لتقنيات لغوية وسردية تؤدي إلى التأثير فيه بتحديد سرعة وتيرة سرده للأحداث وهي تختلف من تقنية إلى أخرى حيث يمكن تمييزها داخل نصوص الخبر المغربي من حيث البطء والسرعة.

1- المظهر الأول: السارد العليم و أسلوب تبطيء السرد

يعتمد السارد في هذا المظهر على تفصيل الأحداث أثناء تقديمه لموضوعها عبر مسار الحكي مما يفرض عليه أثناء السرد المساواة في الكلام أو تمطيطه ليتسع بذلك الزمن على تقنيتي المشهد والوقفة.

أ- المشهد:

يقصد بالمشهد الحالة التي يتساوى فيها زمن السرد مع زمن القصة، وهو عبارة عن قص مفصل يتم توظيفه في السرد، من أجل الانسجام مع سياق النص، ويقوم على المقطع

الحواري بما هو مشهد درامي يقدم الوقائع وهي تحدث دون تدخل للسارد «مع الحوار ينشأ ذلك اللون من المساواة بين الجزء السردي والجزء القصصي ليخلق حالة من التوازن »[1]، وينبه جيرار جينيت« إلى أنه ينبغي دائما ألا نغفل أن الحوار الواقعي الذي يمكن أن يدور بين أشخاص معينين قد يكون بطيئا أو سريعا، حسب طبيعة الظروف المحيطة كما ينبغي مراعاة لحظات الصمت أو التكرار، مما يجعل الاحتفاظ بالفرق بين زمن حوار السرد وزمن حوار القصة قائما على الدوام، وعلى العموم فإن المشهد في السرد هو أقرب المقاطع إلى التطابق مع الحوار في القصة، بحيث يصعب علينا دائما أن نصفه بأنه بطيء أو سريع أو متوقف[2].

وقد قدم المشهد بلسان السارد عبر تصوير، وتمثيل حركة الشخصيات وأفعالها فيقع في فترات زمنية محددة كثيفة تشمل « مواقع القص المفصل الذي قد ينطوي على الوصف المبأر أو الحوار في مقابل السرد المجمل الذي يختص الأحداث غير الهامة في القصة ويستخدم المشهد في الغالب في مواطن الذروة من العمل السردي »[3]، فيعطي للقارئ إحساسا بالمشاركة الحادة في الفعل بما يمتلكه من وظيفة درامية تعمل على كسر رتابة السرد حيث يمكن أن يحتوي على المفارقات الزمنية والوصف وتدخلات الكاتب الموجهة للعملية السردية وتعليقات السارد الأخلاقية والفكرية. ولذلك فهو يحتل موقع متميز في الحركة الزمنية لسرد الأخبار لما هو قص تنشئه المشاركة في أداء المعنى فيعمل على إبطاء زمن السرد، بحيث يوسع النص ويمططه فيعمل على قطع خطية السرد، ويوظف السارد العليم المحايد تقنية المشهد في نهاية الخبر الإطار الذي يتضمن في نهايته خبر فرعي يتفرع عن أحداث الإطار ليتم من خلاله عرض تفاصيله في مشهد

[1]- جان ريكاردو، قضايا الرواية الحديثة، تر : صباح الجهيم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1997م، ص 346.

[2]- حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص 78.

[3]- محمد القاضي، معجم السرديات، ص 394.

تفصيلي يكشف لنا عن حدث يضئ الخبر الأصل ثم يرتد مرة أخرى إلى الإطار لإنهاء السرد كما وظفها في خبر لإسحاق ابن الملشوني مع الأمير محمد بن الأغلب[1]، يقدم السارد الخبر الإطار الذي يتولى نقل الموقف النادر لتسلية الفقيه للأمير برواية أخباره التي ألفها عن الأمم السابقة[2]، ويقدم السارد الحدث الإطار في تسلسل يشد بعضه إلى بعض على النحو الآتي:

1. دخول الفقيه سحنون بن سعيد على الأمير في أول يوم من شهر رمضان فوجده منقطعا عن العمل.
2. سحنون ينصحه بتسلية نفسه بالتسامر مع شيخه بالاستماع إلى أخباره العجيبة.
3. الأمير يستدعي الفقيه إلى قصره لتسليته كل يوم طيلة الشهر.
4. الحاجب يأمر الشيخ بالانصراف بعد انقضاء رمضان.

وفي أثناء ذلك يتوقف السارد ليقدم بعض التفصيلات التي تكمل الخبر الأصل، فهو ينتقل ليحكي الموقف النادر الذي يكشف عن الصفة الخلقية المميزة للفقيه ابن الملشوني وجعلته يتفوق على الأمير بالبديهة وحسن الجواب ليظهر الحوار الذي ينقل المشهد التفصلي للحدث؛ وفي أثناء ذلك يختفي السارد ليفسح المجال لشخصية الفقيه ليبدأ الكلام بجملة استبطانية تظهر حالته النفسية إذ بدا حزينا يائسا، لأنه جالس الأمير ثلاثين يوما، وعجز على أن يكشف له عن حالة الدين التي يعاني منها جراء فقره الشديد طمعا في مساعدته «قال اسحاق فقلت في نفسي ما أجد أعجز مني ولا أزهد في نفسه!حضرت مجلس الأمير ثلاثين يوما فلم أذكر الدين الذي علي ولا الفقر الذي أنا فيه!»[3]، فيخلق السارد بذلك في مستوى الخطاب مناسبة يشكل موضوعها جوهر ظهور الحوار بين الفقيه

[1]- رياض النفوس، ج 1، ص401، ص 402، ص 403.

[2]- الخبر الإطار تناولناه بتحليل مفصل في الفصل الأول من البحث. وتفاديا للتكرار قمنا بتحليله إلى وحداته الكبرى واعتمدنا عليها للتذكير بأبرز تفاصيل الحدث التي شكلت الإطار لظهور الحدث

[3]-رياض النفوس، ج 1، ص 402.

والأمير ليتولى نقل تفاصيله فيبدأ تبادله الافتتاحي بظهور الرسول الذي استدعاه للعودة لإجابة الأمير « قال: فلما بلغت الباب إذا برسول يركض خلفي فقال أجب الأمير فرجعت»[1]، فالعودة اقتضت فعل الدخول على الأمير الذي أدى وظيفتين مزدوجتين أغلق تبادل الافتتاح و افتتح في الآن نفسه التبادل الأوسط لتتشكل بذلك فاتحة مسار المشهد الحواري الذي سيشرع السارد في حكيه يقول:« فدخلت عليه فقال: يا ابن الملشوني أردت أن أسئلك عن شيء أجبني عنه فقلت: أصلحك الله ما هو فقال: عقل الرجل أين مسكنه؟ فقلت أما من عاقل مثلك فبين عينيه وأما من حليم مثلك فوسط رأسه. وأما في غير حازم مثلي وفي عاجز يشبهني ففي قفاه قال ولما ذاك فقلت أصلح الله الأمير جالستك وسامرتك ثلاثين يوما ولم أذكر لك دينا علي ولا أعلمتك به قال ويحك كم عليك من الدين فقلت مائة وخمسون دينارا علي ولا أعلمتك به فأمر بها لي من بيت المال قال إسحاق فقلت له القمح الذي تقوم به الأبدان ليس في البيت منه شيء قال وكم قوتك في السنة قلت خمسون قفيز قمح فأمر لي بها فقلت له: أصلح الله الأمير البرذون الذي يحمل رحلي لا يقوم إلا بالعلف قال وكم يقوم به في السنة قلت خمسون قفيز شعير فأمر لي بها فقلت أصلح الله الأمير الزيت الذي تأتدم به...وتستصبح به ليس في البيت منه شيء قال: وكم يقوم بك في السنة قلت ثلاثمائة قفيز فأمر لي بها، فقلت أصلح الله الأمير، الحطب الذي ليس عنه غنى ليس عندنا منه شيء قال: وكم يقوم بك قلت عشرة أحمال فأمر لي بها »[2].

ينقل السارد من خلال هذا الحوار التعليمي ما دار بين الأمير والفقيه من أقوال وحديث فانصرافه من القصر دون طلب المكافأة تدفع الأمير للتفطن لسلوكه الغريب الذي اتصف به فيعيده إلى مجلسه ليتوجه إليه بصيغة الخطاب المباشر بسؤال يحمل سمة الطرافة عن «عقل الرجل أين مسكنه» وهو ما جعل مجال حيرته يتقاطع بين غفلة الفقيه

[1]- رياض النفوس، ج1، ص 402.

[2]- ن م، ص 402، ص 403.

وذكائه، فينطلق السارد في توجيه الحوار نحو محاولة الفقيه دفع شبهة الغفلة عنه وإثبات ذكائه ليتحول إلى مشهد حواري مكون من سؤال وجواب ترابطت تدخلات المتحاورين فيه وتولد بعضها عن بعض فجاء النص متماسكا حيث تمكن ابن الملشوني من أول تدخل أن يحقق وحدة الموضوع المرتبطة في بنيتها بنهاية الخبر الإطار حيث جعلها تدور حول قطبين دلاليين هما طلب المال (الفقيه) والحصول عليه (الأمير)..، وقد تمكن بفضل ذكائه تمديد فعل الطلب ليتحول من مجرد وسيلة للتكسب يستخدمها ببراعة للحصول على كل ما يحتاجه من مال لشراء ما يعينه من متطلبات العيش (الطعام، والعلف، والحطب، والزيت) ليتمكن بفضلها من التغلب على فقره.

ويسهم الحوار بهذه الصورة في إيجاد بنية قائمة على التواقت الذي يكرس الاستخبار ليؤدي إلى تطوير مواقف الشخصيات لتكشف عن سلوكها فيحدد بذلك سرعة زمنية متساوية مع الحدث بإبطاء وتيرة السرد وإحداث نوع من التماثل بين زمن الخطاب وزمن القصة من حيث مدة الاستغراق الزمني حيث عمل هذا الإيقاع الزمني المتساوي في شكله المتسع المفصل الذي ظهر في تدخل الأمير على إنجاز وظيفة بنائية مركبة حيث أسهمت في الكشف عن سلوك الشخصية وإضاءته فالجمل الطويلة سمحت لابن الملشوني شرح وتفصيل لحالته الفقيرة ببراعة عبرت عنها بلاغته التي تجلت في عباراته الفصيحة التي لجأ فيها في بعض الأحيان إلى توظيف العبارات العامية البسيطة (قفيز، وقفاه، والبرذون) ليصوغ بها معانيه المسهبة التي رسمت صورة لذكائه وسرعة بداهته في التأثير وهو ما أكدته العبارات الموجزة للأمير محمد بن الأغلب الذي اقتصر دوره في الحوار على الدفع واستطاعت أن تولد في القارئ شعورا يمتزج بالدهشة والتعجب والتساؤل لترسم بذلك صورة لشخصيته التي اتسمت بالذكاء لينتهي الخبر بتتويج هذا الموقف النادر لسلوكه يقول: « قال ثم أمر إبراهيم بن دارم كاتبه أن يدفع إلي الخمسين ومائة دينارا وقال إن

شئت تقضي بها، وإن شئت اصنع بها ما شئت »[1]، وهو ما اتخذ منه السارد العليم أداة للعودة إلى الخبر الإطار ليعدل حالة الانصراف بالحالة الجديدة التي اتسم بها يقول:« فأخذت ذلك كله وانصرفت وذلك ليلة العيد»[2].

وهكذا فالمشهد الحواري يشكل في نص الخبر وحدة نصية منظمة ومهيكلة ومترابطة العناصر فهو وحدة مكونة ومكونة لفعل السرد داخل الخبر يندرج فيها المعنى الدلالي الذي يتوج النص ويوقف مجراه فتكون له حينئذ قيمة تأثيرية على خاتمته بفضل استعماله للأسلوب المباشر الذي يمكنه من اندماج الواقع الفعلي بالتخيلي[3]، ولذلك فإن المشهد لم يكن داخل نص الخبر مجرد عرض للأقوال حيث استطاع تمثيل أحد مظاهر الواقع الاجتماعي الذي كان يعيشه العلماء والفقهاء المغاربة في تلك الفترة وهو الفقر الشديد نتيجة لزهدهم وتحرجهم عن استغلال رتبهم للتكسب داخل قصور الأمراء.

وهكذا فالمشهد الحواري يشكل بالنسبة للسارد العليم وسيلة لوصف نفسيات الشخصيات وتوجهاتها وطباعها وخلالها ليتمكن القارئ من استنباط صورة عن أخلاقها وسلوكاتها وآليات تفكيرها وتأثرها التي تلخص علاقتها بواقع مجتمعاتها التي تحوي تجاربه.

ب- الوقفة:

تكون في مسار السرد الخبري توقفات معينة بسبب لجوء السارد إلى الوصف، فالوصف يتضمن عادة انقطاع وتوقف السرد لفترة من الزمن[4]، ولذلك يرى "جينيت" أن تصور وصف خال من السرد أسهل من تصور سرد بلا وصف إذ هما متدخلان بشكل

[1]- رياض النفوس، ج 1، ص 403.
[2]- رياض النفوس، ج 1، ص 403.
[3]- محمد نجيب العمامي، بحوث في السرد العربي، ص 75.
[4]- حميد لحميداني، بنية السرد السردي، ص 76.

قوي وبنسب متفاوتة جدا[1]، وتحدد أهمية الوصف في كونه أداة فنية تمكن السارد من الإبداع « إن الوصف أصل الإبداع والسرد مجرد مظهر أو تقنية من أجل ذلك فإن السرد لا يكاد يظهر حتى يتمازج مع الوصف تمازجا طبيعيا وحيث يحضر الوصف يضعف السرد بحيث يمكن تمطيط الكلام أو تسطيحه فالوصف ألزم للسرد من السرد للوصف إذ غاية السرد إنما هي تحديد الوجه الزمني والدرامي للسرد من قيود الوصف على حين أن الوصف يكون تعليقيا لمسار الزمن وعرقلة تعاقبه عبر النص السردي »[2].

إن الوقفة إجراء ذو طابع فني يعمل على تعطيل زمن القصة أو الحدث النامي إلى الأمام، فبينما يستمر زمن الإخبار أو الخطاب عن طريق الإطناب « الذي يعلق الزمن ويحدث نتوءا شاقوليا فيتوقف مجرى الأحداث، فالقارئ العادي يتعرف من الوهلة الأولى ودون تردد إلى الوصف وأنه قادر على تخطيه ليصل إلى الأحداث واللحظات الحساسة في السرد. إن الوصف الذي لا يمكن للسرد أن يستغني عنه يبطء دوما مجرى الأحداث أو الحكاية، ويختلق نتوءا في مستوى النص »[3]، فتفسح المجال للتوسعة الزخرفية التي تتعلق موضوعاتها بالمكان والشخصيات والأشياء. فيرسم السارد أجزائها، وأحوالها، وحركتها، ومواقعها في المكان والزمان وللوقفة وظائف عدة (الوظيفة الزخرفية، والوظيفة التفسيرية، والوظيفة الإيهامية)، وبذلك يمكن التمييز بين نوعين من الوقفة وقفة داخلية يرتبط الوصف فيها مع أحداث الحكي، ووقفة خارجية الوصف فيها مستقل عن أحداث الحكي[4].

---

[1]- محمد العمامي، بحوث في السرد العربي، ص 18.

[2]- عبد المالك مرتاض، ألف ليلة وليلة (تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1993م، ص 86، ص 87.

[3]- محمد نجيب العمامي، في الوصف بين النظرية والنص السردي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط 1، 2005م، ص 59.

[4]- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 176.

يتبين في نصوص الأخبار أن السارد الخارجي يميل إلى بطء السرد، فالوقفة تأتي مع المقاطع الوصفية التي يتوقف فيها السرد. ليقدم السارد العليم المحايد توضيحه حيث يسمح الوصف بتمطيط الحكي لتفسير تفاصيل الحدث التي جاءت موجزة ومن أمثلته ما جاء في خبر الفقيه الشاعر ابن خميس التلمساني يفتتحه السارد بجملة مكثفة حددت سمة شخصيته التي تميز بها فيما نقل عنه من أخبار « وكان من أهل علم السمياء وأخباره فيها مشهورة»[1]، ثم ينتقل لسرد الخبر الذي يفتتحه بمقدمة ينقل فيها معلومات تظهر أوصاف بيته الفقير التي ارتبطت بظهور موقفه الغريب المتمثل في عرضه الاستضافة على صديقه بحضور شخصية العارف بحال البيت فيدفعه ذلك لمسايرتهم فيتوقف السرد يقول:« فمن أعرفها ما حدثنيه غير واحد من الثقات أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن خميس كان مسكنه بيت فندق فرشه سلايخ الضأن لا غير واتفق أن دخل تلمسان صاحب له من غيرها فدعاه للقرى بمحضر من يعرف حاله ورثة مسكنه وفرشه فاستغرب ذلك ولم يفارقه إلى وقت المبيت ورواح الضيف فسايرهم المستغرب من حاله المذكور »[2]، فالسارد كان يدفع بحدث الاستضافة نحو الأمام ولكنه بمجرد تولد شعور الاستغراب المسؤول عن تشكل الرغبة لدى شخصية العارف بزيارة البيت مجددا يضطر السارد إلى إيقاف اندفاع الحدث والتنازل عن مهمة القيام بوصف بيت الفقيه وتقديم صورة لأوصافه مرة أخرى للمسرود له « قال: فلما دخلنا الفندق رأيت بابا لم أعهده ففتحه ابن خميس ودخل ودخلنا معه فإذا أسطوان دار به خادمة تحمل شمعة فتقدمت بين يدينا إلى دار رحبة ومساكن حسنة فدخلنا منها إلى بيت ذي فرش رفيهة فلما استقر بنا المجلس دعا بالطعام فجيء منه بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين فنلنا منه ما شئنا ونمنا وأنا أقفي العجب مما

[1]- بغية الرواد، ج 1، ص 145.

[2]- ن م، ن ص.

رأيت فلما أصبح خرج ابن خميس بضيفه وتركني نائما فلم أنتبه إذ طلع النهار إلا وأنا مضطجع على هيدرة بيته التي أعرف»[1].

نلاحظ أن الوصف في هذه الوقفة يبدأ بالفعل " قال " الذي يعمل على إيهامنا بواقعية كلام الوصف حيث نشعر أن دور " الشخصية الواصفة " يقتصر على محاكاة مكان سابق للمعرفة، بكل دقة وموضوعية وقد انطلق في وصفها من استحضار الأجواء العجيبة التي حولت البيت من مكان للطمأنينة والمتعة حيث اختار السارد المتخفي خلفها، وقت الليل لتحريك حدث انتقالها مع شخصيتي الخبر بين أقسام البيت ليقدم أوصافه التي اتسمت بالرفاهية والترف لتكون من جهة أول مناسبة لإدخال السرور والتعجب على نفسيتها، ومن جهة ثانية أكثر مناسبة لإدخال السرور والراحة على نفسية الفقيه وضيفه، وهذا ما يدل على أن كل من الحكي والوصف نازع الآخر في أداء مهمته مما جعل الوصف اللفظي يتميز بالحيوية وهو يوظف بعض الأوصاف الجزئية لعناصر البيت (باب يفتح، وخادمة تحمل، ودار رحبة، ومساكن حسنة، وبيت فرشه رفيه، وطعام متنوع (كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين)) لينقل لنا الصورة البصرية لتحول حال البيت.

وهكذا تمكن الحكي باعتماده أسلوب الإطناب في الوصف من أداء وظيفته الأساسية على مستوى الإيقاع الزمني، برسم معالم البيت الجديدة المفعمة بأحاسيس التعجب والاستغراب، والتي عملت على إبطاء زمن الخطاب وذلك بإيقافه مما أدى إلى توقف التطور الخطي لأحداث الخبر وتوسيع مساحة الحكي ليتيح الفرصة أمام المتلقي كي يتأمل صورة الموصوف التي دعمها بإيحاء دلالي احتوى عليه الحدث الأخير الذي اختتم به الخبر، حيث أعلن أن التحول الذي عرفه المكان طارئ يحدث فقط في وجود الفقيه ليوجه المتلقي إلى تلمس صفته المميزة التي عرفها عن طريق الإيجاز الوصفي المكثف في بداية النص، وقد بنى عليها مشروعه السردي فالوصف « يشد انتباه القارئ إلى عنصر دلالي

[1]-ن م، ن ص.

من النص قد يكون شخصية أو شيئا أو فعلا أو غيرها. وإذا ما وقف الكاتب وأوقف القارئ على هذا العنصر من العالم النصي فلا بد من التساؤل حول وظيفة هذا العنصر أو وظائفه. فالوصف أسلوب كتابة وخطاب له بنية شكلية وطرائق اشتغال داخلي وله أيضا بنية دلالية متينة الصلة بسياقها السردي والمقاصد التواصلية للواصف »[1]، التي يسعى لتوضيحها باستخدام الإطناب المؤسس على لغة الوصف معتمدا تقنية الوقفة.

وقد يلجأ السارد العليم المحايد، لتوظيف الوقفة ليعطي الأفعال داخل الأحداث وصفا متحركا يلتحم فيه السرد بالوصف، ليصف الحركات والهيئات بشكل يجعل الوصف مجرد سرد أفعال تتعاقب داخل الحكي وقت تسلسلها الزمني حيث يتداخل الحكي بالوصف في سياق حكائي متكامل[2] كما جاء في الخبر النادر لعبيد الله الشعي مع الحجاني يبدأ بذكر الحدث الذي يمهد للوصف فالسارد يعلمنا بأن عبيد الله لما كبر خاف على ضياع ملكه الذي استقام له بالقيروان على يد عامله الحجاني المستبد بأمر كتامة، فأرسل إليه كتابا يدعوه إلى حضرته هو وأعيانها، فوصل إليه بعد مدة برفقة عدد كبير منهم يقول:« وذكر بعضهم أن عبيد الله لما صحت له ولاية القيروان أرسل مولاه الحجاني إلى كتامة عاملا عليهم، وتكاثر أمره واشتد سلطانه، فلما كبر عبيد الله وخاف من الحجاني على عقبه من بعده أن يفسد عليهم سلطانهم أرسل إليه عبيد الله وقال: أقدم إلي بوجوه كتامة فإني قد كبرت ورق عظمي وأنا في آخر عمري، وأريد أن تقدم علي عاجلا لأوصيك بوصايا فلما وصل كتاب عبيد الله إلى الحجاني انتخب من وجوه كتامة عددا كثيرا فأقبل بهم إلى القيروان»[3]، فيلجأ السارد إلى تخفيف مجرى السرد قليلا ليتوقف عند القصر ليرسم لنا باستخدام الوصف الممتزج بالسرد صورة متحركة لأفعال العذاب التي اتصف بها وبالغ الأمير في إعدادها لاستقبال عماله قائلا: « فلما أتى القيروان، وقد بنى بها عبيد الله قصرا

[1]- محمد نجيب العمامي، في الوصف، ص 174.

[2]- محمد نجيب العمامي، بحوث في السرد العربي، ص 38.

[3]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 166

كبيرا وجعل عليه غرفا. أدخله هو وأصحابه في بعض غرف القصر وأعطاهم طعاما وشرابا فلما أخذت فيهم الخمر مأخذها أضرم من تحتهم نارا من سقف و أحف بالقصر رجالا عليهم السلاح، فلما أحسوا بالنيران صاروا يتساقطون من القصر: فمن أفلت من النار قتله الرجال اللذين حفوا بالقصر، إلا ما كان من الحجاني فإنه لما أحس بالنار قفز قفزة صار بها خارجا من القصر[1]».

في هذا السياق الذي يتداخل فيه الوصف بالسرد بصورة لافتة أفسحت المجال لينجز كل منهما الدور المسند إليه، فالسرد اتخذ نمط الحكي الوصفي بتحريك الأفعال عبر تعاقبها نحو الأمام ليصف لنا الشخصيات، وهي تواجه أشد أنواع التعذيب الذي جهز به القصر. أما الوصف فقد استخدم أسلوب الإطناب ليمطط ألفاظ الكلام ليحدد أوصاف القصر الرهيب (قصر واسع به غرف، وغرفة بها طعام وشراب، وتحتها نار من سقف، وأحف به رجالا عليهم السلاح) وتابع الوصف تحريك حدث التعذيب خارج القصر، ليصف لنا الشخصيات وهي تتحرك نحو بشاعة القتل الذي ينتظرها، وبذلك فإن كل من الوصف والسرد ساعد أحدهما الآخر في أداء مهمته مما جعل هذا الوصف البصري ينزاح عن السكون ويتميز بالحيوية فبث الحركة في الشيء الموصوف « يكسب الوصف حركية ويصيره مستساغا فلا يتفطن بيسر إلى أنه ضرب من النتوء النصي ولا إلى أنه وقفة تعطل سرد الأحداث تعطيلا تاما»[2]، فيلجأ السارد إلى تحريك زمن السرد فيظهر الحوار الذي يعتمد على أسلوب المساواة بين كلام الشخصيات فيختفي وراءه السارد حتى يتماهى مع مرويه ليكشف لنا عن الطبيعة المستبدة لشخصية عبيد الله الشعي، التي تفتقر إلى أدنى مشاعر الرحمة تجاه من تراه منافسا لها على الحكم حتى وإن كان من أتباعه المخلصين ليتمكن من تجسيد صورة القصر الرهيب في ذهن المتلقي، ليستوعب بشاعة

[1]- ن م، ن ص.

[2]- محمد نجيب العمامي، في الوصف، ص 80

أوصافه التي حولته من قصر للراحة إلى سجن للموت مارس فيه منشئه وسجانيه أبشع جرائم التنكيل والقتل وهو ما أكدته العبارة المكثفة التي حددت المصير البشع للحجاني« فأمر به فذبح في طاسة »[1].

أما على مستوى الإيقاع الزمني، فقد عمل الوصف على إبطاء ضئيل لزمن السرد، دون توقف للزمن الخطي للأحداث، فتتسع مساحة الحكي لترسم معالم القصر، التي ارتبطت بحركة الشخصيات ليكون أشد تأثيرا على نفسية المتلقي لتندمج في عالم المشاعر المتوترة التي عاشتها الشخصيات وهي تواجه فاجعة التنكيل والموت ليهيئه السارد لتقبل رفع وتيرة الزمن الخطي لسرد الأحداث ليتحقق التساوي الذي يسمح باستمرار اتساع مساحة الحكي بما يتيح له التقاط أنفاسه التي تملكها الخوف والاضطراب أمام بشاعة ما يرى من وصف لتأمل السلوك المتعصب الذي اتسمت به شخصية الأمير لتوجيهه نحو اكتشاف موقف السارد الرافض للمذهب الشيعي المستبد بحكم المغرب.

وعلى هذا النحو يتضح أن استحضار السارد العليم المحايد للماضي بالحكي عن خبر مقتل الحجاني الذي اعتمد فيه الإطناب في وصف جريمة القصر ما هي إلا حيلة حملت مضمون الموقف الإيديولوجي للمؤلف الذي يعكس طبيعة الصراع القائم بين الشيعة والإباضية داخل المجتمع خلال تلك الفترة الزمنية حيث عمل الحوار على إضاءته أكثر وهو ما أكده ضمنيا في تعليقة الذي اختاره ليختم به سرده للخبر يقول:« فأظهر عبيد الله التشيع في أرض المغرب حتى مات وولي من بعده ابنه القاسم بن عبيد الله »[2]، وهكذا فالوقفة وهي توظف أسلوب الوصف المتحرك تعكس أسلوبية المؤلف وهو يوفر التسلسل المنطقي للسرد ومقروئيته وتوقعه وعموما فإذا كان الوصف اللفظي داخلها يتلقى شحنته الزمنية من العالم الخيالي الخاص بكل مؤلف فإنه يحمل أيضا الخيال الخاص بعصرها.

[1]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 166.

[2]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 166، ص 167.

كما يلجأ السارد العليم المنفتح إلى بطء السرد عن طريق الوقفة حيث يتعطل السرد تماما كي تتولى الشخصية المحورية وصف لما هو تصوير لشيء ما من ابتكارها مما يضطره بعد ذلك للتدخل بتعليق يبرز فيه سلوكها الهام الذي اتصفت به، متيحا لنفسه بعد ذلك إنهاء السرد بتفسير يبرر أو يوضح الوصف فعندما يقدم السارد في خبر الإمام المعز حدث اقتراب وصول جيشه إلى عاصمته المنصورية بأمير كل من سجلماسة وفاس الخارجين عن سياسة الدولة كأسيري حرب، بعد تمكنه من هزيمتهما حيث يقوم في أثناء ذلك بترسيخ موضوع الوصف وتعيين عنوانه بدقة « قال ولما قرب وصول الجيش من المغرب إلى الحضرة أمر الإمام المعز لدين الله لابن واسول وابن بكر بعمل عجلتين ليكون كل واحد منهما على واحدة تجر به في حين النداء عليه وذلك مما لم يعلم أنه سبق إليه ولا رآه أحد »[1]، فالحدث يحدد اسم الشيء الموصوف بدقة " العجلتين "، وهو وصف من الدرجة الثانية يفوض السارد أمر إنجازه للمعز ليصور ما هو تصوير لواقع من ابتكاره يقول « وجعل يصفهما للنجارين »[2]، ليشرع في ذلك من خلال تركيز الوصف على الواحدة منهما باعتبارهما صورة طبق الأصل حيث يعتمد فيه على الذاكرة لأنه صاحب الفكرة في صنعها « فقال: يجعل سطح من ألواح وعلى خشبة مصلبة وترفع على أربعة فلك ويبنى عليه برج من ألواح واسع الأسفل ضيق الأعلى يكون طوله عشرة أذرع، ويكون في أسفله قفص من خشب ويشق له من خلفه باب يدخل فيه أسير ويغلق عليه وله سقف فوق تابوت من البرج، له باب يفتح ويغلق، وفيه شباك يسير بمقدار ما يدخل منه الضوء، وفي وسط القفص خشبة عظيمة كصاري المركب في أسفلها مرود على سطح السرير يخرج من وسط سقف القفص وسقف التابوت الذي فوقه ويظهر على سقفه منهما مثل قامة، وعلى رأسها سرير بمقدار ما يجلس فيه الجالس حول حاجز من شباك مخروط يمنع من السقوط عليه وليكن في التابوت رجلان لا يريان وفي الخشبة

[1]- المجالس والمسايرات، ص 385.

[2]- ن م، ن ص.

معهما وتدان بهما يديرانها فيدور السرير الأعلى بمن يكون عليه ليرى كل من حوله وجهه ولا يعلمون بم يديره »[1].

ينبني الوصف في المقطع على أسلوب الإطناب الذي يتبع فيه الواصف خطة محكمة يعتمد فيها على الوصف اللفظي الزخرفي الذي يهتم بتفريع الألفاظ وذلك من خلال ذكر جملة من خصائص الموصوف التي تعبر عن صفات كل العناصر المكونة للعجلة (السطح، والخشبة، والبرج، والقفص، والتابوت، والسرير، والشباك)، فيتشعب الوصف ويتمدد المقطع الوصفي فيتم التحول من العام إلى الخاص ومن الكل إلى الجزء من خلال رصد خاصيات كل مكون بدقة متناهية (المادة، والحجم، والشكل)، وقد قام السارد بمحو جل العلامات التي يمكن أن تحيل إلى الذات الواصفة، وأحل مكانها علامات الوصف (العناصر، والخاصيات، والتعداد) التي وظفها ليشكل زمنية داخلية قائمة على التعاقب تسمح له بمشاركة الشخصية المحورية في الرؤية والوصف الموضوعي، ليكشف لنا عن الدافع النفسي الذي دفعها لصنع العجلة وتجلى في رغبتها تعذيب الأسير حيث حرص على استقصاء مظاهرها عبر مراحل الوصف لينتهي المقطع بالكشف عن الصفة العجيبة الدوران التي ميزت القفص المثبت على العجلة وشكلت قمة الاختراع الذي توصل إليه المعز في ميدان التنكيل والتعذيب.

إن هذا الإسهاب الزخرفي الذي تميز به الوصف عمل على تجميد زمن الخطاب، فأوقف التطور الخطي للأحداث وحد من اندفاعها إلى الأمام، فأسهم في توسيع مساحة السرد في النص ليوفر على مستوى الإيقاع الملمح الزمني للوصف الذي يعكسه التماثل الحاصل بين سكونية الحدث من جهة وهدوء بال السارد المتخفي وراء الشخصية المحورية وهو ينقل الوصف بكل برودة أعصاب، وهو ما جعله يحمل معاني أبعد من كونه مجرد وصف تعريفي بالشيء الموصوف حيث عمل السارد على توظيفه داخل

[1]- ن م، ص 385، ص 386.

الخبر كحيلة فنية تؤدي مقاصد الوعظ عن طريق تخويف وترهيب المتلقي حيث قدم له معلومات تفصيلية أتاحت له الوقوف على طبيعة الشخصية المتعصبة في فرض سياستها المذهبية بالقوة، ويعكسها حرصه الشديد على تسخير ذكائه في التفنن في ابتكار وإبداع وسائل التعذيب التي أضفاها على العجلة العجيبة حيث أعدها خصيصا لجر الأسير لإهانته وتعذيبه ليتمكن بذلك من تخويف الشعب أثناء الاستعراض الذي كان ينوى القيام به بالمنصورية احتفالا بنصر جيشه على غرار ما كان يفعله أباطرة الرومان عند عودتهم بالأسرى وأسلاب الحرب إلى روما. وهو ما دفع السارد إلى إكمال السرد ليعبر عن هذا الإيحاء الدلالي صراحة بكشفه عن مشاعر التعجب التي أبداها أمام براعة الابتكار قائلا « فتعجبنا لذلك لما عمل ورأيناه كيف اخترع ذلك واهتدى إليه »[1].

ونلاحظ أن السارد العليم المنقح يواصل الحكي باللجوء إلى التواري من جديد خلف الشخصية الرئيسة ليتيح له ذلك تقديم تفسير ديني ينفي فيه صفة العصبية التي حملها الوصف ليحيلنا على حدث كرامة الرؤية التي تجيز للإمام المعز القيام بفعل التعذيب لردع أعدائه الخارجين عن طاعة مذهبه « فقال رأيته فيما يرى النائم في أخذ الفاسقين بمدة فجعلت أنظر إليه كما هو الآن بين يدي وأقبله وأقول ما هذا؟ فيقال لي: هذا يكون ينادي على أعدائك عليه ففهمت صورته وعملته على ذلك »[2]، فلعبة التلاعب بالإيقاع أتاحت للسارد تسريع السرد عن طريق أسلوب الإيجاز مما يسمح له بتلخيص حدث الرؤيا فلا يقدم كامل تفاصيلها بما ينم عن استخدامه الحيلة هنا أيضا لتبرير الوصف بالاعتماد على آرائه المذهبية من خلال تلك العلاقة المميزة لتداخل السرد مع الوصف التي تربط بين أسلوب الإيجار والإطناب وتعمل على تنظيم وتيرة السرد لتحقيق الانسجام الذي يجيز

[1]- المجالس والمسايرات، ص 386.

[2]- ن م، ن ص.

للسارد الانتقال من بطء السرد إلى توسيعه من خلال الإيجاز الذي يسوغ له الالتزام بالكذب السردي الذي يسوغ له اعتماد الإخفاء والتلخيص.

المظهر الثاني: السارد وأسلوب تسريع السرد

وفي المقابل لتوظيف السارد تقنيتي تبطئ السرد، فعل بتشييد من المؤلف تقنيتي الخلاصة والحذف اللتين تشتركان في تضييق أرجاء الخبر وتقصير سرعة الخطاب فيؤدي ذلك إلى تسريع السرد.

1- الخلاصة

الخلاصة هي سرد لوقائع مدة زمنية طويلة في أسطر قليلة، وتسمى التلخيص أو المجمل والخلاصة قطعة من القص متفاوتة الحجم يضغط بها السارد على الزمن فهي ضرورة زمنية تخدم العناصر السردية للنص من جهة وتكثف الأحداث حتى تتناسب مع أجزاء المتن الحكائي من جهة ثانية فهي تعمل بذلك على حماية النصوص السردية من التفكك نتيجة الإغراق في الإطناب أو الاستطراد « فوظيفة المجمل إذا هي اختصار الأحداث غير الهامة للإسراع في النص والتحكم في النسق السردي غير أن سرعة هذه الحركات السردية هي الأخرى متغيرة غير ثابتة ذلك أنه بإمكان المؤلف أن يجمل على سبيل المثال وقائع مدة زمنية من الحكاية تستغرق شهرا في بضعة أسطر مثلما يمكنه إجمالها في بضع صفحات وذلك وفق متطلبات تنظيم الخطاب القصصي »[1].

وللخلاصة وظائف منها المرور السريع على فترات زمنية طويلة وتقديم عام لشخصية جديدة أو عرض لشخصيات ثانوية، وتقديم الاسترجاع[2] وتنقسم إلى خلاصة محددة تقتضي وجود قرينة زمنية تعمل على تحديد الزمن الذي تستغرقه الأحداث الحكائية

[1]- محمد القاضي، المعجم السردي، ص 373.

[2]- ن م، ن ص.

التي تحويها وخلاصة غير محددة لا تحوي قرينة زمنية تحيل عليها، وبذلك فهي لا تعمل على تحديد الزمن الذي تستغرقه الأحداث الحكائية التي تحويها[1] ويستخدم السارد العليم المحايد الخلاصة داخل نصوص الأخبار ليروي لنا الأحداث حيث يقوم بتحديد الزمن الذي ضغط عليه بتقليص الكلام باستخدام أسلوب الإيجاز ليلخص لنا المهم منها ومن أمثلة ذلك ما جاء في خبر كرامة لعبيد الله الشعي يفتتحه السارد بتقديم ملخص للمرحلة التي عاشها بمدينة سجلماسة يقول:« فمكث عبيد الله في سجلماسة زمنا طويلا فسكن في دار وسكن رجل من سجلماسة في أسفلها »[2]، وبحيث يصبح هذا الامتداد الطويل من الزمن الذي أحالنا عليه السارد من خلال القرينة الزمنية (زمنا طويلا) يشكل الخلاصة التي أنجزها السارد باستخدام أسلوب الإيجاز بتقليص الألفاظ ليقطع بنا تلك الفترة التي عاشها عبيد الله في مدينة سجلماسة يتقاسم السكن مع رجل من أهلها، وبذلك تكون وظيفة هذا التقديم المكثف هي تحديد المرجع الزمني والمكاني لأحداث الخبر بدقة ليتمكن السارد من صنع ماضي يربط بين الشخصيات المحورية ليسهل للقارئ من خلاله تصور وتقبل التطورات التي سيعرضها السرد داخل حدث الرؤيا الذي سينتقل السارد لسرده يقول:« ثم بات الرجل صاحب الدار الساكن في أسفلها ليلة من الليالي فرأى ما يرى النائم ثعبانا عظيما مضطجعا في الدار فانتبه مذعورا فزعا ومكث باقي ليلته متململا فلما أصبح عليه طلع إلى عبيد الله وهو في علياء الدار وقد كان رآه قبل ذلك يقرأ الكتب وينظر فيها فقص عليه الرؤيا ولم يخبره بمن رآها »[3]، هكذا تبدو هذه الوحدة بمثابة مقطع ملخص أسقط منه السارد تفاصيل حدث الرؤية وأبقى على الحدث الهام الذي أبرزه من خلال جملة موجزة تضمنت رمزا أحالنا على صورة الشخصية المحورية الحقيقية التي يخفيها على جاره وسيكون لها دور أساسي في لاحق السرد حيث حاول إثبات أهميتها من خلال المحكي

[1]- سيزا قاسم، بناء الرواية، ص 56.

[2]- ناصر الموافي، القصة العربية، ص 160.

[3]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 161.

الموجز وقد اعتمد فيه على الأسلوب المباشر الذي يمتزج فيه السرد بالوصف ليتتبع حركة أفعال الجار (رأى، وانتبه، ومكث، وطلع، وقص) ليعبر لنا عن انعكاس الرؤيا على نفسيته، وتجسدت في المعنى المكثف لحالة الرعب التي شعر بها وحفزته للاستعانة بعبيد الله، وهو ما دفع وتيرة السرد نحو الإسراع بظهور الحوار الملخص الذي سيتولى نقل حدث تعبير الرؤيا « فقال له عبيد الله: إن كانت الرؤيا صادقة فالثعبان العظيم ملك يملك المشرق والمغرب، قال فلما سمع الرجل ذلك من قوله طأطأ على يده وقبلها فقال له: العفو يا مولاي، فقال له عبيد الله: مما تستعفيني فقال: أنا صاحب الرؤيا فقد رأيت في منامي أن في الدار ثعبانا عظيما، وليس معي في الدار أحد غيرك فأنت ذلك »[1]، لقد أتاح هذا الحدث القولي الذي انبنى على الإيجاز للسارد أن يمنح للشخصيات الفرصة لأن تنفرد بالكلام لتنقل لنا عن طريق الأسلوب المباشر الكلام الذي دار بينها ليكشف لنا المعبر عن صورته الحقيقية التي جاءت عبارات الرائي المختصرة (طأطأ على يدها فقبلها، والعفو يا مولاي) لتؤكدها وهو ما يحيلنا على أن قناعته بصدق الرؤيا وتحققها جاءت بسبب ما توسمه من سمات الإمارة التي لاحظها بحكم العلاقة المجاورة التي جمعتهما فتبدو أهمية خلاصة الأقوال في قدرتها بالتأثير على السرد ودفعه نحو أقصى درجات التسريع التي تظهر في النهاية المكثفة يقول:« فزاده ذلك حرصا في حاجته »[2] حيث تسمح للسارد العليم المحايد بتقديم تعليق يلخص فيه أهم الجوانب التي مثلت البداية لتتشكل شخصية الملك أثناء إقامته بسجلماسة وهو دور على قدر كبير من الأهمية يؤديه التلخيص في نهاية الخبر.

إن السارد في هذه الوحدات التلخيصية قلص القول باستخدام الخلاصة التي تتميز بطابعها الاختزالي القائم على التكثيف والإيجاز الذي يربط بين السرد الخبري وينتقل به

[1]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 161.

[2]-ن م، ن ص.

من وحدة إلى أخرى بشكل سريع إلى ما يهمه منها متجاوزا ذكر تفاصيل الأحداث التي لا تعنيه في شيء فيتشكل الإيقاع الأساسي الذي ينسجم مع خصوصية الحكي الموجز ذات الصلة الجوهرية بوظيفة أسلوب الإيجاز في تشكيل الحقيقة المرجعية للنص القائمة على الفراغات والرموز التي تستوعب الصياغة الإحالية على مستوى لغة السارد التي استخدمت في سياق هذا المجمل ليرسم صورة عبيد الله الشعي المتجسدة في ذهن المؤلف وهي أساس اشتغال الإيجاز كحيلة فنية تتمثل وظيفته المحورية في التعبير عن المعاني الإيديولوجية التي تحقق مقاصد المؤلف التي تحرض القارئ على الكره والرفض للشخصية ومعتقداتها المذهبية. ليكشف لنا بذلك عن طبيعة الصراع بين الإباضية والشيعة الذي عاشه المغرب خلال فترة حكمها ونتيجة لذلك فالخلاصة تقنية تقدم للقارئ حقائق وانطباعات عن حوادث القص لأنها تضع معطيات الماضي في حاضر القصة وتفسح بذلك المجال أمامه لكي يستجمع صورة الأحداث كما يريد له السرد أن يلم بها[1].

وقد تبين أن السارد العليم المحايد يعتمد في تقديم أخباره على الخلاصة ليجمل لنا ما سمعه أو نقله من الأحداث التي يراها مهمة، ليسمح له ذلك التدخل في نهاية الخبر لتنقيحه برأيه فاسحا المجال للقارئ للتمعن في الأحداث التي يصل بينها بخيط السرد ليتدبر وعظه الذي يهدف إلى إرشاده، ففي خبر منقبة للمعز يبدأ بملخص موجز محدد « قال وركب المعز يوما من أيام الربيع إلى مكان وصف له أنه فيه زهرا حسنا ونبتا عميما وفي الطريق الحامل إليه مثل ذلك»[2]، يتضح أن السارد يقدم عن طريق الأسلوب غير المباشر ملخصا يختصر حدث خروج المنصور في يوم من أيام الربيع وعبر عباراته الموجزة لخص صفات المكان وبدون أي تفاصيل عن وصف طريقه للتشابه الشديد بينهما، وهو ما جعله يعمد إلى الإيحاء سريعا على أوصاف مكررة بما يسهم في رسم تلك البداية الدقيقة

[1]- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 145، ص 146.

[2]- المجالس والمسايرات، ص 237.

للمكان الذي سينقل سلوك المعز غير المألوف وهو يختار طريقه يقول:« فلما خرج من باب المنصورة اكتنفه الناس يسألونه حوائجهم ويدفعون أمورهم فمازال يقبل بوجهه على الواحد بعد الواحد حتى انتهى إلى المكان الذي وصف له وانصرف إليه ولا أعاره الطرف إلا اختلاسا ولا أضجره ما كان من أمر الناس فإن المشاة بين يديه يدفعون الناس فيأمرهم بتخلية من يدفعونه منهم، وإن كثيرا منهم لا يطيل مسايرته ويكرر حاجته فيأمره من حوله بالانصراف ويغمزه بعضهم إرادة التخفيف عليه حتى ينظر إلى ما خرج إليه فينهاهم عن ذلك ويأمر أن يدعوا من كلمه إلى أن يقضي حاجته وينصرف عن رأي نفسه »[1].

يعالج السارد في تلخيصه هذا فترات محورية عاشها المعز في الطريق إلى منتزهه الذي وصف له غير أنها لا تحوي سوى قدر ضئيل من الأحداث، حيث يمر مرورا سريعا باعتماده الأسلوب غير المباشر داخل الجمل الطويلة نسبيا التي تزيد عن عدد من العبارات المكثفة حيث استثنى فيها الأفعال التي قام بها ليصف أحواله التي ظهر بها أثناء انتقاله في الطريق مقبلا على قضاء حوائج الناس، فيتم التركيز على سلوكه غير المألوف المتمثل في الصبر على تزاحم الناس حيث يتم خلاله الإشارة إلى مجموعة من الأحداث المتعاقبة في حيز زمني طويل ومنه فالخلاصة تؤدي دورا عضويا واضحا في الكشف عن منطقة من الشخصية ولذلك فإن دور الألفاظ المكثفة يقتصر على الربط بين العبارات التي تكون السرعة فيها بطيئة وهو ما يجعل المعلومات بكثافتها تتناسب مناسبة عكسية مع السرعة السردية، حيث إن أهمية الحدث تصبح المسوغ لذكره بالتفصيل « وذلك اعتمادا على الرأي القائل بأننا عندما نواجه حدثا خارقا للمألوف فإننا لن نألو جهدا أو ورقا لتقديمه كاملا لقرائنا وعندما تخلو سنوات متتالية مما يستحق عنايتنا فلن نتردد في تخطيها ونغفلها عن تاريخنا ونمضي قدما لتقديم الأحداث الجسام »[2].

[1]- ن م، ن ص.

[2]- سيزا قاسم، بناء الرواية، ص 56.

وهذا المنحى القائم على الإخبار السريع بما حدث في الطريق وإهمال تفاصيل النزهة التي أحالنا عليها السرد بشكل مختصر، لا يربك المتلقي لأن المضمون الحكائي المتضمن في الخلاصة هو الذي يجعله متمسكا بالحكي ومتابعا له كما أنه من السهل عليه أن يدرك بالفكر الزمن الذي يستغرقه الفعل الحقيقي ولذلك يتسامح في تقصيره عندما يرى محكاة لذلك السلوك الغريب وقد تمكن السارد من خلق علاقة متميزة بين مواقفه الفكرية وأحداث الخبر لصياغة صورة إيطوسية[1] لشخصيته المحورية اعتمادا على مفهوم قيمي للصبر وفق رصد سلوكها المتفاعل مع موقف الازدحام قصد التأثير في المتلقي ليتدبر المقصد الذي كان منصبا على تجسيد فكرة الوعظ التي يحويها المجمل يقول: « وهذا دأبه في أكثر خروجه. ولا أعلم ولا سمعت أحد وصف بمثل ذلك من الصبر وسعة الصدر »[2]، فمن خلال هذا الثناء المذهبي يحيك السارد بتحريض من المؤلف خططه ليمتع القارئ ويعظه ويرشده متجاوزا التفاصيل التي لا تدخل في نطاق منظومة الإيطوس مما يخلق نوعا من الاتصال الحميمي بين الخلاصة والحذف.

ب- الحذف:

هو إسقاط لحدث أو أحداث من الخطاب لذلك سماه البعض فراغا أو بياضا أو قطعا أو ثغرة أي القفز عن حدث غير محكي، وهو تقنية تشترك مع الخلاصة في استخدام أسلوب الإيجاز لاختزال القول « للدلالة على مظهر من مظاهر تغير نسق السرد »[3]، بتسريع وتيرته « ويشكل أسرع حركة سردية على الإطلاق إذ هو يتمثل في قفز السرد على فترة زمنية من الخطاب بحيث لا يكون لها وجود في الخطاب فمقولة الإضمار تشير

[1]- يعرف الإيطوس، وهو إحدى الحجج البلاغية عند الإغريق– بكونه صور الذات التي تنسج في الخطاب بقصد التأثير في الآخر-. محمد الخبو نظر في القصص، مداخل إلى سرديات استدلالية، مكتبة علاء الدين، صفاقس، 2012م، هامش رقم 3، ص 54.

[2]- المجالس والمسايرات، ص 237.

[3]- محمد القاضي، المعجم السردي، ص 30.

إذن إلى أجزاء من الخطاب اختار الراوي إسقاطها لتسريع القص وتكثيفه »[1]، ويشار إليه بعبارات زمنية تحدد موضع الفراغ وظيفتها التمييز بين الحذف المعلن وهو الإسقاط الزمني الصريح أي المصحوب بإشارة محددة أو غير محددة لفترة القفز وبين الحذف الضمني الذي لا يكشف عن نفسه في النص وإنما يستدل على وجوده من الفراغ الواقع في التسلسل الزمني للسرد، والحذف الذي يصعب ضبط موقعه في النص[2]، وهو كأي تقنية أخرى في السرد يوظفها السارد من أجل إسقاط الفترة الزمنية الميتة التي يرى فيها أنها تأثر على سيرورة الأحداث وتطورها في السرد[3] فضلا عما يقدمه من ناحية أخرى من أهمية بوصفه سمة فنية عالية الدلالة حيث يأتي عن صواب لتفادي الإطالة[4] « بقوة اللامعقول أو المسكوت عنه والافتراضات المنطقية الدلالية الكامنة في كل إبداع أدبي، فبين متواليتين سرديتين ولو كانتا متجاورتين تنعقد علاقة سببية ضمنية »[5]، ومن هنا يمكن النظر في المواضع التي أفاد منها السارد العليم المحايد في توظيف الحذف ومن أمثلة ذلك ما جاء في خبر كرامة للقائد عقبة بن نافع (رضي) يتكون من مقطعين يفتتح السارد المقطع الأول منه بالسند الذي يحدد فيه اسم الراوي الذي نقل عنه الخبر بدقة ثم يشرع في سرد المقطع الأول يقول:« عن عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الحكيم قال لما فتح عقبة بن نافع ودان وفزان وأسلموا على يديه سألهم هل من ورائكم أحد قالوا: نعم أهل جاوان وهو قصر عظيم على رأس المفازة وعورة على ظهر الجبل وهو قصبة كوار فسار إليهم خمسة عشرة ليلة فحاصرهم فلم يستطع فتح الحصن فصالحهم »[6]، فالسارد بتحديده اسم الراوي بدقة يرسخ الخبر ويوثقه في الواقع التاريخي للفتوحات الذي خاضه

[1]- ن م، ن ص.

[2]- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 156، ص 159.

[3]-مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، ص 233.

[4]-حسن بحراوي، ص 222.

[5]- هيثم الحاج، الزمن النوعي، ص 175

[6]- المالكي، ج1، ص 98.

في المغرب لمنطقتي ودان وفزان حيث أسقط الحذف المدة الزمنية التي استغرقها بشكل جلي بالرغم من حدوثه، كما يبرز في عبارته الصريحة الموجزة (لما فتح عقبة بن نافع ودان وفزان) التي أحالتنا على تحديد مرجعه المكاني لتنوب عن الإشارة الزمنية على نحو بارز لا يجد القارئ معه أدنى صعوبة في متابعة السرد وتجاوز أحداث الفتح التي مر عليها مرورا سريعا باستخدام الإيجاز المكثف ليخبرنا بأهم فعل توج فتحه للمنطقتين والمتمثل في (وأسلموا على يديه) ليتوسل بالحوار الذي وظفه للكشف عن منطقة فزان، التي يريد الانتقال إليها حيث أتاح له الأسلوب المباشر تحديد موقع معمارها المتمثل في القصر الذي سينتقل لمحاصرته ويقفز على الأحداث التي تعرض إليها في طريقه والتي حدد مدتها الزمنية بدقة (خمسة عشر ليلة) ليسرع السرد نحو حدث المحاصرة الذي اعتمد في نقله على العبارة الموجزة التي استثنت أهم أفعاله (الحصار، والفشل في فتح والحصن، والمصالحة)، فتتشكل بذلك الخلاصة الافتتاحية التي اعتمد فيها على رصد انتقال الشخصية داخل المكان والتركيز على الأحداث التي تقع في كل مكان على حدة وإيجاد علاقة تجاور مع بعضها بعض باستخدام الحذف غير المعلن حيث تثبت أهمية التجاور في خلق بنية زمنية خاصة تعتمد على تجاور أجزاء من المكان « فبفضل التقنية القائمة على الوحدات الإيقاعية الصغيرة يتم ابتكار بنية زمنية غير متوقعة لا يمكن حسابها زمن مستقل كليا»[1]، حيث البداية التي تقفز على الزمن بحرية لأن السارد يريد أن يخلص النص من زوائده ليصل بنا إلى حدث الكرامة المهم يقول:« ثم انصرف راجعا، فأقام بموضع اسمه اليوم ماء فرس ولم يكن به ماء فأصابهم عطش شديد أشرف منه عقبة وأصحابه على الموت فصلى عقبة ركعتين، ودعا الله تبارك وتعالى، فجعل فرسه يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفاة فانفجر منها الماء، وجعل الفرس يمص من ذلك الماء فانصرف عقبة فنادى في الناس أن احتفروا، فاحتفروا سبعين حسيا، فشربوا وسقوا

[1]- هيثم الحاج، الزمن النوعي، ص 185.

وصار ذلك ماء معينا فسمي لذلك ماء فرس إلى اليوم »[1]، فالمقطع جاء كالمفسر للمقطع السابق، ومدار الحكي فيه عودة القائد من الفتح فيبدأ بإحالة على زمن الانصراف الذي لم يحدد السارد مدته بدقة لتتشكل مفارقة الخبر على التشابه الشديد بين المقطعين وفيه يحصل تطورا في مجرى المرجع المكاني الذي قام على اللبس حيث اكتفى بذكر اسم المكان المتحول بفعل حدث الكرامة التي ينقل لنا السارد أحداثها باستخدام العبارات الموجزة المتكاثفة التي تتسارع في مساحة زمنية قصيرة لتصنع عدة انتقالات من الدعاء إلى الاستجابة وإحساس الفرس بالماء واستخراجه وصولا إلى تفطن عقبة (رضي) بذلك، وتنبيه أصحابه بحفر البئر وحصولهم على الماء، وانتهاء معاناتهم من العطش وبذلك يأخذ المكان اسم (ماء فرس) للدلالة على حدث الكرامة وهكذا يكشف السارد عن طبيعة العلاقة التي أقامها الإيجاز بين المقطعين بالضغط على الزمن بحذف الأحداث التي كانت بعيدة عن مقاصده الحكائية ليعطي لفعل الحيلة الكثافة التأثيرية المطلوبة لإقناع القارئ وذلك أن إلغاء تحديد المرجع للزمان والمكان يقرب المسافة بين أحداث الكرامة والقارئ ويضفي عليها سمة الصدق لإدراك المضمون الحكائي للخبر الذي يضفيه الحذف.

وقد ينص السارد العليم على الحذف داخل الخبر بشكل صريح، فهو يستطيع تذكر تفاصيل المسرود ولكنه يعمل على إخفائها لأغراض تأليفية ومن أمثلة ذلك قوله في الأخبار: « ومسألة تلميذه الشيخ صالح.. لما استأذنه يوما مرارا في فرن خبز الفقراء بقوله: إن التنور قد حمي وهو يعرض عنه فلما أكثر قال له أدخل فيه ففعل ثم إن الشيخ بعد وقت تذكر طاعته فأمر تلميذا آخر بافتقاده فألفاه جالسا وسط التنور والنار تضطرم بردا وسلاما عليه إلا ما كان من تفصد جبينه عرقا »[2]. أو« فسار أبو الربيع وابن الجمع يريدان سجلماسة فلما وصلاها مكث عنده سنين عدة ومعه يزيد بن كيداد. فلما حضرت الوفاة ابن الجمع أوصى بكتبه لأبي الربيع. فلما مات أقبل إلى قسطاليا. وقد اشتهر اسمه

[1]- المالكي، رياض النفوس، ج 1، ص 98.

[2]- بغية الرواد، ج 1، ص 164، البستان، ص 112.

وعلا ذكره فطفق الناس يسألونه عن فنون العلم فكل من سأله أجابه واضطربت قسطاليا كلها من أجله وكان بها رجل مؤدب قبل ذلك لأبي الربيع في صغره قبل أن يتعلم عند ابن الجمع، فتبعه ولم يتماسك أن يقول « إنما قرأ عندي وأنا علمته يقول ذلك أينما جاز »[1]. و « قال محرز بن خلف: كان يحضر إلي رجل وكان له ولدان فقال لي أدع الله تعالى أن يعلمهما القرآن فأقام مدة ثم أتاني فقال إنهما قد قرآ القرآن ولكن أدعوا الله تعالى أن يتقبلهما مني فأقام مدة ثم أتاني فقال: قد قبل مني أحدهما ثم أقام مدة و أتاني وقال قبل الله عز وجل الآخر قال أبو محرز: فأخبرني من كان في جنازتهما قال: دخلت إلى داره فكأن ليس بها جنازة فلما أخذنا في غسله بكت امرأته، فعطف عليها فقال لها هكذا كان بيني وبينك فسكتت كأنها لم تبك»[2]

نلاحظ من خلال هذه النصوص أن السارد يستخدم المؤشرات الزمنية (بعد وقت، وسنين عديدة ، فأقام مدة) لإسقاط فترات زمنية من زمن الخطاب لم يحبذ ذكر الأحداث التي وقعت فيها ، وهو ما يؤكد تكرار استخدامه للإشارة الزمنية في الخبر الأخير للإعلان عن الحذف، كلما انتقل من زمن إلى آخر . فهي أحداث غير مهمة لأن ما ذكر فيها يعد نوعا من الإطناب، الذي لا يخدم مقاصده الحكائية فهو يريد الانتقال مباشرة إلى جوهر الأخبار (الكرامة، والمنقبة) لإيصالها بسرعة إلى ذهن المتلقي باستخدام التجاوز، بهدف إرشاده وإذاعة الخلق الكريم فمؤلف الخبر « قد يعطينا قطعة أساسية من الفسيفساء يمكن أن نرى من خلالها الزخرف كاملا لو كان على قدر من الإدراك »[3]، لسمة الإيجاز التي تعبر عن تلك العلاقة المتماثلة بين الحذف والخلاصة باعتبارهما مصفاتان سرديانان للقول، تجعل الحكي يكتسب خصوصية يدفع بها وتيرة السرد بسرعة واسعة تضيق مساحة النص مشكلة مفاصل أو محاور السرد المركزية، التي تتحول على مستوى تقنتي

[1]- السيرة وأخبار الأئمة، ص 183.

[2]- رياض النفوس، ج1، ص 492، ص 493.

[3]- هيثم الحاج، الزمن النوعي، ص 183.

المشهد والوقفة، إلى الامتداد كنتيجة لتقصير ديمومتها وتمطيط مساحة نصها لتؤكد بشكل حاسم أن نظام معنى السرد داخل الخبر قائم على أساليب علم البيان، التي تفعل الإيجاز و الإطناب والمساواة. مما يؤكد عمق البلاغة اللغوية للسارد في بناء أسلوب ينظم إيقاع السرد ووتيرته.

ونخلص من خلال إدراك تشكل البنية اللغوية بتتبع مميزاتها السابقة أنها بنية تتميز بتعدد السارد الخارجي و بتوظيف أساليب متنوعة لتشكيل الإيقاع والتي تجعلنا نقر أن فهم مظهر اشتغال اللغة داخل نصوص الأخبار المغربية، يقوم على فهم الرؤية المجاوزة للسارد الخارجي في نمطي (العليم المحايد، والعليم المنقح) والتي تجعله بنية أساسية في عملية القص ضمن مرتبة ذات أهمية مركزة تتوزع مهامها في أكثر من اتجاه وهي تؤدي وظائف (جمالية، وإيديولوجية، ودينية روحية) يمثل فيها دور القائد والناظم لأسلوب العملية السردية سواء كان دوره محايدا أم منقحا، لأن كل عملية لإعادة إنتاج النص الخبري ينضاف إليها انتقاء خلاق للغة باستخدام أساليب مباشرة وغير مباشرة تظهر على مستوى تقنيات زمنية يستخدمها الخطاب لدفع حركة اللغة نحو التواصل والديمومة من الماضي إلى الحاضر فاللغة بالنسبة للخبر تمثل القوام المادي[1] للتصور القصصي لبنياته الحكائية والسردية « تماما مثلما يمثل اللون بالنسبة للرسم، والحجر بالنسبة إلى النحت، والصوت بالنسبة إلى الموسيقى»[2]. فهي تتميز بفاعلية اجتماعية عالية باعتبارها الجهاز البلاغي المحقق لغايتي الإيجاز و الإطناب أثناء حمل ونقل تجارب شخصياته، فمنحت لنفسها الحرية لتروى وتنقل لتقول ما تريده لتتقاسم النفوس التجربة للتواصل روحيا لأنها تخاطب في الإنسان وجدانه وعقله على حد سواء وهو ما منح لأنواع النصوص الخبرية صفة التميز.

[1]- يوري لوتمان، تحليل النص الشعري بنية القصيدة، تر: محمد فتوح أحمد، دار المعارف مصر، د.ط، 1995م، ص36.

[2]- ن م، ن ص.

خاتمة

لقد قصدت على امتداد هذا البحث دراسة الخبر في الأدب المغربي القديم، في تجلياته المختلفة، التي عرفتها الثقافة المغربية الإسلامية من القرن الخامس الهجري إلى غاية القرن الحادي عشر الهجري واستخلاص ملامحه وخصوصياته ولذلك حاولت مقاربة الخبر من حيث هو نص أدبي من جوانب متعددة وفي مستويات مختلفة وتوصلت إلى جملة من النتائج أهمها:

1. إن كلمة الخبر مفهوم عام متعدد المعالم موجود في ضروب مختلفة من المعارف، عرفتها الحضارة المغربية ويستخدم حتى داخل كتب الأدب للدلالة على معان متنوعة، ولهذا كان علي أن أضع الحدود الفاصلة بين هذا المفهوم والمفاهيم الأخرى التي ظهرت إلى جانبه، واعتمدت في ذلك على تتبع مفهوم الخبر داخل المعاجم العربية للوقوف على بعض الملامح المميزة له داخلها، وكذا من خلال بعض التوظيفات الخاصة التي صادفتها في المصنفات الأدبية التي اعتمدت عليها داخل مدونة البحث، وقد مكنني هذا التتبع من تحديد علاقته ببعض معاني المفاهيم المجاورة من أهمها القصة، الحكاية حيث توصلت إلى الوقوف على بعض الملامح التي ساعدتني على تمييز الخبر عن غيره من المفاهيم.
2. حاولت من خلال التركيز على مقوم القصصية أن أحدد ظاهرة واحدة هي الخبر متجسدة في نصوص مختلفة زمانا ومكانا لأصل إلى أن المقصود بالخبر إنما هو الخبر الأدبي القصصي بأشكاله المختلفة الموجزة والممتدة، والذي وجدته في كتب مختلفة من أنواع المعرفة التي ظهرت في المغرب العربي (السير، والتراجم، والتاريخ).
3. هذا التحديد سيكتمل باعتماد التتبع الثاني الذي ركزت فيه على معايير نظرية الأجناس الغربية باستخدام بعض المقاييس التي قدمتها لنا دراسات اهتمت بالخبر كشكل سردي بسيط حيث انطلقت منها لتجنيس الخبر باعتباره نوعا سرديا يرقى

ببساطته إلى مستوى " جنس" يتفرع إلى مجموعة من الأنواع قمت بتحديدها (المنقبة، والنادرة، والكرامة).

4. قمت بتحديد إطار الخبر الأدبي كنوع سردي يشكلمجال اشتغالي داخل المصادر التي اعتمدت عليها لاستخراج مدونة البحث وقد خضع مقياس اختيار نصوص الخبر لعامل مهم يتسم به التراث المغربي وهو ضياع مؤلفات المغاربة في هذا المجال ولذلك وجدت، في كتب (السيرة، والتراجم، والتاريخ)، الخبر الأدبي وقمت باستخراج كمية معتبرة منه شكلت المتن الذي اشتغلت عليه حيث اتجه تركيزي نحو النصوص التي تتعلق بالبيئة المغربية وقد تم ذلك من خلال مقاربة مجموعة من المستويات السردية التي تحدد خصوصيات الخبر الأدبي المغربي.
5. مستوى البنية الحكائية: حاولت الانطلاق من المادة الحكائية لمختلف أنواع البنية الحكائية لصياغة نموذج إجرائي وفق ما يتوافق مع بعض المفاهيم التي تتقاطع مع مفهوم البؤرة وهو (الوظيفة المركزية، والوظائف الأساسية) كما سطرها كل من سعيد يقطين في كتابه " قال الراوي"، وسعيد جبار في كتابه " الخبر في السرد العربي "، وتوصلت إلى اقتراح خطاطات إجرائية لدراسة البنية الحكائية على مستوى كل من خبر (النادرة، والمنقبة، والكرامة) .
6. تشكل النموذج الإجرائي الذي قمت بصياغته من بؤرة مركزية تشترك فيها كل أنواع الخبر المغربي هي المتعة التي تختلف من حيث المقاصد [التعرف، والتفكه، والتدبر، والحيلة]، وتتفرع عنها ثلاث بؤر أساسية على مستوى كل نوع هي (التعريف، والكشف، والنهاية) حاولت الوقوف على طريقة اشتغالها من خلال نماذج خبرية ارتبطت بموضوعات مختلفة شكلت بؤرة الفعل التي تقوم عليها البؤرة المركزية المتعة.
7. تنمو هذه البؤر الأساسية أفقيا حيث يتم الانتقال عبر (التعريف، والكشف، والنهاية) لتقوم بنقل تفرعات حدث البؤرة من جوانب متعددة ترتبط بفعل الشخصية

صاحبة الخبر في علاقته بالحدث (النادر، والغريب ، والعجيب) يركز التعريف على تقديم صورة عن الشخصية مع الإشارة إلى الفعل بؤرة الحدث، ليتولى الكشف عرض تفاصيل الحدث فتأتي النهاية لتنقل العبرة من الحدث من خلال التركيز على الإثارة (الحسية، والعقلية) التي تتوخى إحداثها في القارئ بحسب الرسالة الخفية التي تسعى لنقلها وعادة ما ترتبط بالوعظ الإرشادي الذي أنتجته النصوص الموازية التي تضمنت هذه الأخبار.

8. تتمثل البساطة على المستوى الحكائي في الانتقال السريع والمكثف من بؤرة إلى أخرى داخل الخبر الموجز حيث يرتبط التعريف بالنهاية في مساحة خطابية لا تتجاوز الأربعة أسطر في الخبر شديد الإيجاز حيث يتم تقديم بعض الثوابت الحكائية التي تقوم بتأطير الحدث (زمنيا ومكانيا) مما ينحو بالبنية النسقية نحو التجديد، ويعتمد الانتقال داخل البنية الحكائية المركبة (الخبر الممتد إلى الخبر شديد الامتداد) على توسيع المساحة الخطابية على مستوى البؤر الحكائية حيث يعتمد السارد على الإطناب في حكي بعض التفاصيل المرتبطة بالثوابت الحكائية التي يقوم عليها الحدث مما يزيد البنية الحكائية أكثر نسقية ووضوحا حيث تتسم بالتركيب.

9. إن منظومة الموضوعات التي ارتبطت بالبؤر وعملت على تقديمها خضعت لتلك الأنسجة الثقافية التي تضمنت الخبر وأدت إلى خدمة خطابها الوعظي بما يحقق الأهداف الإرشادية التي خضعت إلى نشر المعتقد الديني الذي يتبناه مؤلف الخبر.

10. مستوى البنية السردية: فالبنية الحكائية البسيطة والمركبة ستكون موجها لمكونات البنية السردية الثلاث (الزمن، والمكان، والشخصيات) وتحديد مميزاتها من حيث الإيجاز والامتداد، وفي هذا المضمار قدمت لنا النظرية السردية طائفة من المفاهيم التي اعتمدنا عليها لمقاربة هذه المقولات الثلاثة بما يخدم الأبعاد السردية التي تضمنها الخبر.

11. لقد حاولت دراسة الزمن من خلال مفهوم الترتيب عند جيرار جينيتبدراسة حركة الحكي هل تسير إلى الأمام أم تعود إلى الخلف وفق تتبع أقسام المفارقة الزمنية (الاسترجاع والاستباق) التي تشكل العمود الذي يقوم عليه الترتيب داخل النص السردي.
12. اهتم النص الخبري بتوظيف الاسترجاعات الخارجية بشكل كبير حيث شكلت وسيلة من وسائل تمديد الخبر، وأدت وظائف جمالية عملت على إضاءة ذهن القارئ بمعلومات مهمة تتعلق بتفاصيل حول بنية الفكر عند الإنسان المغربي القديم وأدت وظائف دينية وإيديولوجية بلغت مبلغا تمجيديا في نماذج وسلكت مسلكا توجيهيا تربويا في نماذج أخرى.
13. جاء توظيف الاسترجاعات الداخلية بأنواعها المختلفة خدمة لإيديولوجية السارد حيث استخدمه كوسيلة لتمديد الخبر أو لتكثيفه وكان الغرض منه في بعض النماذج الكشف عن الصراع السياسي الذي عرفته المنطقة بين المذهب السني والشيعي أما الاسترجاع المزجي فإننا لاحظنا أن السارد لم يعتمد عليه إلا نادرا، حاول من خلاله تمديد الحكي بما يخدم توظيف المكون الديني داخل الخبر.
14. تعلق توظيف الاستباقات بأنواعها بالخبر الكرامي الممتد والموجز فأدى وظائف جمالية وإيديولوجية قامت على التخويف لنشر خطابها الإرشادي.
15. حاولت في دراسة الفضاء الوقوف على أقسامه داخل النصوص الخبرية من خلال اعتماد التقسيم الثنائي المتناقض (المفتوح، والمغلق) لمحاولة الوقوف على خصوصيته التي تجلت فيها الدلالة المرجعية التي كانت أقرب إلى البيئة المغربية القديمة التي شكلت بخصوصياتها الخطاب الإيديولوجي للسارد والذي عملت نصوص الخبر على نشره.
16. أما دراسة الشخصيات فقد جرت الاستعانة فيه بنموذج تقسيمها الثنائي إلى شخصيات رئيسة وشخصيات ثانوية حيث حاولنا استقراء أنواعها بحسب الدور

الذي تؤديه داخل الحكي و قد اعتمد السارد داخل الشخصيات ذات الدور الرئيس على ثلاثة أنواع من الشخصيات (الدينية، والسياسية، والعلمية) أما داخل الشخصيات ذات الدور الثانوي فقدم شخصيات أساسية لها علاقة بالدور المحوري للحدث وأخرى عادية اقتصر دورها على توضيح بعض ملامح الشخصية الرئيسة استغنى عليها الحكي في مواضع كثيرة، وقد تم عرضها من خلال الوصف الذي عمل على تمديد الحدث وتوسيعه.

17. مستوى البنية اللغوية: اعتمد السارد المغربي في صياغته للكثير من أخبار المدونة على ضمير الغائب لبناء رؤيته المجاوزة التي حددت دوره المحايد أو المنقح فتشكل بذلك أسلوبا أدبيا خاصا به عكس قدرته في التحكم في تقنيات الزمن التي وظفها وفق أساليب السرد المباشرة وغير المباشرة والتي ولدت صياغة تتبني على الإيجاز والإطناب لتحقيق مقاصده الحكائية بالوصول إلى المعنى والأهداف التأثيرية التي كانت وراء حكيه للخبر .

وهكذا فقد شغل الخبر في التراث العربي المغربي القديم حيزا عظيما يصعب معه على الباحث أن يلم به ويدرك جزئياته، ولذلك فإنني أرجو أن أكون قد وفقت في استخلاص بعض السمات الأساسية للخبر الأدبي والتي قد تلفت عناية الباحثين إلى أهمية هذا الرصيد التراثي، وعسى أن تقنعهم الدراسة بأن السبل ما تزال مفتوحة أمامهم لمساءلة النصوص التي تشكلت منها مدونة البحث لرد الاعتبار لهذا النوع النثري المغربي المهمش.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

1. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط2، دت.
2. إبراهيم الحصري، المصون في سر الهوى المكنون، تحق: النبوي عبد الواحد شعلان دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د ط، 1990 م.
3. إبراهيم بن علي الحصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر، تحقيق: رحاب عكاوي، دار المناهل، بيروت لبنان، ط1، 1993م.
4. إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية بيروت لبنان، ط1، 2001م.
5. إبراهيم بن علي الحصري، نور الطرف ونور الظرف (كتاب النورين)، تحق: لينة عبد القدوس، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط1، 1996م.
6. إبراهيم بودشيش القادري، المغرب والأندلس في عهد المرابطين - المجتمع، الذهنيات، الأولياء-، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993م.
7. إبراهيم خليل، بنية النص الروائي، منشورات الاختلاف الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون لبنان، ط1، 2010م.
8. إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم الأنواع والوظائف والبنيات، منشورات الاختلاف الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 1993م.

9. إبراهيم عبد العزيز، السرد في التراث العربي: كتابات أبي الحيان التوحيدي نموذجا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2009م.

10. أحمد الخفاجي، المصطلح السردي مؤسسة دار الصادق الثقافية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 2012م.

11. أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية، تحقيق: رابح بونار، الشركة الجزائرية للتوزيع، د ط، 1981م.

12. أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية، تحقيق: محمد بن أبي شنب، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، ط1، 2007م.

13. أحمد بن سعيد الدرجيني: طبقات مشايخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي، دار البعث، قسنطينة الجزائر، د ت، د ط.

14. أحمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، تحقيق: محمد نصار، دار جوامع الحكم، القاهرة، د ط، د ت.

15. أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة تحقيق: مصطفى السويمي، بيروت، 1964م.

16. أحمد درويش، تقنيات الفن القصصي عبر الراوي والحاكي، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط1، 1998م.

17.أحمد بن محمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، نشر اللجنة المشتركة للتراث الإسلامي، المملكة المغربية، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1980م.

18.أحمد بن محمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى الستار وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، طبع صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات المتحدة، د ط، 1980م.

19.أحمد بن محمد بن خليكان، وفيات الأعيان وأناء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د ط، 1972م.

20.إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن الكريم، دار الفكر، مصر، د ط، د ت، ج4.

21.إسماعيل المجدوع، فهرسة الكتب والرسائل 52، طهران، 1966م.

22.إيليا الحاوي، في النقد والرواية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج4، ط1، 1980م.

23.بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، 1984م.

24.بشير الوسلاتي، مقاربات في الرواية والأقصوصة، منشورات سعيدان، سوسة، تونس، ط1، 2001م.

25.بوشوشة بن جمعة، اتجاهات الرواية في المغرب العربي، المغاربة للطباعة والنشر، تونس، ط1، 1999م.

26.تادايوش ليفيتسكي، المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة: ماهر جرار وريما جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 2000م.

27.جاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هالسا، دار الحرية، بغداد، 1980م.

28.جان ريكاردو، قضايا الرواية الحديثة، ترجمة: صباح الجهيم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1997م.

29.جلال الدين بن عبد الرحمن الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2003م.

30.جمال الدين بن منظور الافريقي، لسان العرب، دار الصبح، بيروت لبنان وإديسوفت، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م.

31.- جميل شاكر وسمير المروزقي، مدخل إلى نظرية القصة، الدار التونسية للنشر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1985م.

32.جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم عبد الجليل الأزدي، عمر حلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1996م.

33.جيرالد برانس، المصطلح السردي، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الأعلى الثقافي، القاهرة، مصر، ط1، 2003م.

34.جيرالد برانس، قاموس السرديات، ترجمة: سيد إمام، ميريت للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2003م.

35.حازم بن محمد القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، 1966م.

36.حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان، ط2، 2009م.

37.حسن بن رشيق المسيلي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ط1، 2001م.

38.حسن بن رشيق المسيلي، أنموذج الزمان في شعر القيروان، تحقيق: محمد المطوي، وبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1991م.

39.حسن حسني عبد الوهاب، ورقات في الحضارة العربية بإفريقية، قسم 1، 2، 3، 4، منشورات مكتبة المنار، تونس، ط2، 1981م.

40.حميد لحميداوي، بنية النص السردي من منظور النقد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م.

41. روجر ب هينكل، قراءة الرواية، مدخل إلى تقنيات تفسير، ترجمة: صلاح رزق، دار غريب، القاهرة، د ط، د ت.

42.سعاد مسكين، خزانة شهرزاد، الأنواع السردية في ألف ليلة وليلة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2012م.

43.سعيد جبار، التوالد السردي، قراءة في بعض أنساق النص التراثي، جنور للنشر، الرباط، المغرب، ط1، 2006م.

44.سعيد جبار، الخبر في السرد العربي الثوابت والمتغيرات، نشر المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004م.

45.سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت لبنان، ط1، 1997م.

46.سعيد يقطين، قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية)، المركز الثقافي، المغرب، لبنان، ط1، 1997م.

47.سليمان الطالي، بلاغة النادرة في الأدب العربي، دار كنوز المعرفة، عمان الأردن، ط1، 2015م.

48.سويرتي محمد، النقد البنيوي والنص الروائي، ج1، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991م.

49.سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ت، 1984م

50.الشاذلي بويحي، الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، ترجمة: محمد عبد الرزاق، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، 1999م.

51.شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1994م.

52.شرف الدين ماجدولين، ترويض الحكاية، الدار العربية للعلوم، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007م.

53.شعيب حليفي، هوية العلامات وبناء التأويل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة مصر، ط1، 2004م.

54.شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، مكتبة الدراسات، دار المعارف، القاهرة، د ت، د ط.

55.طه وادي، الرواية السياسية، الشركة العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط1، 2003م.

56.عبد الحق منصف، أبعاد التجربة الصوفية، الحب، الإنصات، الحكاية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007م.

57.عبد الحميد بورايو، منطق السرد، دراسة في القصة الجزائرية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م.

58.عبد الرحمان بن محمد الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: إبراهيم شبوح، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1993م.

59.عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2006م.

60.عبد الرؤوف مخلوف، ابن رشيق القيرواني، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1983م.

61.عبد الستار الراوي، التصوف والباراسايكولوجي، مقدمة أولى في الكرامات الصوفية والظواهر النفسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1994م.

62.عبد العزيز قليقلة، البلاط الأدبي للمعز بن باديس، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، د ط، 1980م.

63.عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دراسة بنيوية في الأدب العربي، دار توبقا للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006م.

64.عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1999م.

65.عبد القادر بن سالم، بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013م.

66.عبد القادر شرشار، خصائص الخطاب الأدبي في رواية الصراع العربي الصهيوني، دراسة تحليلية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1، 2005م.

67.عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي، اختيار الممتع في علم الشعر وعمله، تحقيق: محمود القطان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 2006م.

68.عبد الكريم بن محمد السمعاني، الأنساب، تقديم وتعليق عبد الله البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية، دار الجنان، ط1، 1998م.

69.عبد الله إبراهيم، السردية العربية، بحث في البنية السردية، الموروث الحكائي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، الأردن، ط2، 2000م.

70.عبد الله بن عبد القادر التليدي، المطرب بمشاهير أولياء المغرب، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط4، 2003م.

71.عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط2، 1994م.

72.عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1995م.

73.عبد الوهاب الرقيق، هند بن صالح، أدبية الرحلة في رسالة الغفران، دار محمد علي الحامي صفاقس، ط1، 2010م.

74.عساف سفين، الكتابة الفنية، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان، د ط، 1985م

75.علي الجارم، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة (البيان والمعاني والبديع)، دار المعارف مصر، ط1، 1989م.

76.علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1998م، مجلد1.

77.علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، القطاع اللاوعي في الذات العربية، ط2، دار الأندلس للنشر، بيروت، 1984م.

78.فرج بن رمضان، الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس في القصص، دار محمد علي الحامي، صفاقس، ط1، 2001م.

79.فولفغانغ إيزار، التخييلي والخيالي من منظور الأنطربولوجية الأدبية، ترجمة: حميد لحميداني، جيلالي الكدية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998م.

80.فلاديمير بروب، مرفولوجيا القصة، ترجمة: عبد الكريم حسن وسميرة بن عمو، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1996م.

81.قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر (دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د ط، 2001م.

82.القاضي النعمان بن محمد، المجالس والمسايرات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.

83.لطفي عيسى، كتاب السير مقاربة لمدونات المناقب والتراجم والأخبار، دار المعرفة للنشر تونس، ط1، 2007م.

84.لؤي حمزة عباس، سلوان السرد، دراسة في كتاب (سلوان المطاع في عدوان الأتباع) لابن ظفر الصقلي، الموسوعة الثقافية عدد(60)، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2008م.

85.مجيد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت لبنان، د ط، د ت.

86.محسن الموسوي، سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت لبنان، ط1، 1997م.

87.محمد الإدريسي، معجم مصطلحات التصوف الفلسفي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2002م.

88.محمد الخبو، الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، دار صامد، صفاقس، ط1، 2003م

89.محمد الخبو، نظر في القصص، مدخل إلى سرديات استدلالية، مكتبة علاء الدين، صفاقس، ط1، 2012م

90.محمد السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م.

91.محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، كلية الآداب، منوبة، تونس، ط1، 1998م.

92.محمد بن إبراهيم بن عباد، شرح الحكم العطائية، ج2، دار البيروتي، دمشق، مركز الراية، جدة، ط1، 2007م.

93.محمد بن تميم التميمي، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985م.

94.محمد بن حسن بن غازي، الفهرست، تحقيق: محمد الزاهي، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1984م.

95.محمد بن شرف القيرواني، الديوان، تحقيق: حسن ذكرى حسن، مكتبة الكليات الأزهرية، د ط، د ت.

96.محمد بن عزوز، معجم مصطلحات الأدب الإسلامي، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 2006م.

97.محمد بن محمد بن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق: محمد بن أبي شنب، نشر عبد الرحمان طالب، د ط، 1986م.

98.محمد تنفو، العجائبي مئة ليلة وليلة إنموذجا، دار كيوان للطباعة والنشر، سوريا، ط1، د ت.

99.محمد توفيق النيفر، الحياة الأدبية في العهد الفاطمي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان ومركز النشر الجامعي، تونس، ط1، 2004م.

100.محمد رجب النجار، التراث القصصي في الأدب العربي، مقاربة سوسيو سردية، ط1، 1995م.

101.محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1993م.

102.محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، دراسة في نقد النقد، د د، د ط، د ت.

103.محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، "النقد الأدبي الحديث"، دار العودة، بيروت، ط1، 1982م.

104.محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في أخبار المالكية، تعليق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2003م.

105.محمد مشبال، بلاغة النادرة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د ط، 2006م.

106.محمد نجيب العمامي، الراوي في السرد العربي المعاصر،رواية الثمانينات بتونس، دار محمد علي الحامي، صفاقس، ط1، 2001م.

107.محمد نجيب العمامي، في الوصف بين النظرية والنص السردي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2005م.

108.محمود طول، البنية السردية في القصص القرآني، د ط، د ت.

109.مرشد أحمد، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز الرئيسي، بيروت لبنان، ط1، 2005م.

110.منجي الكعبي النهشلي القيرواني، الدار العربية للكتاب تونس، ليبيا، د ط، 1978م.

111.مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004م.

112.مهدي عبيد، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا (حكاية - بحار العقل-، المرفأ البعيد)، منشورات الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة دمشق، سوريا، د ط، 2011م.

113.ناصر عبد الرزاق الموافي، القصة العربية ...عصر الإبداع (دراسة للسرد القصصي في القرن الرابع الهجري)، دار النشر للجامعات، مصر، ط3، 1997م.

114.نوفل عبد الرزاق، التصوف والطريق إليه، دار الكتاب العربي، د ط، د ت.

115.الهاشمي أسمهر، عتبات المحكي القصير في التراث العربي والإسلامي، الأخبار والكرامات والطرف، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2008م.

116.هنري برجسون، الضحك، ترجمة: سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم، عن سلسلة الألف كتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط، 1998م.

117.هيثم الحاج، الزمن النوع وإشكاليات النوع السردي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، ط1، 2008م.

118.والاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، ترجمة: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع والتوزيع، القاهرة، مصر، 1998م.

119.ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، د ت، د ط.

120.يحي أبو زكريا بن أبي بكر الوارجلاني، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق: عبد الرحمان أيوب، الدار التونسية للنشر، 1985م.

121.يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة بتلمسان عاصمة الثقافة، 2011م.

122.يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، دار الفرابي، بيروت، ط2، 1999م.

123.يوري لوتمان، تحليل النص الشعري، تحليل النص الشعري، بنية القصيدة، ترجمة: محمد فتوح أحمد دار المعارف، مصر، د ط، 1995م.

124.يوسف بن إسماعيل النبهاني، جامع كرامات الأولياء، تحقيق: محمد المسوتي، دار التقوى للطباعة والنشر والتوزيع، شبرا الخيمة، القاهرة، ط1، 2009م.

المجلات والدوريات:

1. الطائع الحراوي، البنى السردية والتركيبية والرؤية للعالم في الغربة واليتيم لعبد الله العروي، مجلة الأفلام، العدد(6)، 1987م.

2. كاظم سعد الدين، القصة في أدب الطفل، مجلة الأقلام، بغداد، عدد(1)، 2001م.

3. محمد مفتاح، الواقع والعالم الممكن في المناقب الصوفية، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 1988م.

فهرس الموضوعات

مقدمة..... أ-و
الفصل الأول: الخبر والتعريف بالمدونة..... **8-201**
أولا: مفهوم الخبر..... 8
1- الخبر لغة..... 8
2- الخبر في مدونات الأخبار المغربية..... 14
3- الخبر في الدراسات الحديثة..... 23
4- الخبر بين الشكل السردي الموجز والممتد..... 27
5- أنواع الخبر..... 67
ثانيا: مدونة البحث..... 80
1-مصادر البحث..... 80
أ- الأخبار المبثوثة في مصادر الأدب و التاريخ..... 82
ب- مصادر الأخبار المستقلة..... 85
الفصل الثاني: البنية الحكائية للخبر..... **204-285**
1- تأطير..... 204
2-السرد العربي القديم والبنية الحكائية..... 206
3-بنية الخبر الحكائية..... 211
1-البؤرة المركزية..... 214
2-البؤر الأساسية..... 216
4-البؤر في البنية الحكائية لخبر النادرة..... 222
1- البؤر في البنية الحكائية لأخبار نوادر الظرف..... 223
2- البؤر في البنية الحكائية لأخبار نوادر الطرف..... 261
5-البؤر في البنية الحكائية لخبر المنقبة..... 267
6-البؤر في البنية الحكائية لخبر الكرامة..... 275
الفصل الثالث: التشكيل السردي للخبر..... **287-366**
1-بنية الزمن..... 287
أ- الترتيب الزمني..... 288

1- الشكل الخارجي للخبر وعلاقته بالماضي..... 289
أولا: الاسترجاع..... 289
1- الاسترجاع الخارجي: الدور الديني وعلاقته بتوظيفه الواسع في الخبر.. 292
2- الاسترجاع الداخلي: الدور الجمالي وعلاقته بتوظيفه المكثف في الخبر. 319
3- الاسترجاع المزجي..... 325
ثانيا: الاستباق..... 327
1- الاستباق الخارجي..... 328
2- الاستباق الداخلي..... 329
2-بنية المكان...... 331
1- أنواع الأماكن..... 333
أ- الأماكن المفتوحة..... 334
ب- الأماكن المغلقة..... 343
3-بنية الشخصية..... 349
1- أنواع الشخصيات..... 351
أ- الشخصيات الرئيسة..... 352
ب- الشخصيات الثانوية..... 360
الفصل الرابع: البنية اللغوية للخبر..... **369-424**
أ- السارد بضمير الغائب وعلاقته بالمسرود..... 369
1- السارد الخارجي..... 370
أ- السارد العليم..... 371
ب- السارد العليم المنقح..... 385
ب- السارد العليم: الأسلوب وبناء الإيقاع السردي..... 395
1- المظهر الأول: السارد العليم واسلوب تبطيء السرد..... 399
2- المظهر الثاني: السارد العليم وأسلوب تسريع السرد..... 414
خاتمة..... **426-430**

قائمة المصادر والمراجع..... 447-432
فهرس الموضوعات..... 449-447

ملخص الدراسة باللغة العربية:

يمثل الخبر المجال القصصي الأوسع والأكثر تنوعا وغنى بين فنون النثر المغربي القديم، وقد استطاعت مصنفات المغاربة في هذا النوع الأدبي أن تحاكي واقع الحياة بمختلف نواحيها، بنصوص تماهى فيها الواقعي بالمتخيل، وامتزجت الفائدة والأصالة بالمتعة الفنية النابعة من سحر الحكي وجاذبيته. ومن ثمة كان الهدف من هذا البحث السعي إلى تكوين مدونة علمية خبرية تغطي الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى القرن الحادي عشر للهجرة، تقوم على وصف مصادر الأخبار المغربية، من أجل التعريف بها وتحديد خصائص الأخبار التي تضمنتها، وتصنيف أنواعها، وإخضاع نماذجها للدراسة والتحليل بغية الوقوف على مكونات الخطاب السردي فيها وقوانين بنائه وتشكله، واستخلاص السمات الفنية للأخبار الأدبية المغربية.

لقد حاولت الباحثة من خلال فصول هذه الدراسة منح الخبر المغربي صفة الهوية السردية، وتحديد أهم أنواعه السردية (النادرة، المنقبة، الكرامة)، كما عملت على الكشف عن أهم سمات البنية الحكائية للخبر المغربي، إذ توصلت إلى وضع تصور إجرائي لوصف أهم البؤر الحكائية التي قامت عليها بنية الحكي في المدونة، وعملت على تحديد ما يميز أهم العناصر التي تشكلت منها البنية السردية للأخبار المدروسة (الزمان، المكان الشخصية)، كما تطرقت الباحثة إلى دراسة اللغة السردية من حيث عنصري السارد والأسلوب، والهدف من كل ذلك هو السعي لإعادة التواصل مع تراثنا النثري بوعي جديد، ورد الاعتبار للخبر المغربي ومحاولة لفت الانتباه لما تزخر به مؤلفات المغاربة من فن سردي رفيع وقيّم

ملخص الدراسة باللغة الانجليزية:

Abstract

The research aims to compile, rank and analyse Magribian short narrative stories from the 5th to the 11th centuries, in order to produce a comprehensive resource not previously available. These short narrative storiesare wide and versatile,fitting between the old Magribian prose and Magribian histories, which were able, in this literary genre that mimics real life in various localities to encompass the imaginary realist texts, mixed interest and originality of artistic pleasure derived from the magic of storytelling and appeal. The research is based on the description of Moroccanshort narrative stories for the definition and properties specified in the literature. They were classified, subjecting their models to study and analysis in order to identify components of narrative discourseconstruction laws and technical literary characteristics.

I've tried through the chapters of this study to give Moroccan short narrative story identity attributes and identify the most important kinds of narrative (rare, excavating, dignity). I have also worked on the detection of the most important features of the storytelling sentence structure, reaching visualized motion to describe the most important foci of the storytelling sentence,storytelling structure code. In addition, I have worked to determine what distinguishes the important elements that form the narrative structure of the shortstories that were analysed (time/place profile), as well asanalysing the narration style. The goal of all that is to reconnect with prose heritage awareness, the rehabilitation of Moroccan short stories and finally, to draw attentionto the Moroccan authors of narrative art of high values.